مكتبة الجاحظ
أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح
عبد السلام محمد هارون



رسائل الجاحظ

الجزء الرابع

القسم الثاني من

الفصول المختارة من كتب الجاحظ

اختيار الإمام عبيد الله بن حسان

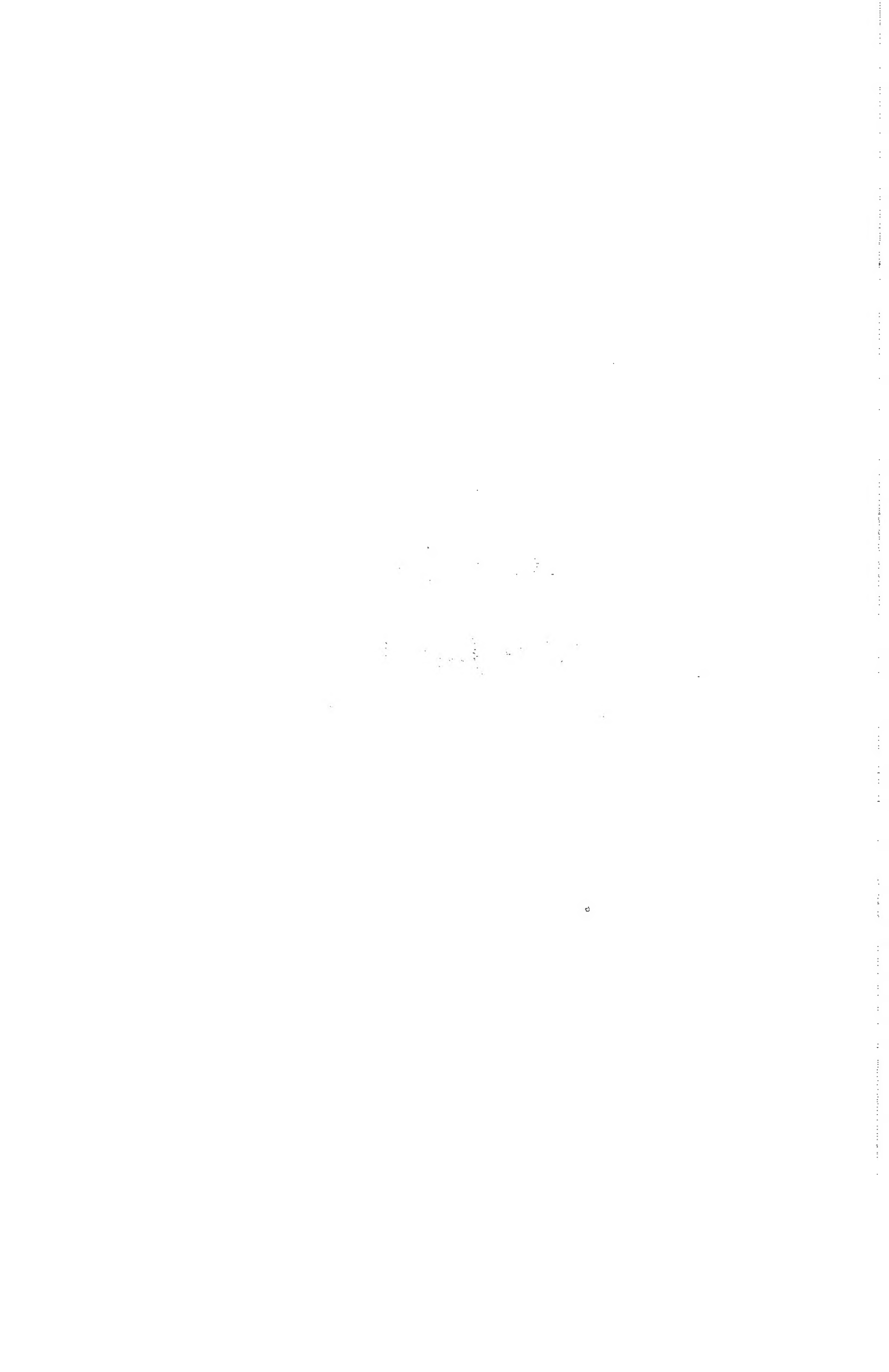


الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

١١

من كتابه في

الرد على المشبهة



١ — فصـــل

من صدر كتابه فى الرد على المشبهة[١]

أمَّا بعد ، فقد اختلف أَهلُ الصَّلاة فى معنى التوحيد ، وإنْ كانوا قد أَجمعوا على انتحالِ اسمِه . فليس يكون كلُّ مَن انتحلَ اسمَ التَّوحيد موحِّداً إذا جعل الواحدَ ذا أَجزاءٍ ، وشبَّهه بشيءٍ[٢] ذى أَجزاءٍ .

ولو أَنَّ زاعماً زعم أَنَّ أَحداً لا يكون مشبِّهاً وإن زعم أَنَّ الله يُرَى بالعيونِ ، ويُوجَد ببعض الحواسِّ ، حتَّى يزعُمَ أَنَّه يُرَى كما يرى الإنسان ، ويُدرَك كما تُدرك الأَلوان[٣] كان كمن قال : لا يكون العبدُ لله مكذِّباً ، وإن زعم أَنَّه يقول مالا يفعل ، حتَّى يزعُمَ أنه يَكذِب . ولا يكون العبدُ لله مُجَوِّراً[٤] ، وإنْ زعم أَنَّه يعذِّب مَن لم يعطِهِ[٥] السَّببَ الذى به يَنال طاعته ، حتَّى يزعمَ أَنَّه يَجُور[٦] .

ولو أَنَّ رجلاً قال لفلان : عندى جذر مائة[٧] ، كان عندنا كقوله :

---

(١) ب : « المشبه به » ، صوابه فى م ، وهذا الكتاب مما سقط من نسخة ط المطبوعة على هامش الكامل . وقد سبق للجاحظ رسالة فى هذا المعنى ، هى « نفى التشبيه » ولكنها غير هذا الكتاب ، انظر رسائل الجاحظ ١ : ٢٧٩ — ٣٨٠ . والمقابلة هنا على نسخة التيمورية فقط المرموز لها بالرمز (م) .

(٢) فى النسختين : « لشىء » والوجه ما أثبت .

(٣) ب : « كما يدرك الألوان » .

(٤) المجور : الذى ينسب إلى الله الجور ، أى الظلم . وفى النسختين : « محرراً » بر اءين ، صوابه ما أثبت .

(٥) فى النسختين : « لم يعطيه » ، تحريف .

(٦) فى النسختين : « يجوز » . وانظر ما سبق .

(٧) الجذر ، بفتح الجيم وكسرها ، أو بكسرها فقط : أصل الحساب ، كما فى القاموس . وفى مفاتيح العلوم ١١٥ عند كلامه على الأرثماطيقى : « الجذر كل ما تضربه فى نفسه . . . وهو مثل جذر المائة وهو عشرة ، وجذر تسعة وهو ثلاثة ، وجذر أربعة وهو اثنان » . وهذا ما يسمى بالجذر المطلق . أما الجذر الأصم فهو ما لاسبيل إلى علم حقيقته بالعدد . وقد مثل له الخوارزمى بجذر الاثنين ، وجذر الثلاثة ، وجذر العشرة . وفى ب : « جزر » ، صوابه فى م .

لفلان عشرة . وكذلك إذا قال : فلانٌ قد ناقَضَ فى كلامه ، فهو عندنا كقوله : فلانٌ[1] قد أحالَ فى كلامه .

ولو قال : ناقَضَ ولم يُحِلْ[2] ، له عندى جذر مائةٍ[3] وليس له عندى عشرة ؛ كان كالذى يقول : ركبت عَيْرًا ولم أركب حماراً ، وشربت المُدامةَ ولم أشْرَبْ خمراً .

وللمعانى دَلالاتٌ وأسماءٌ ، فمن دلَّ على المعنى بواحدةٍ منها ، وباسمٍ من أسمائِها ، لم نسأَلْه أن يوفِّينا الجميعَ ؛ وأنْ يأتىَ على الكُلّ ، ولم يُلتَفتْ إلى مَنْع مامَنَع ، إذا كان الذى مَنَع مثلَ الذى أعطَى .

وقد أنبأَ اللهُ عن نَفْسه ، على لسان نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، فقال ﴿ لَيْسَ كمِثْلِهِ شَىْءٌ[4] ﴾ فأَقَرَّ القومُ بظاهر هذا الكلامِ ؛ ثم جَعَلوه فى المعنى يشبه كلَّ شَىْءٍ[5] ، إذْ جعلوه جسماً ، فقد جعلوه مُحْدَثاً ومخلوقاً ؛ لأَنَّ دلالة الحدوث[6] ، والشَّهادةَ على التدبير ، ثابتان فى الأَجسام ، وإنَّما لزِمَها ذلك لأَنَّهمَا أَجسامٌ[7] لا لغير ذلك ؛ لأَنَّ الجسم إذا تحرَّك وسكن ، وعَجَزَ وقَوِىَ ، وبقِىَ وفَنِىَ ، وزاد ونَقَص ، ومازجَ الأَجسامَ وتخلَّص لأَنَّه جسم ؛ ولولا أَنَّه جسمٌ لاستحالَ ذلك منه ، ولَمَّا جاز عليه

---

(١) ب : « لفلان » ، صوابه فى م .

(٢) لم يحل ، من الإحالة ، وهو الإتيان بالمحال من الكلام ، أى المستحيل . وفى النسختين : « لم يخل » بالخاء المعجمة ، صوابها ما أثبت .

(٣) ب : « جزر مائة » بالزاى ، صوابه فى م . وانظر ما مضى فى الصفحة السابقة .

(٤) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٥) م : « لشبه كل شىء » .

(٦) فى النسختين : « الحدث » .

(٧) ب : « لزمهما ذلك لأنهما أجسام » م : « لزمهما ذلك لأنها أجسام » والوجه ما أثبت .

هذه الأُمور التى أوجَبَتْها الجسميَّة[1] ، [و[2]] هى الدَّالَّة على حدوث الأَجسام . فواجبٌ أن يكون كلُّ جسم كذلك ، إذا كانت الأَجسام مستوية فى الجسميَّة[1] ، وإذا كان كلُّ جسمٍ منها أيضاً لزمه ذلك[3] .

وقد اختلف أَصحابُ التَّشبيه فى مذاهب التشبيه .

فقال بعضهم : نقول[4] : إنه جسمٌ ، وكلُّ جسمٍ طويلٌ .

وقال آخرون : نَقول[4] : إنَّه جسم ، ولا نقول[4] إنَّه طويل ، لأَنَّا إنَّما جعلناه جِسماً لنُخرجه من باب العَدَم ؛ إذْ كنَّا متى أَخبَرْنا عن شيءٍ ، فقد جعلناه معقولا متوهَّماً ، ولا مَعقولَ ولا متوهَّمَ إلَّا الجسم . وليست بنا حاجةٌ إلى أن نجعلَه طويلاً ، وليس فى كونه جسماً إيجابٌ لأَن يكون طويلًا . لأَنَّ الجسم يكون طويلًا وغير طويل ، كالمدوَّر ، والمثلَّث ، والمربَّع ، وغيرِ ذلك ، ولا يكون الشيء إلَّا معقولا ، ولا المعقولُ إلَّا جِسْماً . فلذلك جعلناه جِسماً ، ولم نجعلْه طويلا .

فينبغى – يرحمُك الله – لصاحِب هذه المقالة ، إن لم يجعلْه طويلًا أن يجعله عريضاً ، وإن لم يجعلْه عريضاً أن يجعله مدوَّراً ، وإنْ لم يجعلْه مدوَّراً أنْ يجعلَه مثلَّثاً ، وإن لم يجعلْه مثلَّثاً أن يجعلَه مربَّعاً . وإنْ أقرَّ بهيئةٍ من الهيئات فقد دخل فيما كَره .

ولا أَعلمُ المدوَّرَ ، والمثلَّثَ ، والمربَّع ، والمخمَّس ، والمصلَّب ، والمزَوَّى[5] ، وغير ذلك من الهيئات ، إلَّا أَشنعَ فى اللَّفظ ، وأَحْقَرَ فى الوهم .

---

(١) ب : « الجسمة » .

(٢) ليست فى النسختين .

(٣) فى النسختين : « لزمه ذلك لأنه فقط » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « يقول » ، والوجه ما أثبت .

(٥) المزوى : ذو الزوايا والأركان . م : « المروى » بالراى المهملة ، تحريف .

٢ – فصل منه

وقال أصحاب الرُّؤية : اعتللتم علينا بقول الله تعالى : ﴿لاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ[١]﴾ ، وقلتمْ : هذه الآيةُ مبهَمة ، وخرجَتْ مَخرجَ العموم ، والعامُّ غير الخاصّ .

وقد صدقتم ، كذلك العامُّ إلى أن يخصَّه الله بآية أُخرى ؛ وذلك أنَّ الله تعالى لو كان قال : ﴿لا تُدرِكُه الأَبصارُ وهو يُدْرِكُ الأَبصارَ﴾ ثم لم يَقُلْ : ﴿وُجوهٌ يومئذٍ نَاضرةٌ . إلى ربِّها ناظرة[٢]﴾ لعِلمنا أنَّه قد استثنى أَخَرةً من جميع الأَبصار[٣] .

قالوا : وإنَّما ذلك مثل قوله : ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إلَّا اللهُ[٤]﴾ ومثل قوله : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ[٥]﴾ وهذه الأَخبار مُبهَمة عامَّة ، فلمَّا قال : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَاكُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا[٦]﴾ ولمّا قال[٧] ، أَيضاً : ﴿وَلَا يُحِيطُون بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ[٨]﴾ علِمنا أَنَّ القولَ الثَّانىَ قد خَصَّ القول الأَوَّل . وكذلك أَيضاً قوله : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .
(٣) يقال لقيته أخرة وبأخرة ، بالتحريك فيهما ، أى أخيراً . ب : « آخر » ، صوابه فى م .
(٤) الآية ٦٥ من سورة النمل .
(٥) الآية ١٧٩ من آل عمران .
(٦) الآية ٤٩ من سورة هود .
(٧) فى النسختين : « ولو قال » ، والوجه ما أثبت .
(٨) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

قلنا للقوم : إنَّ الله تعالى لمَّا قال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ[١] ﴾ . بعد أنْ قال : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ[٢] ﴾ . علمنا أنَّ ذلك استثناءٌ لبعضِ ما قال إنِّى لا أُطْلعكم على الغيب . وهذا الاستثناء لا اختلافَ فى لفظه ولا فى معناه ، ولا يحتمل ظاهرُ لفظِهِ غير معناه عندنا .

وعندَ خصومِنا فيه أشدُّ الاختلاف . وظاهر لفظه[٣] يحتمل وجهاً آخَر غير ماذهبوا إليه . والفقهاءُ وأصحاب التفسير يختلفون فى تأْويله وهم لا يختلفون فى تأْويل قوله :﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ[٤] ﴾

قال : ذكر ابن مَهدىٍّ عن سُفيانَ، عن منصورٍ، عن مجاهد، فى قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ[٥] ﴾ أنَّه قال : تنتظر ثَوابَ ربِّها .

وذكر أَبو معاوية[٦] عن إسماعيل ابن أَبى خالد[٧] عن أَبى صالح[٨]

---

(١) الآية ٤٩ من سورة هود . وفى النسختين : « ذلك من أنباء الغيب » ، تحريف ، فإن تمام هذه : « نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » . وليست مرادة هنا . وهى الآية ٤٤ من آل عمران .

(٢) الآية ١٧٩ من آل عمران . ولاريب أنها سابقة للآية ٤٩ من هود .

(٣) ب : « وظ لفظه » وهو اختصار كتابى لكلمة « ظاهر » . وفى م : « وظاهر لفظه » كما أثبت .

(٤) الآية ٤٩ من سورة هود .

(٥) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(٦) هو محمد بن خازم التميمى السعدى مولاهم ، أبو معاوية الضرير الكوفى . روى عن عاصم الأحول ، والأعمش، وداود بن أبى هند ، واسماعيل بن أبى خالد وغيرهم . وروى عنه ابن جريج ، ويحيى القطان ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم . توفى سنة ١٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٧) إسماعيل بن أبى خالد الأحمسى ، مولاهم . روى عن أبيه وجمع من الصحابة وكبار التابعين . وعنه شعبة ، والسفيانان ، وابن المبارك وغيرهم . توفى سنة ١٤٦ . تهذيب التهذيب .

(٨) هو باذام ، أو باذان ، أبو صالح ، مولى أم هانئ بنت أبى طالب . روى عن على وابن عباس وأبى هريرة . وعنه الأعمش ، وسماك بن حرب ، وسفيان الثورى وغيرهم . تهذيب التهذيب .

مثلَ ذلك . وأبو صالح ومجاهدٌ من كبار أصحاب ابنِ عبَّاس ، ومن العاملية[١] ، ومن المتقدِّمين فى التفسير .

فهذا فرقٌ بيِّن .

وبعد ، ففى حُجج العقول أنَّ الله لا يُشبِه الخلق بوجْهٍ من الوجوه ؛ فإذا كان مرئيًّا فقد أشبهه فى أكثر الوجوه .

وإذا كان قولهم فى النَّظر يحتمل ما قلتم ، وما قال خَصمُكم ، مع موافقة أبى صالح ومجاهد فى التأْويل ، وكان ذلك أولى بنَفْى التشبيه الذى قد دلَّ عليه العقلُ، ثم القرآنُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ[٢] ﴾ — كان التأْويل ما قال خَصْمُكم دونَ ماقلتم .

٣ — فصل منه

ثمَّ رجَعَ الكلامُ إلى أوَّل المسأَلة ، حيث جَعلْنا القرآن بيننا قاضياً، واتَّخذناه حاكما ، فقلنا :

قد رأينا الله استعظَمَ الرُّؤية استعظاماً شديداً ، وغَضِب على مَنْ طلبَ ذلك وأرادَه ، ثُمَّ عذَّب عليه ، وعجَّب عبادَه ممَّن سأَله ذلك ، وحذَّرهم أن يَسلكوا سبيلَ الماضين ، فقال فى كتابه لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ[٣] ﴾.

فإن كان الله تعالى — فى الحقيقة — يجوزُ أن يكون مرئيًّا ، وببعضِ الحواسِّ مُدرَكاً ، وكان ذلك عليه جائِزاً ، فالقومُ إِنَّما سأَلوا أمراً

---

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى النسختين .

(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٣) ١٥٣ من النساء .

ممكناً ، وقد طَمِعُوا فى مَطمع ، فلمَ غَضِبَ هذا الغضبَ ، واستعظَمَ سؤالهم هذا الاستعظام ، وضرب به هذا المثَلَ ، وجعله غايةً فى الجُرأة[١] وفى الاسْتِخفاف بالرُّبوبية .

فإن قالوا : لأَنَّ ذلك[٢] كان لايجوز فى الدنيا ؛ فقدرة[٣] الله تعالى على ذلك فى الدنيا كقدرته عليه فى الآخرة .

فإن قالوا : ليس لذلك استعَظَم سُؤالَهم ، ولكن لأَنَّهم تقدَّموا بين يديه .

قلنا : لِمَ صار هذا السؤالُ تقدُّماً عليه واستخفافاً به ، والشيء الذى طلبوه[٤] هو مجوَّزٌ فى عقولهم ، وقد أَطمعهم فيه أَنْ جوَّزوه عندهم[٥] ، والقومُ لم يَسأَلوا ظُلماً ولا عَبَثاً ولا مُحالا . ومن عادة المسئول[٦] التفضُّلُ ، وأَنَّه فاعلٌ ذلك بهم يوماً .

فإن قالوا : إنَّما صار ذلك الطَّلبُ كُفراً وَذنباً عظيماً[٧] لأَنَّه قد كان قال لهم[٨] : إنِّى لا أَتجلَّى لأَحَدٍ فى الدَّنيا .

قلنا: فإن كان[٩] الأَمرُ على ماقلتم لكان فى تفسيرِ إنكارِه لطلبهم[١٠] دليلٌ على ما يقولون، ولذِكْرِ تقدُّمهم بعد البَيَان ، بل قال: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا

---

(١) ب : « وجهله غاية فى الجراءة » ، صوابه فى م .
(٢) فى النسختين : « كأن قالوا فإن لأن ذلك » ، صوابه ما أثبت .
(٣) فى النسختين : « وقدرة » ، ووجهه ما أثبت .
(٤) ب : « الذى هو طلبوه » ، و « هو » مقتحمة .
(٥) م : « إذ جوزوه عندهم » .
(٦) فى النسختين : « ومن الاداة المسئول » ، تحريف .
(٧) ب : « أو ذنباً عظيماً » .
(٨) فى النسختين : « فقال لهم » .
(٩) ب : « فلو كان » .
(١٠) فى النسختين : « فى تفسيره إنكارهم لطلبهم » .

مُوسَى أَكْبَرَ مِنَ ذٰلِكَ فقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً[١] ﴾ لا غير ذلك .

فإن قالوا: إنَّما غَضِب الله عليهم لأَنَّه ليس لأَحدٍ أَنْ يظنَّ أَنَّ الله تعالى يُرَى جهرة .

قلنا : وأَىُّ شيءٍ تأْويلُ قولِ القائِل : رأَيتُ الله جَهْرةً إلاَّ المعايَنَة ، أَو إعلانَ المعاينة[٢] ؛ قال الله عزَّ ذكره : ﴿ لَا يُحِبُّ اللهَ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ[٣] ﴾ . والجهر هو الإعلان والرَّفع والإشاعة ؛ فهل يراه أَهلُ الجنة - إذا رَفَع عنهم الْحُجُبَ ، ودَخَلُوا عليه وجَلَسوا على الكرسىّ عنده - إلَّا جهرةً ؟ كما تأَوَّلتم الحديث الذى رويتموه[٤] عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تُضَامون فى رؤيته كما لاتضامون فى القَمرِ ليلةَ البدر[٥] » ، إلَّا أَن يزعموا أَنَّهم يَرَوْنَ ربَّهم سِرًّا ، لأَنَّه ليس إلَّا السرُّ والجهر ، وليس إلا الإعلان والإخفاء ، وليس إلَّا المعاينة .

فإن قالوا : نحن لا نقول بالمعاينة ، ونقول : نراه ، ولا نقول نعاينه .

قلنا : ولِم ، وأَنتم تَروْنَه بأَعينكم ؟ فمن جَعلَ لكم أَن تقولوا نَرَاه بالعين ، ومَنَعكم أَن تقولوا نُعاينهُ بالعين ؟ وهل اشتُقَّت المعاينةُ إلَّا من العين ؟ .

---

(١) الآية ١٥٣ من النساء .

(٢) فى النسختين : « أو بإعلان المعاينة » .

(٣) الآية ١٤٨ من النساء .

(٤) ب : « رأيتموه » ، صوابه فى م .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة وفى التفسير والتوحيد ، ومسلم فى الصلاة ، وأبو داود وابن ماجه فى السنة ، والترمذى فى صفة الجنة ، من حديث جرير بن عبد الله . وانظر الحديث ٥٨ من الألف المختارة واللسان (ضيم) .

فإن قالوا : لا يجوز أن يُلفَظَ بالمعاينة إلَّا فى الشىء الذى تقع[١] عينُه علىَّ، وتقع عينى عليه . فأَمَّا إذا كان أَحدُنا ذا عينٍ، والآخر [ليس[٢]] ذا عين، فغير جائزٍ أَنْ تُسمَّى[٣] الرؤيَة معاينة ، وإنَّما المعاينة مثل المخاصمة ؛ ولا يجوز أَن أقول : خاصمت إلَّا وهناك مَنْ يخاصمنى .

قلنا : قد يقول النَّاسُ أَسلم فلانٌ حين عايَنَ السَّيف ، وليس للسَّيف عين، وليس هُناك من يقاتله . على أَنَّكم قد تزعمون أَنَّ لله عيناً لا كالعيون ويداً لا كالأَيدى ، وله عينٌ بلا كَيْفٍ ، وسمعٌ بلا كيف .

٤ - فصــل منه

وقالت - أَيضاً - المشبِّهة :

الدَّليل على أَنَّه جسمٌ قولُه عزَّ ذكره : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[٤] ﴾. قالوا: فلا يجىء إلَّا إلى مكانٍ هو فيه[٥] ؛ ولو جاز أَن يجىء إلى مكانٍ هو فيه جاز أَن يخرج منه[٦] وهو فيه . فإذا أَخبر الله أَنَّه فى السموات والأَرض ، وقلتم إنَّ الدُّنيا كلَّها لا تخلو منه، وإنَّه فيها ، فإذا كان الأَمر كذلك ، وكانت الدنيا محدودةً ، كان[٧] الذى يكون فى بعضها أَو فى كلِّها محدوداً ، إذا كان لم يجاوِزْها . ولو جاوزها لخرج إلى مكانٍ ، ولا يجوز أَن يخرج منها إلَّا إلى مكان .

---

(١) م : « يقع » .
(٢) تكملة يفتقر إليها الكلام .
(٣) فى النسختين : « يسمى » .
(٤) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
(٥) فى النسختين: «قالوا فلا يجوز إلى مكان هو فيه »، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .
(٦) ب : « جار يخرج منه » م : « جاز يخرج منه » ، صوابه ما أثبت .
(٧) فى النسختين : « وكان » ، والواو مقحمة .

وقالوا : قد أخبر الله أنّه فى السموات والأرض ، والله لا يخاطب عبادَه إلاَّ بما يعقلون ، ولو خاطبهم بما لا يعقلون لكان قد كلّفهم ما لا يطيقون ، ومَنْ خاطب مَن لا يَفِى بالفَهْم عنه فقد وضَع المخاطبةَ فى غير موضعها . فهذا ماقالَ القوم .

ونحن نقول : إنَّ الشىءَ قد يكون فى الشىء على وجوه ، وسنذكر لك الوجوهَ ، ونُلحق كلَّ واحدٍ منها بشكله[1] وبما يجوز فيه ، إن شاء الله تعالى .

قلنا للقوم : أليس قد خاطب اللهُ الصُّمَّ البُكْمَ الذين لا يعقلون ، والذين خبّر أنّهم لا يستطيعون سمعاً ؟

فإن قالوا : إنَّ العرب قد تسمِّى المتعامىَ أعمَى ، والمتصامِمَ أصمَّ ، ويقولون لمن عمِلَ عمَلَ من لا يعقل: لا يعقل[2] ؛ وإنّما الكلام محمولٌ على كلام . وذلك أنَّ المتعامىَ إذا تعامىَ ، صار فى الجهل كالأعمى ، فلمَّا أشبَهَهُ من وجهٍ سُمِّى باسمه .

قلنا: قد صدقْتُم؛ ولكن ليس الأصلَ . والمستعملُ فى تسميتهم بالعمى إنّما هو الذى لا ناظرَ له . فإذا قالوا ذلك، قلنا : فلِم زعمتم أنَّ له ناظرًا، وأخذتم بالمجاز والتشبيه[3] ، وتركتم الأصل الذى هذا الاسمُ محمولٌ عليه ؟

فإن قالوا : إنّما قلنا من أجل أنَّ الأول لايجوز على الله تعالى، والثانى جائزٌ عليه ، والله لا يتكلم بكلامٍ إلَّا ولذلك الكلامِ وجهٌ إمَّا[4]

---

(١) ب : « بكل واحد منها شكله » م : « بكل واحد منها بشكله » ، والوجه ما أثبت .
(٢) ب : « ويقولون لمن عمل عمل من لا يعقل . » ، وتكملته من م .
(٣) ب : « والتشبه » ، صوابه فى م .
(٤) ب : « إلا » ، والوجه فى م .

أن يكون هو الأَصلَ والمحمولَ عليه ؛ وإمّا أن يكون هو الْفَرْعَ والاشتقاقُ الذى تسمِّيه العربُ مجازاً .

فإذا نَظَرْنا فى كلام الله ــ وهو عندنا عادلٌ غير جائر[١] ، وهو جَلَّ جلالُه يقول : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ[٢] ﴾ علمنا أَنَّهم لو كانوا منقوصين غير وافرِين ، كانوا قد كُلِّفوا ما لايُطيقون ، والمكلِّفُ لعبادِه ما لا يُطيقون جائرٌ ظالم . فإذا كان لا يليق ذلك به علمْنا أَنَّهم قد كانوا وافرين غَيْرَ عاجزين ولا منقوصين . وإذا كانوا كذلك ، صار الواجبُ أَن نَحكمَ[٣] بالفَرْع والمجاز ، ونَدَع الأَصل والمحمول عليه[٤] وقلنا : هم عُمْىٌ وصُمٌّ ولا يعقلون[٥] على أَنَّهم تَعامَوْا وتصامُّوا وعملوا عمل من لا يعقل[٦] .

فإذا قالوا ذلك قلنا لهم : فإنَّا لم نَعْدُ هذا المذهبَ فى قوله : ﴿ نَاضِرَةٌ ﴾ ، ﴿ وَجَاءَ ربُّكَ والْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[٧] ﴾ وفى قوله : ﴿ وَهُوَ اللّٰهُ فِى السَّمٰواتِ وفِى الأَرْضِ[٨] ﴾ .

وقد يقولون : جاءَنا فلانٌ بنفسه ؛ ويقولون : جاءَنا بولده ، وجاءَنا بخير كثير . وذلك على مَعانٍ مختلفة .

---

(١) م : « غير جائز » بالزاى ، تحريف .
(٢) الآية ١٧١ من البقرة .
(٣) فى النسختين : « يحكم بالفرع والمجاز ويدع الأصل » .
(٤) ب : « والمحمول على المجاز » ، صوابه فى م .
(٥) فى النسختين : « قلنا هو أعمى وأصم ولا يعقل » مع سقوط كلمة « يعقل » من ب . وأرى الوجه فيما أثبت .
(٦) وعملوا ، ساقطة من ب .
(٧) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
(٨) الآية ٣ من سورة الأنعام .

ويقولون : جاءتنا السَّماءُ بأَمرعظيم ، والسَّماءُ فى مكانها .

وقد يقولون ـ أَيضاً ـ : جاءتنا السَّماءُ ، وهم إنَّما يريدون الغَيْمَ الذى يكون به المطرُ[1] من شِقٍّ السماءِ وناحيتِها ووَجْهها .

---

(١) به ، ساقطة من ب .

١٢

من كتابه في

مقالة العثمانية



١ - فصـــل

من صدر كتابه فى مقالة العثمانية(١)

زَعمت العثمانيَّةُ أَنَّ أفضلَ هذه الأُمَّةِ وأَولاها بالإمامة أبو بكر بنُ أَبى قُحافة . وكان أَوّلَ مادلَّهم عند أَنفسهم على فضيلته ، وخاصَّةِ منزلته ، وشدَّةِ استحقاقه - إسلامُه على الوجه الذى لم يُسلِمْ عليه أَحدٌ من عالَمِهِ وفى عَصرِه . وذلك أَنَّ الناس اختلفوا فى أَوَّل الناس إسلاماً : فقال قوم : أَبو بكر بن أَبى قُحافة . وقال آخرون : زيد بن حارثة . وقال نَفرٌ : خَبَّاب بن الأَرَتِّ .

على أَنَّا إذا تفقَّدنا أَخبارَهم ، وأَحصينا أَحاديثَهم ، وعَدَدنا رجالَهم ، وصحَّةَ أَسانيدِهم ، كان الخبر فى تقديم أَبى بكرٍ أَعمَّ ، ورجالُه أَكثر ، وإسنادُه أَصحَّ ؛ وهو بذلك أَشهَرُ ، واللَّفظُ به أَظهر . مع الأَشعارِ الصَّحيحة ، والأَمثالِ المستفيضة ، فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعدَ وفَاتِه . وليس بين الأَشعار وبين الأَخبار فرقٌ إذَا امتنَعَ فى مجيئها وأَصلِ مخرَجِها التَّشاعُر ، والاتِّفاق والتواطؤ(٢) .

ولكنَّا ندَعُ هذا المذهبَ جانباً ، ونَضرِب عنه صَفْحاً ، اقتداراً على الحجَّة ، وثقةً بالفَلْج والقُوَّة(٣) ، ونقتصرُ على أَدنَى منازل أَبى بكرٍ ،

---

(١) نشر الكتاب كاملا بتحقيقى فى دار الكتاب العربى سنة ١٣٧٤ . ونشر الأستاذ حسن السندوبى فصولا منه مقتبسة من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، وهى فصول يشيع فيها الاختصار والاختزال ، بلغ أن أوجزت صفحتان منها فى نحو ثلاثة أسطر . انظر مقدمتى لكتاب العثمانية ولا سيما ص١٤ .

وقد سقطت هذه الفصول من مطبوعة هامش الكامل ، فاقتصرت المقابلة هنا على نسختى ب ، م ونسختى من العثمانية التى رمزت لها هنا بالرمز (ع) .

(٢) انظر للتشاعر ما مضى فى الرسائل ٣ : ٢٤٨ ، ٢٥١

(٣) الفلج ، بالفتح : الظفر والفوز .

ونَنْزِلُ على حَكمِ الخَصْم ، مع سَرَفه ومَيْطه ، فنقول[١] :

لَمَّا وجدنا مَن يزعم أَنَّ خبَّاباً وزيد أَسلما قبلَه ، فأَوسطُ الأُمور[٢] وأَعدلُها وأَقربها من محبَّة الجميع ورِضى المخالِف، أَن نَجْعَل[٣] إسلامَهم كان معاً؛ إذ ادَّعَوْا[٤] أَنَّ الأَخبارَ فى ذلك متكافئة، والآثار متدافِعة ؛ وليس فى الأَشعار دَلالةٌ ، ولا فى الأَمثال حُجَّة . ولم يجدوا إحدى القضيَّتين أَولى فى حُجَّة العَقْل من الأُخرى .

وقالوا : فإن قال لنا قائِلٌ : فما بالُكم لم تذكروا عليًّا فى هذهِ الطَّبقة ، وقد تعلمون كثرةَ مقدِّميه والرِّوايةِ فيه ؟

قلنا : لأَنَّا قد علِمنا بالوجه الصحيح ، والشهادة القائِمة أَنَّه أَسلم وهو حَدَثٌ غرير ، ولم نكذِّب النَّاقلين[٥] . ولم نَستطِع أَن نَزْعُم أَنَّ إسلامه كان لاحِقاً[٦] بإسلام البالغين؛ لأَنَّ المقلِّل زعم أَنَّه أَسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثِّر زعم أَنه أَسلم وهو ابنُ تسعِ سنين[٧] ، والقياس يوجب أَن يؤخذ بأَوسط الرِّوايتين ، وبالأَمْر بينَ الأَمرين[٨] . وإنَّما يُعرف حقُّ ذلك مِن باطله بأَن تحصىَ سِنِيهِ[٩] التى وَلِىَ فيها ، وسِنِى عثمان ، وسِنِى أَبى بكر ، وسِنِى الهجرةِ ومُقامِ النبى صلى الله عليه وسلم بمكَّة ، بعد أَن دعا إلى الله وإلى رسالته ، وإلى أَن هاجر إلى المدينة ، ثم

(١) الميط : الكذب . وفى النسختين : « فيقول » ، صوابه فى ع .
(٢) فى النسختين : « وأوسط الأمور » ، والوجه من ع .
(٣) فى النسختين : « أن تجعل » ، تحريف .
(٤) كلمة « إذ » ساقطة ، وإثباتها من ع .
(٥) فى النسختين : « ولم يكذب الناقلين » صوابه فى ع .
(٦) فى النسختين: « ولم يستطع أن يزعم إن إسلامه كان لاحق » ، تحريف ما أثبت من ع .
(٧) ب : « لأن المقلل زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين » فقط . وإكماله من م و ع .
(٨) فى النسختين : « من الأمرين » ، صوابه فى ع .
(٩) ب فقط : « سنته » تحريف .

تنظر فى أقاويل النّاس فى عمره ، وفى قول المقلِّل والمكثِّر ، فنأخذ بأوسطها[١] ، وهو أعدلُها ، وتطرح قول[٢] المقصِّر والغالى ، ثم تطرح ما حصل فى يديك من أوسط[٣] مارُوى من عُمره وسِنِيه ، وسِنِى عثمان ، وسِنِى عمر ، وسِنِى أبى بكر ، والهجرةِ ، ومُقامِ النبى صلى الله عليه وسلمَ بمكّة ، إلى وقت إسلامه . فإذا فعلْتَ وجدتَ الأمرَ على ماقُلْنا ، وكما فسرّنا .

وهذه التأريخات والأعمار معروفةٌ ، لا يستطيع أحدٌ جهلَها ، والخلافَ عليها ؛ لأنَّ الذين نقلوا التاريخَ لم يعتمدوا[٤] تفضيل بعضٍ على بعض ، وليس يمكن ذلك ، مع عللهم وأسبابهم[٥] . فإذا ثبتَ عندك بالذى أوضحنا وشَرَحْنا ، أنَّه كان ابنَ سبْع سنين ، أقلَّ بسنة وأكثر بسنة[٦] علمتَ بذلك أنَّه لو كان ابنَ أكثر من ذلك بستين وثلاث وأربع ، لا يكون إسلامه إسلامَ المكلَّف[٧] العارف بفضيلة مادَخَل فيه ، ونقصان ماخرج منه .

والتأويلُ المجمَعُ عليه أنَّ عليّا قُتِلَ سنةَ أربعين فى رمضان .

وقالوا : وإن قالوا : فلعلَّه وهو ابنُ سبع سنينَ وثمانٍ ، فقد بلغَ من فِطنته وذكائه ، وصِحَّةِ لُبِّه ، وصِدق حسِّه[٨] ، وانكشاف العواقب

---

(١) ع : « أوسطها » .

(٢) قول ، ساقطة من ب .

(٣) فى النسختين : « ما أوسطها » ، صوابه فى ع .

(٤) م ، ع : « لم يتعمدوا » .

(٥) ب : « وأسنانهم » م: « وأسنانهم » ، صوابه فى ع . وجعلها تيمور فى نسخته : « وأسنادهم » .

(٦) فى النسختين : « وأقل سنيه وأكثر سنيه » ، والوجه ما أثبت من ع .

(٧) م : « ولا يكون » والواو مقحمة ، وكلمة « إسلام » ساقطة من النسختين ، وأثبتها تيمور فى نسخته كما فى ع .

(٨) فى النسختين : « حسنه » ، صوابه فى ع .

له ، وإن لم يكن جرَّب الأُمورَ ، ولا فاتَحَ الرجال ، ولا نازَعَ الخُصومَ ، [أنْ[١]] يعرف جميع[٢] مايُجب على البالغ معرفته والإقرارُ به .

قلنا : إنَّما نتكلَّم[٣] على ظاهر الأَحكام ، وما شاهدنا عليه طِباعَ الأَطفال ، فوجدنَا حكم ابنِ سبع سنينِ وثمانِ سنين ، وتسعِ سنين ، حيث رأيناه وبلغَنا خَبرُه — ما لم نعلم مُغيِّبَ أَمْرِه[٤] ، وخاصَّة طباعه — حكمَ الأَطفال . وليس لنا أَن نزيل ظاهر حكمه ، والذى نعرف من شكله بلعلَّ وعسى ، لأَنَّا كنا لاندرى[٥] ، لعلَّه قد كان ذا فضيلةٍ فى الفطنة ، فلعلَّه قد كان ذا نقصٍ فيها . أَجاب منهم بهذا الجواب من يجوِّز أَن يكون علىٌّ فى المغيَّب[٦] قد أَسلم إسلام البالغ المختار . غير أَنَّ الحكم فيه عنده على مجرى أَمثالِه وأَشكاله ، الذين إذا اسلموا وهم فى مثل سنِّه ، كان إسلامُهم عن تربيةِ الحاضِن ، وتلقين القيِّم ، ورياضة السَّائس .

فأَمَّا علماءُ العثمانيَّة ومتكلِّموهم ، وأَهل القَدَم والرِّياسة فيهم ، فإنَّهم قالوا : إنَّ علياً لو كان ، وهو ابنُ ستٍّ سنين، وثمانِ سنين، وتسعِ سنين ، يعرف فصْل[٧] ما بين الأَنبياءِ والكهنة ، وفَرْقَ مابين الرُّسل والسَّحرَة ، وفَرْقَ ما بين المنجِّم والنبيِّ ، وحتَّى يعرف الحُجَّة من الحيلة ، وقَهْرَ الغلبة من قهر المعرفة ، ويعرف كَيْدَ الأَريبِ ، وبُعْدَ غَور المتنبِّى ،

---

(١) تكملة يفتقر إليها الكلام . وبدلها فى ع : « ما يعرف » .

(٢) كلمة « جميع » ساقطة من ب . وفى م بعدها : « ما وجب »

(٣) ب : « إنما يتكلم به » م : « إنما يتكلم » ، وأثبت ماق ع .

(٤) فى النسختين : « ما نعلم مغيب أمره » ، والوجه ما أثبت من ع .

(٥) م فقط : « كما لا ندرى » .

(٦) ب : « على فعل المغيب » صوابه فى م ، ع .

(٧) فى النسختين : « فضل » بالضاد المعجمة ، والأوفق أن تكون بالمهملة ، كما فى ع .

وكيف يَلْبِسُ على العقلاءِ[١] ويَستميل عُقول الدَّهماءِ ، ويعرف الممكن[٢] فى الطباع من الممتنع فيها ، وما قد يحدث[٣] بالاتفاق مما يحدث بالأَسباب ، ويعرف أَقدارَ القُوى فى مبلغ الحيلة ومُنتَهى البطش وما لا يحتمل إحداثَه إلَّا الخالق ، وما يجوز على الله ممَّا لا يجوز فى توحيده وعدله ، وكيف التحفُّظ من الهوى ، وكيف الاحتراسُ من تقدُّم الخادع فى الحيلة - كان كونُه بهذه الحالِ وهذهِ الصفة[٤] ، مع فرط الصِّبا والحَدَاثة ، وقلَّة التَّجارِب والممارسة ، خروجاً من نُشوّ العادة[٥] ، والمعروفِ مما عليه تركيبُ الأُمَّة .

ولو كان على هذه الصِّفة ، ومع هذه الخاصَّة ، كان حجَّة على العامَّة وآيةً تدلُّ على المباينة[٦] . ولم يكن الله تعالى ليخصَّه بمثل هذه الآيةِ ، وبمثل هذه الأُعجوبة إلَّا وهو يريد أَنْ يحتجَّ بها لهُ ، ويخبر بها عنه[٧] ، ويجعلَها[٨] قاطعةً لعذر الشاهد ، وحُجَّة الغائب ، ولا يُضيعَها هَدَراً ، ولا يكتمها باطلا[٩] .

ولو أَراد الاحتجاج له بها[١٠] شهر أَمرَها[١١] وكشف قِناعَها ، وحَمَل

---

(١) يقال لبست الأمر على القوم ألبسه لبساً ، إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلا . وفى الكتاب العزيز : « وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

(٢) فى النسختين : « المتمكن » ، والوجه ما أثبت من ع .

(٣) كلمة « ما » ساقطة من النسختين ، ثابتة فى ع .

(٤) ب فقط : « العفة » ، تحريف .

(٥) ع : « نشوء العادة » .

(٦) فى النسختين : « وأنه يدل على المباينة » ، صوابه فى ع .

(٧) ب : « أن يحتج لها ويخبر لها عنه » ، صوابه فى م ، ع .

(٨) ب : « ويجعله » ، تحريف .

(٩) ب ، م : « ولا يكتبها باطلا » . وأثبت ما فى ع .

(١٠) ب : « له لها » ، صوابه فى م ، ع .

(١١) فى النسختين : « شهر بأمرها » ، تحريف .

النفوسَ على معرفتها ، وسَخَّر الألسنة لنقلها . والأسماعَ لإدراكها ، لئلاَّ يكون لَغْوًا ساقطاً ، ونِسياً منسيًّا ؛ لأَنَّ الله تعالى لا يبتدع أُعجوبةً ، ولا يخترع آية ، ولا ينقضُ العادةَ إلَّا للتعريف والإعذار ، والمصلحةِ والاستبصار . ولولا ذلك لم يكن لفعلها معنًى ، ولا لرسالته حجَّة . والله تبارك اسمه ، تعالَى[١] أن يترك الأُمورَ سُدًى ، والتَّدبيرَ نَشراً .

وأنتم تزعمون أنَّه لايصل أحدٌ إلى معرفة نبيٍّ ، وكَذِب مُتَنَبٍّ ، حتى تجتمع له هذه المعارفُ التى ذكرنا ، والأَسبابُ التى فصَّلنا .

ولولا أنَّ الله تعالى أخبَرَ عن يحيى بنِ زكريًّا أنَّه آتاه الحُكْمَ صبيًّا ، وأنَّه أنطق عيسى فى المَهْد رضيعاً ، ما كانا فى الحُكم إلَّا كسائر البشر[٢] فإذْ لم ينطق لعلىٍّ [بذلك[٣]] ، ولا جاء الخبر به مجىءَ الحُجَّة القاطعة والشَّهادةِ الصَّادقة ، فالمعلوم عندنا فى الحكم والمُغيَّبِ جميعاً أَنَّ طباعَه كطباع عَمَّيه العبّاسِ وحَمزة . وهما أَمَسُّ[٤] بمعدِن جميعِ الخير منه ، وكطباع أَخوَيه جعفرٍ وعَقيل ، وكطباع أَبوَيه ورجالِ عَصْره وسادةِ رهطه .

ولو أنَّ إنساناً ادَّعى مثلَ ذلك لأَخيه جعفرٍ ، أو لعمِّه حمزةَ أو العبَّاسِ – وهو حليمُ قريش – ماكان عندنا فى أمره إلَّا مثلُ ماعندنا فيه .

ولو لم تعلم[٥] الرَّوافضُ ومنَ يذهب مذهبَها فى هذا ، باطلَ هذه الدَّعوى ، وفسادَ هذا المعنى ، إذا صَدَقَتْ نفسها ، ولم تقلِّدْ رجالَها ،

---

(١) فى النسختين : « وتعالى » . والوجه حذف الواو كما سيأتى فى ص ٤٢ س ٤ . ع : « والله يتعالى » .

(٢) ع : « ما كانا فى الحكم ولا فى المغيب إلا كسائر الرسل » .

(٣) بذلك ، تكملة من ع .

(٤) فى النسختين : « أمنين » ، صوابه من ع .

(٥) فى النسختين : « تعمل » ، وجهها ما أثبت . وفى ع : « تعرف » .

وتَحفَّظت من الهوى وآثرت التَّقوى، إلَّا بتركِ عليٍّ – رضوان الله عليه – ذِكْرَ ذلك لنفسه . والاحتجاجَ على خصمه وأَهلِ دهره ، مُذْ نازَعَ الرجال[١] ، وخاصَمَ الأَكفاءَ ، وجامَعَ أَهلَ الشُّورى ، وَلِىَ وَوُلِّىَ عليه ، والنَّاس [بين[٢]] معاند يحتاجُ إلى التَّقريع ، ومرتادٍ يحتاج إلى المادَّة[٣] ، وغُفْل يحتاج[٤] إلى أن يُكثَرَ له من الحجَّة ، ويُتابَعَ له من الأَمارات والدَّلالات ، مع حاجةِ القرن الثانى إلى معرفة الحقّ[٥] ومعدِنِ الأَمر ؛ لأَنَّ الحجَّة إذا لم تصحَّ لعليٍّ فى نفسِه ، ولم تقم على أَهلِ دهره ، فهى[٦] عن ولده أَعجَز ، وعنهم أَضعف .

ثم لم ينقلْ ناقلٌ واحدٌ أَنَّ عليًّا احْتَجَّ بذلك فى موقف ، ولا ذكره فى مجلس ، ولا قام به خطيباً ، ولا أَدلَى به واثقاً ، ولا همس به إلى مُوافِق[٧] ، ولا احْتَجَّ به على مخالف ، فقد ذكر فضائلَهُ وفَخَر بِقَرَابتِهِ وسابقته ، وكاثَرَ بمحاسنِه[٨] ومواقِفه مُذْ جامَع الشُّورى وناضَلَهم ، إلى أن ابتُلِىَ بمساورة معاوية وطمعِهِ فيه ، وجلوسِ أَكثرِ أَصحابِ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأَهلِه عن عونه . والشدِّ على عَضُده، كما قال عامرٌ الشَّعبى : لقد وقَعت الفِتنةُ ، وبالمدينة عشرون أَلفاً من أَصحاب رسولِ الله ، ماخَفَّ فيها منهم عشرون . ومن زَعَم أَنَّه شهِدَ الجملَ ممَّن

---

(١) فى النسختين : « بارع » ، صوابه فى ع .

(٢) التكملة من ع .

(٣) ع : « ومراد يحتاج إلى الإرشاد » .

(٤) الغفل ، بالضم : الذى لم يجرب الأمور » . وفى النسختين : « وعقل لا يحتاج » ، صوابه من ع .

(٥) ب : « لمعرفة الحق أو الحق » م : « لمعرفة الحق أو لمعرفة الحق » ، وهو تكرار لا وجه له .

(٦) فى النسختين : « فهو » ، والصواب من ع .

(٧) هذا الصواب فى ع ، وهو الذى يلائم « مخالف » ، وفى النسختين : « مرافق » بالراء .

(٨) فى النسختين : « محاسنه » والوجه فى ع .

شهد بدراً أكثرُ من أربعةٍ فقد كذب ، كان علىٌّ وعمَّارٌ فى شِقّ ، وطلحةُ والزُّبير فى شِقّ .

وكيف يجوز عليه تركُ الاحتجاجِ ، وتشجيعُ الموافق وقد نَصب نفسَه للخاصَّة والعامَّة وللمَولَى والمُعادى[١] ومَن لا يحلُّ له فى دينه تركُ[٢] الإعذار إليهم ، إذْ كان يرى أنَّ قتالَهم كان واجباً ، وقد نصبَه الرَّسُول مَفْزَعا[٣] ومَعْلَما ، ونصَّ عليه قائماً ، وجعله للنَّاسِ إماماً ، وأوجبَ طاعته ، وجعله حُجَّةً فى الناس ، يقوم مَقامه .

وأعجبُ من ذلك أنَّه لم يَدَّعِ هذا له أحدٌ فى دهره كما لم يدَّعِهِ لِنفسه[٤] ، مع عظيمِ ماقالوا فيه فى عسكره ، وبعد وفاته ، حتَّى يقولَ إنسانٌ واحدٌ : إنَّ الدليل على إقامته[٥] أنَّ النبى – صلى الله عليه وسلم – دعاهُ إلى الإسلام ، فكُلِّفَ التَّصْديقَ[٦] قبل بلوغه وإدراكه ، ليكون ذلك آيةً له فى عصْره ، وحُجَّةً له ولولده على مَنْ بعده .

وقد كان علىٌّ أعلمَ بالأُمور من أن يدعَ ذكر أكثَرِ حُججه والذى بانَ بهِ من شكله ، ويذكرَ أصغر حُججه ، والذى يشاكله فيه غيره[٧] .

وقد كان فى عسكره من لا يألُو[٨] فى الإفراط ، زيادةً فى القدر[٩] .

(١) ع : « وللخاذل والمعادى » .

(٢) ب فقط : « وترك » ، والواو مقحمة :

(٣) مفزعاً : يفزع إليه عند الحاجة إذا دهم الأمر . وفى النسختين : « مفرعاً » ، صوابه فى ع .

(٤) هذا مافى ع . وفى النسختين : « بنفسه » .

(٥) أى إقامته إماماً . والذى فى ع : « إمامته » .

(٦) ب فقط : « فكلفه التصديق » .

(٧) ع : « والذى يشاركه فيه غيره » .

(٨) ب : « يلوا » ، صوابه فى م ، ع .

(٩) ع : « من لا يألو فى الإفراط ، ومن يحسب أن الإفراط زيادة فى القدر » .

والعجب له – إن كان الأمر على ماذكرتم – كيف لم يقِفْ يومَ الجمَل . أو يوم صِفّينَ ، أو يومَ النهر[١] ، فى موقفٍ يكون فيه من عدوه بمرأى ومَسمعٍ فيقول : « تبًّا لكم وتعساً ! كيف تقاتلونى[٢] ، وتجحدونَ فضيلتى ، وقد خُصِصْتُ بآية ، حتَّى كنت كيحيي بن زكريّا ، وعيسى بن مريم » فلا يمتنع النَّاس من أن يَمُوجوا ، فإذا ماجُوا تكلَّموا على أقدار عللهم[٣] ، وعِلَلُهُم مختلفة ، فلا يثبت أمرهم[٤] أَن يعود إلى فُرقة ، فمِنْ ذاكرٍ[٥] قد كان ناسياً ، ومن نازعٍ قد كان مُصِرًّا[٦] ، ومن مترنِّحٍ قد كان غالطاً ، مع ما كان يشيع من الحُجَّة فى الآفاق ، ويَستفيض فى الأطراف ، وتَحمِلُه الرُّكبان ، ويُتَهَادى فى المجالس[٧] . فهذا كان أَشدَّ على طلحةَ والزُّبير وعائشة ، ومعاوية ، وعبدِ الله بن وهب ، من مائة أَلفِ سنانٍ طريرٍ وسيفٍ شهير[٨] .

ومعلومٌ عند ذَوى التَّجربةِ والعارفين بطبائِع الأَتباع وعلل الأَجناد[٩] أَنَّ العساكر تنتقضُ مرائرها، وينتشر أَمرها، وتنقلب على قائدها[١٠] بأَيسَرَ من هذه الحجة وأَخْفَى من هذه الشَّهادة .

---

(١) يوم النهر أو النهروان : وقعة مشهورة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب مع الخوارج فى سنة ٣٧ . انظر خبرها فى الطبرى ٥ : ٧٢ – ٩٢ والعقد ٤ : ٣٥١ .

(٢) بحذف إحدى النونين : نون الرفع أو نون الوقاية ، وهو مبحث نحوى .

(٣) ب فقط : « قدر عللهم » .

(٤) ع : « ولا ينشب أمرهم » .

(٥) ب فقط : « فمن ذكر » ، تحريف .

(٦) ب فقط : « مضراً » ، تحريف . ونزع عن الأمر : كف ورجع .

(٧) فى النسختين : « وتهادى فى المجالس » ، تحريف .

(٨) ع : « مشهور » . شهر السيف : سله من غمده .

(٩) فى النسختين : « الأحاد » ، صوابه فى ع .

(١٠) فى النسختين : « ويتقلب » ، صوابه فى ع . وفى ب : « على تايدها » ، صوابه فى م . وفى ع : « قادتها » .

وقد علمتم ماصنَعت المصاحفُ فى طبائِع أصحاب علىٍّ رضوان الله عليه ، حين رفَعَها عَمرٌو أشدَّ ماكان أصحابُ علىٍّ استبصاراً فى قتالهم ، ثم لم ينتقضْ على علىٍّ من أصحابه إلَّا أهل الجِدِّ والنَّجدة ، وأصحابُ البرانس والبصيرة[١] .

وكما علمتَ[٢] من تحوُّل شَطْرِ عسكَرِ عبد الله بن وهبٍ حين اعتزلوا مع فَرْوَةَ بن نَوفل[٣] لكلمةٍ سمعوها من عبد الله بن وهب كانت تدلُّ عِندهم على ضَعف الاستبصار ، والوَهَن فى اليقين .

وهذا البابُ أكثَرُ من أن يَحتاج — مع ظهورِه ، ومعرفةِ الناس له — إلى أن نحشُوَ به كتابنا[٤] .

فأمَّا إسلامُه وهو حدَثٌ غَرير ، وصبيٌّ صغير ، فهذا ما ندفعه ؛ غير أنَّه إسلامُ تأديبٍ وتلقين وتربية . وبين إسلام التكليف والامتحان[٥] ، وبين التلقين والتربية ، فرقٌ عظيم ، ومَحجَّةٌ واضحة .

وقالت العثمانية : إنْ قالت الشِّيَعُ : إنَّ الأمر ليس كما حكيتم ولا كما هَيَّأتموه لأنفسكم ، بل نزعُم أنَّه قد كانت هنالك فى أيَّام حداثته وصِباه فضيلةٌ ومزيدُ ذكاءٍ[٦] ، ولم يَبلغْ الأمر[٧] حدَّ الأُعجوبة والآية ، قلنا : إنَّ

---

(١) هذا مافى ع . وفى النسختين : « أصحاب المراس » . وانظر العقد ٤ : ٣٥١ ففيه : « إن علياً لما اختلف عليه أهل النهروان والقرى وأصحاب البرانس » . الجوهرى : البرنس : قلنسوة طويلة ، وكان النساك يلبسونها فى صدر الإسلام . وانظر لسان العرب (برنس) .

(٢) ع : « وكما علمتم » .

(٣) فروة بن نوفل الأشجعى ، ذكره ابن حبان فى الصحابة ثم توقف فيه . وقال ابن شاهين : لاتصح له صحبه . وقال أبوحاتم : إنما الصحبة لأبيه . قال المرزبانى : كان رئيس الشراة . الإصابة ٧٠٢٣ .

(٤) هذا مافى ع . وفى النسختين : « نحشو كتابنا » .

(٥) ب فقط : « وبين إسلام التكليف وبين الامتحان » .

(٦) ع : « ومزية ذكاء » .

(٧) فى النسختين : « ولم يبلغ إلا من » ، وهو تحريف واضح ، صوابه فى ع .

الذى ذهبتم إليه ـ أيضاً ـ لابدْ فيه من أحد وجهين : إمَّا أن يكون قد كان لا يزال يُوجَد فى الصِّبيانِ مثلُه فى الفطنةِ والذَّكاء ، وإن كان ذلك عزيزاً قليلا ، وكان وجودُ ذلك ممتنعاً ، ومن العادة خارجاً . فإذا كان قد يوجَد مثله ـ على عزَّته وقلَّته ـ فما كان إلاَّ كبعض مَن نَرى اليومَ ممَّن يُتعجَّب من كَيْسه وفطنته[١] ، وحفظه وحكايته ، وسُرعَةِ قبوله، على صغَر سنِّه ، وقلَّة تجربته . فإن كانت حاله هذه الحالَ، وطبقتُه على هذا المثالِ ، فإنَّا لم نجدْ صبيًّا قطُّ وإن أفرط كَيسُه ، وحسنَت فطنته ، وأُعجب به أهله يحتمل ولايةَ الله وعداوتَه ، والتمييزَ بين الأُمور التى ذكرْنا . مع أنَّه ما جاءنا ولا جاءَ عند أحدٍ منَّا بخبرٍ صادقٍ، ولا كتابٍ ناطق ، أنَّه قد كان لعلىٍّ خاصَّةً ، دون قريشٍ عامَّةً ، فى صباه ، من إتقان الأُمور ، وصحَّة المعارف ، وجَودة المخارج ، مالم يكن لأَحَدٍ من إخوته ، وعُمومته وآبائه .

وإن كان القدرُ الذى كان عليه علىٌّ من المعرفة والذكاءِ القدرَ الذى لا نَجِد له فيه مثلاً[٢] ، ولا رأينا له شِكلاً[٣] ، فهذا هو البديع الذى يحتجُّ به على المنكرين[٤] ، ويُفْلَج على المعارضين[٥] ، ويُبيَّن[٦] للمسترشدين . وهذا بابٌ قد فرغنا منه مرّة .

---

(١) فى النسختين : « من كسبه وفطنته » ، والصواب ما أثبت . وفى ع : « من حسه وفطنته » .

(٢) ب : « والذكاء الذى لا يجد له فيه مثيلا » ، تحريف .

(٣) فى النسختين : « ولان أماله لشكلا » ، صوابه فى ع .

(٤) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « المنكر » .

(٥) الفلج : الفوز والظفر . وفى النسختين : « يفلح » بالحاء المهملة ، صوابه فى ع .

(٦) ب : « وتبين » م : « ونبين » ، صوابهما فى ع .

ولو كان الأمر فى علىٍّ كما يقولون لكان ذلك حجّة للرّسول فى رسالته[١] ولعلىٍّ فى إمامته[٢] .

والآيةُ إذا كانت للرسولِ وخليفةِ الرسول كان أشهرَ لها ؛ لأنّ وضوح أمرِ الرّسول يزيد[٣] على ما للإمام ، ويزيده إشراقاً واستنارةً وبياناً .

ولا يجوز أن يكون الله تعالى قد عرَّف أهلَ عصرهما ذلك، وهم الشُّهداءُ على من بعدهم من القرون ، ثم أسقَطَ حجّتَه[٤] . فلا تخلو تلك الحجّة ، وتلك الشهادة من ضربين : إما أن تكون[٥] ضاعت وضلّتْ ، وإما أن تكون[٦] قد قامت وظهرت . فإن كانت قد ضاعت فلعلَّ كثيراً من حُجج الرسول قد ضاع . وما جَعَل الباقىَ أولَى بالتّمام من السّاقطِ ، والسّاقطُ من شكل الثّابت ، لأنّه حُجّةٌ على شيئين ، والثابت حُجّة على شىء . ولا يخلو أمر السّاقط من ضربين : إمّا أن يكون الله — تبارك وتعالى — لم يُرِدْ تَمامَهُ ، أو يكون[٧] قد أراده . وأىٌّ هذين كانَ ، ففساده واضح[٨] عند قارئ الكتاب ، وإن كانت الآية فيه قد تمّت ؛ إذ كانت الشهادة قد قامت علينا بها ، كما كانت شهادةُ العيان قائمةً عليهم فيها[٩] . فليس فى الأرض عثمانىٌّ إلّا وهو يُكابر عقله ، ويجحد علمه .

---

(١) فى رسالته ، ساقطة من ب .
(٢) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « فى إقامته » .
(٣) هذا ماق ع . وفى النسختين : « يرى » ، تحريف .
(٤) ع : « ثم يسقط حجته » .
(٥) فى النسختين : « يكون » ، صوابه فى ع .
(٦) م فقط : « يكون » .
(٧) فى النسختين : « ويكون » ، صوابه فى ع .
(٨) ب فقط : « فساده واضح » ، تحريف .
(٩) هذا الصواب من م ، ع . وفى ب : « إذا كانت شهادة العيان قائمة عليهم فيها » ، وهو نقص وتحريف .

ولعمرى ، إنَّا لنجد[١] فى الصِّبيان من لَو لقَّنته[٢] ، أوْ كتبتَ له أغمض المعانى وألطفها ، وأغمضَ الحُجج وأبعدَها ، وأكثَرها لفظًا وأطولَها ، ثمّ أخذتَه بدَرْسِه وحِفظه لحفظِه حفظاً عجيباً ، ولهذه هذًّا ذليقا[٣] .

فأمَّا معرفة صحيحهِ من سقيمه ، وحقّه من باطله ، وفَصْلُ ما بين المُقَرِّ بهِ والدَّليل ، والاحتراسُ من حَيْثُ يؤتى المخدوعون[٤] ، والتحفُّظ من مكر الخادعين ، وتأتِّى المجرِّب[٥] ، ورِفق السَّاحر[٦] ، وخلابةِ المتنبِّىء[٧] ، وزَجْرِ الكهان ، وأخبار المنجمين . وفَرْقِ مابين نَظْم القرآن وتأليفه ، فليس يعرف فروق النَّظم ، واختلاف البحث والنَّثْر[٨] إلّا مَن عرف القصيدَ من الرَّجز ، والمخَمس من الأسجاع ، والمزدَوِج[٩] من المنثور ، والخُطَب من الرَّسائِل ، وحتَّى يعرف العَجْز العارض الذى يجوز ارتفاعُه ، مِن العجز الذى هو صفة فى الذَّات .

فإذا عَرف صُنوفَ التأْليف عَرَفَ مباينةَ نظْمِ القرآنِ لسائرِ الكلام ثم لا يكتفى بذلك حتَّى يعرف عجزَه وعجْزَ أمثالِه عن مثله ، وأنَّ حُكْم البشرِ حكمٌ واحد فى العجز الطبيعىّ ، وإن تفاوَتُوا فى العجز العارض .

---

(١) ب فقط : « لا نجد » ، تحريف .

(٢) ع : « من لو لقنته وسددته » .

(٣) يقال هذ القرآن والحديث هذا : سرده . والذليق : الفصيح . وفى ب : « لهذه هذا ذليقاً » ، صوابه فى م ، ع .

(٤) فى النسختين : « من خبث يؤتى المخدوعين » ، صوابه فى ع .

(٥) الأصمعى : تأتى فلان لحاجته ، إذا ترفق لها وأتاها من وجهها . وفى النسختين : « ويأتى المجرب » . وفى أصل ع : « ومانى المجرب » بإهمال التاء من النقط . صوابه ما أثبت .

(٦) فى النسختين : « وسحر رفق الساحر » ، صوابه فى ع .

(٧) هذا الصواب فى ع . وفى النسختين : « المثنى » ، تحريف .

(٨) ع : « فروق النظر واختلاف فى البحث » .

(٩) ب فقط : « بالذات » .

وهذا مالا يُوجَد عند صبيٍّ ابنِ تسع سنين ، أو ثمان سنين ، أوسبع سنينَ أبداً ، عَرَفَ ذلك عارفٌ أو جَهِله جاهل .

ولا يجوز أن يعرف عارفٌ معنى الرسالة إلَّا بعد الفراغ من هذه الوجوه ، إلاَّ أن يَجْعَلَ جاعلٌ التقليدَ والنشوَّ[(١)] والإلفَ لما عليه الآباءُ ، وتعظيمَ الكبراءِ معرفةً ويقيناً .

وليس بيقينٍ ما اضطربَ ، ودَخَله الخلاجُ [عند[(٢)]] ورودِ معانى لعلَّ وعسى ، ممَّا لا يمكن فى المعقول[(٣)] إلاَّ بحجَّةٍ تُخْرِج[(٤)] القلبَ إلى اليقين عن التجويز .

ولقد أعيانا أَنْ نجد هذه المعرفةَ إلاَّ فى الخاصّ من الرّجال وأهل الكمال فى الأدب ؛ فكيف بالطِّفل الصَّغير ، والحدَث الغَرير ! مع أنَّك لو أَدرْتَ[(٥)] معانِيَ بعضِ ما وُصِف لك[(٦)] على أذكى صبيٍّ فى الأرض ، وأَسرعِهِ قبولًا وأحسنه حكايةً وبياناً ، وقد سوَّيته له ودَلَّلته[(٧)] ، وقرَّبته منه ، وكفيتَه مؤونة الرَّوِيَّة ، ووَحْشة الفِكرة ، لم يعرف قَدْره ، ولا فَصَلَ[(٨)] حقَّه من باطِله ، ولا فَرَق بين الدَّلالة وشبيهِ الدَّلالة . فكيف له بأَن يكون[(٩)] هو المتولِّيَ لتجربته وحلِّ عَقْده وتخليص متشابِهِه[(١٠)] ، واستثارته من معدِنه ؟

---

(١) النشو ، أى النشوء ، يعنى به أثر المنشأ . وفى النسختين : « البشر » ، صوابه فى ع .
(٢) التكملة من ع .
(٣) ع : « فى العقول » .
(٤) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « لحجة تحوج » ، تحريف .
(٥) فى النسختين : « أردت » ، صوابه فى ع .
(٦) ع : « ماوصفت لك » .
(٧) وكذا فى ع . ولعلها : « ذللته » ، أى يسرته له تيسيرا .
(٨) فى النسختين : « فضل » بالضاد المعجمة ، تحريف .
(٩) ب فقط : « أن يكون » .
(١٠) فى النسختين : « وتلخيص مشابهه » ، صوابه فى ع .

وكُلُّ كلامٍ خرج من التَّعارُف فهو رجيعٌ بَهرجٌ ، ولغوٌ ساقط .

وقد نجد الصبيَّ الذكيَّ يَعرِف من العَرُوض وجهاً ، ومن النَّحْو صدرًا ، ومن الفرائِض أبواباً ، ومن الغناء أصواتاً . فأمَّا العلمُ بأُصول الأَديانِ ، ومَخارج الملل[1] وتأْويلِ الدِّين ، والتحفُّظ من البِدَع ، وقَبْلَ ذلك الكلامُ فى حُجج العقول ، والتعديل والتجوير[2] ، والعلمُ بالأَخبار وتقدير الأَشكال ، فليس هذا موجودًا إلَّا عند العلماءِ . فأَمَّا الحَشْوُ والطَّغامُ[3] ، فإنَّما هم أَداةٌ للقادة ، وجَوارحُ للسَّادة[4] ؛

وإنَّما يعرف شدَّة الكلام فى أُصول الأَديان مَنْ قد صَلِىَ به، وسال فى مضايِقِه[5] ، وجاثَى الأَضداد[6] ونازَع الأَكْفاءَ .

٢ — فصـــل منه[7]

وقد علمتم ماصنع أَبو بكر فى مالِه ، وكان المالُ أَربعين أَلفاً ، فأَنفقَه على نوائب الإسلام وحُقوقه ، ولم يكن مالُه ميراثاً لم يكدَّ فيه ، فهو غَزيرٌ[8] لا يشعر بعُسْر اجتماعه ، وامتناع رُجوعه ، ولا كان هبةَ

---

(١) فى النسختين : « الملك » ، صوابه فى ع .

(٢) فى النسختين : « التجويد » ، صوابه فى ع .

(٣) الحشو من الناس ، بفتح الحاء ، والحشوة بضمها : الرذال منهم ومن لا يعتمد عليه . ومثله الطغام ، بالفتح .

(٤) أى بمنزلة الجوارح من البدن . وجوارح الإنسان : أعضاؤه وعوامل جسده ، كيديه ورجليه ، لأنهن يجرحن الخير والشر ، أى يكسبنه . وفى النسختين : « خوارج » ، صوابه فى ع . وسيأتى فى أوائل الفصل الرابع : « ومقام العامة من الخاصة مقام جوارح الإنسان من من الإنسان » .

(٥) ع : « وسلك فى مضايقه » .

(٦) جاثاه : جلس معه على ركبتيه للخصومة . وفى النسختين : « وحاثى » ، صوابها بالجيم كما فى ع .

(٧) انظر العثمانية ٣٥ .

(٨) فى النسختين : « غرير » براءين ، صوابه فى ع .

ملكٍ[١] فيكون أسمح لطبيعته ، وأخرقَ فى إنفاقه[٢] ، بل كان ثمرةَ كدِّه وكَسْبَ جَوَلانه وتعرُّضِه .

ثمّ[٣] لم يكن خفيفَ الظَّهر ، قليلَ النَّسل ، قليلَ العِيال ، فيكونَ قد جمع اليَسارَيْن ؛ لأنَّ المثلَ الصحيح السَّائرَ المعْنَى : « قِلَّةُ العيال أَحَدُ اليَسارَيْن » ، بل كان ذا بنينَ وبناتٍ وزوجةٍ ، وخَدَم وحَشَم ، يَعُولُ[٤] مع ذلك أبويه وما ولدَا . ولم يكن فتًى حدثًا فتهزّه أَريحيَّة الشباب ، وغَرارة الحداثة . ولم يكن بحذاءِ إنفاقِهِ طمعٌ يَدعُوه ، ولا رغبةٌ تَحْدوه .

ولم يكن للنبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يدٌ مشهورة فيخافَ العارَ فى ترك مواساته ، وإنفاقِه عليه ، ولا كان من رهطه دُنْيًا[٥] فيسبّ بترك مكانفته[٦] ومعاونته وإرفاقه . فكان إنفاقُه على الوجه الذى لايجد أَبلغ فى غايةِ الفضل منه ، ولا أدلّ على غاية البصيرة منه[٧] .

وقد تعلمون ما كان يلقَى أَصحابُ النبى صلى الله عليه وسلم ببطن مكَّة من المشركين ، وقد تعلمون حُسْنَ صنيعِ كثيرٍ منهم ، كصنيع حمزةَ حين ضَرب أَبا جهلٍ بقَوسه ، فبلغ فى هامته ، فى نصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأَبو جهل يومئذٍ أَمنع أَهلِ البطحاء[٨] ، وهو رأسُ الكفر .

---

(١) فى النسختين : « هيئة ملك » ، وصحته فى ع .

(٢) أخرق ، من الخرق ، بالضم وبالتحريك ، وهو ضد الرفق . والمخراق : الكريم السخى ، كالخرق بالكسر . ب : « وأحذق » ، صوابه فى م ، ع .

(٣) فى النسختين : « بمن » ، صوابه فى ع .

(٤) هذا الصواب من ع . وفى النسختين : « يقول » .

(٥) هو من قولهم : هو ابن عمه دنيا ، بكسر الدال مع التنوين وعدمه ، وبضمها مع ترك الصرف ، إذا كان ابن عمه لحا لاصق النسب . وفى النسختين : « دينا » ، صوابه فى ع

(٦) المكانفة : المعاونة . وفى النسختين : « مكاتبته » ، تحريف ما فى ع .

(٧) ب ، م : « ولا أدل عليه » ، صوابه فى ع . وفى ب : « الصبرة منه » ، صوابه فى م ، ع . لكن فى ع : « غاية الصدق والبصيرة منه » .

(٨) ب ، ع : « أمنع البطحاء » ، وأثبت مافى م . وبطحاء مكة وأبطحها : مسيل واديها . وقريش البطاح : الذين ينزلون البطحاء . وقريش الظواهر : الذين ينزلون ماحول مكة .

ثمَّ صَنيعَ عُمَر حيث يقولُ يوم أَسلم : « واللهِ لا نَعبدُ اللهَ سرًّا بعد هذا اليوم » ، حتَّى قال بعد موته عبدُ الله بن مسعود : « وما صلَّينا ظَاهِرِينَ حتَّى أَسلم عمر » .

٣ ـ فصـل منه[١]

ولو كان فى ذلك الزَّمانِ القتالُ ممكناً ، والوُثوبُ مُطمِعاً ، لقاتلَ أَبوبكرٍ ونهض كما نهض فى الرِّدَّة[٢] ، وإنَّما قاتل علىٌّ فى الزَّمان الذى قد أَقْرَنَ فيه أَهل الإسلامِ لأَهل الشِّرك[٣] ، وطمعوا أَن تكون الحربُ سِجالًا ، وقد أَعلمَهم اللهُ أَنَّ العاقبةَ للمتَّقين ، وأَبو بكر مفتون مفرد[٤] ومطرودٌ مُشرَّد[٥] ومضروب مُعَذَّب[٦] ، فى الزَّمان الذى ليس بالإسلامِ[٧] وأَهلِه نهوضٌ ولا حركة ، ولذلك قال أَبو بكر رضى الله عنه : « طُوبى لمن مَاتَ فى نـأْنـأَة الإسلام » ، يقول : فى أَيام ضَعْفه وقِلَّته ؛ بحيثُ كانت الطَّاعةُ أَعظمَ لفرط الامتحان ، والبلاءُ أَغلظَ لشدَّة الجهد ، لأَن الاحتمال كلَّما كان أَشدَّ وأَدْوَمَ ، كانت الطَّاعةُ أَفضل ، والعَزْم فيه أَقوى .

ولا سواءٌ مفتونٌ مشرَّد لا حيلةَ عنده ، ومضروب معذَّب لاانتصار به ، ولا دَفْعَ عنده ، ومُباطِشٌ مُقْرِن[٨] يَشفِى غَيْظَه ، ويَروِى غليلَه ، وله مُقْدِم يكنُفه ويشجِّعه .

---

(١) انظر العثمانية ص ٣٩ .

(٢) فى النسختين : « كما نقض فى الردة » ، صوابه فى ع .

(٣) يقال أقرن له ، أى أطاقه وقدر عليه ، كما يقال أقرنت فلاناً : صرت له قرناً »

(٤) فى النسختين : « مفتون معذب » .

(٥) ب : « مشروب » وفى م : « مشرود » ، صوابهما فى ع .

(٦) فى النسختين : « مغرب » ، صوابه فى ع . وانظر ما سيأتى فى السطر ١٤ .

(٧) م فقط : « فى الإسلام » .

(٨) المباطشة : مفاعلة من البطش ، وهو السطوة والأخذ بالعنف . والمقرن : المطيق القادر . وفى النسختين : « مفرق » ، صوابه فى ع .

ولا سواءٌ مقهورٌ لا يُغاث ، ولم يَنزِل القرآنُ بعد بظَفرِه . وقد هَتَكَ اليأسُ[١] لما ألفَى حجابَ قَلبه[٢] ونَقَضَ[٣] قوى طمعه حتَّى بَقِيَ وليس معه إلَّا احتسابُه ؛ ومقاتلٌ فى عسكره معه عِزُّ الرجال ، وقُوَّة الطَّمع ، وطيب نفسِ الآمل .

٤ — فصــل منه[٤]

وإنْ سأَل سائل فقال : هل على النَّاس أن يتَّخذوا إماماً ، وأن يُقيموا خليفة ؟

قيل لهم : إنَّ قولكم «النَّاس» يحتمل الخاصَّة والعامَّة . فإنَ كنتم قصدتم إليهما ، ولم تَفْصِلوا بين حالَيهما ، فإنَّا نزعُم أنَّ العَامَّة لا تعرِف معنى الإمامة ، وتأْويلَ الخِلافة ، ولا تفصِل بين[٥] فضلِ وجودها ونَقْص عدمها ، ولأَىِّ شيء ارتدَّت[٦] ، ولأَىِّ أَمر أَمْلَت ، وكيف مأْتاها والسبيلُ إليها ، بل هى مع كلِّ ريحٍ تهبُّ ، وناشئة تنجُم . ولعلَّها بالمُبْطلين أَقرُّ عيناً منها بالمحِقِّين ، وإنَّما العامَّة أَداةٌ للخاصَّة تبتذلها للمِهَن ، وتُزجِّى لها الأُمور[٧] ، وتَصُول بها على العدوّ ، وتسدُّ بها الثغور .

ومَقَام العامَّة من الخاصَّة مَقام جَوارحِ الإنسانِ من الإنسان ، فإنَّ الإنسانَ إذا فكَّر أَبصَرَ ، وإذا أَبصَرَ عزَم ، وإذا عزَم تحرَّك أَو سكن ، وهما بالجوارحِ دونَ القَلْب .

---

(١) فى النسختين : « الناس » ، صوابه فى ع .
(٢) ألفى : وجد . وفى ع : « لطول ما لقى حجاب قلبه » .
(٣) فى النسختين : « وبعض » صوابه فى ع .
(٤) كتاب العثمانية ص ٢٥٠ .
(٥) فى النسختين : « من » ، صوابه فى ع .
(٦) فى النسختين : « أردت » ، صوابه فى ع .
(٧) ع : « بها الأمور » .

وكما أنَّ الجوارحَ لاتعرفَ قَصْدَ النفس ، ولا تروِّى فى الأُمور ، ولم يخرجُها ذلك من الطَّاعة للعزم ، فكذلك العامَّة ، لا تعرف قصد القادة[١] ولا تدبير الخاصَّة ، ولا تَرَوِّىَ معها[٢] ، وليس يخرجها ذلك من عَزْمها ، وما أَبرمَت من تدبيرها .

والجوارحُ والعوامُّ ، وإن كانتْ مسخرَّةً ومدبَّرة ـ فقد تمتنع لعللٍ تَدخُلها ، وأمورٍ تصرفها ، وأَسبابٍ تَنْقُضها[٣] ، كاليد يَعرِض لها الفالِجُ واللِّسانِ يعتريه الخَرَس ، فلا تقدر[٤] النفس على تسديدهما وتقويتهما ، ولو اشتدَّ عزمها ، وحَسُنَ تأتِّيها[٥] ورفقُها . وكذلك العامَّةُ عند نفورها وتَهيُّجها[٦] ، وغلبةِ الهوى والسُّخْف عليها ، وإنْ حَسُنَ تدبير الخاصَّة ، وتعهُّد السَّاسة[٧] . غير أنَّ معصيةَ الجارحة أَيسَرُ ضررًا[٨] ، وأَهونُ أمراً ، لأَنَّ العامة إذا انتكثت للخاصَّة[٩] ، وتنكَّرت للقَادة ، وتشزَّنَت على الرَّاضة[١٠] ، كان البَوارُ الذى لا حيلةَ له ، والفناءُ الذى لا بَقَاءَ معه.

وصلاحُ الدُّنيا ، وتمام النِّعمة فى تدبير الخاصَّة وطاعةِ العامَّة ، كما أنَّ كمال المنفعة وتمامَ دَرَكِ الحاجة بِصواب قَصدِ النَّفْس[١١] ؛ [لأَنَّ

(١) فى النسختين : « ولا تعرف قصد العامة » تحريف ؛ والواو فيه مقحمة ، والصواب فى ع .

(٢) فى النسختين : « ولا يروى معها » ، ووجهه من ع .

(٣) فى النسختين : « لعلل يدخلها وأمور يصرفها وأسباب ينقصها » ، صوابها فى ع .

(٤) ب فقط : « يقدر » ، تحريف .

(٥) ب فقط : « تأنيها » ، محرف .

(٦) فى النسختين : « عند ثبورها » ، صوابه فى ع . وفى ع : « وتهييجها » .

(٧) فى النسختين : « السياسة » ، والصواب فى ع .

(٨) فى النسختين : « طوراً » صوابه فى ع .

(٩) فى النسختين و ع : « انكفت بالخاصة » ، ولعل وجهه ما أثبت .

(١٠) التشزن : التصعب وعدم الانقياد . والراضة : جمع رائض ، وهو السائس . وفى النسختين : « تشربت »

(١١) ب فقط : « تصواب قصد النفس »

النَّفسَ][1] لو أدركت كلَّ بُغْية ، وأوفت على كلِّ غاية ، وفتحَتْ كلّ مُستغلقٍ ، واستثارت كلَّ دفين[2] ، ثمّ لم يُطِعْها[3] اللسانُ بحسن العبارة واليدُ بحسن الكتابة[4] ، كان [وجودُ[5]] ذلك المستنبطَ — وإنْ جلَّ قدره — وعَدمُه سواءً .

فالخاصَّة تحتاج إلى العامَّة كحاجة العامَّة إلى الخاصَّة ، وكذلك القلب والجارحة ، وإنَّما همُ جندٌ للدَّفع[6] ، وسلاحٌ للقَطْع ، وكالتُّرْس للرامى ، والفأْسِ للنجَّار . وليس مُضِيُّ سيفٍ صارم بكفِّ امرئٍ صارمٍ ، بأَمضى من شُجاعٍ أطاع أميره ، وقلَّد إمامَه .

وما كَلبٌ أَشْلَاهُ ربُّه ، وأَحمشَه كَلَّابه[7] ، بأَفرطَ نزَقاً ولا أَسرَعَ تقدُّماً ، ولا أَشدَّ تهوُّراً من جندىٍّ أغراهُ طمعُه ، وصاح به قائده .

وليس فى الأَعمال أَقلُّ من الاختيار ، ولا فى الاختيار أَقلُّ من الصَّواب ، فلُبابُ[8] كلِّ عمل اختياره ، وصَفْوةُ كلِّ اختيارٍ صوابُه . ومع كثرة الاختيار يكثر الصواب ، وأكثر النَّاسِ اختياراً أكثرُهم صواباً ، وأكثرهم أَسباباً[9] مُوجِبَه أَقلُّهم اختياراً ، وأَقلُّهم اختياراً أَقلُّهم صواباً .

---

(١) التكلة من ع .
(٢) استثارته : هاجته واستخرجته . وفى النسختين : « واستنارت » ، صوابه فى ع .
(٣) ب فقط : « ثم لم يطفها » ، تحريف .
(٤) ب فقط : « لحسن الكتابة » ، محرف .
(٥) التكلة من ع .
(٦) هم ، ساقطة من م . وفى ع : « وإنما العامة جند للدفع » .
(٧) ع : « أحمشه » بالشين المعجمة ، أى حرضه .
(٨) ب : « فليأب » م : « فليأت » ، صوابهما فى ع .
(٩) ب : « أسابا » ، صوابه فى م ، ع .

فإن قالوا : فقد ينبغى للعوامّ أن لا يكونوا مأمورينَ ولا منهيِّين ، ولا عاصين ولا مُطيعين .

قيل لهم : أمّا فيما يعرفون فقد يعصون ويطيعون .

فان قالوا : فما الأمر الذى يعرفون من الأمر الذى يجهلون ؟ .

قيل لهم : أمّا الذى يعرفون ، فالتّنزيلُ[١] المجرَّد بغير تأويلِهِ ، وجملة الشّريعة بغيرها[٢] ، وما جَلَّ من الخبر واستفاض[٣] ، وكثر ترداده على الأسماع ، وكرّروه على الأفهام .

وأمّا الذى يجهلون فتأويل المُنْزَل وتفسير المجمَل ، وغامض السُّنن التى حَمَلتها الخواصُّ عن الخواصّ ، من حملة الأثر وطُلّاب الخبَر ممّا يُتكلَّف معرفتُه ، ويُتْبَعُ[٤] فى مواضعه ، ولا يهجمُ[٥] على طالبه ، ولا يَقْهر سمْعَ القاعد عنه .

والخبر خبران : خبرٌ ليس للخاصّة فيه فضلٌ على العامّة ، وهو كما سنّ الرسولُ صلى الله عليه وسلم فى الحلال والحرام ، وأبوابِ القضاء والطّلاق ، والمناسك ، والبيوع ، والأشربة ، والكفّارات ، وأشباهِ ذلك .

وبابٌ آخر يجهله العوامُّ ، ويَخبِطُ فيه الحَشْو ولا تَشْعُر بعجزها[٦] ولا موضع دائِها[٧] . ومتى جرى سَبَبُه ، أو ظهر شىءٌ منه تسنّمتْ

(١) فى النسختين : « كالتنزيل » ، صوابه فى ع .
(٢) ب « تفسيره » ، صوابه فى م ، ع .
(٣) ب فقط : « واستفاد » ، تحريف .
(٤) ع : « ويتتبع » .
(٥) ب فقط : « ولا يعجم » .
(٦) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « بسرها » .
(٧) ب فقط : « دأبها » ، تحريف .

أعلاه ، وركبت حَوْمته[١] ، كالكلام[٢] فى الله ، وفى التشبيه ،والوعد والوعيد ؛ لأنَّها قد عجزت[٣] عن دعوى الفتيا ، ولا تتهافت فيها ، ولاَ تتسكَّع[٤] فيما لا يُعَرف منها ، ولا تتوحَّش من الكلام فى التعديل والتجوير[٥] ،ولا تفرغ من الكلام فى الاختيار والطِّباع ، ومجىء الآثار ، وكلٍّ ما جرى سببُه من دقيق الكلام وجليله ، فى الله تعالى وفى غيره .

ولو برز عالمٌ[٦] على جادَّةِ منهجٍ وقارعة طريق ، فنازع فى النَّحو واحتجَّ فى العَروض ، وخاض فى الفُتْيا ، وذِكرِ النُّجوم والحساب، والطبِّ والهندسة ، وأبواب الصِّناعات ، لم يَعرِضْ له ، ولم يفاتحه[٧] إلَّا أهلُ هذه الطبقات .

ولو نطق بحرفٍ فى القدر حتَّى يذكر العِلم والمشيئة ، والتكليف والاستطاعة ، وهل خلَق الله تعالى الكُفْرَ وقدَّره أَو لم يخلُقْه ولم يقدِّره ، لم يَبْقَ[٨] حمَّالٌ أَغثر[٩] ، ولا بَطَّالٌ غَثٌّ[١٠] ، ولا خَاملٌ غُفْل[١١] ولاغَبىٌّ

---

(١) حومة البحر والرمل والقتال ونحوه : معظمه أو أشد موضع فيه .

(٢) فى النسختين : « فالكلام » ، صوابه فى ع .

(٣) ع : « قد تحجم » .

(٤) التسكع : أن يمضى متعسفاً لغير وجهه . وفى النسختين : « تتسع » ، والوجه ما أثبت من ع .

(٥) فى النسختين : « التعديد والتحرير » ، والوجه ما أثبت .

(٦) فى النسختين : « عالماً » ، صوابه فى ع .

(٧) فى النسختين : « ولم يفتحه » ، صوابه فى ع .

(٨) فى النسختين : « ولم يبق » ، والوجه حذف الواو كما فى ع .

(٩) الأغثر : الأحمق الجاهل . وفى النسختين : « جمال أغبر » .

(١٠) البطال : ذو الباطل . . والتبطل : فعل البطالة ، وهو اتباع اللهو والجهالة . وفى النسختين وع : « يطاف » ، ولعل وجهه أثبت .

(١١) فى النسختين : « ولا حامل » بالحاء المهملة ، صوابه فى ع .

كهَام[١] ، ولا جاهلٌ سفيهٌ ، إلَّا وقَفَ عليه ولاحاهُ[٢] وصوَّبه وخَطَّاهُ[٣]
ثم لا يرضى حتَّى يتولَّى من أرضاه ، ويكفِّر مَن خالفَ هواه ، فإن
جارَاه[٤] محقٌّ ، وأغلظَ له واعظٌ ، واتَّفق أن يكون بحضرته أشكاله[٥]
استغوى أمثالَه ، فأشعلوها فتنةً وأضرموها ناراً .

فليس لمن كانت هذه حالَه أن يتحيَّز مع الخاصَّة ، مع أنَّه لو حَسُنت
نيَّتُهُ ، لم تحتمل فِطرتُه معرفةَ الفُصول ، وتمييزَ الأُمور .

فإن قالوا : ولعلَّهم لا يعرفون اللهَ ورسولَه ، كما لا يعرفون عَدلَه
من جَوره ، وتشبيهه بِخَلقِه[٦] مِنْ نَفْيِ ذلك عنه . وكما لا يعرفون
القرآنَ وتفسيرَ جُمَله ، وتأويل مُنزَّله .

قيل لهم : إنَّ قلوب البالغين[٧] مسخَّرة لِمعرفة ربِّ العالمين[٨] ،
ومحمولة على تصديق المرسلين ، بالتنبيه على مواضع الأدلة ، وقَصْر
النُّفوسِ على الرَّوِيَّة ، ومَنْعِها عن الجَوَلانِ والتصرُّف، وكلِّ ماربَثَ عن
التفكير[٩] ، وشَغَل عن التحصيل ، من وسوسةٍ أو نِزاعِ شهوة ؛ لأنَّ
الإنسان مالم يكن معتوهاً أو طفلًا ، فمحجوجٌ على ألسنة المرسلين ، عند

---

(١) الكهام : الثقيل الذى لا غناء عنده . فى النسختين : « و لاغبى » ، والصواب فى ع .
(٢) الملاحاة : المنازعة والمدافعة . فى النسختين : « لاجاه » ، بالجيم تحريف .
(٣) خطاه : مسهل خطأه . وفى النسختين : « وخطاؤه » صوابه فى ع .
(٤) فى النسختين : « جازاه » بالزاى ، تحريف .
(٥) ب فقط : « أشكال » .
(٦) فى النسختين : « وتشبيهه من يخلقه » ، صوابه فى ع .
(٧) فى النسختين : « التابعين » ، صوابه فى ع .
(٨) يقال سخره للأمر ، أى كلفه به وقهره عليه . وفى الكتاب العزيز : « وسخر لكم الشمس والقمر » ، أى ذللهما ، وكذلك « سخر لكم الفلك » . وفى النسختين : « مسخرة بمعرفة» ، صوابه فى ع .
(٩) ربثه عن الأمر : حبسه وصرفه . وفى النسختين : « وكلما ريب » والصواب فى ع .

جميع المسلمين . ولا يكون محجوجاً حتَّى يكون عالماً بما أُمِرَ به ، عارفاً بما نُهِيَ عنه ؛ لأنَّ من لم يعلم[١] فى أىِّ الضربين سُخْطُ الله ، وفى أىِّ نوعٍ رضاه ، ثمَّ ركبَ السُّخطَ أَو أَتى الرِّضا[٢] لم يكن ذلك منه إلَّا على اتِّفاق. وإنَّما الاستحقاق مع القصد . والله تبارك يَتَعَالَى عن أن يعاقب من لم يُرِدْ خلافه ، ولم يَعرِف رضاه . أَو يَحمَدَ من لم يعتمد رضاه ، ولم يَقصِد إليه.

ولم يكن الله تعالى ليعدِّلَ صنعتَه ويسوِّيَ أَدَاتَه[٣] ويفرقَ[٤] بينه وبين المنقوص فى بنيته وتركيبه[٥] ، إلَّا ليفرق بين حاله وبين الطِّفل والمعتوه . وليس للمعرفة وجهٌ إلَّا لتَبصيره وتخييره[٦] ، ولولا ذلك لم يكن للذى خُصَّ به من الإبانة وتعديل الصَّنعة ، وإحكام البِنْيَة معنًى . والله تعالى[٧] عن فعل ما لا معنى له .

وفى قول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[٨] ﴾ دليلٌ على ماقلنا . وليس لأَحدٍ أَن يُخرجَ بعضَ الجنِّ والإنس من أن يكونَ خُلِقَ للعبادة إلَّا بحجَّةٍ ، ولا حُجَّةَ إلَّا فى عقلٍ ، أَو فى كتابٍ ، أَو خبر .

فإن قالوا : فإِنْ كان الله إنَّما أَبانهم بالتعديل والتسوية للعبادةِ[٩] والاختيار ، فلِمَ قلتم : إنَّهم غير مأْمورينَ بإقامة الأَئمة والاختيار مع

(١) ب فقط : « لا لمن لم يعلم » ، تحريف .
(٢) فى النسختين : « أو أبى الرضا » ، صوابه فى ع .
(٣) فى النسختين : « آدابه » ، والوجه ما أثبت من ع .
(٤) هذا الصواب من ع . وفى النسختين : « ويسوى » .
(٥) فى النسختين : « فى سنه وتركيبه » ، تحريف .
(٦) فى النسختين : « وتجره » ، صوابه فى ع .
(٧) ع : « يتعالى » .
(٨) الآية ٥٦ من سورة الذاريات .
(٩) فى النسختين : « إنما أثابهم بالتعديل والتسوية للعباد » ، صوابه فى ع .

الأمة ، وحكمهم حكمُ المسلمين المتعبِّدين . وإنَّما الإمام إمام المسلمين المتعبِّدين ؟

قلنا : إنَّما يلزم الناسَ الأمرُ فيما عَرَفُوا سبيله . وليس للعوامِّ ـ خاصة ـ معرفةٌ بسبيل إقامة الأئمة[١] فيلزمَها ، أو يجرىَ عليها أمرٌ أو نهى .

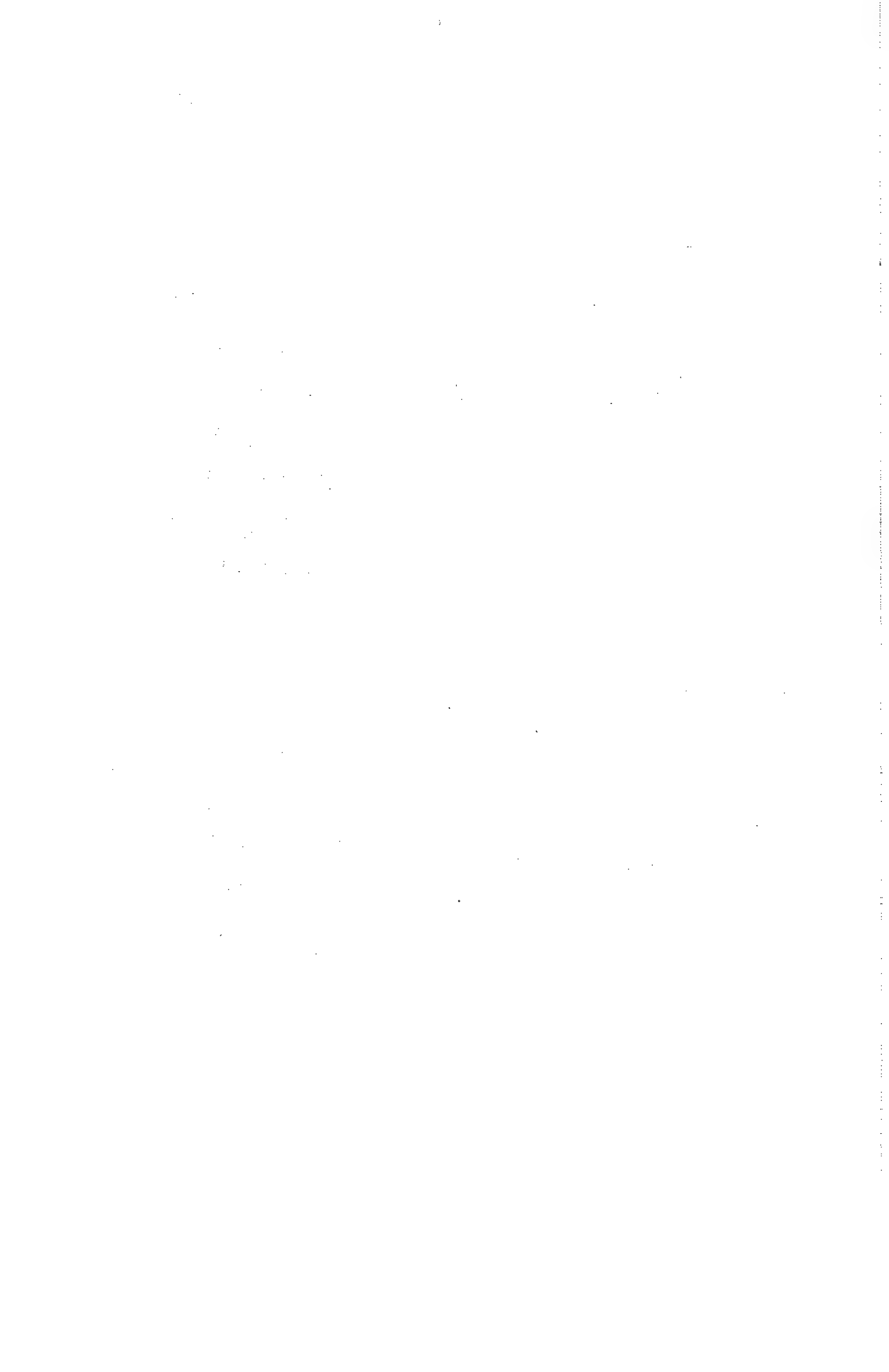
والعامّةُ وإن كانت تعرف جُمَل الدين بقدر ما معها من العُقول ، فإنَّه لم يبلغ من قُوَّة عُقولها ، وكثرةِ خَواطرها أن ترتفع إلى معرفة العلماء ولم يَبلُغْ من ضعف عقولها أن تَنحطَّ إلى طبقة المجانين والأطفال .

وأقدارُ طبائع العوامِّ والخواصِّ ، ليست مجهولة[٢] فيُحتاجَ[٣] إلى الإخبار عنها بأكثر من التنبيه عليها ؛ لأنَّكم تعلمون أنَّ طبائِع الرُّسل فوقَ طبائع الخلفاء ، وطبائعَ الخلفاء فوق طبائع الوزراء ، وكذلك النَّاسُ على مَنازلهم من الفَضْل ، وطَبقَاتهم من التركيب ، فى البخل والسَّخاء ، والبلادَة والذكاء ، والغَدْر والوفاء ، والجُبن والنَّجدة ، والصَّبرِ والجزَع ، والطَّيش والحِلم ، والكِبْر والتِّيه ، والحِفْظ والنِّسيان ، والعِيِّ والبيان .

ولو كانت العامَّة تعرف من الدِّين والدُّنيا ما تعرف الخاصَّة ، كانت العامَّة خاصَّةً ، وذهب التَّفاضُل فى المعرفة ، والتَّباين فى البنْية . ولو لم يخالف بين طبائِعهم لسقط الامتحان وبطل الاختيار ، ولم يكن فى الأرض اختيار ، وإنَّما خولف بينهم فى الغريزة ليَصبِرَ بها صابرٌ[٤] ، ويشكُرُ شاكر ، وليتَّفقوا على الطَّاعة ، ولذلك كان الاختلاف ، وهو سبب الائتلاف .

---

(١) ب : « معرفة السبيل إقامة الأئمة » م : « معرفة لسبيل » ، وأثبت ما فى ع .
(٢) فى النسختين : « وليست مجهولة » ، والواو مقحمة .
(٣) ع : « فنحتاج » .
(٤) ع : « ليصبر صابر .



١٣

من كتابه في

المسائل والجوابات في المعرفة

١ ــ فصــل

من صدر كتاب المسائل والجوابات فى المعرفة(١)

بالله نستعين ، وعليه نتوكَّل ، وما توفيقنا إلا بالله .

اختلف الناس فى المعرفة اختلافاً شديداً ، وتباينوا فيها تبايناً مُفْرطاً . فزعم قومٌ أنَّ المعارفَ كلَّها فعلُ الفاعلين إلَّا معرفةً [لم(٢)] يتقَدمها سبب منهم(٣) ، ولم يوجبها علّةٌ(٤) من أفعالهم . ولم يرجعوا إلى معرفة الله ورسوله ، والعلم بشرائعه ، ولا إلى كل مافيه الاختلاف والمنازعة ، وما لا يُعرَف حقائِقُهُ إلَّا بالتفكُّر والمناظرة ، دون دَرك الحواسِّ الخمس .

فزعموا أنَّ ذلك أَجمَعَ فِعلُهم ، على الأسباب الموجبةِ(٥) ، والعِلَل المتقدِّمة ، وجعلوا مع ذلك سبيلَ المعرفة بصدق الأخبار ، كالعلم بالأمصار القائمة ، والأيَّام الماضية ، كبدرٍ وأُحُد والخندق ، ، وغيرِ ذلك من الوقائع والأيَّام ، وكالعلم بفَرْغَانة(٦) والأَندلُس ، والصِّين والحَبَشة ، وغيرِ ذلك من القُرى والأمصار ــ سبيلَ الاكتساب(٧) والاختيار ؛ إذْ كانوا(٨) هم الذين نَظَروا حتَّى عرفوا فَصْل مابينَ المجىء الذى لايكذب مثله ، والمجىء الذى يمكن الكِذبُ فى مثله .

---

(١) هذا الكتاب لم ينشر من قبل ، كما سقط من نسخة ط ، فالمقابلة هنا بين نسختَى المتحف البريطانى والتيمورية فقط : ب ، م

(٢) تكملة يقتضيها الكلام .

(٣) ب : « سبب منه » .

(٤) ب : « عليه » .

(٥) ب : « المرجية » ، صوابه فى م .

(٦) فرغانة : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان ، كما ذكر ياقوت . وهى بفتح الفاء .

(٧) ب ، م : « وسبيل الاكتساب » ، والوجه ما أثبت .

(٨) ب : « إذا كانوا » .

فزعموا أنَّ جميع المعارف سبيلُها سبيلٌ واحد ، ووجوه دلائِلها وعِللها متساوية ، إلَّا ما وَجَدَ الحواسَّ بغتةً ، ووَرَدَ على النُّفوس فى حال عجز أو غَفْلة ، وكان هو القاهر ، للحاسَّة ، والمستولىَ على القُوَّة ، من غير أن يكون من البصر فتحٌ ، ومن السمع إصغاءٌ[1] ومن الأنف شمٌّ ، ومن الفم ذَوْقٌ ومن البَشَرةِ مسٌّ[2] ، فإن ذلك الوجود فعلُ الله دونَ الإنسان ، على ما طُبع عليه البشر ، وركِّب عليه الخلق .

قالوا : فإذا كان دَرْك الحواسِّ الخَمْسِ إذا تقدَّمته الأَسبابُ ، وأَوجَبتْه العلل فِعْلَ المتقدِّم فيه والمُوجِب له ، ودَرْكُ الحواسِّ أَصلَ المعارف ، وهو المستشهَدُ على الغائب[3] ، والدليلُ على الخَفِىِّ ، وبقدر صحَّته تصحُّ المعارف ، وبقدرِ فسادِهِ تَفْسُدُ[4] — فالذى تستخرجه الأَذهانُ منه ، وتستشهده عليه ، كعلم التوحيد ، والتعديل والتجوير[5] ، وغامضِ التأْويل ، وكلُّ ما أَظهرته العقولُ بالبحث ، وأَدركته النُّفوس بالفِكرِ من كلِّ علم ، وصِناعةِ الحساب والهندسة ، والصِّياغة[6] والفِلاحة — أَجدَرُ أَنْ يكونَ فِعلَه والمنسوبَ إلى كَسْبه .

قالوا : فالدَّليل على دَرْك الحواسِّ فعلُ الإنسانِ على ما وصفنا واشترطنا[7] ، من إيجاب الأَسباب ، وتقدُّم العلل : أَنَّ الفاتحَ بَصَره لو لم يَفْتَح لم يُدرِك . فلمَّا كان البصر قد يوجد مع عدم الإدراك ، ولا يُعدَم الإدراك مع

---

(١) ب : « الصغا » م : « صفاء » ، صوابهما ما أثبت .

(٢) البشرة : ظاهر الجلد ، وجمعه بشر . وفى ب : « ومن البشر » .

(٣) ب : « وهو المتشهد على الغائب » ، صوابه فى ع .

(٤) فى النسختين : « وبعد صحته » وكذلك : « وبعد فساده » ، والوجه ما أثبت مما هو لغة الجاحظ .

(٥) فى النسختين : « والتحوير » ، والوجه أثبت . وانظر ما سبق فى ص ٣٣ ، ٤٠ .

(٦) ب : « والصباغة » بالباء الموحدة .

(٧) ب : « واشترطا » ، صوابه فى م .

وجود الفَتْح ، كان ذلك دليلاً على أنَّ الإدراك إنَّما كان لعلَّة الفتح ، ولم يكن لعلَّة البَصر ؛ لأنَّه لو كان لِعلَّةِ صحَّةِ البصر كانت الصحَّة لا تُوجَد أبداً إلَّا والإدراك موجودٌ[١] . فإذا كانت الصِّحَّة قد تُوجد مع عدم الإدراك ، ولا يُعْدَم الإدراك[٢] مع وجود الفتح ، كان ذلك شاهداً على أنَّه إنَّما كان لعلَّة الفتح دونَ صِحَّة البصر .

وقالوا : ولأَنَّ طبيعةَ البصر قد كانت غير عاملة حتَّى جعلها الفاتح بالفتح عاملة ، ولأَنَّ الفتح علَّةُ الإدراك ومقدِّمة بين يديه ، وتوطِئَةٌ له . وليس الإدراك علَّةً للفتح ولا مقدِّمة بين يديه ، ولا توطئةٌ له ، فواجبٌ أن يكونَ فعلَ الفاتح ، لأَنَّ السبب إذا كان مُوجِباً فالمسبَّب تبعٌ له .

٢ — فصل منه

ثم قالوا بعدَ الفراغِ من دَرْك الحواس فى معرفة الله ورسولِه وكلٍّ ما فيه الاختلافُ والتنازعُ ، أنَّ ذلك أجمَعَ لا يخلو من أحد أمرين :

إمَّا أن يكونَ يحدُثُ من الإنسان لعلَّةِ النظر المتقدِّم ، أو يكونَ يحدثُ على الابتداءِ ، لا عن علَّةٍ موجبةٍ وسببٍ متقدِّمٍ .

فإن كانوا أحدثوه على الابتداءِ ، فلا فِعَل[٣] أولى بالاختيار ، ولا أَبعَدَ من الاضطرار منه .

وإن كان إنَّما كان لعلَّة النَّظرِ المتقدِّم ، كما قد دلَّلْنا فى صدر الكلام على أنَّ درك الحواس فعلُ الإنسان إذا تقدَّم فى سببه ، فالعلمُ

(١) فى النسختين : « موجوداً » ، صوابه ما أثبت .
(٢) ب : « ولا يعجم الإدراك » ، صوابه فى م .
(٣) فى النسختين : ولا فعل » ، وإنما هو جوابه ماتقدم .

بالله وكتبِه ورسله أجدرُ أن يكون فعلَهُ . إذ كانَ[١] من أجل نَظَرِهِ علم ، ومِنْ جهةِ بحثه أَدرَك .

فهذه جملُ دلائِل هؤلاءِ القوم . ورئيسُهم بِشْرُ بن المُعتَمِرِ .

ثم هم بعد ذلك مختلفون فى دَرْكِ الحواس إلَّا مااعْتَمَدَ إدراكَه بعينه وقَصَد إليه بالفتح والإرادة ؛ لأَنَّ الفتحَ نفسَه لو لم يكن معه قصدٌ وإرادةٌ ما كان فعلَ الفاتح . فكيف يجوز أن يكون الإدراكُ فِعلَه من غير قصد .

ولو جاز أَن يكون الفتحُ فِعلَ الإنسان من غير أَن يكون أَرادَهُ وقصَدَ إليه ، ماكان بين فِعلِ الإنسان وبين فعلِ غيرِه فرقٍ ؛ لأَنَّه كان لايجوز أَن يكون ذَهابُ الحجَر إذا لم يدفَعْه ، ولم يقصِدْ إليه ، ولم يَخْطُر له على بالٍ ، فِعلَه . فكذلك الإدراكُ إذا لم يَخْطُر على باله ، ولم يقصِدْ إليه ، ولم يتعمَّده ، لا يكون فعلَه .

٣ — فصــل منه

وليس على المخبر بقصَّةِ خَصْمه[٢] والواصف لمذهب غيرِه[٣] ، أَن يجعل باطلهم حَقًّا ، وفاسدَهم صحيحاً ، ولكن عليه أَن يقول بقَدْر ما تحتمله النِّحلة ، وتتَّسع له المقالة ، وعليه أَن لا يحكيَ عن خصمه ويُخبرَ عن مخالِفِهِ إلَّا وأَدنى مَنازِله أَلَّا يَعجِزَ عمَّا بلغوه ، ولا يَغْبَى[٤] عمَّا أَدركوه .

---

(١) فى النسختين : « أو كان » ، والوجه ما أثبت .

(٢) فى النسختين : «المخبر نفسه خصمه» ، تحريف . وسيأتى فى آخر الفصل : « ألا يحكى عن خصمه » . فهذا أقرب تصحيح .

(٣) ب : « مذهب غيره » .

(٤) ب : « يعبا » م : « يعبأ » ، والوجه ما أثبت .

٤ – فصل منه

وقد زعَم آخَرون أنَّ المَعارفَ ثمانية أَجناس : واحدٌ منها اختيارٌ، وسبعةٌ منها اضطرار . فخمسة منها دَرْك الحواسِّ الخمس ، ثم المعرفةُ بصِدق الأَخبار ، كالعلم بالقُرَى والأَمصار ، والسِّيَرِ والآثار ، ثم معرفةُ الإِنسان إذا خاطبَ صاحبَه أَنَّه موجِّهٌ[(١)] بكلامه إليه ، وقاصدٌ به نحوه.

وأَمَّا الاختيار فكالعلم باللهورُسلِه، وتأْويلِ كتابه، والمُستنبَطِ من علم الفُتيا وأَحكامِه ، وكلٍّ ما كان فيه الاختلاف والمنازعة[(٢)] . وكان سبيلُ علمه النَّظرَ والفِكرة . ورئيس هؤلاءِ أَبو إسحاق .

وزعم مُعمَّر[(٣)] أَنَّ العلم عشرةُ أَجناس: خمسةٌ منها دَرْك الحواسّ، والعِلم السادس كالسِّير الماضية والبُلدان القائمة ، والسَّابع : علمُك بقصْد المخاطِب إليك وإرادتِه إيَّاك ، عند المحاوَرَة والمُنازعَة . وقبل ذلك : وجُود الإنسانِ لنفسِه، وكان يجعلُه أَوَّلَ العلوم ، ويقدِّمُه على دَرْك الحواس. وكان يقول : ينبغي أَن يقدَّم وُجُودُ الإنسانِ لنفسِه على وُجوده لغيره . وكان يجعله علماً خارجاً مِن دَرْك الحواسّ ؛ لأَنَّ الإِنسان لو كان أَصمَّ[(٤)] لأَحسَّ نفسَه ولم يحسَّ [صوته ، ولو كان أَخْشَمَ[(٥)] لأَحَسَّ نفسَه ولم يُحسَّ[(٦)]]رائحتَه. وكذلك سبيل المذاقات والمَلامس . فلما كان المعنى

---

(١) ب : « أن موجبه » ، م : « أنه موجبة » ، صوابهما ما أثبت .
(٢) فى النسختين : « اختلاف والمنازعة » ، والوجه ما أثبت .
(٣) معمر بن عباد السلمى ، بتشديد الميم ، كما سبق فى ترجمته ٣ : ٢٨٧ .
(٤) فى النسختين : « لوكان عمى » ، والوجه ما أثبت .
(٥) الأخشم من الخشم ، بالتحريك ، وهو ألا يجد ريح طيب ولا نتن .
(٦) التكملة من م فقط .

كذلك وجب أن يُفرَد من دَرْك الحواسّ، ويُجعَلَ عِلماً تامناً على حِيَالِه[١] وقائماً بنفسه[٢] .

ثم جعل العلم التاسعَ : علمَ الإنسان بأنَّه[٣] لا يخلو من أن يكون قديماً أو حديثاً .

وجعل العلم العاشرَ : علمَه بأنَّه مُحْدَثٌ وليس بقديم .

٥ – فصل منه

ولست آلُو جُهدًا فى الكلام والإيجاز[٤] فى الإدخال على بِشر بن المعتمر فى دَرَك الحواسّ ، ثم على أَبى إسحاقَ[٥] فى ذلك ، وفى غيره ممَّا ذكرتُ من مذاهبه ، وتركهِ قياسَ مابَنَى عليه إن شاء الله ، لنصير إلى الكلام فى المعرفة ، فإنِّى إليه أجريتُ ، وإيَّاه اعتقدت ، ولكنِّى أحببت أنْ أُبْدِىَ فسادَ أصولهم[٦] قبل فروعهم ، فإنَّ ذلك أَقتلُ للدَّاءِ[٧] وأَبلغ فى الشِّفاء ، وأَحْسَمَ للعِرْق ، وأَقطَعَ للمادَّة ، وأَخفُّ فى المؤونة على من قرأ الكتاب ، وتدبَّر المسألة والجواب . وبالله ذى المَنِّ والطَّول نستعين .

---

(١) على حياله ، أى وحده . وأصل الحيال خيط يشد من حزام البعير المقدم إلى حزامه المؤخر . وفى النسختين : « خياله » ، تحريف .

(٢) ب : « وقائلا بنفسه » ، صوابه فى م .

(٣) فى النسختين : « فإنه » ، تحريف ما أثبت .

(٤) فى النسختين : « ولست الواجد ذا الكلام والإيجاز » .

(٥) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .

(٦) ب : « أن ابرى إفساد صولهم » م : « أن أبرأ فساد أصولهم » ، والوجه ما أثبت .

(٧) فى النسختين : « أقبل للداء » ، تحريف .

٦ – فصـــــل

من رده على أبي إسحاق النظام وأصحابه

يقال لهم : حدِّثونا عن العلمِ بالله ورسولِه وتأويلِ كتبه ، وعن علم القَدَر وعلم المشيئة ، والأسماء والأحكام . أبِاكتِسَابٍ هو أم باضطرار ؟

فإن زعموا أنَّه باكتسابٍ قيل لهم : فَخبِّرونا عن علمكم بأَنَّ ذلك أجمع اكتساب ، أباكتسابٍ هو أم باضطرار ؟ فإن قالوا : باكتساب . قيل لهم : أَو ليس اعتقادُ خلافِ ذلكِ أجمعَ باكتساب ؟

فإن قالوا : نعم . قيل لهم : فإذا كان اعتقادُ الحقِّ واعتقادُ الباطلِ باكتسابٍ أفليس كلٌّ واحد من المكتسبين عند نفسه على الصَّواب ؟

فإذا قالوا : نعم . قيل لهم: [أَوَ ليسَ كلٌّ واحدٍ منهما ساكنَ القلبِ إلى مذهبِهِ واختياره ؟

فإذا قالوا نعم قيلَ لهم[1]] : فما يؤمن المحقَّ من الخطَإِ ؟ وليس سكونُ القلب وثقَتُه علامةً للحقّ ، لأَنَّ ذلك لو كان علامةً لكان المبطلُ محقًّا ، إذْ كان[2] قد يجدُ من السُّكون والثِّقة ما لايجدُ المحقّ .

وقلنا[3] : وما معنى خلافِهِ إلَّا أنْ يكون المبطل شاكًّا ، أو يكونَ عارفاً بتقصيره ، أَو يكونَ مكترثاً لوهْنٍ يجده . فإذا لم يكن كذلك فلا فرق بين المعقودين .

---

(١) التكملة من م .

(٢) ب : « إذا كان فيه » ، تحريف .

(٣) وقلنا ، استمرار للكلام السابق . وفى النسختين « قلنا » بدون واو .

فإن قالوا : إنَّ فرق مابينهما أنَّ سُكُونَ[١] قلبِ المحقِّ حقٌّ فى عينه ، وسكونَ قلب المبطل باطلٌ فى عينه .

قلنا : أوَ ليس ذلك غيرَ محوِّل لسكون المبطل عن الثِّقة إلى الاضطراب ولا مغيِّرهِ إلى الاكتراث ؟

فإذا قالوا ذلك ، قيل لهم : فما يُؤمن المحقَّ أن يكون سكونُه أيضاً باطلاً فى عينه إذا كان سكونُه لا ينقص[٢] عَنْ سكون المُبْطِل . ولئن كان [فرق[٣]] السُّكون بينهما ظاهرَ الاجتهاد والعبادَة[٤] ، فمن أَظْهَرُ اجتهاداً من الرُّهبان فى الصَّوامع ، والخوَّارجِ فى بَذْل النفوس ؟

فإن قالوا : الفَرق بينهما أنَّ المحقَّ قد استشهد الضرورات ، والمبطل لم يستشهدها[٥] .

قلنا : فهل يجوز أن يكون عند نفسه قد استشهد الضَّرورات[٦] . حتَّى لو سأله سائلٌ فقال : ما يُؤْمنك من الخطأ ؟ لقال : استشهادى للضَّرورات .

فإن زَعَموا أنَّ المبطل لا يجوز أن يكون عند نفسه قد استشهَدَ الضرورات ، لأنَّ ذلك هو علامةُ الحقّ ، والفَصْلُ بينه وبين الباطل .

قلنا : وهل رأيتم أحداً اكتسَب علماً قطُّ ، أو نَظَر فى شَىْءٍ[٧] إلاَّ وأوَّلُ نظرِهِ إنَّما هو على أصل الاضطرار ؛ لأنَّ المفكِّر لا يبلُغُ من جهله

---

(١) فى النسختين : « أن سيكون » صوابه ما أثبت .
(٢) ب : « لاينفصل عن » ، م : « لاينفصل من » ، والوجه ما أثبت .
(٣) بمثلها يلتمّ الكلام .
(٤) فى النسختين : « والعبارة » ، تحريف .
(٥) ب : « لم يستشهدما » تحريف . والكلام بعده إلى : «الضرورات» التالية ساقط من ب .
(٦) بعده فى ب فقط : « أو لم يستشهد ها » وهو تكرار لما سبق .
(٧) ب : « ونظر فى بشىء » ، صوابه فى م .

أن يستشهد الخفىّ ، بل من شأنِ النَّاسِ أن يستدلُّوا بالظَّاهر على الباطن إذا أرادُوا النَّظرَ والقياس ؛ ثم هم بعد ذلك يخطئون أو يصيبون .

وقلنا[١] : فينبغى أن يكون كلُّ مبطلٍ فى الأرض قد علِمَ حين يقال له : ما يُؤمنك أن تكون مبطلا ؟ أنَّه لم يستشهد الضَّرورات ، وأنكر أصله الذى قاسَ عليه واستنبط منه ضرورةً ، وأنَّه إنَّما قال بالعسف أو بالتقليد . وإذا كانوا كذلك فهل يخلو أمرهم من أنْ يكونوا قد علموا أنَّهم على خطَاءٍ[٢] أو يكونوا شُكَّاكاً ، أو يكونوا عند أنفسهم مستشهدين للضَّرورات ، وإنْ كانوا قد تركوا ذلك عند بعضِ المقدَّمات . فإن كانوا قد علموا أنَّهم لم يَستشهدوا الضَّروريَّات ، وإن كانوا شُكَّاكاً فيها ؛ فليس على ظهر الأرض مخطىءٌ إلاَّ وهو عالمٌ بموضع خَطَائِه ، أو شاكٌّ فيه . أو كانوا عند أنفسهم مستشهدين للضرورات ، فما يؤمنكم **أن** تكونوا كذلك ؟

فإن قالوا : ليس أحدٌ يعرف أنَّ علامة الحقِّ استشهادُ الضروراتِ غيْرَنا .

قلنا : أولستم[٣] معشرَ أبى إسحاقَ النظام تختلفون[٤] فى أمور كثيرة ، وقد كنتم تخالفون صاحبكم خلافاً كثيراً ، وكلُّكم إذا سأله سائل : ما يُؤْمنك أن تكونَ على باطل[٥] ؟ قال : لأنِّى مستشهِدٌ للضَّرورات . فهل

(١) استمرار الكلام السابق . وفى النسختين : « قلنا » بدون واو .
(٢) الخطاء ، كسحاب : الخطأ ، وهى كثيرة فى لغة الجاحظ . ب : « خطأ » .
(٣) فى النسختين : « ولستم » ، وإنما هو استفهام .
(٤) ب : « يختلفون » ، صوابه فى م .
(٥) فى النسختين : « إذا سأله سائل يؤمنك أن يكون على باطل » . والوجه ما أثبت .

يخلو أمرُكم من أحد وجهين : إمَّا أن تكونوا صادقين على أنفسكم ، أو كاذبين عليها ؟

فإن كنتم صادقين فقد صار قلبُ المحقّ كقلب المُبْطل ؛ إذْ كان كلُّ واحد عندَ نفسه مستشهدًا للضرَّورات .

وإن كنتم كاذبين فهل منكم محقٌّ إلَّا وهو يَلقَى الخَصمَ بمثل دعواه فى استشهاد الضرورات ؟ وهل منكم واحدٌ على حيَالِه[1] محقًّا أو مبطلا إلَّا وجوابُه لنا مثلُ جوابِ صاحبه . فإذا كانت[2] القلوب قد تكون عند أنفسها مستشهدةً للضَّروراتِ ، وهى غيرُ مستشهدة لها ، وكونُ القلب كذلكِ هو علامة الحقّ ، فما الفرق بين قلب المحقِّ والمبطل[3] ؟ ومع ذلك إنَّا وجدنا صاحبَكم قبلكم وَوجدناكم بعدَه قد رجعتم عن أقاويلَ كثيرة ، بعد أن كان جوابُكم لمن سألكم مَايُؤْمِنكم أن تكونوا على باطل ، أن تقولوا[4] : استشهادنا للضرورات[5] . ونحن لو سألناكم عمَّا رجعتم عنه ، فقلنا لكم : لعلَّكم على خطأٍ ، ولعلَّكم مِن هذه الأقاويلِ على غَرَر ، لم يَعْدُ جوابُكم استشهادَ الضرورات .

---

(١) ب : « حياله » بالموحدة ، صوابه فى م . وانظر ماسبق فى ٥٢ س ١ .
(٢) ب : « إذا كانت » ، وأثبت ما فى م .
(٣) ب : « القلب المحق والمبطل » .
(٤) ب : « أن يقولوا » تحريف .
(٥) ب : « استشهدنا للضرورات » ، صوابه فى م .

٧ – فصل

من هذا الكتاب فى الجوابات

ثمّ إنّى واصلٌ[١] قولِى فى المعرفة ومجيبٌ خَصْمى فى معنى الاستطاعة وفى أىِّ أوْجُهِها[٢] يَحْسُنُ التكليف وتَثبت الحجَّة ؛ ومع أيِّها يسمُج التكليف[٣] وتسقط الحجّة .

فأوَّلِ ما أقول فى ذلك : أنَّ الله – جل ذكره – لا يكلِّف أحداً فعلَ شىءٍ ولا تَرْكَه إلَّا وهو مقطوعُ العُذْر ، زائل الحُجّة .

ولن[٤] يكون العبد كذلك إلَّا وهو صحيحُ البِنْية ، معتدلُ المِزاج ، وافِر الأسباب ، مُخَلَّى السِّرب ، عالمٌ بكيفيَّة الفعل ، حاضرُ النَّوازع ، معدَّل الخواطر ، عارفٌ بما عليه وله .

ولن يكون العبدُ مستطيعاً فى الحقيقة دونَ هذه الخصال المعدودة ، والحالاتِ المعروفة ، التى عليها مجارِى الأفعال ،ومن أجلها يكون الاختيار ولها يحسُن التَّكليف ، ويجب الفَرض[٥] ، ويجوز العقاب ، ويَحسُنُ الثواب .

ولو كان الإنسان متى كان صَحيحاً كان مستطيعاً ، لكان[٦] من لا سُلَّمَ له للصُّعود مستطيعًا .

---

(١) فى النسختين : « واصف » ، والوجه ما أثبت .
(٢) فى النسختين : « وجهها » ، صوابه ما أثبت .
(٣) فى النسختين : « ومع أنها يسمح التكليف » والوجه ما أثبت .
(٤) فى النسختين : « وإن » ، تحريف .
(٥) ب : « ويحبب » ، صوابه فى م .
(٦) فى النسختين : « لكن » ، صوابه ما أثبت .

ولن يكون أيضاً مع ذلك كلِّه للفعل مختاراً ، وله فى الحقيقة دون المجاز مستطيعاً ، إلَّا وجميع أوامرِهِ فى وزن جميع زواجرِه ، حتَّى إذا ما قابلت بين مَرجُوِّهما ومَخُوفهما ، وبين تقديم اللَّذَّة وخوف الآخرة ، وبين تعجيل المكروه وتأْميل العاقبة ، وجدتهُما فى الحدْر[١] والرَّفع ، وفى القَبْض والبسط سواءً .

ولا يكون أيضاً كذلك إلَّا وبقاؤُه فى الحال الثانية معلوم ، لأَن الفعلَ حارسٌ والطِّباع محروسة ، والنَّفْس عليها مُوقَفة . فإن كان الحارس أقوى من طباعها كان ميلُ النفس معه طِباعاً ؛ لأَنَّ مِن شأْن النَّفس الميلَ إلى أَقوى الحارسين ، وأَمْتَنِ السَّببين[٢] .

ومتى كانت القُوَّتان متكافئتين كان الفعلُ اختياريًّا ، ومن حَدِّ الغلبة خارجًا[٣] ، وإن كانت الغَلَبة تختلف فى اللِّين والشِّدَّة ، وبعضُها أَخفى وبعضُها أَظهر ، كفِرار الإنسان من وَهج السَّموم إذا لم يَحضُره دَواعِى الصَّبرِ ، وأَسبابُ المُكْث . وهو من لَهَب الحريق أَشدُّ نُفْرةً ، وأَبعدُ وثبةً ، وأَسرع حركة .

ومتى قويت الطَّبيعةُ على العقل أوهنَتْه وغيَّرتْه ، ومتى تَوهَّنَ وتغيَّر تغيَّرت[٤] المعانى فى وهمه[٥] ، وتمثَّلتْ له على غير حقيقتها . ومتى كان

---

(١) الحدر : نقيض الرفع . وفى النسختين : « الحذر » ، ووجهه ما أثبت . وفى م قبلها : « وجدتها » ، صوابه فى ب .

(٢) ب : « أقوى الحارس وأمتن التبيين » ، م : « أقوى الحارس وأمتن السببين » ، والوجه ما أثبت .

(٣) ب : « ومن وجد الغلب خارجاً » م : « ومن جد الغلبة خارجاً » و « الغلب » و « الغلبة » بمعنى واحد . وفى الكتاب العزيز : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون » . وصواب ما قبلها « ومد حد » بالحاء المهملة كما أثبت .

(٤) فى النسختين : « وتوهنت » ، وإنما هى جواب « متى » .

(٥) الوهم : خطرات القلب والعقل والفكر . ب : « وهنه » صوابه فى م .

كذلك كلَّ[١] عن إدراك ما عليه فى العاقبة ، وزَيَّنت له الشَّهواتُ رُكوبَ مافى العاجلة .

ومتى - أيضاً - فَضَلت قُوَى عقلِه على قُوى طبائِعه أوهنت طبائعَه ، ومتَى كانت كذلك آثر الحزْمَ والآجلة[٢] على اللَّذة العاجلة ، طبعاً لايمتنع منه ، وواجباً[٣] لا يستطيع غيره .

وإنَّما تكون النَّفسُ مختارةً فى الحقيقة . ومجانِبةً لفعل الطَّبيعة إذا كانت أخلاطُها معتدلةً ، وأسبابُها متساوية ، وعللُها متكافئةً ، فإذا عدَّل اللهُ تركيبَه وسوَّى أَسبابه ، وعرَّفه ما عليه وله ، كان الإنسان للعقل مستطيعاً فى الحقيقة ، وكان التكليفُ لازماً له بالحُجَّة .

ولولا أنَّك تحتاج إلى التَّعريف بأَنَّ المأْمور المنهىَّ[٤] لا بدَّ له من التسوية والتَّعديل لما قال الله تعالى : ﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفسٍ وَما سَوَّاهَا . فأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا[٥] ﴾.

ولو جاز أن يعلم موضعَ غَيِّها ورُشْدها من غير أن يسوِّيَها ويهيِّئها[٦] لكان ذكر التَّسوية فضلًا من القول . والله يتعالى[٧] عن هذا وشبهه علوًّا كبيراً .

---

(١) كل كلالا : ضعف وأعيا . وفى ب : « ومتى كان كذلك كان » وفى م : « ومتى كان كذلك » فقط . ووجههما ما أثبت .

(٢) الآجلة : الآخرة ، والمراد لذائذ الآخرة .

(٣) ب : « وواجب » ، صوابه فى م .

(٤) ب : « المأمور والمنهى » . والمراد أن الإنسان مأمور منهى معاً ، لا واحد منهما .

(٥) الآيات ٦-٨ من سورة الشمس .

(٦) ب : « ويهيئها » ، صوابه فى م .

(٧) م : « تعالى » . وانظر ماسبق فى ٢٤ : ٥ و ٤٢ : ٤ .

٨ – فصـــل

فى جواب من يسأل عن المعرفة باضطرار هى أم باكتساب

قلنا : إنَّ الناس لم يعرفوا الله إلّا مِن قِبَلِ الرُّسُل ، ولم يعرفوه من قِبَل الحركة والسُّكون ، والاجتماع والافتراق ، والزِّيادة والنُّقصان .

على أنَّا لا نشكُّ أنَّ رجالاً من الموحِّدين قد عرفوا وجوهاً من الدَّلالة على الله بعد أن عَرَفوه من قِبَل الرُّسُل ، فتكلَّفوا من ذلك مالا يجبُ عليهم ، وأصابوا من غامضِ العلم ما لا يَقدِر عليه عوامُّهم ، من غير أن يكونُوا تكلَّفوا ذلك لشكٍّ وجَدُوه ، أو حَيرةٍ خافوها ؛ لأنَّ أعلام الرُّسل مُقْنِعة ، ودلا ئِلهَا واضحة ، وشواهِدَها متجلِّية ، وسلطانَها قاهر ، وبُرهانَها ظاهر .

فإن قال : أباكتسابٍ علموا[1] صِدقَ الرُّسُلِ أم باضطرار ؟

قلنا : باضطرار .

فإن قالوا : فخبِّرونا عن مَن عايَنَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وحُجَّتَهُ ، والمتنبِّيَ وحيلتَه ، كيف يَعلم[2] صِدقَ النبيِّ من كذب المتنبِّى ، وهو لم ينظرْ ولم يفكِّر ؟

فإن قلتم : إنَّه نَظَرَ ، وفكَّر ، فقد رَجعتُم إلى الاكتساب .

وإن قلتم : إنَّه لم ينظُر ولم يفكِّر فلمَ عرَفَ الفَصْل بينهما دون أن يجهلَه ؟ وكيف علم ذلك وهو لا يعرف الحُجَّة من الحِيلة ؟ ومايُؤْمِنه

---

(١) ب : « عملوا » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « نعلم » بالنون .

أن يكون مبطلاً إذا كان لم ينظُرْ فى أُمور الدُّنيا ، ولم يختبر مَعانِيَها حتَّى يعرفَ الممتنعَ من الممكن ، وما لا يزال يكون بالاتِّفاق مما لا يمكن ذلك فيه ؟

وكيفَ ولم يعرف العادةَ ومَجرى الطبيعة وإلى أين تبلغُ الحيلة وأين تعجزُ الحيلة[١] ، وعند أىِّ ضربٍ يسقطان ، وعلى أىِّ ضرب يقومان ؟ ولِمَ عرَفَ صِدقَ النبى صلى الله عليه وسلم حين عاينَ شاهدَه وأبصَر أعاجيبَهُ ، من غير امتحانٍ لها[٢] وتعقُّبٍ لمعانيها ، دُونَ أن يعتقِدَ[٣] صدقَ المتنبِّى إذَا أُورِدَ عليه أعاجيبُه وخُدَعه وحِيَله ؟

بل كيف لم يعرف الله حين وقع بصرُه على الدُّنيا من غير فكرة فيها وتقليب لأمرها .

والدُّنيا بأَسرها دلالةٌ عمَّا عرف صدقَ النبىِّ حين أبصر دلالتَه من غير تفكير فيها أو تقليب لأمرها[٤] .

وقد علمنا أنَّ الدُّنيا دالَّةٌ على أنَّ شواهد النبى دالَّة ، ومتى كان ظاهر أحدِهما يُغنى عن التفكير كان الآخر مثلَه ، إذْ لم يكن فى القياس بينهما فرق ، ولا فى المعقول فضل .

قلنا : إنَّ تجاربَ البالغِ قبل أن يهجُمَ على دلالات الرُّسُل تأْتى على جميع ذلك[٥] . ولعمرى أنْ لو كان هجومُه عليها قَبْلَ المعرفةِ بمجارى وتصريف الدُّهور وعلاقاتِ الدنيا ، والتَّجربة لتصريف أُمورها ، لَمَا

(١) ب : « الحيلولة » ، صوابها فى م .

(٢) ب : « من غير أى امتحان لها » . (٣) ب : « يعقد » .

(٤) ب : « وتغلب لأمرها » ، صوابه فى م . والكلام بعده إلى « لأمرها » التالية ساقطة من م .

(٥) فى النسختين : « يأتى على جميع ذلك » ، والوجه ما أثبت .

وصل إلى معرفةِ صدق النبيِّ إلَّا بعدَ مقدَّمات كثيرة ، وترتيبات منزَّلة ؛ لأنَّ مُشاهِدَ الشَّواهِد إنما تَضطرُّه المشاهدةُ لما إذا كان قد جرَّب الدنيا ، وعَرَف تصرُّفها وعادَتَها قبل ذلك .

ولو لم يكن جَرَّبها قَبْلَ ذلك حين عرف منتهى قُوَّةِ بطشِ الإنسان وحيلتِه ، وعرفَ الممكنَ من الممتنع ، وما يمكن قولُه بالاتِّفاق مما لا يمكن، لما عَرَفَ ذلك .

فإنْ قالوا : وكيف جَرَّب ذلك وعَقَله ، وأتقنَهُ وحَفِظه ، وهو طفلٌ غَريرٌ وَحَدَثٌ صغير ؛ لأنَّ غير البالغ طِفلٌ إلى أن يبلغ ، وحين يبلغُ فقد هجم على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وشواهده ، أو هجم عليه النبيُّ بشواهده ، إمَّا بخبرٍ مُقْنع أو بعيانٍ شاف . فنى أيَّة الحالين جَرَّب وعَرَف ، ومَيَّز وحفِظ ، فى حال الطُّفولة والغَرارة ؟ وهذا غير معروف فى التَّجربة والعادة ، والذى عليه رُكِّبت الطَّبيعة .

أمَّا[1] فى حال البلوغ والتَّمام فحالُ البلوغ[2] هى الحال التى أبلغه الله الرسالة ، وقاده إلى رؤية الحُجَّة ، واستماعِ البرهان ومَخْرج الرِّسالة .

فإذَا كان الأمر ، كما تقولون فقد كان ينبغى أن لايصلَ إلى العلم بصدق النبيِّ وقد أراهُ برهانَه ، وأسمَعَه حُججَه ، حتَّى يمكث بعد ذلك دهراً يمتحن الدُّنيا ويتعقَّب أُمورها ، ويُعمِلَ التَّجربة فيها . فإن كان ذلك كذلك فلم سمَّيتموه بالغاً ، وليس فى طاقته بعدُ العلمُ يفَصْلِ مابين النبيِّ والمتنبِّى ؟

---

(١) فى النسختين : « أم » ، والوجه ما أثبت .
(٢) فى النسختين : « وحال البلوغ » صوابه ما أثبت .

قلنا : إنَّ التَّجربة على ضربين : أحدهما : أَن يقصد الرجل إلى امتحان شيء ليعرف مَخْبَره عمَّا عَرَف منظره.

والآخَر : أَن يهجُمَ على علمِ ذلك من غير قصدٍ.

وقد يسمَّى الإنسان مجرِّبًا، قاصداً أو هاجماً، فيزعم أَنَّ البالغ قد سقَطَ من بطن أُمِّه إلى أَن يبلغ، مُقَلَّبًا فى الأُمور المختلفة(١) ، ومُصرَّفًا فى خلال الحالات، بالمعرفة(٢) التى تُلْقحه الدُّنيا، بما تُوردُ عليه من عجائبها، ويزدادُ فى كلِّ ساعةٍ معرفةً ، وتفيده الأَيَّام فى كلِّ يومٍ تجربة ، كما يزداد لسانُه قُوَّةً ، وعَظْمُه صلابة ، ولحمُه شِدَّةً ، مِن أُمٍّ تُناغيه ، وظِئْرٍ تلهِّيه ، وطفل يلاعبُه ، وطبيبٍ يعالجه ، ونَفْسٍ تدعوه ، وطبيعةٍ تُعِينه ، وشَهوةٍ تبعثُه ، ووجع يُقْلِقُه ، كما يزيده الزَّمانُ فى قُوَّته ، ويشُدُّ من عظمه ولحمه ، ويزيدُه الغِذاءُ عِظَما ، وكثرةُ الغضب والتقليب جَلَدًا . فإذا دَرَجَ وحبا ، وضحك وبكى ، وأَمكنه أَن يكسِر إناءً أَو يُكفِئَهُ ، أَو يسوِّدَ ثوبًا ، أَو يضرب دابرة الخادم(٣) ، وانتهَرَه القَيِّمُ(٤) . فلا يزال ذلك دأْبَه ودأْبَهُم حتَّى يفهمَ الإِغراءَ والزَّجر ، والتَّغذيَة والانتهار ، كما يعرِفُ الكلب اسمَه إذا أَلحَّ عليه الكَلَّابُ به. وكما يَعرِف المجنون لقبَه ، وكما يُحضِرُ الفرَسُ من وَقْع السَّوط من كثرة وَقْعه بعد رفْعه عليه(٥) .

---

(١) فى النسختين : « المختلة » ، تحريف ، وفى م : « مقلب » .
(٢) فى النسختين : « المعرفة » .
(٣) كلمة « الخادم » ساقطة من م . وفى النسختين : « دبره » .
(٤) القيم : من يقوم على تربيته . والانتهار : شدة الزجر . وفى م : « وأن تهزه » تحريف .
(٥) انظر الحيوان ٧ : ٨٧ .

٩ ـ فصـــل منه فى هذا المعنى

فإذا استحكمت هذه الأُمورُ فى قلبه، وثبتت فى خَلَده[١] وصحَّتَ فى معرفته، فهو حينئذٍ بالغٌ محتمل. وعند ذلك يسخِّر الله سَمْعَه للخبَر المثْلِج، أو بَصَره لمعاينة الشاهد المُقْنع، على يدَىِ الرسول الصادق، ولا يَترُكُه هَمَلا، ولا يَدعُه غُفْلا[٢]، وقد عَدَّل طبعَه وأَحكم صُنْعَه، ووفَّر أَسبابَه، فلا يحتاجُ عند معاينته رسولًا يُحيِى الموتى، ويُبرِئ الأَكمَه والأَبرص، ويَفْلِقُ البحر، إلى تفكير، ولا تمييل[٣] ولا امتحانٍ ولا تجربة، لأَنَّه قد فرغ من ذلك أَجمع، واستحكم عنده العلمُ الذى أُدِّب به، وهُيِّئ له وأُورِدَ عليه.

فإن كان لم يكن لذلك عامدًا، ولا إليه قاصداً ولا به مَعْنِيًّا[٤]، وإنَّما هو عبدٌ عَبَّأَه سيِّده، ورشَّحه مولاه، وهيَّأه خالقُهُ لأَمرٍ لايَشعُر به من مصلحته، ولا يَخطر على بالِه من الصُّنْع له حين غَذَاه به، وقاده إليه، وهَيَّأَه له.

فإذا أُورِدَ عليه دعوى رسولٍ[٥]، وأُمَّتُهُ تشهدُ له بإحياءِ الموتى وفَلْق البحر، وبكلِّ شىءٍ قد عُرِفَ عَجْزُ البشَرعن فعلِهِ والقُوَّةِ عليه،علم بتجاربِهِ المتقدِّمة بِعادة الدنيا، أَنَّ ذلك [ليس[٦]] من صنع البشر، وأَنَّ مثله

---

(١) الخلد، بالتحريك: البال، والقلب، والنفس، ب: «وثبت»، صوابها فى م.

(٢) الغفل، بالضم: من لا يرجى خيره ولا يخشى شره. وفى النسختين: «مغفلا»، وما أثبت هو لغة الجاحظ.

(٣) التمييل: أن يتردد بين الأمرين ويوازن بينهما. م: «تمثيل».

(٤) عنى بالأمر: اهتم به وشغل، فهو معنى. وفى النسختين: «مغيباً»، صوابه ما أثبت.

(٥) ب: «رسوله».

(٦) تكملة يفتقر الكلام إليها.

لا يقعُ اتِّفاقًا ، وأَنَّ الحِيَلَ لا تَبلُغه ، فلا يمتنع مَعَ رُؤية البُرهان[(١)] وفَهْمِ الدَّعوى ، أن يعلم أَنَّ الرسولَ صادقٌ ، وأَنَّ الرادَّ عليه كاذب .

١٠ – فصــــل منه

ولولا أنَّ هذا كلامٌ لم يكن من ذكره بُدٌّ ، لأَنَّه تـأْسيسٌ لما بَعْدَه[(٢)] ، ومقدِّمةٌ[(٣)] لما بين يديه ، وتوطِئَةٌ له ، لاقتضبت الكلام فى المعرفة اقتضابا ، ولكن يمنعنى عجْزُ أَكثرِ النَّاسِ عن فهم غايتى فيه إلا بتنزيلهِ وترتيبه[(٤)] .

وكلُّ كلامٍ أُتيتَ على فَرْعِه ، ولم تُخْبَرْ عن أَصله فهو خِداجٌ لاغَنَاء عنده[(٥)] ، وواهنٌ لا ثباتَ له .

---

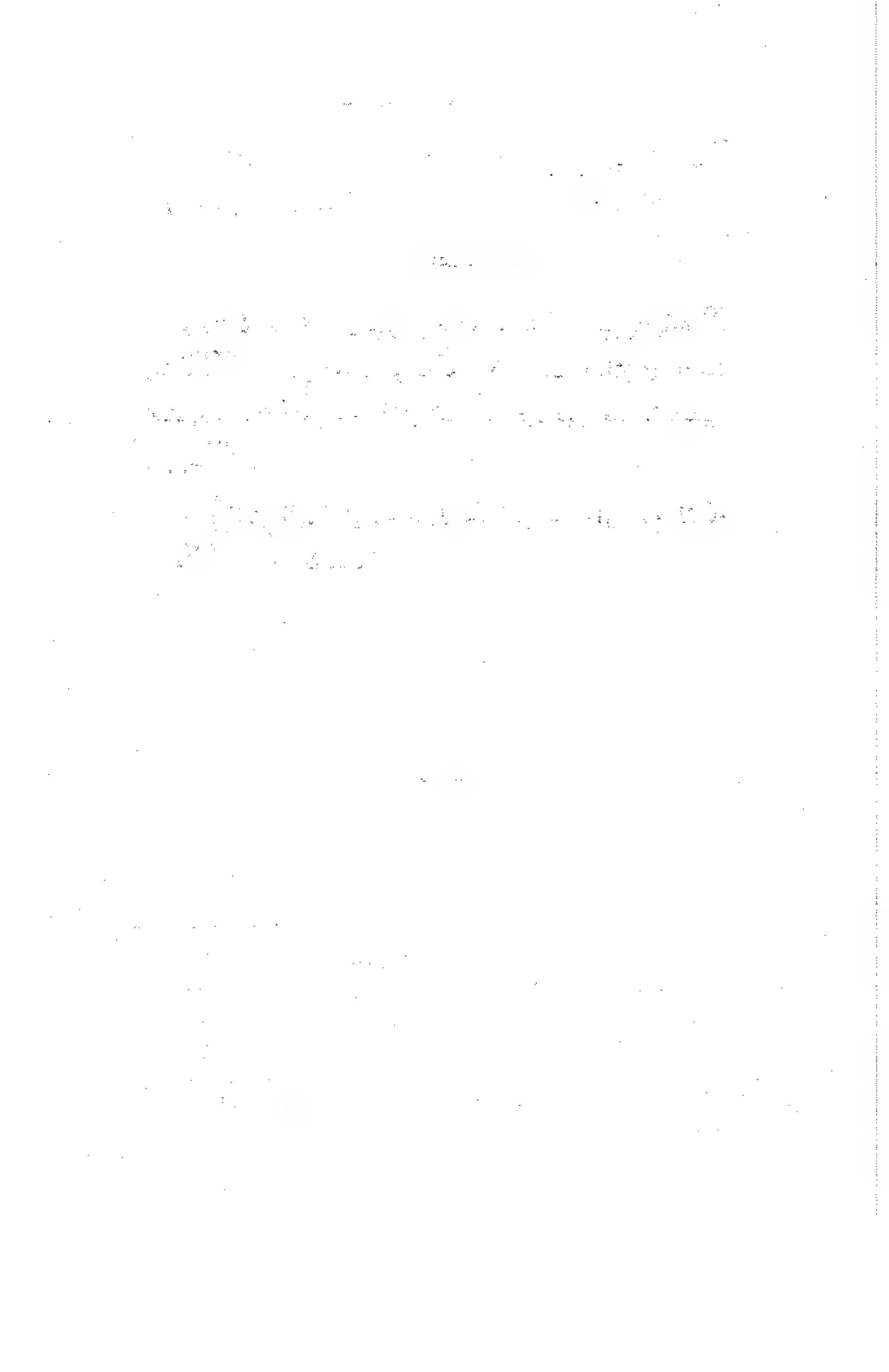
(١) فى النسختين : « من رؤية البرهان » . والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « بد لأنه لاتأسس لما بعده » م : « بدلالة لا تأسيس لما بعده » والصواب ما استخرجت منهما .

(٣) ب : « ومقدمته » ، صوابه فى م .

(٤) فى النسختين : « إلا تنزيله وترتيبه » ، تحريف .

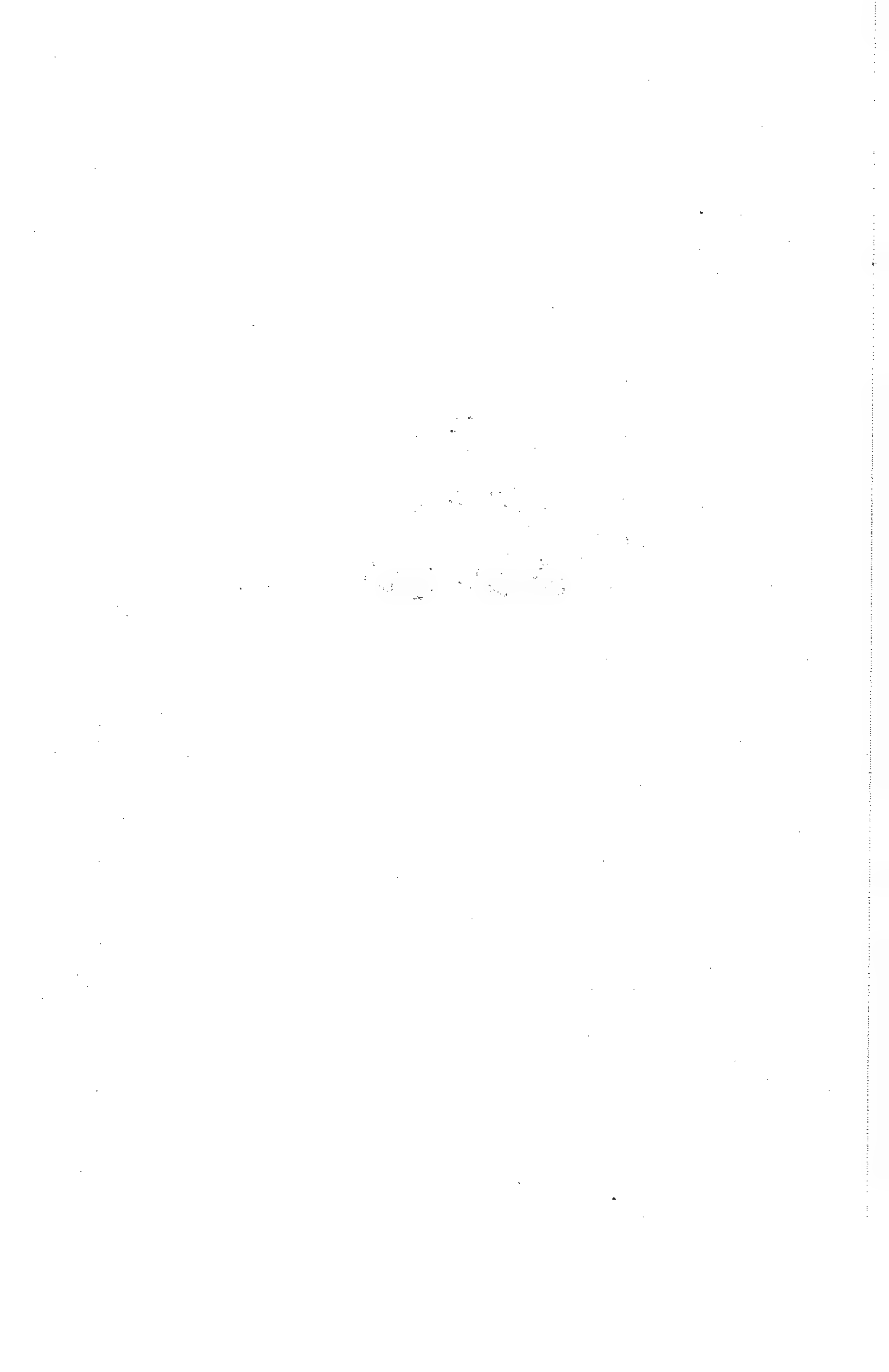
(٥) الخداج : الناقص . وفى الحديث : « كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج » ، أى ذات خداج ، وهو النقصان . والغناء ، بالفتح : النفع والكفاية . ب : « لاغنى عنده » م : « لاغيا عنده » ، تحريف .



١٤

من رسالة في

المعاد والمعاش



فصـــل

١ – من صدر كتابه فى المعاد والمعاش[١]

أمَّا بعدُ فإنَّ جماعاتِ أهل الحكمة قالوا :

واجبٌ على كلّ حكيم أن يُحسِنَ الارتياد لموضع البُغْية ، وأن يتبيَّن أسبابَ الأُمورِ ، ويمهِّدَ لعواقبها .

فإنَّما حُمِدت العلماءُ بحسن التثبُّت فى أوائِل الأُمور ، واستشفاقهم[٢] بعقولهم ما تجىء به العواقب[٣] ، فيعلمون عنداستقبالها ماتَؤُولُ به الحالاتُ فى استدبارها . وبقدر تفاوتهم فى ذلك تستبين فضائِلهم .

فأمَّا معرفةُ الأُمور عند تكشُّفها ، وما يظهر من خفيَّاتها . فذلك أَمرٌ يعتدلُ فيه الفاضل والمفضول ، والعالم والجاهل .

وإنِّى قد عَرَفْتُك – أكرمك الله – فى أيَّام الحَدَاثة ، وحَيْثُ[٤] سلطانُ الهوى المخلِّط للأَعراض أغلبُ على نظرائك ، وسُكرُ الشَّباب

---

(١) هذا الكتاب مما سقط من نسخة ط . وقد سبق نشره كاملا فى الجزء الأول من الرسائل ٨٧ – ١٣٤ . وعنوانه فيما سبق « المعاش والمعاد » . وقد لحظت فى الفصل الثانى من هذه الاختيارات أن الجاحظ قد قدم « المعاد » على « المعاش » كما هنا . والنص فيه : « فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش . وقد وجدت أن أكثر تصويباتى مطابقة لما فى الرسائل .

(٢) ب : « واشتقاقهم » ، صوابه فى م والرسائل .

(٣) فى النسختين : « ماتجرى به العواقب » ، والوجه ما أثبت ، كما فى الرسائل .

(٤) فى النسختين : « وخبث » ؛ صوابه ما أثبت من الرسائل .

والجِدَة[١] المتحيِّفِينِ للدِّين والمروءة مستولٍ على لِدَاتك[٢]. ففقتَهُم[٣] ببسطةِ المقدرة ، وحُميَّا الحَدَاثة ، وفضلِ الجِدة[٤] ، مع ما[٥] تقدَّمْتَهم به من الوَسامة فى الصورة ، والجمالِ فى الهيئة .

وهذه أسبابٌ تكاد أن توجبَ الانقيادَ للهوى ، وتُلجِّج فى المهالك[٦] ولا يسلم معها إلَّا المنقطع القرينِ فى صحَّة الفِطرة ، وكمال العَقْل . فاستعبدَتْهُم الشَّهواتُ حتَّى أعطَوْها أَزِمَّة أَديانهم ، وسلَّطوها على مُروءاتِهم وأباحُوها أَعراضَهم ، فآلت بأَكثرهم الحالُ إلى ذُلِّ العُدْم ، وفَقْدِ عِزِّ الغنى فى العاجل ، مع النَّدامة الطويلةِ والحسرةِ فى الآجل .

وخرجتَ نسيجَ وَحْدِك أَوحَدِيًّا[٧] فى نفسك ، حكَّمت وَكيلَ اللهِ عندك – وهو عَقْلُك – على هواك ، وألقيتَ إليه أزمَّة أمرِك ، فسلَكَ بك طريقَ السلامة ، وأسلمَكَ إلى العاقبة المحمودة ، وبلغَ بك من نيل اللَّذَّات أكثرَ ممَّا بلَغُوا[٨] ، ونالَ بك من الشَّهوات أكثر ممَّا نالوا ، وصَرَّفَك

(١) الجدة : الغنى الذى لافقر بعده ، يقال وجد يجد جدة : أيسر واتسعت حاله . يقول أبو العتاهية فى ديوانه ٤٤٨ :

* علمت يامجاشع بن مسعده *
* أن الشباب والفراغ والجده *
* مفسدة للمرء أى مفسده *

وفى النسختين : « الحدة » ، تحريف .

(٢) اللدات : جمع لدة ، وهو الترب المقارب فى العمر والولادة . وفى النسختين : « لذاتك » ، تحريف مافى الرسائل .

(٣) ب « ففقهتهم » ، صوابه فى م .

(٤) فى النسختين : « الحدة » بالمهملة . وانظر ماسبق فى الحواشى .

(٥) ب : « ممن » ، صوابه فى م .

(٦) المعروف لجج تلجيجاً : خاض اللجة . وكذلك لججت السفينة : أى خاضت اللجة . فهو فعل لازم . وقد استعمله الجاحظ هنا متعدياً . وفى الرسائل : « ولجج من المهالك » .

(٧) الأوحدى : نسبة إلى الأوحد ، أى الوحيد . الجوهرى : « يقال لست فى هذا فى هذا الأمر بأوحد ، ولا يقال للأنثى وحداء » . وفى النسختين : « أوحدياً » بالباء الموحدة ، صوابه ما أثبت من الرسائل .

(٨) فى النسختين : « أكثر مايلغوا » ، صوابه فى الرسائل .

من صُنوف النعم فى أكثَرَ ممَّا تصرفوا ، ورَبَط عليك من نِعَم الله التى خوَّلك ماأطلقَه من أيديهم إيثارُ اللَّهو[١] ، وتسليطُهم الهَوَى [على أنفسهم[٢]] فخَاضَ بك تلك اللُّجَجَ ، واستنْقَذَك من تلك المعاطب[٣] ، فأَخرجكَ سليمَ الدِّين ، وافر المُروءة ، نقيَّ العِرض ، كثير الثَّرَاء ، بَيِّنَ الجِدَة[٤]. وذلك سبيلُ مَن كان مَيْلُه إلى الله أكثرَ من مَيْلِهِ إلى هواه .

فلم أَزَلْ فى أحوالك كُلِّها تلك بفضيلتك عارفاً ، ولَكَ بنِعَم الله عندك غابطاً ، أرَى ظواهَر أمرِك المحمودَة تدعونى إلى الانقطاع إليك ، وأسأَل عن بواطن أحوالك[٥] فيزيدنى رغبة فى الاتِّصال بكَ ، ارتياداً منِّى لموضِع الخِيَرة[٦] فى الأُخُوَّة ، والتماساً لإصَابة الاصطفاء فى المودَّة ، وتخيُّراً لِمُستودَع الرَّجاءِ فى النائِبة .

فلمَّا مَحَصَتْك الخِبْرة[٧] ، وكشَفَ الابتلاءُ عن المحمدة ، وقضت لك التَّجارب بالتَّقدِمة ، وشهدت لك قلوبُ العامَّة بالقَبول والمحبَّة ، وقَطَع اللهُ عُذْرَ من كان يطلب الاتصال بك ، طلبتُ الوسيلةَ إليك والاتِّصال بحَبْلك ، ومَتَتُّ بحرمة الأَدب[٨] وذِمام كرمِك[٩] .

---

(١) فى النسختين : « من إيثار اللهو » ، والوجه ما أثبت من الرسائل .

(٢) التكملة من الرسائل .

(٣) المعاطب : المهالك . م : « المعاطف » ، صوابه من الرسائل .

(٤) ب : « كثير البر من الجدة » م : « كثير أكثر من الجدة » ، صوابهما ما أثبت من الرسائل .

(٥) هذا ما يقابل « ظواهر أمرك » السابقة . وفى النسختين : « تواطىء أحوالك » ، تحريف ما أثبت من الرسائل .

(٦) الخيرة : الاختيار . وفى النسختين : « لموضوع الخيرة » ، وإنما يرتاد الموضع والمكان ، فالصواب ما أثبت من الرسائل .

(٧) محصه محصاً ومحصه تمحيصاً : خلصه مما يشوبه أو يعيبه . ومثله مخضه مخضاً فهو ممحوض ومحض . وفى الرسائل : « مخضتك الخبرة » .

(٨) المت : التوسل بقرابة أو بحرمة . وفى النسختين : « وهتت » ، صوابه فى الرسائل .

(٩) الذمام : الحق والحرمة . ب فقط : « وزمام كرمك » ، تحريف .

وكان من نِعمة الله عندى أن جعل أبا عبدِ الله[١] ـ حفظه الله ـ وسيلتى إليك ، فوجدتُ المطلَبَ سهلاً ، والمُرَادَ محموداً ، وأَفضيتُ إلى ما يَجُوز الأُمنيَّة[٢] ويَفُوت الأمل . فوصَلْتَ إخاىَ بمودَّتك ، وخَلَطْتَنى بنفسِك ، وأَسَمْتَنى فى مَراعِى ذوِى الخاصَّة بك[٣] تفضُّلا لامجازاة ، وتطوُّلاً لا مُكافاة ، فأَمِنْتُ الخطوب ، واعتلَيْتُ على الزَّمان ، واتَّخذتُك للأحداث عُدَّةً ، ومن نوائب الدَّهر حِصناً منيعاً .

فلما جَرَت المُؤانَسةُ[٤] ، وتقلَّبْتُ من فضلك فى صنوف النِّعمة ، وزاد تصرُّفى فى مواهبك[٥] فى السُّرور والحَبْرة[٦] ، أَردت خِبْرَة المشاهدة فبلوتُ أَخلاقَك ، وامتحنتُ شِيَمك ، وعَجَمتُ مذاهِبَك ، على حينِ غَفَلاتِك ، وفى الأَوقات التى يقلُّ فيها تحفظُّك، أُراعى حركاتِك[٧] ، وأُراقب مخارجَ أَمرك ونهيك ، فأَرى [من[٨] [استصغارك لعظيم النعمة التى تنعم بها ، واستكثارِك لقايل الشُّكر من شاكريك ، ما أَعرِف به وبما قد بلوت من غيرك[٩] وما قد شهِدَتْ لى به عليك التجارب[١٠] ، أَن ذالك منك طبعٌ غير تكلُّف .

هيهاتَ مايكاد ذو التكلُّف أَنْ يَخْفَىَ على أَهل الغَباوة ، فكيف على مثلى من المتصفِّحين ؟

---

(١) الظاهر أنه أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد .

(٢) فى النسختين : «تجوز الأمنية » ، صوابه فى الرسائل .

(٣) فى النسختين : « بل » ، صوابه من الرسائل .

(٤) فى الرسائل : « حزت المؤانسة » .

(٥) فى الرسائل : « وزاد بصرى من مواهبك » .

(٦) الحبرة ، بفتح الحاء ، وبالتحريك : السرور ، كالحبور . وفى النسختين : « الخبرة » ، صوابه فى الرسائل .

(٧) ب : « جرآتك » م : « حراتك » ، صوابهما فى الرسائل .

(٨) التكملة من الرسائل .

(٩) فى النسختين : « أعرف بما قد بلوت من غيرك » ، فقط . وتكملة العبارة من الرسائل .

(١٠) م : « وماقد شهدت لى به التجارب عليك » . و « عليك » ساقطة من الرسائل .

٢ – فصــــل منه

ولم أزَلْ – أبقاك الله – بالموضع الذى عرفْتَ من جَمْع الكُتُب ودراستها والنَّظر فيها . ومعلومٌ أنَّ طُولَ دراستِها إنمَّا هو تصفُّح عقول العالمين ، والعلمُ بأَخلاق النبيِّين – صلوات الله تعالى عليهم أجمعين – وذَوِى الحكمة من الماضينَ والباقين من جميع الأُمم ، وكتبِ أهل الملل .

فرأيتُ أن أَجمَع لك كتاباً من الأَدب ، جامعاً لعلْمٍ كثيرٍ من أَمر المعاد والمعاش ، أَصِفُ لك فيه عِلَلَ الأَشياء ، وأُخبرُك بأَسبابها ، وما اتَّفقت عليه مَحاسِنُ الأُمم . وعلمتُ أنَّ ذلك من أَعظمِ ما أَبَرُّكَ به[1] ، وأرجحِ ما أَتقرَّبُ به إليك .

وكان الذى حدانى إلى ذلك[2] ما رأيت الله تعالى قسَمَ لك من العَقْل والفهم ، وركَّب فيك من الطبع الكريم .

وقد اجتمعت الحكماءُ على أنَّ العقل المطبوع والكرم الغريزىَّ ، لايَبلُغان غايةَ الكمال إلّا بمعاونة العقل المكتسب[3] ، ومثَّلوا ذلك بالنار والحَطَب ، والمِصباح والدُّهن ، وذلك أنَّ العقل الغريزىَّ آلة والمكتَسَب مادَّة ، وإنَّما الأَدب عَقْلُ غيرِك تزيدُه فى عقلك .

ورأَيتُ كثيراً من واضعى الأَدب[4] قبلى ،قد عهدوا إلى الغابرين بعدهم فى الآداب عهوداً قاربوا فيها الحقَّ ، وأَحسنوا فيها الدَّلالة . إلَّا

---

(١) ب : « ما أترك به » م : « مآثرك به » ، والوجه ما أثبت من الرسائل .

(٢) الرسائل : « على ذلك » .

(٣) فى النسختين : « إلا بمعاينة العقل المكتسب » ، صوابه فى الرسائل .

(٤) فى الرسائل : « الآداب » .

أنّي رأيتُ أكثَر مَا رسموا من ذلك فرُوعاً لم يبيِّنوا عِلَلَها . . وصفاتٍ حسنةً لم يَكشِفوا أسبابَها ، وأُموراً محمودة لم يدُلُّوا على أصولها .

فإنْ كانَ ما فعلوا من ذلك رواياتٍ روَوْها عن أسلافهم ، ووراثاتٍ وَرِثُوها عن أكابرهم فقد قاموا بأداءِ الأمانة ، ولم يَبلُغوا فَضِيلةَ مَن [طَبَّ لِمَن](١) استطبَّ ، وإنْ كانوا تركوا الدَّلالةَ على علل الأُمور ، التى(٢) بمعرفةِ عِلَلها يُوصَل إلى مباشرة اليقين فيها ، ويُنْتَهَى إلى غاية الاستبصار مِنْها ،فلم يَعْدُوا فى ذلك مَنزلةَ الظنِّ بها(٣) .

ولم تَجِدْ(٤) وصايا أنبياءِ الله تعالى أبداً إلّا مبيَّنة الأسباب ، مكشوفةَ العلل ، مضروبةً معها الأمثال .

٣ — فصل منه

ولن أَدَعَ(٥) من تلك المواضع الخفيَّة موضعاً إلاَّ أقمتُ لك بها(٦) بإزاءِ كلِّ شبهة منه دليلاً ، ومع كلِّ خفيٍّ من الحقِّ حجةً ظاهرة ، تستنبطُ بها(٧) غوامضَ البرهان ، وتستثير بها(٨) دفائن الصواب ، وتستشفُّ بها سرائر القُلوب(٩) ، فتأْتى بما تأْتى عن بيِّنة ، وتَدَعُ ماتدَع

---

(١) تكلة ضرورية . طب : وصف الدواء والعلاج . واستطب : طلب ذلك .

(٢) فى النسختين : « والتى » ، والواو مقحمة .

(٣) فى النسختين : « الضن بها » ، صوابها فى الرسائل .

(٤) فى الرسائل : « ولن تجدوا » .

(٥) الرسائل : « فلم أدع » .

(٦) بها ، من م . وليست فى ب ولا الرسائل .

(٧) فى النسختين : « يستنبط به » ، والصواب ما أثبت . وقد استمرت العبارة فى النسختين إلى آخر هذا الفصل بالتعبير بالغيبة ، وإنما هو خطاب كما فى الرسائل .

(٨) ب : « ويستثنى بها » ، م : « ويستثير بها » ، والوجه ما أثبت . وفى الرسائل : « وتستبين بها دقائق الصواب » .

(٩) فى النسختين : « ويستشف بها سوائر القلوب » ، والوجه ما أثبت .

عن خِبْرة . ولا يكون بك وحشةٌ إلى معرفةِ[(١)] كثيرٍ ما يغيب عنك إذا عرفتَ العلل والأسباب ، حتّى كأنّكَ مشاهدٌ لِضميرِ كلِّ امرئٍ لمعرفتك بَطْبعِه ومارُكِّب عليه .

٤ ــ فصــل منه[(٢)]

اعلمْ أنّك إذا أهملتَ ما وصفتُ لك عرضتَ تدبيرَك إلى الاختلاط ، وإن آثَرتَ الهُوَيْنَى ، واتّكلت على الكفاية فى الأمر الذى لا يجوز فيه إلاّ نظرُك ، وزَجَّيتَ [(٣)] أمرك على رأيٍ مدخول ، وأصلٍ غيرِ محكم ، رجَعَ ذلك عليكَ بما لو حُكِّم فيه عدوُّك [(٤)] كان ذلك غايةَ أُمنيَّته وشفاء غيظه .

واعْلَمْ أنَّ إجراءَكَ الأُمورَ مَجارِيَهَا ، واستعمالَكَ الأَشياءَ على وُجوهها ، يجمعُ لك أُلفةَ القُلوب ، فُيعاملُك [(٥)] كل من عاملك بمودَّة ، وأخذٍ وإعطاءٍ [(٦)] ، وهو على ثقةٍ من بَصَرِكَ [(٧)] بمواضعِ الإنصاف [(٨)] ، وعِلمِك بموارد الأُمور .

---

(١) التكملة من الرسائل .

(٢) انظر الرسائل ١ : ١٠٥

(٣) التزجية : السوق والدفع . فى النسختين : « ورجيت » بالراء المهملة ، صوابه من الرسائل .

(٤) الرسائل : « فيك عدوك » .

(٥) فى النسختين : « ويعاملك » ، والوجه ما فى الرسائل .

(٦) فى الرسائل : « أو أخذ أو إعطاء » .

(٧) فى النسختين : « من نصرك » ، تحريف .

(٨) مابعده إلى نهاية هذا الفصل منطمس فى التيمورية .

٥ - فصـــل منه[١]

فإن ابتُلِيتَ فى بعض الأوقات بمن يتقرَّب بحرمة [٢]، ويمتُّ بدالَّة، يَطلُب المكافأة[٣] بأَكثر مما يستوجب، فدعاكَ الكرمُ والحياءُ إلى تفضيله على[٤] من هو أَحقُّ به، إمّا خوفاً من لسانه، أو مداراةً لغيره، فلا تَدَعْ الاعتذارَ إلى مَن هو فوقَه من أَهل البلاء والنَّصيحة [٥] وإظهارَ ما أَردتَ من ذلك لهم [٦]؛ فإنَّ أَهل خاصَّتك والمؤتَمَنِينَ على أَسرارك، هم شركاؤُك فى العيش، فلا تستهينَنَّ[٧] بشىءٍ من أمورهم، فإنَّ الرجل قد يترك الشىء من ذلك اتِّكالاً على حُسنِ رأْيِ أَخيه، فلا يزال ذلك[٨] يجرح فى القلب ويَنمو، حتَّى يولِّد ضِغناً ويَحُولَ عداوةً.

فتَحفَّظْ من هذا الباب، واحملْ إخوانَك عليه بجهدك.

وستجد من يتَّصل بك ممن يغلبه إفراط الحرص[٩]، وحُمَيَّا الشَّرَهِ، ولينُ جانبك له، على أَنْ يَنْقِمَ العافيةَ، ويطلبَ اللُّحوق بمنازل من ليس مثلَه[١٠]، ولا له مثلُ دالَّته، فتَلْقاه لما تَصنع به مستقِلاً، ولمعروفك مُستصغِرا.

وصلاحُ مَن كانت هذه حالَه بخلافِ ما فسَدَ عليه أمره.

---

(١) الرسائل ١ : ١٠٨.

(٢) الرسائل : « بمن يضرب بحرمة ».

(٣) ب فقط : « المكافآت ».

(٤) ب فقط : « إلى »، تحريف.

(٥) م : « البلاد والنصيحة »، تحريف.

(٦) فى النسختين : « بمن ذلك لهم »، صوابه فى الرسائل.

(٧) فى النسختين : « لا تستهينن »، وإثبات الفاء من الرسائل.

(٨) فى النسختين : « كذلك ».

(٩) فى النسختين : « الجزم »، صوابه فى الرسائل.

(١٠) فى الرسائل : من ليس هو مثله ».

فاعرفْ طرائِفِهِم وشِيَمَهم ، وداوِ كلَّ مَنْ لا بدَّ لك من معاشرته ، بالدَّواءِ [١] الذى هو أَنجَعُ فيه ، إنْ ليناً فلِيناً ، وإنْ شدَّةً فشِدَّة ، فقد قيل فى مثل :

مَن لايؤدِّبْهُ الجميــــلُ فَفى عُقوبَتِهِ صَلاحُه [٢]

٦ — فصـــل منه [٣]

واعلم أَنَّ المقادير ربَّما جرَتْ بخلاف ما تُقدِّر الحكماء [٤] ، فينالُ بها الجاهلُ فى نفسِه ، المختلِطُ فى تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأَريبُ الحذِر ، فلا يدعونَّك [٥] ما ترى من ذلك إلى التَّضييع والاتِّكال على مثلِ تلك الحال ؛ فإنَّ الحكماءَ قد اجتمعت على [أنَّ [٦]] مَن أَخَذَ بالحزم وقَدَّم الحَذَر ، فجاءت المقاديرُ خِلافَ ما قدَّر [٧] ، كان عندهم أَحمَدَ رأْيًا ، وأَوجبَ عُذْراً ممَّن عَمِل بالتَّفريط ، وإن اتَّفقتْ له الأُمورُ على ما أَراد .

ولا تكونَنَّ بشيءٍ ممَّا فى يدك أَشدَّ ضِنًّا ، ولا عليهِ أَشدَّ حَدَباً منك بالأَخِ الذى قد بلوتَه بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ [٨] فعرفتَ مذاهِبَه ، وخَبَرْتَ شِيَمه ، وَصَحَّ لك غَيْبُه ، وسلِمَتْ لك ناحيتُه ، فإنَّه شقيقُ رُوحِك ، وبابُ الرَّوْحِ إلى حياتك ، ومُسْتمدُّ رأْيك وتَوْأَمُ عَقْلك .

---

(١) فى النسختين : « فالدواء » ، صوابه من الرسائل .

(٢) ورد البيت بهيئة النثر فى النسختين . وقد نسب إلى هارون الرشيد فى العقد ٥ : ٦٠ أو لعله تمثل به . ورواية العقد : « من لم يؤدبه » .

(٣) الرسائل ١ : ١٢١ .

(٤) ب : « ما يقدر الحكماء » .

(٥) فى النسختين : « لا يدعونك » ، وأثبت ما فى الرسائل .

(٦) التكملة من الرسائل .

(٧) فى الرسائل : « بخلاف ما قدر » .

(٨) الرسائل : « فى السراء والضراء » .

ولستَ منتفعاً بعيشٍ مع الوَحْدة ، ولابدَّ من المُؤانسةِ .

وكثرةُ الاستبدالِ يَهجُمُ بصاحبه على المكروه .

فإن صفا لك أَخٌ فكن به أَشَدَّ ضِنًّا منكَ بنفائِس أموالك ، ثمَّ لايُزَهِّدنك فيه أن ترى خُلقاً أو خُلُقينِ تكرهُهما ، فإنَّ نَفسكَ التى هى أَخصُّ النفوس بك لاتُعطيك المَقادة فى كلِّ ما تريد[١] ، فكيف[٢] بنفسِ غيرك .

وبحسبك أن يكون لك من أخيكَ أكثرُه . وقد قالت الحكماء : « من لك بأَخيك كلِّه[٣] » . و : « أَىُّ الرِّجالِ المُهذَّبُ[٤] » .

٧ ـ فصـــل منه[٥]

واعلم أنَّك موسومٌ بِسِيمَا من قارَنْتَ ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحَبْت . فتحرَّزْ من دُخلاء السَّوءِ ، وأَظْهِرْ مجانبةَ أَهلِ الرِّيَب[٦] ، وقد جَرَتْ لك فى ذلك الأمثال ، وسُطِّرت فيه الأقاويل[٧] ، فقالوا : « المرءُ حيثُ يَجْعَل نَفْسَه[٨] » .

---

(١) فى النسختين : « التى لا تعطيك » وكلمة « التى » مقحمة . وفى ب « القارة فى كلما تريد » م : « القادة فى كل ما تريد » ، صوابهما ما أثبت من الرسائل . والمقادة : الانقياد والمطاوعة .

(٢) فى النسختين : « وكيف » .

(٣) قائله أكثم بن صيفى ، كما فى المعمرين للسجستانى ١٢ . وورد فى جمهرة العسكرى ١ : ٣١٠ / ٢ : ٢٨٣ بدون نسبة . ونظمه أبو تمام فقال :

ما غبن المغبون مثل عقله　　　من لك يوماً بأخيك كله

(٤) من قول النابغة الذبيانى فى ديوانه ١٤ :

ولست بمستبق أخاً لاتلمه　　　على شعث أى الرجال المهذب

(٥) رسائل الجاحظ ١ : ١٢٦ .

(٦) الرسائل : « ومجالسة أهل الريب » .

(٧) الرسائل : « وسطرت لك فيه الأقاويل » .

(٨) ومنه قول منقر بن فروة فى البيان ٢ : ١٠٣ و ٣ : ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه　　　ففى صالح الأخلاق نفسك فاجعل

وقالوا : « يُظَنُّ بالمرءِ مايُظَنُّ بقرينه » .

وقالوا : « المرءُ بشكله »، و« المرءُ بأليفه » .

ولن تقدِرَ أن تتحرَّزَ من الناس[1]، ولكن أَقِلَّ المؤانسةَ إلّا بأهل البراءةِ من كلِّ دَنَس .

واعلَم أنَّ المرءَ بقَدْرِ مايسبِقُ إليه يُعْرَف ، وبالمستفيض من أفعاله يُوصَف . فإنْ كان بين ذلكَ كثيرٌ من أخلاقه[2] ألغاه النّاسُ ، وحكموا عليه بالغالبِ من أمره .

فاجهَد أن يَكونَ[3] أغلبُ الأشياءِ على أفعالِك كلَّ ما يَحْمَدُهُ العوامُّ ولا تذُمُّه الجماعات ، فإنَّ ذلك يُعفِّي على [كلِّ[4]] خللٍ إن كان .

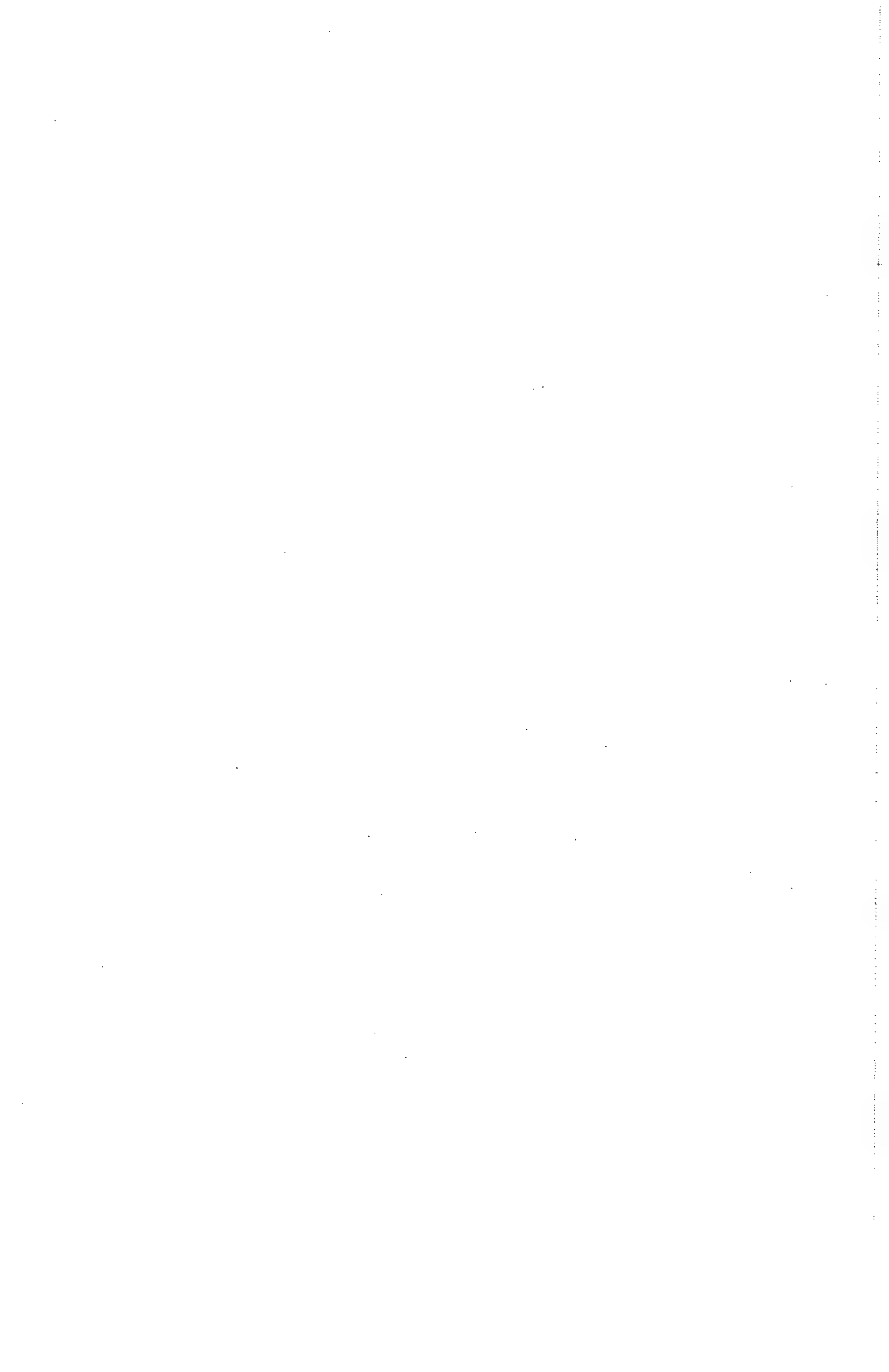
فبادِرْ ألسنةَ النَّاس واشْغَلْها[5] بمحاسِنِك ، فإنَّهم إلى كلِّ سيِّئٍ[6] سِراعٌ ،واستظهِرْ على مَنْ دونك بالتفضُّل ، وعلى نظرائك بالإنصاف ، وعلى كلِّ مَن فوقك بالإجلال ، تـأْخُذْ بوثائِق الأُمور وبـأَزِمَّةِ التَّدبير .

(١) ب : « تحترز من الناس » . الرسائل : « ولن تقدر على التحرز من جماعة الناس » .
(٢) الرسائل : « من أفعاله » .
(٣) في النسختين : « أن تكون » .
(٤) التكملة من الرسائل .
(٥) الرسائل : « فاشغلها » .
(٦) الرسائل : « إلى كل شيء »، وصححتها هناك بما أثبت هنا . وفى النسختين : « إلى كل شر » .

١٥

من رسالة في

الجد والهزل



١ – فصـــل

من صدر رسالته إلى محمد بن عبد الملك
فى الجد والهزل[١]

جُعلت فداك ، ليس من اختيارى[٢] ، النَّخْلَ على الزَّرع[٣] . أقصيتَنى ، ولا على مَيْلى إلى الصَّدَقة دونَ إعطاء الخَرَاج عاقبتَنى ، ولا لبُغْضِ دفْع الإتاوة والرضا بالجِزْية حَرَمتَنى . ولست أدرى لم كرِهتَ قُرْبى ، وهَوِيت بُعْدِى ، واستثقلْتَ روحى ونَفْسى ، واستطلت عُمرى وأيَّام مُقامِى ؟ ولِمَ سرَّتْكَ سيِّئتى ومصيبتى ، وساءتك حَسَنتى وسلامتى ؟ نعم ، حتَّى ساءك عَزائى وتجمُّلى ، بقدر ما سرَّك جزعى وتضجُّرى ، وحتَّى تمنَّيتَ أَن أُخطِئَ عليك ، فتجعل خطائى[٤] حجَّةً لك فى إبعادى[٥] ، وكرهتَ صوابى فيك خوفاً من أَن تَجعله ذريعةً إلى تقريبى[٦] .

فإنْ كان ذلك هو الذى أَغضبك ، وكان هو السَّببَ لمَوجِدتك ، فليس – أبقاك الله – هذا الحقدُ فى طبقةِ هذا الذَّنب ، ولا هذه المُطالبةُ من شكل هذه الجريمة .

---

(١) هذه الرسالة مما سقط أيضاًمن نسخة ط . وسبق نشرها كاملة فى ١ : ٢٢٧ – ٢٧٨ .

(٢) فى الرسائل : « ليس من أجل اختيارى » .

(٣) ألف الجاحظ كتاب (الزرع والنخل) لإبراهيم بن العباس الصولى المتوفى سنة ٢٤٣ فنحه خمسة آلاف دينار ، كما ألف كتاب (الحيوان) لمحمد بن عبد الملك الزيات فنحه مثلها . وكتاب (البيان والتبيين) للقاضى أحمد بن أبي دواد فنحه كذلك . معجم الأدباء ١٦ : ١٠٦ . وجاء فى الحيوان ١ : ٤ نظير هذا النص موجهاً إلى محمد بن عبد الملك الزيات : « وعبتنى بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب » .

(٤) الخطاء، كسحاب : الخطأ ، ضد الصواب . وانظر الرسائل ١ : ٣٥٣ . كما استعمل الجاحظ الكلمة بهذه الصورة فى الحيوان ١ :٢١٣ / ٣ :٢٥٨، ٣٠٠ . وفى النسختين : « فتعجل» صوابه فى الرسائل .

(٥) م فقط : « إيعادى » .

(٦) هذا مافى الرسائل . وفى النسختين : « تقرنى » ، تحريف .

٢ — فصل منها[١]

فأىَّ شىءٍ أبقَيتَ للعدوِّ المكاشِف ، وللموافِق المُلاطِف[٢] ، وللمعتمِد المُصِرّ ، وللقادر المُدِلّ ؟

ومن عاقبَ على الصَّغير بعقُوبة الكبير ، وعلى الهَفْوة بعقوبة الإصرار ، وعلى الخطأ بعقوبة العَمْد ، وعلى معصية المتستِّر بعقوبة المُعْلِن . ومَن لم يفرِقْ بين الأعالى والأسافل ، وبين الأقاصى والأدانى ، عاقَبَ على الزِّنى بعقوبة السَّرقة ، وعلى القَتْل بعقوبةِ القَذْف . ومن خرجَ إلى ذاك فى باب العِقاب ، خرج إلى مثلهِ فى باب الثَّواب .

ومن خرجَ من جميع الأوزانِ ، وخالَفَ جميعَ التَّعديل كان بغَايةِ[٣] العِقاب أحقّ ، وبه أولى .

والدَّليلُ على شدَّة غَيظِك وغَلَيانِ صَدْرك ، قُوَّةُ حركتك ، وإبطاءُ فترتك ، وبُعْدُ الغاية فى احتيالك .

ومن البُرهان على بيان الغَضَب وعلى عِظَم الذَّنْب ، تمكُّن الحقد ورسوخُ الغَيظ ، وبُعْدُ الوَثْبة وشدَّة الصَّولة . وهذا البرهانُ صحيحٌ ما صحَّ النَّظم ، وقام التَّعديل ، واستوت الأسباب .

ولا أعلم ناراً أبلَغَ فى إحْراق أهلها من نار الغَيْظ ، ولا حركةً أنقضَ لقُوَى الأبدانِ من طلب الطوائِل[٤] ، مع قلَّة الهدوءِ ، والجهلِ بمنافع الجَمَام[٥] ، وإعطاءِ الحالات أقسامَها من التَّدبير .

---

(١) ب : « منها » فقط ، بإسقاط كلمة « فصل » .
(٢) فى الرسائل : « والمناطق الملاطف » .
(٣) ب : « فى غاية » .
(٤) الطوائل : جمع طائلة ، وهى الوتر والذحل ، يقال طلب بنى فلان بطائلة ، أى بوتر كان له فيهم . م : « من طلب التعديل » ، صوابه فى ب والرسائل .
(٥) الجمام ، كسحاب : الراحة . وفى النسختين : « الحمام » تصحيف .

ولا أعلم تجارةً أكثر خُسراناً ولا أخفَّ ميزاناً . من عداوةِ العاقِل العالِمِ . وإطلاق لسان الجليسِ والمُداخِلِ . والشِّعارِ دونَ الدِّثار[١] ، والخاصِّ دونَ العامّ .

والطالبُ – أبقاكَ اللهُ[٢] – بِعَرَضِ ظفرٍ مالم يَخرج المطلوبُ ، وإليه الخيار[٣] ما لم تَقَع المُنازَلة .

ومن الحَزْم ألَّا تَخرجَ [إلى[٤]] العدوِّ إلَّا ومعك من القُوَى مايَغْمُر الفَضْلة التى يُتيحُها له[٥] الإخراج ، ولابدَّ – أيضاً – من حزمٍ يحذِّرك مَصارِعَ البَغْى ، ويخوِّفُك ناصرَ المطلوب[٦] .

٣ – فصــل منها

واللهِ لقد كنتُ أكره لك سَرَف الرِّضا ، مخافة جواذبه إلى سَرَف الهوى ، فما ظَنُّك بسرَف الغَضَب . وبِغَلَبة الغَيْظ ، ولا سيِّما ممَّن تعود [إهمالَ[٧]] النَّفسِ ولم يعوِّدُها[٨] الصَّبْرَ . ولم يعرِّفها موضِعَ الحظِّ فى تجرُّع مرارةِ العفو[٩] . وإنَّما المرادُ[١٠] من الأُمور عواقبُها لاعواجلها .

---

(١) ب : « الدسار » ، تحريف . والشعار : ماولى شعر جسد الإنسان ، دون ماسواه من الثياب . والدثار : ماكان من الثياب فوق الشعار . وفى المثل : « هم الشعار دون الدثار » وصف بالمودة والقرب . وفى حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٢) فى الرسائل : « جعلت فداك » .

(٣) فى النسختين : « إليه الخيار » بإسقاط الواو الثابتة فى الرسائل .

(٤) التكملة من الرسائل .

(٥) الرسائل : « ينتجها له » .

(٦) أى من تطلبه من الأعداء .

(٧) التكملة من الرسائل .

(٨) ب : « ولن يعودها » م : « ولا يعودها » ، ووجهه من الرسائل .

(٩) فى النسختين : « مرارته » فقط ، صوابه فى الرسائل .

(١٠) الرسائل : « وأن المراد » .

وقد كنتُ أُشفِقُ عليك من إفراط السرور ، فما ظنُّك بإفراط الغيظ . وقد قال الناس : « لا خَيْرَ فى طول الرَّاحة إذا كان يورث الغَفْلة ، ولا فى طول الكفاية[١] إذا كان يُؤدِّى إلى المَعْجَزة . ولا فى كثرة الغِنى إذا كان يُخرِج إلى البلْدة[٢] .

جُعِلتُ فِداك – إنَّ داءَ الْحُزن ، وإن كان قاتلا ، فإنَّه داءٌ مماطل[٣] ، وسُقْمُه سقمٌ مُطاوِل ، ومعه من التمهُّل[٤] بقدر قِسطِه من أناة المِرَّة السَّوداءِ . وداءُ الغَيظِ سَفيهٌ طيَّاش ، وعَجُولٌ فحَّاش ، يُعجل عن التَّوبة ، ويقطع دون الوصيَّة .

٤ – فصــل منها[٥]

ورُبَّتَ[٦] كلمةٍ لا توضع إلَّا على معناها الذى جُعِلَتْ حَظَّه وصارت هى حَقَّه ، والدَّالةَ عليهِ دونَ غيره ، كالعزم والعلم ، والحلم والرِّفْق[٧] ؛ والأَناة والمداراة ، والقَصد والعَدْل ، وكالانتهاز والاهتبال[٨] ، وكاليأْس والأَمَل[٩] ، وكالخُرْق والعَجَلة[١٠] ، والمُداهنة والتسرُّع ، والغُلُوِّ والتَّقصير .

---

(١) الرسائل : « ولا فى الكفاية » .
(٢) البلدة ، بفتح الباء وضمها : البلادة ، ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .
(٣) ب : « داء طل » ، تحريف .
(٤) فى النسختين : « التمهيل » ، وإنما المراد التمهل ، أى البطء ، كما فى الرسائل .
(٥) رسائل الجاحظ ١ : ٢٤٣ .
(٦) فى النسختين : « دربت » ، صوابه فى الرسائل .
(٧) ب : « كالعزم والحلم ، والعلم والرفق » ، تحريف ما فى م والرسائل .
(٨) فى النسختين : « والابتهال » صوابه فى الرسائل ، وسقطت كلمة « وكالانتهاز » من الرسائل حين الطبع ، فلتثبت هناك .
(٩) فى النسختين : « والأمن » ، تحريف .
(١٠) الخرق بالضم : ضد الرفق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور . ب : « وكالحدق » تحريف .

ورُبَّ[١] كلمةٍ تدور مع واصلتها[٢] ، وَتتقلَّب مع جَارتِها، وإزاء صاحبتِها[٣] ، وعلى قَدْر ماتُقابلُ من الحالات وتُلاقى من الأَسباب[٤] ، كالحبِّ والبغض ، والغَضَب والرِّضا ، والعَزْم والإرادة ، والإقبال والإدبار، والجِدِّ والفُتور . لأَنَّ كلَّ هذا البابِ الأَخيرِ يكون فى الخير والشرّ ، ويكون محمودًا ويكون مذموماً .

وصاحبُ العَجَلة – أبقاك اللهُ[٥] – صاحبُ لتغريرٍ ومُخاطرة[٦] ، إنْ ظَفِر لم يَحمده عاقل[٧] ، وإن لم يظفر قطَّعَتْهُ المَلاوم . والرَّيْث أخو المَعْجَزة ، ومقرونٌ بالحسرة ، وعلى مَدرَجة اللائمة .

وصاحبُ الأَناة ، إن ظفر نَفَع[٨] غَيْرَه بالْغُنْم ، ونَفَعَ نفسَه بثمرة العلم، وطاب ذِكرُه ودام شُكره، وحُفِظَ فيه ولدُه . وإنْ حُرِمَ فمبسوطٌ عذره ومصوَّبٌ رأْيُه[٩] مع انتفاعه بِعلمِه، وما يَجِدُ من عِزِّ حزمه ، ونُبْل صوابِه[١٠] .

---

(١) الرسائل : « وربت » .

(٢) الرسائل : « مع خلتها » .

(٣) فى النسختين : « وإرادة صاحبها » ، صوابه من الرسائل .

(٤) فى النسختين : « ما يقابل » و « يلاقى » ، والوجه ما أثبت .

(٥) الرسائل : أعزك الله » .

(٦) م : « صاحب التغرير ومخاطرة » ، صوابه فى ب . وفى الرسائل : « تغرير ومخاطرة » .

(٧) الرسائل : « لم يحمده عالم » .

(٨) فى النسختين : « يقع » فى هذا الموضع وتاليه ، صوابهما فى الرسائل .

(٩) فى النسختين : « ومصور رأيه » تحريف ما فى الرسائل .

(١٠) ب : « من عز عزمه ونيل صوابه » ، صوابه فى م والرسائل .

٥ ـ فصل منها[١]

ومن كانت طبيعته مأمونةً عليه عند نفسه ، وكان دواه رائدَه الذى لايَكذِبُه ، والمتأمِّرَ عليه دون عقله[٢] ، ولم يتوكَّل لما لايهواه على مايهوى ، ولم ينصُرْ[٣] تالد الإخوان على الطَّارف ، ولم يُنصِف المملول المُبْعَد[٤] من المُستطْرف المقرَّب[٥] ، ولم يَخَفْ أن تجتذبه العادة[٦] وتتحكَّم عليه الطَّبيعة ـ فليرسم حُجَجَهُما ويصوِّرْ صُوَرهما فى كتاب مقروءٍ[٧] أو لفظٍ مسموع ، ثمَّ يعرِضْهما على جهابذة المَعَانى وأَطِبَّاءِ أدواءِ العقول . على أن لا يختار إلَّا من لا يدرِى أىَّ النَّوعين يتَّقِى ، وأيُّهما يُحامِى ، وأيُّهما داؤه[٨] ، وأيُّهما دواؤه . فإن لم يستعمل ذلك لم يَزَلْ متورِّطاً فى الخَطَاء[٩] مغموراً بالذَّنب .

سمعتك وأنت تُرِيدنى وكأنَّك تُريد غَيرى ، أو كأنَّك تُشِير علىَّ من غير أن تَنُصَّنى ، وتقولُ : إنِّى لأَعْجَبُ ممَّن ترك دفاتر عِلْمِهِ متفرِّقة ، وكراريس دَرْسِه غيرَ مجموعةٍ ولا منظومة ، كيف يعرِضها

---

(١) الرسائل ١ : ٢٤٥ . والكلام مسبوق هناك بقول الجاحظ : « وقال أيضاً » يعنى الدهقان الذى كان يخاطب أسد بن عبد الله القسرى .

(٢) فى النسختين : « حقه » ، صوابه فى الرسائل .

(٣) فى النسختين : « ولم يبصر » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « المملوك » ، صوابه فى الرسائل . وفى ب : « على المبعد » . و « على » مقحمة .

(٥) ب : « من المستظرف » صوابه فى م والرسائل . وفى النسختين : « والمقرب » بزيادة واو .

(٦) ب فقط : « تجذبه العادة » .

(٧) ب : « مقرر » تحريف ، صوابه فى م . وفى الرسائل : « مفرد » .

(٨) فى النسختين : « يداوه » ، صوابه فى الرسائل وإن كان النص فيها : « وأيهما دواؤه وأيهما داؤه » .

(٩) فى النسختين : « الخطا » ، والوجه ما أثبت . وانظر ماسبق فى حواشى ١٣ .

للتخرُّم[1] ، وكيف لا يَمنعها من التخرُّق[2] ؟ ! .

وعلى أنَّ الدَّفتر إذا انقطعت حِزَامته[3] وانحلَّ شَدَّاده[4] ، وتخرَّمت رُبُطه[5] ، ولم تكن دُونه وِقاية ، ولا دُونَه جُنَّة ، تفرَّق ورقُه ، واشتدَّ جمعه[6] ، وعَسُر نَظْمُه ، وامتنع تأْليفه ، وضاع أكثره[7] .

والدَّفَّتانِ أَجمع ، وضَمُّ الجلود لها أَصْوَنُ والحَزْمُ لها أَصلح .

وينبغى للأَشكالِ أَن تُنْظَمَ[8] ، والأَشباهِ أَنْ تؤلَّف[9] ؛ فإنَّ التأْليف يزيد الأَجزاءَ الحسنةَ حُسْناً ، والاجتماعَ يحدث للمتساوى[10] فى الضَّعف قوَّة .

٦ — فصل منها[11]

أَنت — أَبقاك الله — شاعرٌ وأَنا راوية ، وأَنت طويلٌ وأَنا قصير ، وأَنت أَصلع وأَنا أَنزَعُ[12] ، وأَنت صاحبُ بَرَاذينَ وأَنا صاحبُ حَمِير ،

---

(١) فى الرسائل ١ : ٢٤٦ : « للتجرم »، من قولهم تجرم الليل، إذا ذهب . وفى ب : « للتحزم » ، تحريف .

(٢) فى الرسائل : « من التفرق » .

(٣) الحزامة والحزام : اسم لما شد به . ب : « خرامته » صوابه فى م والرسائل .

(٤) فى النسختين : « سداده » ، صوابه فى الرسائل .

(٥) هذا ما فى الرسائل . وفى النسختين : « وكرمت ربطه » .

(٦) فى الرسائل : « وإذا تفرق ورقه اشتد جمعه » .

(٧) الرسائل : « وربما ضاع أكثره » .

(٨) ب : « وينبغى الأشكال أن ينظم » م : « وينبغى أن ينظم » ، صوابهما فى الرسائل .

(٩) أن ، ساقطة من ب . وفى الرسائل : « وللأشباه » .

(١٠) ب : « لحدث المتساوى » م : « لحديث المتساوى » ، صوابهما من الرسائل .

(١١) الرسائل ١ : ٢٦٥ .

(١٢) النزع ، بالتحريك : انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبى الجبهة . والصلع : ذهاب الشعر من مقدم الرأس إلى مؤخره ، وكذلك إن ذهب وسطه . والموضع منهما النزعة والصلعة بالتحريك فيهما ، وبالضم أيضاً فى الصلعة .

وأنت ركينٌ وأنا عَجُول . وأنت تدبِّر نَفْسَك[١] وتقيم أَوَد غيرك ، وتتَّسع لجميع الرعيَّة ، وتبلُغ بتدبيرك[٢] أقصى الأُمَّة . وأنا أعجز عن تدبيرى[٣] وعن تدبير أَمَتِى وعَبْدى . وأنت منعمٌ وأنا شاكر[٤] ، وأنت مَلِكٌ وأنا سوقة . وأنت مُصطنِعٌ وأنا صنيعةٌ[٥] ، وأنت تفعلُ وأنا أصِف . وأنت متقدِّم[٦] وأنا تابع ، وأنت إذا نازعتَ الرِّجالَ وناهضْت الأَكْفاءَ لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنتُ قلتُ كذا لكان أجوَد ، ولو تركتُ قولَ كذا كان أحسن . وأمضَيْتَ الأُمورَ على حقائقها ، وسلَّمت إليها أقساطها ، على مقادير حقوقها ، فلم تندَمْ بعدَ قَولٍ ، ولم تأْسَفْ بعد سُكوت . وأنا إنْ تكلَّمت ندِمت ، وإن جاريتُ أبدعْت[٧] .

٧ — فصل منها[٨]

وقد منحتُك [جَلَدَ[٩]] شَبابي كَمَلًا ؛ وغَرْبَ نشاطى مُقْتَبَلا ، فكان لك مَهْنَاهُ ، وثمرةُ قُواه ، واحتملتُ دونَك غُرامَهُ وغَرْبَه[١٠] ، فكان لك غُنْمه وعليَّ غُرْمه .

---

(١) فى الرسائل : « لنفسك » .

(٢) فى النسختين : « ويبلغ تدبيرك » صوابه فى الرسائل .

(٣) فى الرسائل : « عن نفسى » .

(٤) ب فقط : « شاعر » ، تحريف .

(٥) فى النسختين : « صنيعه » بالهاء ، وأثبت ما فى الرسائل .

(٦) فى الرسائل : « وأنت مقدم » .

(٧) المجاراة : مفاعلة من الجرى فى المشى وغيره . وفى النسختين : « جازيت » صوابه فى الرسائل . وأبدع الرجل ، بالبناء للمجهول والمعلوم أيضاً : كلت راحلته أو عطبت . وفى النسختين : « بدعت » ، صوابها فى الرسائل .

(٨) الرسائل ١ : ٢٧٤ .

(٩) التكملة من الرسائل .

(١٠) العرام ، بالضم : الشدة . والغرب : الحدة . فى النسختين : « غرامه » تحريف ما فى الرسائل . وفى ب فقط : « وعزبه » ، تحريف .

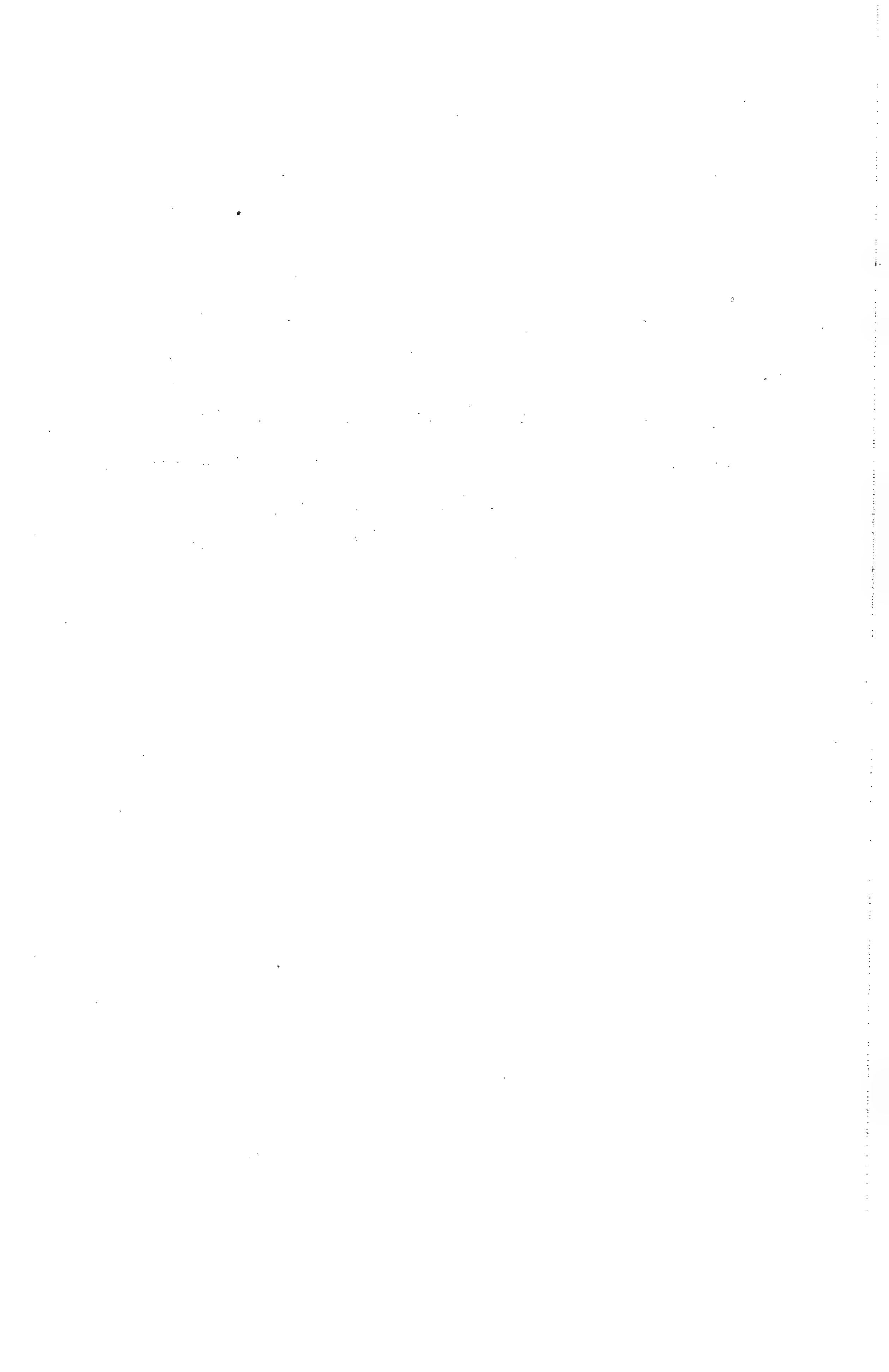
وأعطيتُك عند إدبارِ بدنى قُوَّةَ رأْيى، وعند تكامُلِ معرفتى نتيجةَ تجربتى ، واحتملتُ دونك وَهْنَ الكِبَرِ وإسقامَ الهرم .

وخيرُ شركائك مَنْ أعطاك[1] ما صفا وأخَذَ لنفسه ماكدُرَ . وأفضَلُ خُلطائك من كَفَاك مؤونتَه وأحضَرَك مَعُونته ، وكان كلالُهُ عليه ونشاطُه لك .

وأكرم دُخَلائك وأشكر مواليك[2] مَنْ لا يظنُّ أنَّك تسمِّى جَزِيلَ ماتحتمل فى بَذْلِك[3] ومؤانَسَتِكَ مَؤُونة ، ولا تتابُعَ[4] إحسانك إليه نعمَةً . بل يرى أنَّ نعمةَ الشَّاكِرِ فوقَ نعمة الواهب ، ونعمةَ الوادِّ[5] المُخْلِص ، فوق [نعمةِ[6]] الجواد المُغْنِى .

---

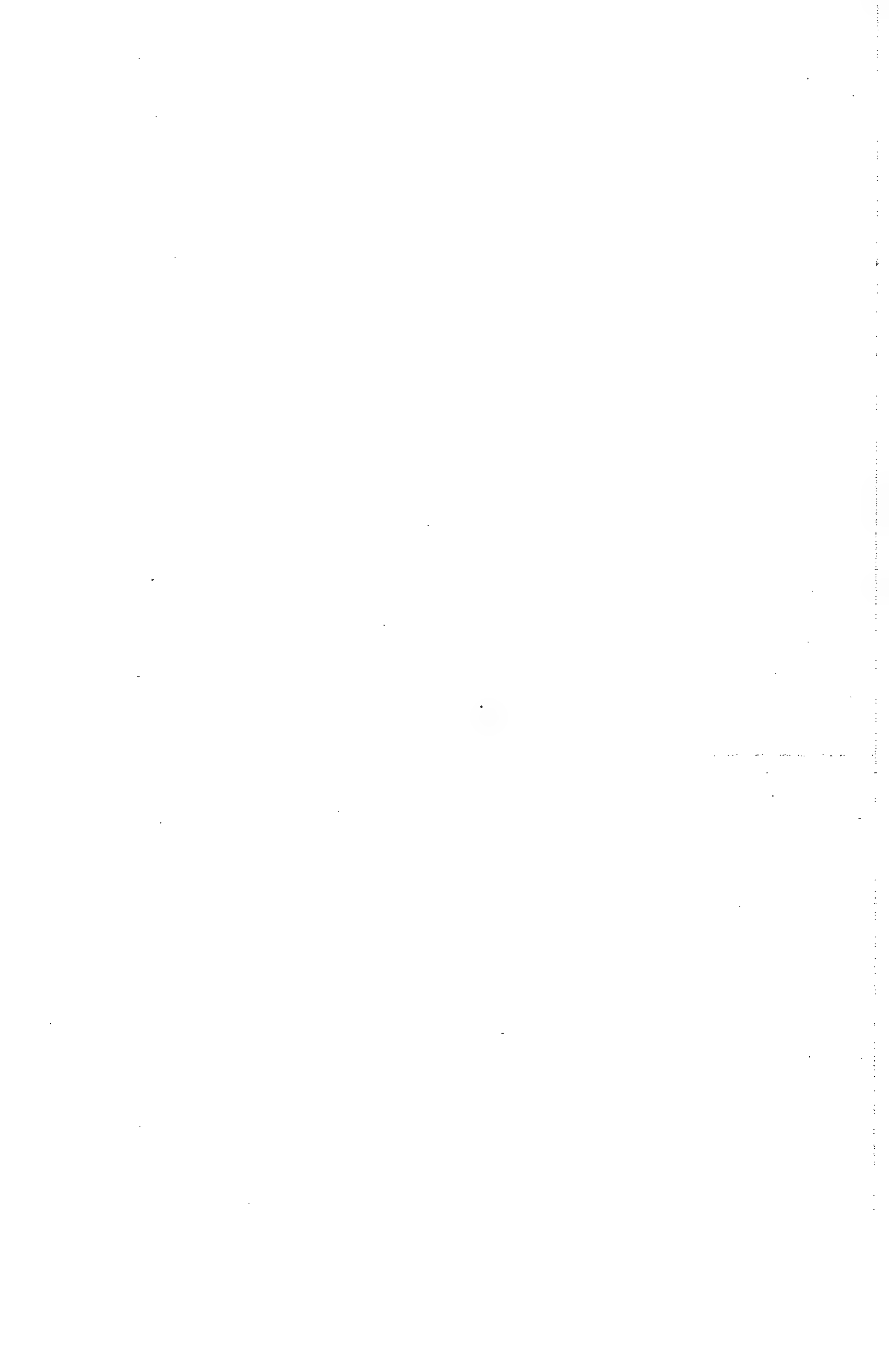
(١) ب : « إعطائك » م : « إعطاء » ، صوابهما فى الرسائل .
(٢) فى الرسائل : « مؤمليك » .
(٣) فى النسختين : « مايحتمل » وفى م : « فى ذلك » ، صوابهما من الرسائل .
(٤) فى النسختين : « تبايع » ، تحريف .
(٥) فى النسختين : « الوارد » ، صوابه من الرسائل .
(٦) التكملة من الرسائل .



١٦

من كتابه في

الوكلاء



١ ـ فصـــل

من صدر كتابه فى الوكلاء(١)

وفَّقك الله للطَّاعةِ ، وعصَمَك من الشُّبهة ، وأفلجَكَ بالحُجّة(٢) ، وختَم لك بالسعادة .

غَبَرَتْ(٣) ـ أصلَحَك الله ـ أزْمانٌ(٤) وأنت عندى ممَّن لا يُمضِى القولَ إلَّا بعد التثبُّت ، ولا يُخرج الكتابَ إلَّا بعد التصفُّح ، وكنتَ حَرِيًّا بتَهْيئَةِ(٥) الرأْى القَطير ، جديراً أن تُميِّل بنفسك عاقبةَ التَّفريط(٦) . ولَوْلَا(٧) كثرة مُرورِ أيَّام المُطالَبةِ عليك لما ثَقُلَ عليك التثبُّت ، ولولا(٨) قِصَرُ أيَّامِ التحصيل لَمَا وَثِقْتَ بأَوَّلِ خاطر ، ولولا سوءُ العادة لَمَا كَذَبَكَ رائدُ النَّظَر واتَّهمت الرأْى .

واعْتِرام الغَضْبان(٩) يُهوِّر الأَعمار(١٠) ، فإنَّ الغَضْبانَ(١١) أسوأُ أثراً

---

(١) نشر شيئاً منه ريشر ص ١٩٤ – ١٩٥ وفى مجموعة ساسى ثلاث صفحات منه ١٧٠– ١٧٢ باسم (الوكلاء) تنتهى بنهاية الفصل الثانى من هذا الاختيار . ويبدو أن نسخة ساسى مبتورة . وقد رمزت لها كالمألوف بالرمز (مج) .

(٢) أفلجه : أظفره ، من الفلج بالفتح ، وهو الظفر . م فقط : « أفلحك » ، تحريف .

(٣) غبرت : مضت وانقضت ، وفى النسختين : « عبرت » والوجه من مج .

(٤) فى النسختين : « زمان » ، صوابه فى مج .

(٥) فى النسختين : « نهيئه » ، صوابه فى مج .

(٦) التمييل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، كأنه ميل بين التفريط والإفراط . فى النسختين : « أن يميل » ، صوابه فى مج .

(٧) فى النسختين : « وليس » ، صوابه فى مج .

(٨) م فقط : « ولو » .

(٩) الاعترام : الشدة والشراسة . وفى حديث على : « على حين فترة من الرسل ، واعترام من الفتن » . وفى النسختين : « اغرام العصيان » وبدون واو . وفى مج : « واعترام العصيان » . والوجه ما أثبت .

(١٠) يهورها : يذهب بها . فى النسختين : « وتهور الأعمار » مع زيادة الواو ، صوابه فى مج .

(١١) فى جميع النسخ : « العصيان » ، صوابه ما أثبت .

على نفسِهِ من السَّكران ، ولولا أنَّ نار الغَضَب تخبو قبل إفاقة المعتوه ، وضَبابَ السُّكر ينكشف قبل انكشاف غُروب عقل المُدَلَّه . وأنَّ حكم الظاعن خلافُ حكمِ المقيم ، وقَضيَّة المجْتازِ [(١)] خلافُ قضيَّة الماكث ، لكانت حال الغَضْبان [(٢)] أسوأَ مغبّةً ، وجهلهُ أَوْبَى ، على أَنَّ الحكم له أَلزمُ والنَّاسَ له أَلْوَم .

وما أكثر ما يُقْحِم الغضبُ المَقَاحمَ التى لا يبلغُها جنايةُ الجنون ، وفرطُ جهلِ المصْروع .

٢ ــ فصـــل منه

وإنَّ الغُمر لا يكون إلَّا عديمَ الآلة ، منقطع المادَّة ، يَرى الغَىَّ رُشداً والغلوَّ قصداً . فلو كنتَ إذا جنيت لم تُقِمْ على الجناية ، وإذا عزمت على القول لم تُخلِّدْه فى الكتب ، وإذا خلَّدته لم تُظهر التبجُّح به ، والاستبصار فيه ، كان علاجُ ذلك أيسَرَ ، وكانت أيَّامُ سقمك أقصرَ [(٣)] .

فأخزى [(٤)] اللهُ التصميم إلَّا مع الحزم ، والاعتزامَ إلَّا بعد التثبُّت والعلمَ إلَّا مع القريحة المحمودة ، والنَّظرَ إلَّا مع استقصاء الروِيَّة .

وأَخلِقْ بمن كان فى صفتك ، وأَحْرِ [(٥)] بمن جَرى على دَرْبك [(٦)] ، أَلَّا يكونَ سببُ تسرُّعه ، وعلَّةُ تشحُّنه إلَّا من ضيقَ الصَّدر .

وجميعُ الخير راجعٌ إلى سَعَة الصدر . فقد صحَّ الآن أنَّ سَعَة الصَّدر أَصل ، وما سوى ذلك من أَصناف الخير فرع .

---

(١) فى جميع النسخ : « المختار » ، والوجه ما أثبت .
(٢) فى جميع النسخ : « العصيان » . (٣) السقم ، بالضم وبالتحريك : المرض .
(٤) فى النسختين : « فأجرى » ، صوابه فى مج .
(٥) ب : « وأحرى » ، م : « وأجر » ، صوابهما فى مج .
(٦) الدرب : الطريق . وفى جميع النسخ : « عن دربتك » .

وقد رأيتكَ – حفظك الله – خَوَّنتَ جميع الوكلاءِ وفَجَّرْتَهم، وشنَّعت على جميع الورَّاقين وظلَّمْتَهم، وجمعتَ جميعَ المعلِّمين وهجوتَهم، وحَفِظت مساويَهم، وتناسيتَ محاسنَهم، واقتصرت[1] على ذكر مثالب الأَعلام[2] والجلَّة، حتَّى صوَّب نفسَك عند السَّامع[3] لكلامك، والقارئُ كتابَك[4]، أَنَّك ممن يُنكر الحقَّ جهلاً[5]، أَو يَتركه معاندةً له[6]. وقد علم النَّاس أَنَّ من تركه جهلاً به أَصغرُ إِثماً[7] ممن تركه عمداً.

ولعمرى إنَّ العلم لَطَوعُ يديك، والمتصرِّف مع خواطرك، والمُستملِي من بديهتك، كما يَستملي من ثمرة فكرك، والمحصَّل من رويَّتك. ولكنَّ الرأْى لك أَن لا تثقَ بما يرسُمه العِلْم فى الخَلَا، وتتوقَّاه فى الملا.

اعلم أَنَّك متى تَفَرَّدْت[8] بعلمك استرسلتَ إليه. ومتَى ائتمَنْتَ على نفسك نواجمَ خواطرِك، فقد أَمكنتَ العدوَّ من رِبْقةُ عنقك. وبنيةُ الطَّبائعِ وتركيبُ النفوس، والذى جرَت عليه العادة، إهمالُ النَّفس فى الخَلا، واعتقالُها فى المَلَا[9].

فتوقَّفْ عند العادة، واتَّهم النَّفْسَ عند الاسترسال والثِّقة. قال ابن هَرْمة:

---

(١) ب: «واستبصرت» م: «وابتصرت»، صوابهما فى مج.
(٢) ب فقط: «مسالب»، تحريف.
(٣) فى النسختين: «المسامع»، صوابه فى مج.
(٤) م، مج: «ولقارىء كتابك» صوابه ما أثبت. وفى ب: «وقارىء كتابك».
(٥) ب: «مما تنكر» م، مج: «ممن تنكر»، صوابهما ما أثبت.
(٦) ب، مج: «أو تتركه» م: «أو يتركه»، صوابهما ما أثبت.
(٧) ب فقط: «اسماً».
(٨) فى النسختين: «تقررت» وفى مج: «تغرت» وأرى الصواب فيما أثبت.
(٩) الملا: جماعة الناس. وفى ب: «واغفلالها»، وفى م، مج: «وإغفالها»، والوجه ما أثبت. وانظر ما سبق من قوله: «وتتوقاه فى الملا»، فالمراد حبسها فى مواجهة الناس.

إنَّ الحديثَ تغرُّ القوم خَلْوتُه حتَّى يكون له عيٌّ وإكثارُ[(١)]

وبئس الشيء العُجْبُ ، وحُسنُ الظَّنِّ بالبديهة !

واعلم أنَّ هذه الحالَ التى ارْتَضَيْتَها لشأْنِكَ هى أُمنيَّة العدوّ ، وتُهزَةُ الخَصْم ، ومتى أَبرزْتَ كتابك على هذه الصُّورة وأَفرغْته هذا الإفراغَ ، ثم سَبَكْتَهُ هذا السَّبكَ ، فليس بعدوِّك حاجةٌ إلى التكذيب عليك ، وقَولِ الزُّور فيك ، لأَنَّك قد مكَّنته من عِرضِك ، وحكَّمْتَه فى نفسك .

وبعدُ ، فمن يَعجِزُ عن عيب كتابٍ لم يُحرَس بالتثبُّت[(٢)] ، ولم يُحصَّنْ بالتصفُّح ، ولم يُغَبَّ بالمعاوَدَة والنَّظر ، ولم يُقلَّب فيه الطَّرفُ من جهة الإشفاقِ والحذر[(٣)] . فكيف يوفِّق اللهُ الواثقَ بنفسه ، والمستبدَّ برأيهِ[(٤)] لأَدبِ ربِّه ، ولما وَصَّى به نبيُّه صلَّى الله عليه وسلم [حين قال لرجلٍ خاصم عنده رجلا فقال فى بعض كلامه : حسبِيَ الله ! فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم[(٥)]] : « أَبْلِ اللهَ من نفسِكَ عُذْراً[(٦)] ، فإذا غلبَكَ أَمرٌ فقل : حسبِيَ الله »

---

(١) فى النسختين : « يعز اليوم » وفى مج : « يعز القوم » ، صوابهما من البيان ١ : ٢٠٣ والحيوان ١ : ٨٨/٤ : ٢٠٧ وأدب الكتاب للصولى ١٥٧ لكن عند الصولى :

إن الحديث يقف القوم خلوته حتى يعبره بالسبق مضمار

والبيت مفرد فى الديوان ١١٩ . خلوته ، أى حين يختلى بعضهم ببعض لمداورته وتبادله .

(٢) ب : « كتابك لم يحرس » م : « كتاب يحرس » بسقوط « لم » ، صوابهما فى مج .

(٣) ب : « الا شتقاق » صوابه فى م ، مج .

(٤) فى النسختين : « والنازل » ، صوابه ما أثبت من مج .

(٥) التكملة من م ، مج .

(٦) أبليته عذراً : أديته إليه فقبله ، أى بينت له وجه العذر لأزيل عنى اللوم . وفى حديث بر الوالدين أيضاً : « أبل الله عذراً فى برها » ، أى أحسن فيما بينك وبين الله ببرك إياها .

وزعمتَ فى أوَّل تشنيعك عليهم ، فقلت : قال يعقوب بن عبيد لبعضِ ولده حين قال له فى مرضه : أىَّ شىءٍ تشتهى ؟ قال : كَبِدُ وَكِيل[1] .

وقد كان تَرَكَ التَّجارة من سوءِ مُعاملتهم وفُحْش خبائِثهم .

---

(١) تمنى أن يلوك كبده . وفى النسختين : « كيد وكيل » ووجهه فى م .

٣ ــ فصــل[١]

من جوابه عن الوكلاء

قد فهمنا عُذرَك وسمِعْنا قولك ، فاسمع الآنَ ما نقول :

اعلم أَنَّ الوكيل ، والأَجيرَ ، والأَمين ، والوصىَّ ، فى جملة الأَمر ، يَجْرون مَجرًى واحداً . فأَيْشٍ لك[٢] أَن تَقضِيَ على الجميع بإِساءة البعض . ولو بَهْرَجْنا[٣] جميعَ الوكلاءِ وخَوَّنّا جميعَ الأُمناءِ ، واتَّهمنا جميعَ الأَوصياءِ وأَسقَطْناهم، ومنعنا الناسَ الارتفاقَ بهم ، لظَهرتِ الخَلَّة وشاعت المَعجَزَة ، وبطلت العُقَد[٤] وفَسَدت المستغَلَّات ، واضطربت التِّجارات ، وعادت النِّعمة بليَّة والمَعُونة حِرماناً ، والأَمر مهملًا ، والعهد مَرِيجاً[٥] .

ولو أَنَّ التَّجّار وأَهل الجهاز[٦] صاحَبُوا الجمَّالين والمُكارِينَ[٧]

---

(١) هذا الفصل مما انفردت به النسختان إذ لم يرد فى مجموعة الساسى ولا فى نسخة الكامل . وقد تعرض ريشر فى ١٩٤ — ١٩٥ للقول فى الوكلاء .

(٢) أيش ، فى معنى أى شىء ، كما يقال فى ويل لأمه : ويلمه ، على التخفيف . وهو استعمال قديم ، وجدته فى صحيح البخارى : « قيل يارسول الله ، أيش هو ؟ قال : القتل القتل » . انظر فتح البارى ١٣ : ١١ . ومن الخطأ ضبط همزته بالكسر . وانظر ابن يعيش ٤ : ١٠٢ وتاريخ بغداد ٢ : ٨٨ والأغانى ١ : ١٧٤ وشفاء الغليل ١٥ وتحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب من تأليفى ٤٩ ، ١٤٥ .

(٣) البهرجة : الإهمال والإهدار .

(٤) العقد : جمع عقدة ، بالضم ، وهو كل ماعقد عليه .

(٥) المريج ، من المرج ، بالتحريك ، وهو الفساد والاختلاط والاضطراب . ومنه فى الكتاب العزيز : « بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج » . الآية الخامسة من ق . ب : « مريحا » بالمهملة ، تحريف .

(٦) الجهاز ، بالفتح والكسر ، أو الكسر لغة رديئة : كل ما يهيأ لعروس أو مسافر ، أو مجاهد ، أو ميت .

(٧) جمع مكار ، وهو من يكريك دابته أو نفسه بالأجر . والكراء . ككتاب: أجرة المستأجر . فى النسختين : « والمكاريين » بياءين ، صوابه بياء واحدة .

والملاَّحين، حتَّى يعاينوا ما نَزَل بأموالهم فى تلك الطُّرق والمياه، والمسالك والخانات ، لكان عسى أن يترك أكثرهم الجَهَاز .

٤ – فصــل منه

وقد قال الله عز وجل : ﴿ الرِّجالُ قَوَّامون على النِّساءِ بِمَا فَضَّل اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ[١] ﴾، وقال : ﴿ فإنْ آنستُمْ منهم رُشْدًا فادْفَعُوا إلَيْهِمْ أموالَهُم[٢] ﴾ وقال : ﴿ ومن كان غَنِيًّا فليستعْفِفْ ومَنْ كان فقيراً فَلْيأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ[٣] ﴾ .

وقال يوسفُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لِفرعونَ وفرعونُ كافرٌ : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إنِّى حفيظٌ عَلِيم[٤] ﴾ .

وقالت بنت شُعيب فى موسى بن عِمْران : ﴿ ياأَبَتِ استَأْجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنِ استأْجَرْتَ القوىُّ الأَمينُ[٥] ﴾ : فَجمَعَ جميعَ مايُحتاج إليه فى الكلمتين .

وفى قياسك هذا إسقاطُ جميعِ ماأَدَّبنا الله به ، وجعَلَه رِباطاً لمراشدنا فى ديننا ، ونِظاماً لمصالحنا فى دنيانا .

والذى يلزمُنى لك أن لا أَعُمَّهم بالبراءة ، والذى يلزمك أن لاتعمَّهم بالتُّهمَة ، وأن تعلمَ أنَّ نَفْعَهم عامٌّ ، وخيرَهم خاصٌّ .

وقالوا : مَثلُ الإمام الجائِر مَثلُ المطَر ، فإنَّه يَهدِم على الضعيف ، ويَمنَع المسافر .

---

(١) من الآية ٣٤ فى سورة النساء . واقتصر النص فى ب على : « الرجال قوامون على النساء » .

(٢) من الآية ٦ من النساء . وفى ب : « فمن كان غنياً » ، تحريف .

(٣) من الآية ٦ فى سورة النساء .

(٤) من الآية ٥٥ فى سورة يوسف .

(٥) من الآية ٢٦ من سورة القصص .

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - « حوالَيْنا ولا علينا[١] » .

والمطر وإن أفسَدَ بعضَ الثِّمار . وأضرَّ ببعض الأَكَرة[٢] فإنَّ نفعَه غامرٌ لضررِه[٣] .

وليس شيءٌ[٤] من الدُّنيا يكون نفْعُه محضاً . وشرُّه صِرفا . وكذلك الإمامُ الجائِرُ ، وإن استأْثَرَ ببعض الفَيء، وعطَّل بعض الحُكْم . فإنَّ مضارَّه مغمورةٌ بمنافعه .

قالوا : وكذلك أمر الوُكلاء والأَوصياء والأُمناء . لا تعلم قوماً الشرُّ فيهم أَعَمُّ ولا الغِشُّ فيهم أكثر من الأَكرة[٥] . وما يجوز لنا مع هذا أَن نعمَّهم بالحُكْم مع أَنَّ الحاجة إليهم شديدة . ونَزْعَ هذه العادةِ [وهذا[٦]] الخُلقِ منهم أَشَدُّ .

٥ — فصـــل منه

وأنا أَظنُّ أَنَّ الذنب مقسومٌ بينك وبين وكلائك . فارجِعْ إلى نفسِكَ فلعلَّكَ أَنْ ترى أَنَّك إنَّما أُتِيتَ[٧] من قِبَلِ الفِراسة ، أَو من قبل أَنَّك لم تقطع لهم الأُجرةَ السنيَّة ، وحملتهم على غاية المشَقَّة فى أَداءِ الأَمانة وتمامِ النَّصيحة .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتابى الجمعة والاستسقاء ، من حديث مطول لأنس بن مالك . كما أخرجه مسلم فى صلاة الاستسقاء . وفى اللسان (حول) : « يريد : اللهم أنزل الغيث علينا فى مواضع النبات لا فى مواضع الأبنية » .

(٢) الأكرة : جمع للأكار ، بالتشديد ، وهو الحراث والزراع للأرض . قال الجوهرى : «كأنه جمع آكر فى التقدير » . وفى ب : « الأكرا » وفى م : « الأكرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٣) أى غالب عليه . وفى النسختين : « غامراً لضرره » ، تحريف .

(٤) ب : « لشىء » ، صوابه فى م .

(٥) انظر ماسبق فى الحاشية الثانية .

(٦) التكملة من م .

(٧) ب : « أنك أتيت » وفى م : « إنما أتيت » ، والوجه ما أثبت .

٦ — فصل منه

ولابُدَّ[١] فى باب البصَر بجواهر الرجال من صِدق الحِسِّ ، ومن صِحَّة الفِراسة ، ومن الاستدلال فى البعض على الكُلِّ[٢] ، كما استدلَّت بنتُ شعيب — صلوات الله عليه — حين قضَتْ لموسى — عليه السلام بالأَمانة والقوَّة ، وهما الرُّكنان اللذان تُبنى عليهما الوِكالة .

٧ — فصل منه

وقد قالوا : ليس ممَّا يَستعمل الناسُ كلمةٌ أَضرَّ بالعلم والعلماء ، ولا أَضرَّ بالخاصَّة والعامَّة ، من قولهم[٣] : « ماترك الأَوَّل للآخِر شيئاً » .

ولو استعمل النَّاسُ معنى هذا الكلامِ فتركوا جميع التكلُّف ، ولم يتعاطَوْا إلَّا مقدارَ ماكان فى أَيديهم لفقدوا[٤] علماً جمًّا ومرافقَ لاتُحصَى ، ولكن أَبَى اللهُ إلَّا أنْ يَقْسِمَ نِعَمه بين طبقاتِ جميع عبادِهِ قِسمةَ عدل ، يُعطى كلَّ قَرنٍ وكلَّ أُمَّةٍ حِصَّتَهَا ونصيبَها ، على تمامِ مَراشد الدِّين ، وكمال مصالح الدنيا .

فهؤلاءِ ملوكُ فارسَ نزلُوا على شاطئ الدِّجلة ، من دون الصَّراة[٥]

---

(١) ولا بد ، ساقطة من ب .

(٢) هذا من شواهد الاستعمال القديم لكلمتى « كل » و « بعض » مقرونتين بأل . وانظر الرسائل ١ : ٢٤٨ ، ٢٩٨ ، ٣٥٧ .

(٣) تكررت هذه العبارة من أول الفصل إلى هنا فى النسختين ، والوجه حذفها كما صنعت .

(٤) فى النسختين : « أفقدوا » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قال ياقوت : هما نهران ببغداد : الصراة الكبرى والصراة الصغرى ، ولا أعرف أنا إلا واحدا . هو نهر يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحول ، بينها وبين بغداد فرسخ ، ويتفرع منه أنهار إلى أن يصل إلى بغداد .

إلى فوقِ بغداد ؛ فى القصور والبساتين ؛ وكانوا أَصحابَ نَظرٍ وفِكر ، واستخراجٍ واستنباط ، من لدُنْ أَزْدَشِيرَ بنِ بابَكَ إلى فَيروزَ بنِ يزدَجِرد .

وقبل ذلك مانزَلها مُلوكُ الأَشكان ، بعد ملوك الأَردَوان (١) .

فهل رأيتم أَحداً اتَّخذ حَرَّاقة (٢) ، أَو زَلَّالة (٣) ، أَو قارِبًا ؟ !

وهل عرفوا الخَيْش (٤) مع حَرِّ البِلاد ووقع السَّموم ؟ !

وهل عرفوا الجمَّازاتِ (٥) لأَسفارهم ومُتَنَزَّهاتِهم ؟ !

---

(١) الأشكان، من ملوك الطوائف فى فارس، حكموا بعد الإسكندر بمائة وستين سنة . ويسميهم المسعودى : «الأشغان» و « الأشغانيين » . التنبيه والإشراف ٨٣، ٩٣ ، وفى معجم استينجاس ٦٦ : « أشكانيان » . ومثلهم « الأردوان » بفتح الدال كما فى معجم استينجاس . وملوك الطوائف هؤلاء : جماعة بين الفرس الأولى والثانية ظهرت بعد قتل الإسكندر الأكبر دارا بن دارا وتغلبه على الفرس، وقد نصب الإسكندر كل واحد منهم على ناحية من نواحى بلاد الفرس والعراق ، واستبد كل منهم بناحيته ، واستمر ملكهم ١٥٧ سنة إلى أن ظهر عليهم أردشير بن بابك وأسس دولة الفرس الثانية . قال المسعودى فى مروج الذهب ١ : ٢٣٤ : « وهم ملوك الجبال من بلاد الدينور ، ونهاوند ، وهمذان ، وماسبذان ، وأذربيجان . وكان كل ملك منهم يلى هذا الصقع يسمى بالاسم الأعم : أشغان ، فقيل لسائر ملوك الطوائف : « الأشغانيون » . ثم ذكر أيضا أن الأردوان هم ملوك النبيط وكانوا من ملوك الطوائف ، وكانوا بأرض العراق » .

(٢) فى الصحاح والقاموس أن الحراقات سفن بالبصرة ، وفيها مرامى نيران للعدو ، وذكر المعجم الوسيط من معانيها السفينة الخفيفة الممر . وهى المرادة هنا . وكان لطاهر بن الحسين حراقة فى بغداد ، فركبها يوماً ، فقال فى ذلك مقدس بن صيفى الخلوقى الشاعر :

عجبت لحراقة ابن الحسين لا غرقت كيف لا تغرق
وبحران من فوقهـــا واحد وآخر من تحتهـــا مطبق
وأعجب من ذاك أعوادها وقد مسها كيف لاتورق

وانظر وفيات الأعيان فى ترجمة طاهر بن الحسين وزير المأمون .

(٣) يبدو أنها ضرب من السفن الخفيفة السريعة ، من قولهم زل زليلا وزلولا : مر سريعاً .

(٤) الخيش : ثياب رقاق النسج ، غلاظ الخيوط ، تتخذ من مشاقة الكتان . وانظر ما سبق فى ١ : ٣٩٣ . وفى النسختين : « وهل عرف الحبش » ، صوابه ما أثبت .

(٥) الجمازات : النجائب من الإبل تسرع فى سيرها . وانظر الحيوان ١ : ٨٣ / ٤ : ٤٥٩ / ٧ : ٢٤٢ .

وهل عرف فَلّاَحُوهم الثِّمار المطعَّمة ، وغِراسَ النخل على الكُردات المسطَّرة[١] ؟ .

وأَين كانوا عن استخراج فُوهِ العُصفُر[٢] ؟ وأَين كانوا عن تغليق[٣] الدُّور والمُدن ، وإقامة ميل الحيطان والسَّوارِى المائلة الرُّوس ، الرفيعة السُّموك المركَّبة بعضُها على بعض ؟ !

وأَين كانوا عن مراكب البحر فى مُمارسةِ العدو الذى فى البحر ، إن طارت البوارج أدركَتْها[٤] ، وإن أكرهتها فاتتها[٥] بعد أَن كان القومُ أَسرَى فى بلاد الهِنْد ، يتحكَّمون عليهم ويتلعَّبون بهم ؟

وأَين كانوا عن الرَّمى بالنيران ؟ !

نعم ، وكانوا يتَّخذون الأُحصار وينفقون عليها الأَموال ، رجالُهم دسْم العمائم ، وَسِخَة القلانس ، وكان الرَّجلُ منهم إذا مرَّ بالعطار ، أَو جلسَ إليه ، فأَراد كرامته دَهَنَ رأْسه ولحيته ، لا يحتشم من ذلك الكبير ، وكان أَهل البيت إذا طبخوا الَّلحَم غرفوا للجار والجارة غَرفةً غَرفة .

---

(١) الكردات : جمع كردة ، بالضم . وهى القناة بين المزارع . وفى النسختين : « الكردوت » ، ولاوجه لها .

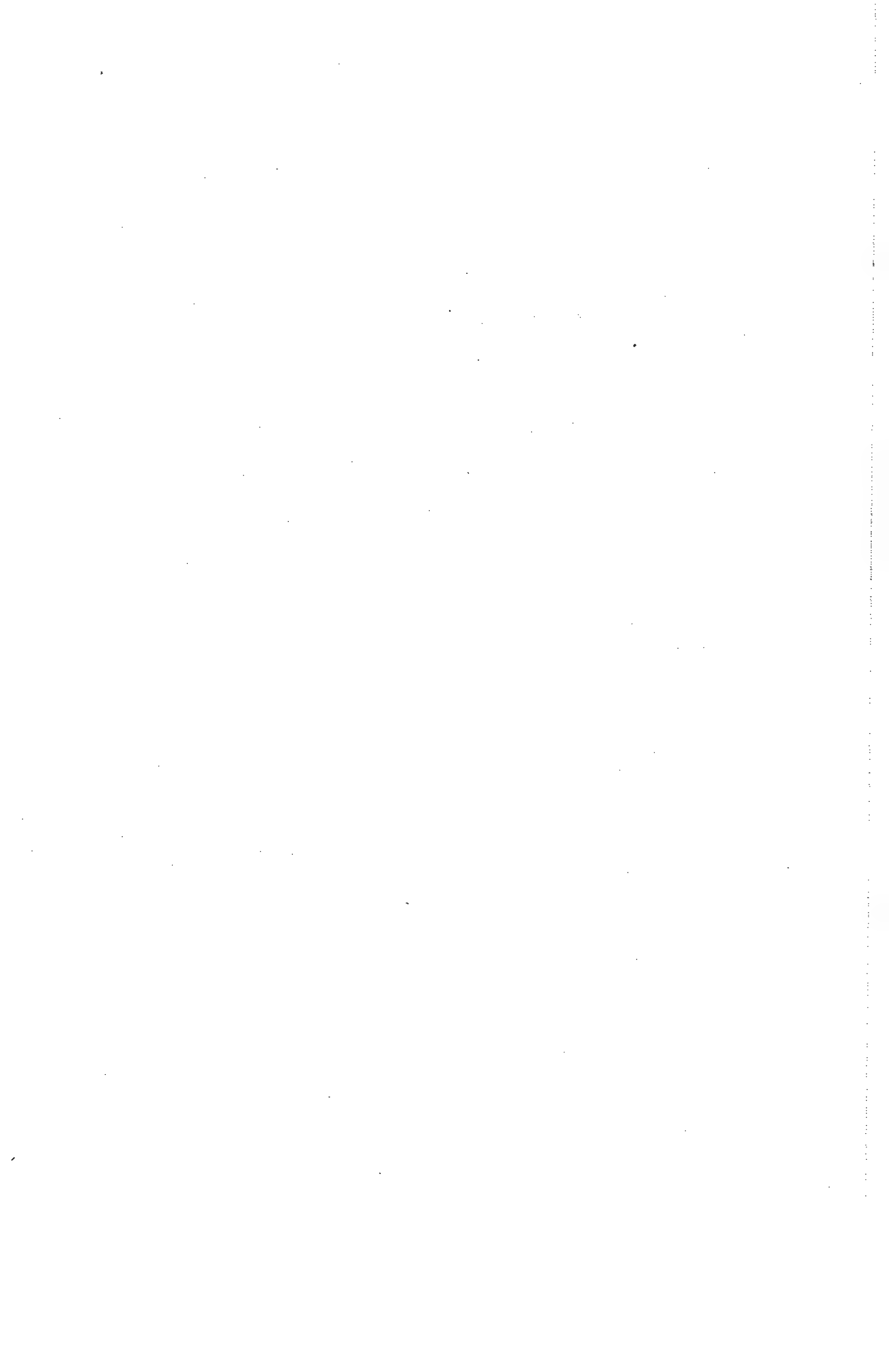
(٢) الفوه بالضم : واحد الأفواه ، وهى التوابل ، وتجمع الأفواه على أفاويه . وفى النسختين : « قوة العصفر » .

(٣) فى النسختين : « تعليق » بالعين المهملة .

(٤) السموك : جمع سمك بالفتح ، وهو السقف ، والعلو والارتفاع . ومنه فى الكتاب العزيز : « رفع سمكها فسواها » .

(٥) البوارج : السفن الكبار ، أو سفن البحر تتخذ للقتال ، واحدتها بارجة . وفى النسختين : « البوارح » بالحاء المهملة ، تحريف .

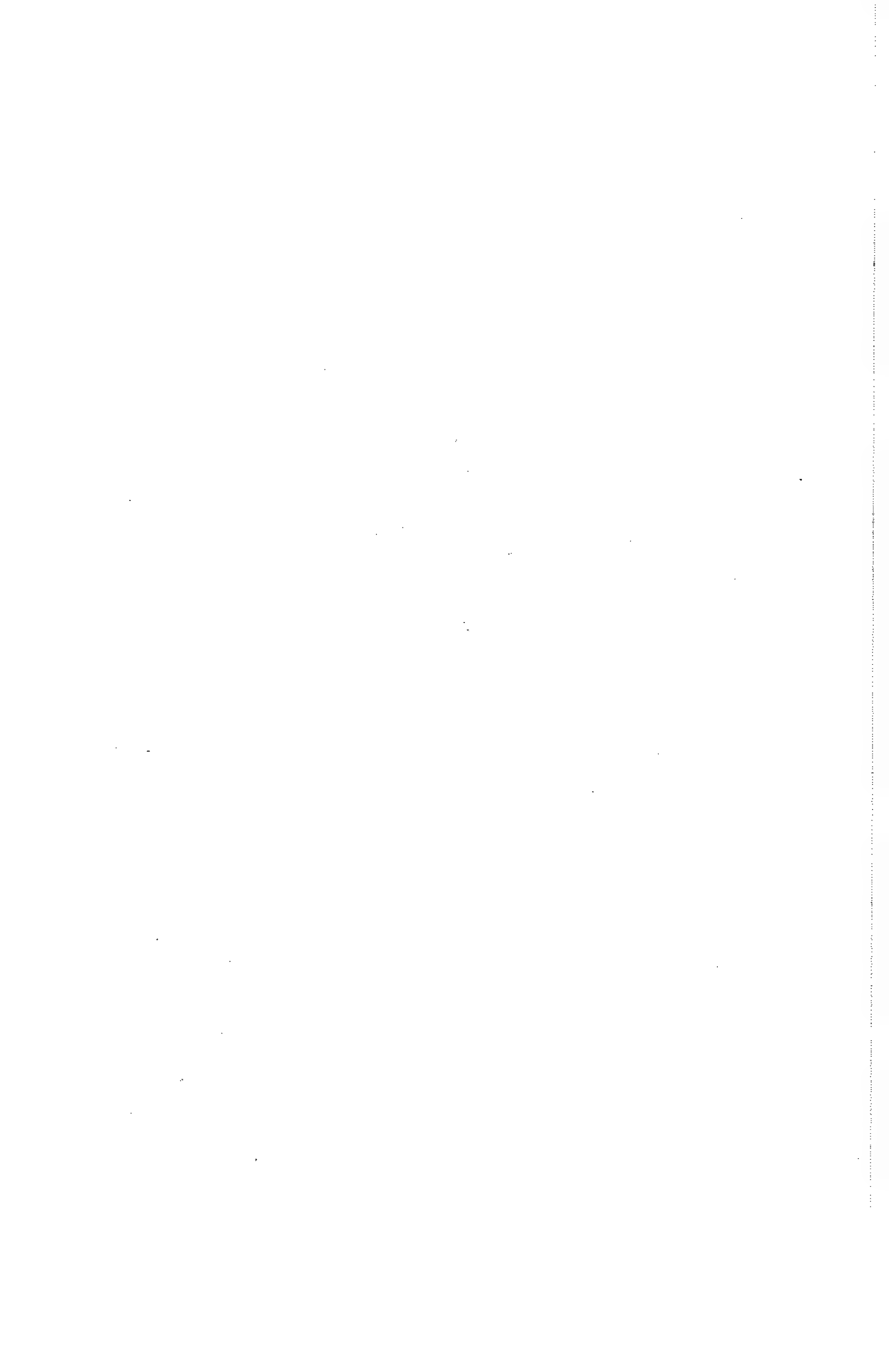
(٦) أكرهه على أمر : حمله عليه وهو له كاره . وفى النسختين : « كرهتها » تحريف .



١٧

من كتابه في

الأوطان والبلدان



١ – فصـــل

من صدر كتابه فى الأوطان والبلدان(١)

زيَّنكَ اللهُ بالتَّقْوى ، وكفاك المهمَّ من أمر الآخرةِ والأُولى ، وأثلج صَدرَك باليقين ، وأعزَّك بالقناعة ، وختَم لك بالسَّعادَة ، وجَعَلك من الشاكرين .

سألتَ – أبقاك الله – أن أكتب لك كتاباً فى تفاضُل البُلدان ، وكيف قناعةُ النَّفسِ بالأوطان ، وما فى لزومها من الفَشَل والنَّقص(٢) ، وما فى الطَّلب من علم التَّجارب والعقل .

وذكرتَ أنَّ طُول المُقام من أسباب الفقر ، كما أنَّ الحركة من أسباب اليُسْر ، وذكرتَ قول القائِل : « النَّاسِ بأزمانِهم أشبَهُ منهم بآبائِهم » .

ونسيتَ – أبقاكَ الله – عملَ البُلدان ، وتصرُّف الأزمان ، وآثارهما فى الصُّوَر والأخلاق ، وفى الشمائِل والآداب ، وفى اللُّغات والشَّهوات ، وفى الهمم والهَيْئات ، وفى المكاسِبِ والصِّناعات ، على مادَبَّرَ اللهُ تعالى من ذلك بالحكمة اللطيفة ، والتدابير العجيبة .

فسبحانَ من جَعلَ بعضَ الاختلافِ سبباً للائتِلاف ، وجعل الشكَّ داعيةً إلى اليقين ، وسُبحان مَن عرَّفنا ما فى الحَيْرَة من الذِّلَّة ، وما فى

---

(١) لم يرد فى غير هذه المجموعة ، وهو غير كتابه « الحنين إلى الأوطان » الذى تقدم نشره فى الرسائل ٢ : ٣٨٣ – ٣١٢ . وقد تعرض ريشر لبحث كتاب الحنين إلى الأوطان فى ص ٤٨٨ . وقد حمل المسعودى فى مروج الذهب ١ : ٩٩–١٠٠ على هذا الكتاب وسماه « كتاب الأمصار وعجائب البلدان » .

(٢) ب : « والنفس » ، صوابه فى م .

الشَّكِّ من الوَحْشة، وما فى اليقين من العِزِّ، وما فى الإخلاص من الأُنس.

وقلت: ابدأْ لى بالشَّام ومصر، وفضْلِ ما بينهما، وتحصيلِ جمالهما، وذكرتَ أنَّ ذلك سيجرّ العراق والحجاز، والنجود(١) والأَغوار، وذكرَ القُرى والأَمصار، والبراريِّ والبحار.

واعلمْ - أبقاكَ اللهُ - أنّا متى قدَّمنا ذكر المؤخَّر وأَخَّرنا ذكر المقدَّم، فسَدَ النِّظام وذهبت المراتب. ولستُ أرى أن أُقدِّم شيئاً من ذكر القرى على ذكر أُمِّ جميع القرى. وأَولَى الأُمور بنا ذكرُ خصال مكَّة، ثمَّ خصال المدينة.

ولولا ما يجبُ من تقديم ما قدَّم اللهُ وتأْخيرِ ما أَخَّر لكانَ، الغالبُ على النفوس ذكرَ الأَوطانِ وموقعِها من قلب الإنسان.

وقد قال الأَوَّل(٢): «عَمَّر اللهُ البُلدان بحبِّ الأَوطان»، وقال ابن الزُّبير: «ليس الناسُ بشيءٍ من أَقسامهم أَقتَنَع منهم بأَوطانهم(٣)».

[و] لولا ما منَّ اللهُ به على كلِّ جِيلٍ منهم من الترغيب(٤) فى كل ما تحت أَيديهم، وتزيينِ كلِّ ما اشتملت عليه قدرتهم، وكان ذلك مفوَّضاً إلى العُقول، وإلى اختيارات النُّفوس - ما سَكَن أَهل الغِياض والأَدغال فى الغَمَق واللَّثق(٥)، ولَمَا سكَنُوا مع البَعُوض والهَمَج(٦)، ولما سكن سُكَّان

---

(١) ب: «والنحجود»، صوابه فى م.

(٢) هو عمر بن الخطاب كما فى رسالة الحنين إلى الأوطان ٣٨٩ ونسب هذا القول فى مناقب الترك ٦٤ إلى «العبدى».

(٣) رسائل الجاحظ ١: ٦٤ والحيوان ٣: ٢٢٧.

(٤) م: «الترتيب»، صوابه فى ب.

(٥) الغمق، بالتحريك: الندى يورث ثقلا ووخامة. وأرض غمقة: فسد ريحها وخم من كثرة الأنداء فصارت موبئة. وفى النسختين: «العمق» صوابه بالغين المعجمة. واللثق: الندى والحر، ويقال للماء والطين لثق أيضاً.

(٦) الهمج: ذباب صغير كالبعوض، يسقط على وجوه الغنم والحمير.

القِلاع[1] فى قلل الجبال ، ولما أقامَ أصحاب البَرارِى مع الذِّئاب والأفاعى وحيثُ من عَزَّ بَزَّ ، ولا أقام أهلُ الأطراف فى المخاوف والتَّغرِير[2] ، ولما رضِىَ أهلُ الغيران وبطونِ الأودية بتلك المساكن ، ولالتمس[3] الجميعُ السُّكنى فى الواسطة ، وفى بَيْضة العرب[4] ، وفى دار الأَمْن والمَنَعة . وكذلك كانت تكون أحوالهم فى اختيار المكاسب والصناعات وفى اختيار الأسماء والشَّهوات . ولا ختاروا[5] الخَطير على الحقير ، والكبيرَ على الصغير .

ألا تراهم قد اختاروا ماهو أقبحُ على ماهو أحسن من الأسماء والصِّناعات ، ومن المنازلِ والدِّيارات ، من غير أن يكونوا خُدِعوا أو استُكْرِهوا .

ولو اجتمعوا على اختيارِ ماهو أرفع ، ورَفْض ماهو أوضَعُ من اسمٍ أو كُنية ، وفى تجارة وصناعة ، ومن شهوةٍ وهمَّة ، لذهبت المعا لات ، وبَطَل التمييز ، ولوقع التجاذُب[6] والتغالب[7] ، ثم التَّحارُب ، ولصاروا غَرضاً للتَّفانى ، وأُكلةً للبَوار[8] .

فالحمد لله أكثَرَ الحمدِ وأطيَبَه على نعمه ، ماظَهَر منها وما بطَنَ ، وما جُهِل منها وما عُلِم !

---

(١) ب : « سكاك » . صوابه فى م . وفى النسختين بعده : « الفلاح » ، صوابه ما أثبت . والقلاع : جمع قلعة ، وهى الحصن فى الجبل .

(٢) ب : « والتغزير » ، صوابه بالراء المهملة . غرر بنفسه تغريراً : عرضها للهلكة .

(٣) فى النسختين : « ولا التمس » ، صواب رسمه ما أثبت ، إذهى لام الجواب وليست « لا » النافية » .

(٤) بيضة العرب : موضع سلطانهم ومجتمعهم .

(٥) فى النسختين : « ولا اختاروا » . وانظر التنبيه السابق .

(٦) فى النسختين : « التجازب » صوابه بالذال . والتجاذب : التنازع ، مفاعلة من الجذب .

(٧) ب : « ثم التغالب » .

(٨) البوار : الهلاك . والأكلة ، بالضم والفتح : المأكول .

ذكر الله تعالى الدِّيار فخبَّر عن موقعها من قلوبِ عباده ، فقال: ﴿ولو أنَّا كتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مافَعَلُوهُ إِلَّا قليلٌ منهم[١]﴾. فسوَّى بين موقِع قتل أنفسِهم وبين الخروج من ديارهم . وقال : ﴿وَمَالَنَا أَلاَّ نُقاتِلَ فى سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وأبنائِنا[٢]﴾ . فسوَّى بين موقع الخروج من ديارهم وبين موقع هَلاك أبنائهم .

٢ – فصــل منه

فقسم الله تعالى المصالحَ بين المُقَام والظَّعْن ، وبين الغُربة وإلفِ الوطَن ، وبين ماهو أربحُ وأرفع ، حين جَعَلَ مجاريَ الأرزاق مع الحركة والطَّلَب . وأكثرُ ذالك[٣] ماكان مَعَ طول الاغتراب ، والبُعْدِ فى المسافة ، ليُفيدك الأُمور ، فيمكن الاختبار[٤] ويحسن الاختيار .

والعقل المولود متناهى الحدود ، وعَقْل التجارب لايُوقَف منه على حدّ . ألا ترى أنَّ الله لم يجعل إلف الوطن عليهم مفترضاً[٥] ، وقيداً مُصْمَتاً ، ولم يجعل كِفاياتِهم مقصورةً عليهم ، محتسبة لهم فى أوطانهم ؟ ألا تراه يقول: ﴿ فاقرءُوا مَاتَيَسَّرَ من القرآن ، عَلِمَ أَن سَيكونُ منكم مرْضَى وآخرُون يَضْرِبُون فى الأَرض يبْتَغُون مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخرون يُقاتِلُون فى سَبِيلِ اللهِ[٦] ﴾ . فقسَّم الحاجاتِ فجعل أكثَرَها فى البُعد . وقال عزّ ذكره : ﴿ فإذا قُضِيت الصَّلاةَ فانتشِرُوا فى الأَرضِ وابْتَغُوا مِنْ

(١) الآية ٦٦ من النساء .
(٢) الآية ٢٤٦ من البقرة .
(٣) فى النسختين : « وأكثر من ذلك » .
(٤) م : « الاختيار » بالياء المثناة من أسفل .
(٥) م : « مترصاً » . والمترص : المحكم المقوم ، كما يترص العقد والميزان ونحوهما .
(٦) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

فَضْلِ اللهِ[١] ﴾ فأخرج الكلامَ والإطلاق على مُخْرج العموم : فلم يخص أرضاً دون أرض ، ولا قُرباً دون بُعد .

٣ - فصـــل منه

ونحن ، وإنْ أطنبنا فى ذكر جملة القَولِ فى الوطن ، وما يَعملُ فى الطبائع ، فإنَّا لم نذكر خصالَ بلدةٍ بعينها ، فنكونَ قد خالفنا إلى تقديم المؤخَّر وتأخير المقدَّم .

قالوا : ولم نجهل ولم ننكر[٢] أنَّ نَفْسَ الإلفِ يَكون[٣] من صَلَاحِ الطبيعة ، حتَّى إنَّ أَصحاب الكِلابِ[٤] ليجعلون هذا من مفاخرها على جميع مايُعاشِرِ النَّاسَ فى دُورهم من أَصناف الطير وذوات الأَربع : وذلك أنَّ صاحب المنزل إذا هَجم منزِلَه[٥] واختار غيرَه ، لم يتبعْه فرسٌ ولا بغلٌ ولا حِمارٌ ، ولا ديكٌ ولا دَجاجة ، ولا حمامةٌ ولا حمام ، ولا هِرٌّ ولا هرّة ، ولا شاةٌ ، ولا عُصفور ؛ فإنَّ العصافير تـأْلفُ دُورَ النَّاس ، ولا تكاد تقيم فيها إذا خَرجُوا منها . والخطاطيف تقطعُ إليهم لُتقيم فيها إلى أَوانِ حاجتِها إلى الرُّجوع إلى أَوطانها ، وليس شىءٌ من هذه الأَنواع ممَّا تبوَّأَ فى الدُّور باجتلابهم لها ، ولا ماتبوَّأَ فى دورهم مما ينزِعُ إليهم أَحنَّ من الكَلْب ، فإنَّه يُؤْثره على وطنه ، ويَحميه ممن يغشاه .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الجمعة . وفى النسختين : « فإذا قضيتم الصلاة » تحريف قرآنى .

(٢) فى النسختين : « ولم نذكر » ، والوجه ما أثبت .

(٣) فى النسختين : « تكون » .

(٤) فى النسختين : « الكلا » ، والوجه ما أثبت .

(٥) هجم منزله هجما : هدمه . وهجم البيت ، إذا قوض . ومنه قول علقمة :

صعل كأن جناحيه وجؤجؤه بيت أطافت به خرقاء مهجوم

فذكروا الكلبَ بهذا الخُلُق الذى تفرَّد به دونَ جميع الحيوان .

وقالوا فى وجه آخر : أكرم الصَّفايا أشدُّها وَلَهًا إلى أولادها[١] ، وأكرَمُ الإبل أحنُّها إلى أعطانها[٢] ، وأكرم الأفلاء[٣] أشدُّها ملازمةً لأُمَّهاتها ، وخير النَّاسِ آلَفُهُمْ للَّناس .

٤ ــ فصــل منه

وقلتم : خبِّرونا عن الخصال التى بانت بها قريشٌ عن جميع الناس . وأنا أعلم أنَّك لم تُرد هذا ، وإنَّما أردتَ الخصالَ التى بانت بها قريشٌ من سائر العرب ، كما ذكرنا فى الكتاب الأوَّل الخصالَ التى بانت بها العرب عن العجم ؛ لأنَّ قريشاً والعربَ قد يَستَوُون فى مناقبَ كثيرة . قد يُلفَى فى العرب الجوادُ المُبِرّ[٤] وكذلك الحليم والشُّجاع ، حتى يأْتَى على خصالٍ حميدة ؛ ولكنا نريد الخصائصَ التى فى قُريشٍ دون العرب .

فمن ذلك أنَّا لم نر قريشيًّا انتسب إلى قبيلة من قبائل العرب ، وقد رأينا فى قبائل العرب[٥] الأشرافِ رجالاً ــ إلى السَّاعة ــ ينتسبون فى قريش ، كنحو الذى وجَدْنا فى بنى مُرّة بنِ عوف ، والذى وجدنا من ذلك فى بنى سُلَيم ، وفى خزاعة ، وفى قبائل شريفة .

---

(١) الصفايا : جمع صفية ، وهى الناقة والشاة الغزيرة اللبن .

(٢) العطن للإبل كالوطن للناس . وقد غلب على مبركها حول الحوض . ب : « أعطانها » ، صوابه فى م .

(٣) الأفلاء : جمع فلو بالكسر ، أو فلو كعدو ، أو فلو بضمتين مع التشديد ، وهو المهر الذى لم يرض ، أو الذى بلغ السنة .

(٤) المبر : الغالب . وفى اللسان (برر ١١٩) : « وسئل رجل من بنى أسد : أتعرف الفرس الكريم؟ قال : أعرف الجواد المبر من البطىء المقرف » . ب : « الميرن » م : « المبرن » والوجه ما أثبت .

(٥) ب : « كبائر العرب » ، صوابه فى م .

وممَّا بانت قريش أنَّها لم تلِدْ فى الجاهلية ولدًا قطّ [لغيرها[١]]

ولقد أخذ ذلك منهم سُكَّانُ الطَّائف ، لقُرب الجِوار وبَعضِ المصاهرة ، ولأنَّهم كانوا حُمْساً ، وقُريش حَمَّستهم .

وممَّا بانت[٢] به قريش من سائِر العرب أنَّ الله تعالى جاء بالإسلام وليس فى أيدى جميعِ العرب سبيَّةٌ[٣] من جميع نساءِ قريش ، ولاوَجَدوا فى جميع أَيدِى العرب ولداً من امرأةٍ من قريش .

ومما بانت[٤] به قريشٌ من سائر العرب أنَّها لم تكن تزوِّج أحداً من أشراف العرب إلاَّ على أن يتحمَّس . وكانوا يُزَوَّجون من غير أن يُشترَطَ عليهم ، وهى عامر بن صعصعة ، وثقيف، وخُزاعة ، والحارث ابن كعب ، وكانوا ديانِيِّين[٥] ، ولذلك تركوا الغَزْو لما فيه من الغَصْب[٦] والغَشم[٧] ، واستحلال الأَموال والفروج .

ومن العجب أَنَّهم مع تركهم الغَزْوَ كانوا أَعزَّ وأَمثَلَ ، مثل أَيَّامِ الفِجَار[٨] وذات كَهْفٍ[٩] .

---

(١) بها أو بنحوها يصح الكلام . وانظر ما سيأتى فى نهاية الفقرة التالية .

(٢) فى النسختين : « وما بانت » ، والوجه ما أثبت .

(٣) السبية : المسبية التى لحقها السباء، وهو الأسر والنهب . ب : « نسية » م : « سنية » ، صوابهما ما أثبت . (٤) فى النسختين : « وما بانت » ، تحريف .

(٥) نسبة إلى الديانة . وفى النسختين : « ديانين » . والديان : الحاكم والقاضى ، ولاوجه له هنا . وانظر الحيوان ٤ : ١٩٧ .

(٦) فى النسختين : « الغضب » بالضاد المعجمة ، صوابه ما أثبت .

(٧) الغشم : الظلم . ب : « القشم » م : « العشم » صوابهما بالغين المعجمة .

(٨) أيام الفجار ، بكسر الفاء : حروب أربعة كانت أولاها وثالثتها بين كنانة وهوازن وثانيتها بين قريش وهوازن ورابعتها بين قريش وكنانة كلهاوبين هوازن . وكانت كلها قبل البعثة بست وعشرين سنة . وانظر العقد ٥ : ٢٥١-٢٥٧ . ب : « مثل أنام الفجار » م : « أنام الفخار » ، وبإسقاط ، « مثل » والوجه ما أثبت .

(٩) ذات كهف : موضع كانت فيه وقعة لهم . وفيه يقول بشر بن أبي خازم الأسدى :

يرومون الصلاح بذات كهف وما فيها لهم سلع وقار

الصلاح ، بالكسر : الصلح . وانظر المفضليات ٣٤١ .

أَلَا ترى أنَّهم عند بُنيان الكَعْبةِ قال رؤساؤهم : لاتُخرِجوا فى نفقاتكم على هذا البيت إلَّا من صَدُقَات نسائِكم [١] ، ومواريث أبائِكم ! أرادوا مالاً لم يكسبوه ولا يشكُّون أنه لم يدخله من الحرام شيء .

ومن العجب أنَّ كسبهم لمَّا قَلَّ مِن قِبَلِ تركهم الغَزْو ، ومالُوا إلى الإيلاف والجِهاد ، لم يَعْتَرِهِمْ من بُخل التجَّار قليلٌ ولا كثير ، والبُخلُ خِلقةٌ فى الطِّباع ، فأَعطَوُا الشُّعراءَ كما يُعطِى الملوك ، وقَرَوُا الأَضيافَ ، ووَصَلُوا الأَرحام ، وقاموا بنوائِب زُوَّارِ البيت ، فكان أَحدُهم يَحِيسُ الحَيْسَةَ فى الأَنطاع [٢] فيأْكل منها القائمُ والقاعد ، والراجلُ والرَّاكب [٣] وأَطعمُوا بدلَ الحَيْس الفَالوذَج [٤] . أَلا ترى أُميَّةَ بن أَبى الصلت يقول ، ويذكُرُ عبدَ الله بن جُدْعان [٥] :

له داعٍ بمكَّةَ مشمعلٌّ وحفصٌ فوق دارتِه ينادِى [٦]

(١) الصدقات : المهور ، وهى بضم الدال وفتحهامع فتح الصاد ، ومثلها الصدقة بضم الصاد وبضمتين ، وكذلك الصداق كسحاب وككتاب . وفى الكتاب العزيز : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » ، لم تقرأ فى القراءات الأربع عشرة إلا بفتح الصاد وضم الدال . وانظر تفسير أبى حيان ٣ : ١٦٦ والإتحاف ١٨٦ .

(٢) الحيس : طعام يتخذ من التمر والأقط يدقان ثم يعجنان بالسمن عجناً شديداً حتى يندر النوى منه نواة نواة ثم يسوى كالثريد . والنطع بتثليث النون : بساط من الجلد .

(٣) الراجل : من يمشى على رجليه ، مقابل الراكب . وفى النسختين : « الداخل » ، صوابه ما أثبت .

(٤) الفالوذ والفالوذج : طعام يتخذ من الدقيق والماء والعسل ، معرب . وانظر صنعة متقدمة منه فى كتاب الطبيخ للبغدادى ص ٧٦ .

(٥) جدعان بضم الجيم ، كما فى القاموس (جدع) . وفى النسختين : «جذعان» تصحيف . وعبد الله هذا جواد معروف مات قبل الإسلام ، واسمه عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة . وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شهدت مأدبة فى دار ابن جدعان» . وفى الإصابة ٤٥٧٨ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : « إذا اشتريت نعلا فاستجدها ، وإذا اشتريت دابة فاستفرهها ، وإذا كان عندك كريمة قوم فأكرمها » . وسألت عائشة عنه رسول الله وذكرت له ما كان فيه من الجود فقال : « إنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » . وانظر الأغانى ٨ : ٢-٥ والعقد ١ : ٥٤/٢ : ٢٣/٤ : ٤٧ . والمحبر لابن حبيب ١٣٧ - ١٣٩ .

(٦) الرواية المعروفة : « وآخر فوق دارته» . ديوان أمية ٢٧ والبيان ١ : ١٧ والأغانى ٨ : ٣ .

إلى رُدُحٍ من الشِّيزى مِلاءٍ لُبابَ البُرِّ يُلبَكُ بالشِّهادِ[(١)]

فلُبَاب البُرّ هو هذا النَّشا ، والشِّهاد يعني به العسل .

ألا ترى أنَّ عمر بن الخطاب يقول :« أتُرَوْنِي لا أعرِفُ طيِّبَ الطعام؟ لُباب البُرِّ بصِغارِ المِعْزَى » ، يعني خُبْزَ الحُوَّارَى بصغار الجداءِ[(٢)] .

ولقد مدحَتْهم الشُّعراءُ كما يُمدح الملوك، ومَدحَتهم الفرسانُ والأشراف وأخذوا جوائِزهم ؛ منهم : دريد بن الصِّمَّة ، وأُميَّة بن أبي الصَّلت .

ومن خصالهم أنَّهم لم يُشاركوا العربَ والأعرابَ في شيءٍ من جَفَائهم ، وغِلَظ شَهَواتهم ؛ وكانوا لا يأكُلون الضِّباب ، ولا شيئاً من الحشرات ؛ ألا ترى أنَّ النبي — صلى الله عليه وسلم — أُتَوْا خِوانَهُ بضبٍّ فقال : «ليسَ من طَعامِ قَوْمِي »، لأنَّهم لم يكونوا يَحرِشُون الضِّباب[(٣)] ، ويَصيدون اليرابيع، ويملُّون القَنافذ[(٤)] ؛ أصحابُ الخَمْر والخَمِير ، وخُبز التَّنانير .

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلَّم — : « أنا أفصحُ العَرَب بيد أنِّي من قريشٍ ، ونَشأْتُ في بني سعد بن بكر » .

وذلك أنَّ جميع قبائِل العرب إنَّما كانت القبيلةُ لاتكاد ترى

---

(١) ردح ، أي قصاع عظيمة ، الواحدة رداح كسحاب . وفي النسختين : « روح » تحريف . والشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع . يلبك : يخلط . والشهاد : جمع شهد بالفتح والضم ، وهو العسل مادام لم يعصر من شمعه .

(٢) الحوارى ، بضم الحاء وتشديد الواو ، مقصور : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه . والجداء : جمع جدى ، كما يجمع أيضاً على أجد وجديان . وفي النسختين : « الجدى » ، تحريف .

(٣) حرش الضب يحرشه ، بالكسر . حرشاً : صاده ، كاحترشه . وذلك بأن يحرك يده على باب جحره ليظنه حية ، فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه .

(٤) يملونه : يجعلونه في الملة ، وهو الرماد الحار والجمر ، يشتوونه ليؤكل .

وتُسمعُ إلَّا من قبيلتها ورجالها ، فليس عندهم ، إلَّا عند قبيل واحد ، من البيان والأدب والرأى والأخلاق ، والشمائِل ، والحلم والنَّجدة والمعرفة ، إلَّا فى الفَرْط .

وكانت العرب قاطبَة ترد مكَّة فى أيَّام الموسم ، وترد أسواقَ عكاظٍ وذا المجاز ؛ وتقيم هناك الأيَّامَ الطِّوال ، فتَعْرُف قريشٌ[1] ، لاجتماع الأخلاق لهم [و] الشَّمائل والألفاظ ، والعُقول والأحلام ، وهى وادعة[2] وذلك قائمٌ لها ، راهنٌ عندها فى كلِّ عام ، تَتملَّك عليهم[3] فيقتسمونهم ، فتكون غَطَفان للمِيرة[4] ، وبنو عامرٍ لكذا ، وتميم لكذا ، تغلبها المناسك[5] وتقوم بجميع شأنها .

٥ — فصــل منه

وفتح مكة يسمَّى فتحَ الفتوح ؛ وهو بيتُ الله ، وأهله وحُجَّاجُه زوَّار الله ؛ وهو البيت العتيق والبيتُ الحرام ؛ وفيه الحِجْر ، والحَجر الأسْود .

وله زمزم ، وهى هزمة جبريل[6] — صلوات الله عليه — ، ومَقَام إبراهيم . وماء زمزم لِمَا شُرِب له ، العاكفُ فيه والبادِى سواءٌ[7] .

(١) عرف يعرف عرافة : صار عريفاً ، أى سيداً .

(٢) ب : « وداعة » ، صوابه فى ش .

(٣) فى النسختين : « يتملك عليهم » .

(٤) الميرة : الطعام يمتاره المرء ، أى يجلبه . وفى النسختين : « للمنيرة » ، تحريف .

(٥) لعلها : « وتغلب للمناسك » .

(٦) من أسماء زمزم « هزمة جبريل » لأنه ضرب برجله فانخفض المكان فنبع الماء ؛ أو أنه هزم الأرض ، أى كسر وجهها عن عينها حتى فاضت بالماء الرواء . وتسمى زمزم أيضاً : « ركضة جبريل » . وفى ب : « وهو زمزمة جبريل » وفى م : « وهو مزم جبريل » ، صوابهما ما أثبت .

(٧) البادى : المقيم بالبادية . ب : « والباء » ، وهى لغة صحيحة جائزة قرأ بها جمهرة القراء فى الوقف والوصل ، وأثبت الياء فى الوصل فقط ورش وأبو عمرو وأبوجعفر . أما يعقوب وابن كثير فقد أثبت الياء فى الحالين جميعاً . إتحاف فضلاء البشر ٣١٤ فى الآية ٢٥ من سورة الحج .

وبسبب كرامته أرسل الله طَيْرَ الأَبابيل[١] وحجارة السِّجِّيل . وأَهلُهُ حُمْسٌ ولَقَاحٌ[٢] لا يؤدُّون إتاوة ؛ ولهم السِّقايةُ ، ودار النَّدوة ، والرِّفادةُ ، والسِّدانة .

قال : وأقسم الله تعالى بها ، قال : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بهذا البَلَدِ[٣] ﴾ . وقوله جل ذكره : (لَا أُقْسِمُ) أى : أُقسم ، وإنَّما قوله « لا » فى هذا الموضع صلةٌ ، ليس على معنى « لا » الذى هو خلاف « نعم » .

وقالوا : ولو كان قوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ[٤] ﴾ يراد به تقادُمُ البنيان ، وما تعاورَه[٥] من كُرور الزَّمان ، لم يكن فضلُه على سائر البُلدان ، لأَنَّ الدنيا لم تَخْلُ من بيتٍ ودار ، وسُكَّان وبُنْيان . وقد مرَّت الأَيَّام على مصر ، وحَرَّان ، والحِيرَةِ ، والسُّوس الأَقصى[٦] ، وأَشباهِ ذلك ، فجعل البيت العتيق صفةً له ، ولو كان ذهب إلى مايعنون . كان من قَبلِ أنْ يَعْتُقَ وتمرَّ عليه الأَزمنة ليس بعتيق . وهذا الاسم قد أُطلِقَ له إطلاقاً ، فاسمه البيت العتيق ، كما أَنَّ اسمَه بيتُ الله .

ومن زعم أَن الله تعالى حَرَّمه يوم خلق السَّمواتِ والأَرض ، فقولنا هذا مِصداقٌ له[٧] .

(١) هذا ما فى م . والأبابيل : الجماعات . وفى ب : « طيراً أبابيل » .

(٢) حمس : جمع أحمس ، وهو الشديد الصلب فى الدين والقتال . ويقال قوم لقاح ، بفتح اللام ، وحى لقاح : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء . وفى النسختين : « لقاح » بالفاء ، صوابه ما أثبت .

(٣) الآية ١ ، ٢ من سورة البلد .

(٤) الآية ٢٩ من سورة الحج .

(٥) تعاوره : تداول عليه وتعاقب . وفى ب : « تعاوده » بالدال ، صوابه فى م .

(٦) السوس الأقصى : كورة بالمغرب ، قصبتها طرقلة . وأما السوس الأدنى فهى بلدة بخوزستان . وبين السوسين مسيرة شهرين ، كما ذكر ياقوت .

(٧) ب : « مصدق » ومع سقوط « له » .

ومن زعم أنَّه إنَّما صار حراماً مذْ حرَّمه إبراهيم، كان قد زعم أنَّه قد كان ولا يقال له عتيقٌ ولا حرام .

قالوا : وممَّا يصدِّق تأْويلَنا أنَّه لم يُعرفْ إلَّا وهو لَقَاح[١] ، ولا أدَّى أهلُه إتاوةً قُطُّ[٢] ، ولا وطِئَتْه الملوكُ بالتَّمليك : أنَّ سابورذا الأكتافِ ، وبُخْت نَصَّر وأَبَا يكسوم وغيرَهم، قد أرادُوه[٣] فحال الله تعالى دونه، فتلك عادةٌ فيه ، وسُنَّةٌ جارية له .

ولولا أنَّ تُبَّعَ أتاه حاجًّا ، على جهة التعظيم والتديُّن بالطَّواف ، فحجَّه وطافَ به ، وكَسَاه الوصائِل[٤] ، لأخرَجه الله منه .

وحجَّهُ بعضُ مُلوكِ غَسان ولخمٍ ، وهم نصارى ، تعظيماً له ، ولِما جعلَ اللهُ له في القلوب .

والعَتيق يكون من رقِّ العبوديَّة ، كالعبد يَعتقه مولاه . ويكون عتيقاً من النار ، كالتائب من الكبائر ، وكالرَّجل يدعو إلى الإيمان فيُستجاب له ، ويتعلَّم[٥] ناسٌ على يده ، فهُمْ أيضاً عُتَقاءُ[٦] .

ويكون الرَّجلُ عتيقاً مِن عِتْق الوجه .

وربَّما كان عتيقاً كما يقال للفرس عتيقٌ وليس بهجين ولا مُقْرِف . وقد سُمِّي أبو بكرِ بن أبي قُحافَةَ ــ رضوان الله عليه ــ عتيقاً ، من طريق عِتْق الوجه ، ومن طريق أنَّهم طلبوا المثالبَ والعيوبَ التي كانت تكون

(١) انظر مامضى في الحاشية الثانية من ص ١١٩ .
(٢) في النسختين : « فقط » .
(٣) في النسختين : « قد أدوه » .
(٤) الوصائل : ثياب يمانية ، وقيل ثياب حمر مخططة يمانية ، واحدتها وصيلة .
(٥) في النسختين : « وتعليم » .
(٦) ب : « فهو أيضا عتقاوة » م : « فهو أيضا عتقا » ، والوجه ما أثبت .

فى الأُمّهات والآباء فلمْ يَجِدوها ، قالوا[١] : ما هذا إلّا عتيق .

٦ – فصــل منه

قد قلنا فى الخصال التى بانت بها قريشٌ دونَ العرب . ونحن ذاكرون – وبالله التوفيقُ – الخِصالَ التى بانت بها بَنُو هاشمٍ دونَ قريش .

فأَوّلُ ذلك النبوّة ، التى هى جِماعُ خصالِ الخَيْر[٢] ، وأعلاها وأفضلُها ، وأَجلُّها وأَسناها .

ثمّ وجَدْنا فيهم ثلاثةَ رجالٍ بَنِى أَعمامٍ فى زمانٍ واحد ، كلُّهم يسمَّى عليًّا ، وكلُّ واحدٍ من الثّلاثة سيِّدٌ فقيه ، عالمٌ عابد ، يَصلُح للرِّياسة والإمامة ؛ مثلَ علىّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطَّلبِ بن هاشم ، وعلىِّ بن الحُسَين بن علىٍّ بن أَبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم ، وعلىِّ ابن عبد الله بن جَعفرِ بن أَبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم .

ثُمَّ وجَدْنا ثلاثةَ رجالٍ بنى أَعمامٍ ، فى زمانٍ واحدٍ ، كلُّهم يسمَّى محمَّدًا ، وكلُّهم سيِّدٌ وفقيهٌ عابد ، يَصلُح للرياسة والإمامة ، مثلَ محمَّد ابن علىّ بن عبد الله بن العبَّاس بن عبد المطلب بن هاشم ، ومحمَّدِ بن علىِّ بن الحسين بن علىٍّ بن أَبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم ، ومثلَ محمّد بن عبد الله بن جعفر بن أَبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم .

وهذا من أَغربِ مايتهيّاً[٣] فى العالم، ويتَّفق فى الأَزمنة، وهذهِ[٤] لا يشركهم فيها أَحد ، ولا يستطيع أَن يدَّعىَ مثلَها أَحد .

---

(١) ب : « قال » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « خصال جماع الخير » ، والوجه ما أثبت . وجماع الشيء بالكسر : مجمعه ومظنته . يقال : « الخمر جماع الإثم » . وفى قول الحسين رضى الله عنه : « اتقوا هذه الأهواء التى جماعها الضلالة وميعادها النار » . اللسان (جمع ٤٠٥) .

(٣) فى النسختين : « تهيأ » .

(٤) م : « وهذا » ، صوابه فى ب .

ولبنى هاشم واحدةٌ[١] مبرِّزة . وثانيةٌ نادرة ، يتقدَّمون بها على جميع الناس . وذلك أنَّا لا نعرف فى جميع مَملكةِ العرب ، وفى جميع مَملكة العجم . وفى جميع الأقاليم السَّبعَة . مَلِكاً واحداً مُلكهُ مِن نصاب واحدٍ[٢] ، وفى مغرِس رسالة ، إلّا من بنى هاشم ، فإنَّ مَلِكهم العبّاسُ ابن عبد المطلب ، عمُّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، والعمُّ وارثٌ ، والعمُّ أبٌ . ولا نعلم أمّةً تدَّعى مثلَ هذا لِملكِها .

وهذا شيءٌ سمعتُه من أبى عُبيدة ، ومنه استمليت هذا المعنى .

ولبنِى هاشم – مُذْ ملَكوا هذه الدُّفعة – دون أيَّام علىّ بن أبى طالب والحسينِ بن علىٍّ إلى يومنا هذا مائةٌ وستَّ عشْرة سنة[٣] . كان أوَّل بركتهم أنَّ الله – تعالى – رفع الطَّواعينَ والمُوتانَ الجارف ، فإنَّهم كانوا يُحصَدون حصدًا بعد حصد .

ثمَّ الذى تهيَّأَ واتَّفق ، وخُصَّ به آل أبى طالب من الغرائب والعجائب والفضائِل ، مالم نجده فى أحدٍ سواهم : وذلك أنَّ أوَّلَ هاشمىٍّ هاشِمِىِّ الأبوَين كان فى الدُّنيا وُلِدَ لأبى طالب ، لأنَّ أباهم عبد مناف . وهو أبو طالب بن شَيْبة – وهو عبد المطَّلب – بن هاشم – وهو عمرو – وهو أبو شيبة . وشيبة هو عبد المطَّلب . وهو أبو الحارث وسيِّد الوادى غير مدافَع ، بن عمرو ، وهو هاشم بن المغيرة ، وهو عبد مناف .

ثم الذى تهيَّأَ لبنى أبى طالب الأربعة : أنَّ أربعةَ إخوة كان بين كلِّ واحد منهم وبين أخيه فى الميلاد عَشْرُ سِنينَ سواءً . وهذا عَجَبٌ .

---

(١) أى خصلة ، أو ميزة . ب : « واحد » تحريف ما فى م .

(٢) فى النسختين : « واحدة » تحريف .

(٣) هذا يؤرخ زمن تأليف هذا الكتاب ، وهو سنة ٢٤٨ ، أى قبل وفاة الجاحظ بسبع سنوات .

ومن الغرائِب التى خُصُّوا بها ، أعنى ولدَ أبى طالب ، أنَّا لا نعلم الإذكار فى بلدٍ من البُلدان ، وفى جيلٍ من الأجيال ، [إلاَّ[١]] أهلَ خُراسان فمن دونهم ، فإنَّ الإذكار فيهم فاشٍ ؛ كما أنَّك لاتجد مِن وراءِ بلادِ مصر إلَّا مِئناثاً، ثم لاترى فيهنَّ مُفِذًّا[٢] بل لا ترى إلَّا التُّوَامَ ومن البَنات .

فتهيَّأَ فى آل أبى طالب من الإذكار مالم نَعرِفْه[٣] فى قديم الدهر وحديثه ، ولا فيما قَرُب من البُلدانِ ولا فيما بَعُد .

وذلك أنَّ آل أبى طالب أُحْصُوا منذُ أعوامٍ وحُصِّلوا، فكانوا قريباً من ألفين وثلثمائة، ثم لا يزيد عددُ نسائهم على رجالهم إلاَّ دون العُشْر[٤] . وهذا عَجَب .

وإن كنتَ تريد أن تتعرَّف[٥] فضلَ البناتِ على البنين ، وفضلَ إناثِ الحيوانات على ذكورها ، فابدأْ فخُذْ أربعين ذراعاً عن يمينك ، وأربعين ذراعاً عن يسارك ، وأربعين خلفك ، وأربعين أمامك ، ثم عُدَّ الرِّجالَ والنِّساءَ حتَّى تعرف ماقُلْنا[٦] ، فتعلمَ أنَّ الله تعالى لم يُحلِّل للرَّجل الواحدِ من النِّساءِ أربعاً ثم أربعاً ، متى وقع بهن موتٌ أو طلاق ، ثم كذلك للواحد[٧] مابين الواحدةِ من الإماءِ إلى مايشاءُ من العدد ، مجموعاتٍ ومفترقات ، لئلا يَبْقَين إلَّا ذواتِ أزواج[٨] .

(١) تكملة يفتقر إليها صحة الكلام .
(٢) أفذت : ولدت ولدا واحداً ، وإن كان من عادتها أن تلد واحداً فهى مفذاذ .
(٣) فى النسختين : « يعرفه » ، والوجه ما أثبت .
(٤) ب : « لادون العشر » ، صوابه فى م .
(٥) م : « أن تعرف » .
(٦) ب : « بما قلنا » .
(٧) فى النسختين : « الواحد » .
(٨) ب : « لاذوات أزواح » م : « لاذات أزواج » ، والوجه ما أثبت .

ثم انظر فى شأْن ذَوَاتِ البَيْض[١] وذوات الأَولاد فإِنَّك سترى فى دارٍ خمسين دجاجةً وديكاً واحداً ، ومن الإِبل الْحَجْمة وفحلاً واحداً ، ومن الحمير العانَةَ وعيراً واحداً . فلمَّا حصلوا كل مئنات وكلَّ مذكار ، فوجدو آل أَبى طالبٍ قد بَرَعوا على الناس وفَضَلوهم[٢] ، عرف الناس موضعَ الفضيلةِ له والخُصوصيَّة .

وفى ولدِ أَبى طالبٍ ــ أَيضاً ــ أُعجوبةٌ أُخرى ؛ وذلك أَنَّه لم يُوجد قَطُّ فى أَطفالِهم طفلٌ يَحْبُو ، بل يَزحفُ زحفاً لئلاَّ ينكشفَ منه عن شيءٍ يَسوءُه ، ليكونَ أَوفرَ لبهائه ، وأَدلَّ على ماخُصُّوا به .

ولهم من الأَعاجيب خَصلةٌ أُخْرى : وذلك أَنَّ عُبيدَ الله بنَ زيادٍ قَتَل الحُسينَ فى يومِ عاشُوراءَ ، وقَتَله اللهُ يومَ عاشوراءَ فى السَّنَة الأُخرى .

وقالوا : لا نعلم موضع رجلٍ من شُجعانِ أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له من عَدَدِ القَتْلى[٣] ماكان لعلىٍّ رضوان الله عليه ، ولا كان لأَحدٍ مع ذلك من قَتْل الرُّؤساءِ والسَّادة ، والمتبوعين والقادَة ، ما كان لعلىِّ بن أَبى طالبٍ . وقتلُ رئيسٍ واحد ، وإِن كان دون بَعضِ الفُرْسان فى الشِّدَّة ، أَشدُّ ؛ فإِنَّ قتلَ الرئيس أَرَدُّ على المسلمين وأَقوى لهم من قتل الفارسِ الذى هو أَشدُّ من ذلك السيِّد .

وأَيضاً ــ أَنَّه قد جمع بين قتل الرُّؤساء وبين قَتْل الشُّجعان .

وله أُعجوبةٌ أُخرى ؛ وذلك أَنَّه مع كثرةِ ماقَتَل وما بارز ، وما مَشَى بالسيف إِلى السَّيف ، لم يُجْرَحْ قطُّ[٤] ولا جَرحَ إِنساناً إِلَّا قَتَله ،

---

(١) فى النسختين : « ولا ذات البيض » ، صوابه ما أثبت .

(٢) م : « وفضلوا » .

(٣) فى النسختين : « من عذر القتلى » ، والصواب ما أثبت . والمراد عدد من قتل من نسله .

(٤) م : « لم يخرج قط » ، صوابه فى ب

ولا نعلم فى الأرض متى ذُكِر السَّبقُ فى الإسلامِ والتَّقدُّمُ فيه، ومتى ذُكِر الفِقهُ فى الدِّين ، ومتى ذُكر الزُّهد فى الأَموالِ التى تَشاجَرَ النَّاسُ عليها ، ومتى ذُكِر الإعطاءُ فى الماعون ، كان مذكوراً فى هذه الحالاتِ كلِّها — إلَّا علىَّ بنَ أبى طالبٍ كرَّم الله وجهه .

قالوا : وكان الحسن يقول : قد يكون الرجل عالماً وليس بعابد ، وعابداً وليسَ بعالم ، وعابدًا وليس بعاقل ، وعاقلاً وليس بعابد . وسُليمان ابن يسار[(١)] عالمٌ عاقل عابد ، فانظُرْ أَين يقع خصالُ سليمانَ من خصال علىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

ولم يكن قصدُنا فى أوَّل هذا الكتاب إلى ذكر هاشم ، وقد كان قصدُنا الإخبارَ عن مكَّة بما قد كتبناه فى صدر هذا الكتاب ، ولكنَّ ذكر خصالِ مكَّةَ جرَّ ذكر[(٢)] خصالَ قريش ، وذكر خصال قريش جرَّ ذكر[(٣)] خصالِ بنى هاشم .

فإن أَحببتَ أن تعرفَ جُملة القولِ فى خصال بنى هاشم فانظر فى كتابى هذا الذى فَرَّقْتُ فيهِ بين خصال بنى عبدِ منافٍ وبين بنى مخزوم ، وفَرَّقت[(٤)] ما بين عبد شمس ؛ فإنَّه هُنَاكَ أَوفَرُ وأَجمَعُ ، إنْ شاءَ الله تعالى .

---

(١) هو أبو أيوب ، أو أبو عبد الرحمن ، أو أبو عبد الله ، سليمان بن يسار الهلالى المدنى ، مولى ميمونة ، ويقال كان مكاتباً لأم سلمة . روى عن ميمونة وأم سلمة وعائشة وزيد ابن ثابت وابن عباس وغيرهم . وعنه عمرو وعبد الله ابنا دينار ، وأبو الزناد والزهرى ونافع وغيرهم . وكان ثقة عابداً ، يصوم يوماً ويفطر يوماً . ولد سنة ٢٧ وتوفى سنة ١٠٧ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٢ : ٤٥ .

(٢) ب : « جر ذلك » ، صوابه فى م .

(٣) ب : « جر ذلك » ، صوابه فى م .

(٤) م : « وفرق » ، وأثبت ما فى ب .

٧ — فصل منه

قالوا : وقد تعجَّبَ الناسُ من ثَباتِ قريش ، وجزالة عَطاياهم ، واحتمالهم المُؤَنَ الغلاظ[(١)] فى دوام كَسْبِهِم من التِّجارة ، وقد علموا أَنَّ البُخْلَ والبَصَر[(٢)] فى الطَّفيف مقرونٌ فى التجارة ؛ وذلك خلُقٌ من أخلاقهم . وعلى ذلك شاهِدُ أَهلِ الترقيح[(٣)] والتكسُّب والتَّدنيق[(٤)] .

فكان فى ثبات جُودهم العالى على جُود الأَجواد ، وهم قومٌ لا كسْبَ لهم إلّا من التجارة ، عَجَبٌ من العَجَب .

ثُمَّ جاءَ ما هو أَعجَبُ من هذا وأَطمُّ[(٥)] ، وذلك أَنَّا قد علمنا أَنَّ الرُّوم قَبْلَ التديُّن بالنَّصرانيَّة ، كانت تنتصفُ من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سِجالاً ، فلمَّا صارت لا تَدِينُ بالقَتْل والقتال ، والقَوَد والقِصاص ، اعتراهُم مثلُ مايعترى الجُبَناءَ حتَّى صاروا يتكلَّفون القتالَ تكلُّفا . ولَمَّا خامرتْ طبائعَهم تلك الدِّيانة ، وسَرَتْ فى لحومهم ودمائهم فصارت[(٦)] تلك الدِّيانة تَعترِض عليهم ، خَرَجُوا من حدود الغالبيَّة إلى أَنْ صاروا مغلوبين .

وإلى مثل ذلك صارت حَالُ التُّغزُغُز[(٧)] من التُّرك . بعد أَن كانوا

(١) ب : « المومن الغلاظ » ، صوابه فى م .
(٢) فى النسختين : « والبطر » .
(٣) ترقيح المال : إصلاحه والقيام عليه . م : « الترجيح » ، تحريف .
(٤) فى النسختين : « والمكسب » ، والوجه ما أثبت . والتدنيق : البخل والشح ، مأخوذ من الدانق بكسر النون وفتحها ، وهو سدس الدينار والدرهم .
وفى حديث الحسن : « لعن الله الدانق ومن دنق » . والمراد به هنا الحرص والدقة فى المعاملة .
(٥) أى أكثر وأعظم . ومنه الطامة ، وهى القيامة ، والداهية .
(٦) م : « فسارت » ، صوابه فى ب .
(٧) التغزغز : جيل من الترك كانوا يعيشون فى بقاع موغلة نحو الغرب ، وكانوا جيراناً للخرلخ ، أو القرلق . وقد انحدر من نسلهم أحمد بن طولون . انظر دائرة المعارف الإسلامية فى رسمها . ب : « التغرغر » م : « التفرغز » صوابهما ما أثبت . وانظر حواشى الكامل لابن الأثير ١١ : ١٧٨ بيروت .

أنجادَهم وحُماتَهم ، وكانوا يتقدّمون الخَرْلُخِيَّة[(١)] ، وإن كانوا فى العدَدِ أضعافَهم ، فلما دانُوا بالزَّندقة — ودينُ الزَّندقة فى الكَفِّ والسِّلْمِ أسوأُ من دِينِ النَّصارى — نَقَصَت تلك الشَّجاعة ، وذهبَتْ تلك الشهامة .

وقريشٌ من بين جميع العرب دانُوا بالتحمُّس ، وتشدَّدوا فى الدين ، فتركوا الغَزْو كراهةً للسَّبْى واستحلال الأَموال واستحسان الغَصْب ؛ فلمَّا تركوا الغَزْوَ لم تبقَ مكسبةٌ سوى التِّجارة ، فضربوا فى البلادِ إلى قيصَرَ بالرُّوم ، وإلى النجاشىِّ بالحبشة ، وإلى المُقوقِس بمصر ، وصاروا بأَجمعهم تُجَّاراً خُلَطاءَ ، وبانوا بالدِّيانة والتحمُّس ، فحمَّسوا بنى عامر ابن صعصعة ، وحمَّسوا الحارثَ بنَ كعب ، فكانوا — وإن كانوا حُمْساً — لا يتركون الغَزْوَ والسَّبى ووطءَ النِّساء ، وأَخْذَ الأَموال ، فكانت نَجْدتهم — وإن كان أنقَصَ — فإنَّها على حالِ النَّجْدة ، ولهم فى ذلك بقيَّة[(٢)] .

وتركَتْ قريشٌ الغَزْو بَتَّةً ، فكانوا — مع طُولِ تَرْك الغَزْو — إذا غَزَوْا كالأُسود على براثنِها ، مع الرأْى الأَصيل ، والبصيرةِ النَّافذة .

أَفليسَ من العَجَب أَنْ تبقى نَجدتُهم ، وتثبُتَ بسالتُهم ، ثم يَعْلون الأَنجاد والأَجواد ، ويَفْرَعُون الشُّجعان[(٣)] ؟! وهاتان الأُعجوبتان بيِّنتان[(٤)] .

وقد عُلِمَ أَنَّ سبب استفاضةِ النجدة[(٥)] فى جميع أَصناف الخوارج

---

(١) فى ب : « الخزلجية » م : « الخزلجية » ، صوابهما ما أثبت . وانظر دائرة المعارف (خرلخ) و (قرلق) .

(٢) البقية : الفضل فيما يمدح به .

(٣) فى النسختين : « ويعرفون الشجعان » ، والوجه ما أثبت . فرع القوم : علاهم وفاقهم .

(٤) فى النسختين : « بليتان » .

(٥) ب : « أن السبب استفاضة النجدة » ، صوابه فى م .

وتقدُّمِهم فى ذلك ، إنَّما هو بسبب الدِّيانة ، لأنَّا نجد عبيدَهم ومواليَهم ونساءهم ، يقاتلون مثلَ قتالهم ، ونجد السِّجستانىَّ وهو عجمىٌّ ، ونجد اليمامىَّ والبَحْرانىَّ والخوزىَّ[1] [وهم غير[2]] عرب ، ونجد إباضيَّة عُمَان وهى بلادُ عربٍ ، وإباضيَّة تاهرت وهى بلاد عجم ، كلُّهم فى القتال والنَّجدة ، وثبات العزيمة ، والشِّدَّة فى البأْس سواءٌ . فاستوت حالاتهم فى النَّجدة مع اختلافِ أنسابهم وبُلدانِهم . أفما فى هذا دليلٌ على أنَّ الذى سوَّى بينهمُ التَّديُّنُ بالقتال ، وضروبٌ كثيرة من هذا الفَنّ ؟!

وذلك كلُّه مُصوَّر فى كتبى ، والحمدُ لله .

وقد تَجِدون عُمومَ السُّخف والجهلِ والكذب فى المواعيد ، والغِشِّ فى الصناعة ، فى الحاكةِ[3] ، فدلَّ استواءُ حالاتهم فى ذلك على استواءِ عِلَلهم . ليست هناك عِلَّةٌ إلَّا الصِّناعة ؛ لأنَّ الحاكة فى كل بلد شىءٌ واحد . وكذلك النَّخَّاس وصاحب الخُلْقان[4] ، وبيَّاع السَّمك . وكذلك الملَّاحون وأصحاب السَّماد ، أوَّلُهم كآخرهم ، وكهولُهم كشُبَّانهم ، ولكن قُلْ فى استواءِ الحجَّامين فى حُبِّ النبيذ[5] !

٨ – فصل منه
فى ذكر المدينة

وأمْر المدينة عَجَبٌ ، وفى تُربها وتُرابها[6] وهوائها ، دليلٌ وشاهدٌ

---

(١) م : « والخوارزنى » . والخوز هم أهل خوزستان .

(٢) تكلة يفتقر الكلام إليها .

(٣) مابعده إلى « الحاكة » التالية ، ساقط من م .

(٤) انظر لأصحاب الخلقان ما مضى فى ١ : ٥٢ والحيوان ٢ : ١٠٥

(٥) أى حدث عنهم ولا حرج .

(٦) التربة : ظاهر الأرض . ومثله فى الحيوان ٣ : ١٤٢ : « وفى ريح ترابها وبنة تربتها » .

وبرهانٌ على قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: « إنَّها طيِّبة تَنْفِى خَبَثَها وتنصع طِيبَها[١] » لأنَّ من دخلها أو أقام فيها. كائناً من كان[٢] من النَّاس، فإنَّه يجد من تُربتها وحِيطانها رائحةً طيبةً. ليس لها اسمٌ فى الأَرابيح[٣]، وبذلك السبب طاب طِيبُها والمَعجونات من الطِّيب فيها. وكذلك العُودُ وجَميعُ البَخُور، يَضَّاعَفُ طِيبُها فى تلك البلدة على كلِّ بلدٍ استعمل ذلك الطِّيب بعينه فيها.

وكذلك صَيَّاحها[٤] والبَلَحُ[٥] والأُتْرُجُّ والسَّفَرْجل، أعنى المجعول منها سُخُباً للصِّبيان والنِّساء[٦].

فإن ذكروا طِيب سابور[٧] فإنَّما طيب سابور بطيب أرياح الرَّياحين، وذلك من ريح رياحينها وبساتينها وأنوارها، ولذلك يَقْوَى فى زمان، ويَضْعُف فى زمان.

ونحن قد ندخل دِجْلة[٨] فى نهر الأُبُلَّة بالأَسحار، فنجد من تلك

---

(١) فى اللسان (نصع) : « وفى الحديث : المدينة كالكير، تنفى خبثها وتنصع طيبها، أى تخلصه » . وانظر الألف المختارة الحديث ١٥٩ . ففيه رواية أخرى .

(٢) م : « ما كان » .

(٣) وكذا فى الحيوان ٧ : ٢٣٠ : « وجد منها عرفاً طيباً وبنة عجيبة لا تخفى على أحد ولا يستطيع أن يسميها » .

(٤) الصياح، بوزن كتان : عطر أو غسل، كما فى القاموس . وفى النسختين : « صباحها » ، تحريف . وانظر الحيوان ٣ : ١٤٢ — ١٤٣

(٥) فى النسختين : « والثلج » ، صوابه من الحيوان ٣ : ١٤٤ ، وفيه : « وإن الجويرية السوداء لتجعل فى رأسها شيئاً من بلح وشيئاً من نضوح مما لا قيمة له لهوانه على أهله، فتجد لذلك خمرة طيبة، وطيب رائحة لا يعدلها بيت عروس من ذوى الأقدار » .

(٦) السخب، بفتحتين : جمع سخاب ككتاب، وهو خيط ينظم فيه خرز وتلبسه الصبيان والجوارى .

(٧) سابور : كورة بأرض فارس، مدينتها النوبندجان، أو شهرستان . وهى كورة نزهة كما ذكر ياقوت .

(٨) ب : « دخلة » ، صوابه فى م .

الحدائق ، ونحن فى وَسَط النهر ، مِثلَ ما يجد أهل سابورَ من تلك الرّائحة .

وطَيْبة[١] التى يسمُّونها المدينة ، هذا الطِّيب خِلقةٌ فيها، وجوهريَّة منها، وموجودٌ فى جميع أحوالها . وإنَّ الطِّيب والمعجونات لَتُحْمَلُ إليها فتزداد فيها طِيباً، وهو ضدُّ[٢] قَصَبة الأهواز وأنطاكيَّة ، فإنَّ الغَوالىَ تستحيل الاستحالة الشّديدة[٣] .

ولسنا نشكُّ أنَّ ناساً ينتابون[٤] المواضعَ التى يباع فيها النَّوَى المُنْقَع ، فيستنشقون تلك الرائحة ، يُعجَبون بها ويلتمسونها ، بقدر فِرارنا نحن من مواقع النَّوى عندنا بالعراق ، ولو كان من النَّوى المَعجوم ومن نَوَى الأفواه[٥] .

ونحن لا نشكُّ أنَّ الرجل الذى يأْكل بالعراق أربع جَرادقَ[٦] فى مقعد واحد من المَيْسانىّ[٧] والمَوصلىّ ، أنَّه لا يأْكل من أقراص المدينة قُرصَين ؛ ولو كان ذلك لغلظٍ فيه أو لفسادٍ كان فى حبِّه وطَحِينه لَظَهر ذلك فى التُّخَم وسوءِ الاستمراء ، ولتولَّد على طول الأيَّام من ذلك أوجاعٌ وفساد كثير .

ولم يكن بها طاعونٌ قطُّ ولا جُذام .

---

(١) طيبة ، بالفتح : اسم للمدينة ، وبالكسر : اسم من أسماء زمزم .
(٢) ب : « عند » ، صوابه فى م .
(٣) الغالية : ضرب من الطيب ، وقد تغلى ، أى تخلق بها .
(٤) ب : « يتناوبون » .
(٥) المعجوم : المدقوق . والأفواه : جمع فوه كسوق ، وهى التوابل ونوافح الطيب . وانظر الحيوان ٣ : ١٤٤
(٦) الجردقة : الرغيف ، فارسى معرب . ويقال جردق أيضاً .
(٧) نسبة إلى ميسان ، بالفتح ، وهى كورة بسواد العراق .

وليس لبلدةٍ من البُلدان من الشُّهرة[١] فى الفقه مالَهُم ولرِجالهم .
وذكر عبد الملك بن مروان رَوْح بن زِنباعٍ[٢] فمدحه فقال : جمعَ أبو زُرْعة فِقه الحِجاز ، ودَهاءَ العراق ، وطاعة أَهلِ الشام[٣] » .

٩ ــ فصــل منــه
فى ذكر مصر

قال أَبو الخَطَّاب[٤] : لم يذكر الله جلَّ وعزّ شيئاً من البُلدانِ باسمِهِ فى القُرآن كما ذكر مِصْر ، حيث يقول : ﴿ وقَالَ الذى اشْتَرَاه مِنْ مِصرَ لامرأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاه[٥] ﴾ . وقالَ : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا على يُوسَفَ آوَى إليه أَبَوَيْهِ وقَالَ ادخُلوا مِصْرَ إن شَاءَ الله آمِنِين[٦] ﴾ وقال : ﴿ وأَوحَيْنَا إلى موسى وأَخِيه أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمصْرَ بُيوتاً واجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً[٧] ﴾ وقال تعالى : ﴿ اهبِطُوا مِصْراً فإنَّ لكم ما سأَلْتُم[٨] ﴾ وقال فى آية : ﴿ أَلَيْسَ لى مُلْكُ مِصْرَ وهذِهِ الأَنْهارُ تَجرِى مِنْ تَحْتى[٩] ﴾ .

---

(١) فى النسختين : « الشهوة » ، صوابه ما أثبت .

(٢) هو أبو زرعة روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامى . قال ابن حجر فى الإصابة : ذكره بعضهم فى الصحابة ولا يصح له صحبة ، بل يجوز أن يكون ولد فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . وكان أحد ولاة فلسطين أيام يزيد بن معاوية . الأغانى ١٧ : ١١١ . وزوجه عبد الملك ابن مروان أم جعفر بنت النعمان بن بشير . الحيوان ١ : ٢٢٦ . وكان سيد جذام . البيان ١ : ٣٤٦

(٣) الخبر فى الإصابة ٢٧٠٧ .

(٤) أبو الخطاب هذا هو قتادة بن دعامة السدوسى البصرى . وهو ممن ولد أعمى ، وكان تابعياً عالماً كبيراً نسابة ، وذا علم فى القرآن والحديث والفقه . أخذ عن الحسن وابن سيرين ، وعنه أيوب السختيانى وهشام الدستوائى وسعيد بن أبى عروبة وغيرهم . وروى له البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه . ولد سنة ٦١ وتوفى سنة ١١٧ فى أيام هشام بن الملك . تهذيب التهذيب ، ووفيات الأعيان ، ومعجم الأدباء ، والمعارف ، ونكت الهميان .

(٥) الآية ٢١ من سورة يوسف . (٦) الآية ٩٩ من سورة يوسف .

(٧) الآية ٨٧ من سورة يونس . والكلام بعدها إلى « تجرى من تحتى » ساقط من ب .

(٨) الآية ٦١ من سورة البقرة . وقرأ الحسن والأعمش : « مصر » بلا تنوين . وانظر إتحاف فضلاء البشر ١٣٧ .

(٩) الآية ٥١ من سورة الزخرف .

وذكر مصرَ فى القرآن بالكِناية عن خاصَّة اسمِها ، فمن ذلك : ﴿ وقَالَ نِسوةٌ فى المدينةِ امرَأَةُ العَزِيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ[1] ﴾ قالوا[2] : هى مدينة مَنْف[3] ، وهو موضعُ منزل فرعون .

وأخبرنى شيخٌ من آل أبى طالبٍ من ولد علىٍّ صحيحُ الخبرِ : مَنْف دارُ فِرعون ، ودُرْتُ فى مجالسِهِ ومثاويه[4] وغُرَفه وصِفافه ، فإذا كلُّه حجرٌ واحدٌ مَنقور ؛ فإن كانوا هَنْدَموه وأحكموا بِناءَه حتَّى صار فى الملاسة واحداً لايُستَبانُ فيه مَجْمَعُ حَجَرين ، ولا مُلْتَقَى صخرتين فهذا عَجَبٌ . ولئن كان جَبلاً واحدًا، ودَكًّا واحداً، فنقَرتْه الرِّجال بالمناقير حَتَّى خرقت فيه تلك المخاريق ، إنَّ هذا لأَعْجَب .

وفى القرآن : ﴿ فَلنْ أَبْرَحَ الأَرضَ حتَّى يأْذَنَ لى أَبِى أَوْ يحكُمَ اللهُ لى وهو خَيْرُ الحاكِمين[5] ﴾ .

قال : والأَرضُ ها هنا مِصْر . وفى هذا الموضع كلامٌ حَسنٌ ، ولكنَّا ندَعُهُ مخافة أَن نَخرج إلى غير الباب الذى أَلَّفْنا له هذا الكتاب .

قالوا : وسمَّى الله تعالى مَلِكَ مِصر «العَزيز» ، وهو صاحبُ يوسف، وسمِّى صاحبَ موسى « فِرعون » .

قالوا : وكان أَصلُ عُتوِّ فِرعونَ مُلكَه العظيمَ ، ومملكتَه التى لاتُشبهها مملكة .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة يوسف .

(٢) ب : « قال » .

(٣) فى النسختين : « مرو » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٤) المثوى : المنزل ، وموضع الإقامة . وفى النسختين : « ومساويه » ، وهو تصحيف ما أثبت .

(٥) الآية ٨٠ من سورة يوسف .

قالوا : ومنهم مؤمنُ آلِ فِرعون . وهى آسِية بنت مُزاحم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سيِّدة نساءِ العالَم خديجةُ بنتُ خويلد ، وفاطمة بنتُ محمَّد ، ومريمُ بنتُ عمران ، وآسية بنت مُزَاحم » .

قال[١] : ولمَّا همَّ فِرعونُ بقَتْلِ موسى قالت آسية : لا تَقتُلْه عسى أَن ينفَعَنا أَو نتَّخذه ولدًا . وقالت : وكيف تَقْتله ، وواللهِ مايعرف الجمرةَ من التَّمرة .

ومنهم السَّحرة الذين كانوا قد أَبرُّوا على أَهل الأَرض[٢] ، فلما أَبصَرُوا بالأَعلام ، وأَيقنوا بالبُرهان ، استبصروا وتابوا توبة ماتابَهَا ماعزُ بنُ مالك[٣] ، ولا أَحدٌ من العالَمين ، حتَّى قالوا لفرعون : ﴿ اقض ما أَنتَ قاضٍ ، إنَّما تقضى هذه الحياةَ الدُّنْيَا ، إنَّا آمَنَّا بَربِّنا ليَغْفِرَ لنا خَطَايانا وما أَكْرَهْتَنَا عليه مِنَ السِّحْر[٤] ﴾ .

وجاءَ فى الحديث : « من أَخربَ خَزَائنَ اللهِ فَعَلَيْهِ لَعْنةُ الله » . قالوا[٥] :

---

(١) أى شيخ من آل أبى طالب . أو لعلها : « قالوا » .

(٢) أبروا عليهم إبراراً : غلبوهم . ومنه قول طرفة :

يكشفون الضر عن ذى ضرهم ويبرون علـــى الآبى المـــبر

وفى النسختين : « قد أبدوا على أهل الأرض » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ماعز بن مالك : أحد الصحابة ، كان قد زنى فأقر على نفسه ، وانطلق إلى رسول الله يطلب منه إقامة الحد عليه ، وألح فى ذلك إلحاحاً . فأمر الرسول برجمه فرجم ، فلما عضه مس الحجارة انطلق يسعى ، فعاجله رجل بلحى جزور فضربه فصرعه . وقال صلى الله عليه وسلم فى شأنه : « لقد تاب توبة لوتابها طائفة من أمتى لأجزأت عنهم » ، كما قال : « والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة يتقمس فيها » . انظر مسند أحمد ٥ : ٢١٧ والسنن الكبرى للبيهقى ٨ : ٢٢٥ — ٢٢٨ ومسلم ٢ : ٣٣ — ٣٥ والإصابة ٧٥٨١ وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٢٢٨ — ٢٤١

(٤) الآية ٧٢ من سورة طه . ونصها : « فاقض ما أنت قاض » ، والاقتباس من القرآن الكريم مع ترك حرف جائز لا بأس به . انظر حواشى الحيوان ٤ : ٥٧ وتحقيق النصوص ٥١ .

(٥) ب : « قال » ، وأثبت ما فى م .

خزائن الله هى مصر ، أَمَا سمِعتم قولَ يوسف : ﴿ اجْعَلنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ[١] ﴾ ؟

وقال عبد الله بن عَمرو : « البركة عَشْرُ بركات : تسعٌ بمصر والواحدة فى جميع الأَرض » .

١٠ — فصل منه

وقال أَهل العِراق : سأَلْنَا بِطْرِيق خَرْشَنَة[٢] عن خَرَاج الرُّوم ، فذكر مقداراً[٣] من المال ، وقال . هو كذا وكذا قِنطاراً . فنظر بعضُ الوزراء فإِذا خراجُ مصر وَحْدَه يُضعِف على خراج بلاد الروم إِذا جُمعت أَبوابُ المالِ من البلاد جميعا .

وزعم أَبو الخطَّاب[٤] أَنَّ أَرض مصر جُبِيَتْ أَربعة آلافِ أَلف دينار .

١١ — فصل منه

ولا أَعلم الفُرقة فى المغْرب إلا أَكثر من الفُرقة فى المشرق ، إِلَّا أَنَّ أَهلَ المغرب إِذا خرجوا لم يزيدوا على البِدعة والضَّلالة ، والخارجىُّ فى

---

(١) الآية ٥٥ من سورة يوسف .

(٢) خرشنة : بلد قرب ملطية من بلاد الروم ، كما فى ياقوت . وانظر الحيوان ٣ : ٢١٥ والبيان والتبيين ٢ : ٤٤ ، ٢٦٥ . وفى النسختين : « حرسه » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ب : « مقدار » ، صوابه فى م .

(٤) أبو الخطاب قتادة بن دعامة المترجم فى ص ١٣١ .

المشرق لا يرضَى بذلك حتَّى يجوزَه إلى الكفر ، مثل المقنَّع[١] وشيبان[٢] والإصبَهبَذ[٣] وبابَكَ[٤] ، وهذا الضَّرب .

١٢ — فصل منه

وقد علمنا أنَّ لِجماعةِ بنى هاشم[٥] طابَعاً[٦] فى وجوههم يستبين به كرمُ العِتق وكَرَمُ النِّجار[٧] ، وليس ذلك لغيرهم .

ولقد كادت الأَهواز تُفسِد هذا المعنى على هاشميَّة الأَهواز ، ولولا

---

(١) هذا هو المقنع الخرسانى ، وكان قد خرج على المهدى بخراسان سنة ١٦١ . وكان أعور قصاراً ، من قرية يقال لها «كازه كيمردان» ، وكان قد عرف شيئاً من الهندسة والحيل والنيرنجات فادعى لنفسه الإلهية عن طريق التناسخ ، واحتجب عن الناس ببرقع من حرير ، ودامت فتنته على المسلمين أربع عشرة سنة ، أباح لهم فيها كثيراً من المحرمات ، فوجه إليه المهدى عدة من قواده ، وجعل المقنع يجمع الطعام عدة للحصار فى قلعته بكش ، وقد تمكن سعيد الحرشى من تشديد الحصار عليه ، فلما أحس بالهلكة شرب سماً وسقاه نساءه وأهله فماتوا جميعاً ، ودخل المسلمون قلعته سنة ١٦٣ واحتزوا رأسه ووجهوا به إلى المهدى . الطبرى فى حوادث ١٦١ — ١٦٣ والفرق بين الفرق ٢٤٣ — ٢٤٥ والآثار الباقية للبيرونى ٢١١ وشروح سقط الزند ١٥٤٥ .

(٢) هو شيبان بن عبد العزيز الحرورى اليشكرى ، الذى خرج فى أيام مروان بن محمد بعد مقتل الضحاك بن قيس الشيبانى رأس الخوارج ، وقد طارده مروان حتى صار شيبان إلى عمان فقتله بها جلندى بن مسعود سنة ١٢٩ . الطبرى فى حوادث سنة ١٢٩ . وفى النسختين : «سيفاد».

(٣) هو الفرخان ، إصبهبذ خراسان على طبرستان . وقد جرى فتح طبرستان على يد سويد ابن مقرن سنة ٢٢ ، وذلك بعد عهد بالصلح تاريخه سنة ١٨ . انظر الطبرى . والإصبهبذ هو بالفارسية «إسبهبد» بتفخيم الباء الأولى فقط ، ومعناه : القائد العام . استينجاس ٤٨ . وفى ب : «والاصبهيدى» وفى م : «والإصبهيد» ، صوابهما ما أثبت .

(٤) هو بابك الخرمى ، رئيس الخرمية بعد موت زعيمهم جاويدان بن سهل ، واشتدت شوكته فى أيام المعتصم ، وحاربه الأفشين واستولى على معقله مدينة البذ ، ثم وقع فى يد سهل بن سنباط بطريق أرمينية وقبض عليه وهو يصطاد ، وسلمه إلى الأفشين ، وصلبه المعتصم سنة ٢٢٣ . الطبرى ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) ب : «أن الجماعة بنى هاشم» ، صوابه فى م .

(٦) ب : «طائعاً» ، صوابه فى م . والطابع ، بالفتح والكسر : الخاتم الذى يختم به ، وكذا الميسم الذى توسم به الدواب ، والمراد هنا العلامة .

(٧) النجار ، بكسر النون : الأصل والحسب . ب : «التجار» ، م : «البخار» صوابهما ما أثبت .

أنَّ اللهَ غالبٌ على أمره لقد كادت[١] طمست على ذلك العِتْق ومَحَتْه[٢]. فتربتُها خلافُ تربةِ الرسول صلى الله عليه وسلم : وذلك أنَّ كلَّ من تخَرَّق طُرق المدينة[٣] وجدَ رائحةً طيِّبةً ليستمن الأَرابيح المعروفة الأَسماء.

١٣ — فصل منه

قال زياد : الكوفة جاريةٌ جميلة لا مالَ لها ، فهى تُخطَب لجمالها . والبصرة عَجوزٌ شوهاءُ ذاتُ مال فهى تُخَطب لمالِها .

١٤ — فصل منه

والفراتُ خيرٌ من مَاءِ النِّيل[٤] . وإمَّا دِجلة فإنَّ ماءَها يقطع شهوةَ الرِّجال . ويَذهَب بصهيل الخيل ، ولا يَذْهَب بصهيلها إلَّا مع ذَهَاب نشاطها ، ونقصان قواها ؛ وإن لم يتنسَّم[٥] النازلون عليها أصابهم قحولٌ فى عظامهم[٦] ، ويُبسٌ فى جلودهم .

وجميعُ العَرَب النَّازلين على شاطئ دِجلة من بغداد إلى بلد[٧]

---

(١) فى النسختين : « لولا أن الله غالب على أمره ولقد كادت » ، والوجه إثبات الواو فى أول الكلام وحذفها فى آخره .

(٢) فى النسختين : « ومحبه » ، صوابها ما أثبت .

(٣) تخرق ، أراد يتخلل . ولم أجد نصاً على هذا الفعل إلا ما ورد فى اللسان ١١ : ٣٦ : « قال أبو عدنان : المخارق : الملاص يتخرقون الأرض، بينا هم بأرض إذا هم بأخرى » . وكذا ماورد فى الحيوان ٢ : ٣٣١ من قوله : « يتخرق السنانير » .

(٤) يعنى نيل الكوفة ، وهو خليج كبير يتخلج من الفرات ، حفره الحجاج بن يوسف وسماه باسم نيل مصر .

(٥) التنسم : طلب النسيم واستنشاقه . فى النسختين : « يتبسم » ، ولا وجه له .

(٦) القحول : اليبس . م : « الفحول » صوابه فى ب .

(٧) بلد : مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل، بينهما سبعة فراسخ ، وينسب إليها جماعة كبيرة من العلماء .ويقال لها أيضاً « بلط » بالطاء. قال ياقوت: « وبلد أيضاً : بليدة معروفة من نواحي دجيل قرب الحظيرة وحربى ، من أعمال بغداد ، لا أعرف من ينسب إليها » .

لايرعَوْن الخَيل فى الصَّيف على أوارِيِّها[١] على شاطئ دِجلة ، ولا يَسقُونها من مائها ، لما يخاف عليها من الصُّدام[٢] ، وغير ذلك من الآفات .

وأصحاب الخيل من العِتاق والبَراذين إنَّما يَسقُونها بُسرَّ من رأى[٣] ، ممَّا احتفروها من كارباتهم[٤] ولا يسقونها من ماءِ دجلة ؛ وذلك أنَّ ماءَ دجلة مختلطٌ ، وليس هو ماءً واحدًا ، ينصب فيها من الزَّابَين[٥] والنَّهروانات[٦] وماءِ الفرات ، وغير ذلك من المياه .

واختلافُ الطَّعام إذا دخَلَ جوف الانسان من ألوان الطَّبيخ والإدام غير ضارّ[٧] ، وإن دخَل جوفَ الإنسان من شرابٍ مختلف كنحو الخمر والسَّكَر ونَبيذ التمر والدَّاذيّ كان ضارًّا . وكذلك الماءُ ، لأنَّه متى أراد أن يتجرَّع جُرَعاً من الماءِ الحارّ لصَدْرِهِ أو لغير ذلك ، فإنْ أعجَلَه أمرٌ فبرَّده بماءٍ باردٍ ثم حَسَاه ضرَّه ذلك ، وإنْ تركَه حتَّى يفْتُر ببرد الهواء لم يضرَّه . وسبيلُ المشروب غير سبيل المأْكول .

فإن كان هذا فضِيلةَ مائِنَا على ماءِ دجلة فما ظنُّك بفضله على ماءِ

---

(١) الأوارى : جمع آرى ، على وزن فاعول . وهو محبس الدابة . ب : « أورائها » صوابه فى م .

(٢) الصدام ، بضم الصاد وكسرها : داء يأخذ فى رءوس الدواب . وقال ابن شميل : داء يأخذ الإبل فتخمص بطونها وتدع الماء وهى عطاش أياماً حتى تبرأ أو تموت .

(٣) م : « ببئر من رأى » ، تحريف .

(٤) كذا فى النسختين . ولعلها « كرابهم » . والكراب : مجارى الماء فى الوادى .

(٥) الزابين : مثنى الزاب ، الزاب الأعلى والزاب الأسفل . فالأعلى بين الموصل وإربل . والأسفل مخرجه من جبال السلق ، وبينه وبين الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة . ب : « الزانين » صوابه فى م .

(٦) هى ثلاث نهروانات : الأعلى ، والأوسط ، والأسفل وهى كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى .

(٧) ب : « غير ضاره » .

البصرة ، وهو ماءٌ مختلط من ماء البحر ومن الماء المستَنْقِع فى أصول القصب والبَرْدِىّ؟ قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَذْبٌ فراتٌ وهذا مِلحٌ أُجاج[1]﴾.

والفرات أعذبها عُذوبةً ، وإنما اشتُقَّ الفُرات لكلِّ ماءٍ عذب ، من فُرات الكوفة .

١٥ — فصل منه
فى ذكر البصرة

كان يقال : الدُّنيا البصرة[2] .

وقال الأَحنف لأَهل الكوفة : « نحن أَعْذَى منكم برِّيَّة[3] ، وأَكثر منكم بحريَّة ، وأَبعد منكم سَرِيَّة ، وأَكثر منكم ذُرِّيَّة[4] » .

وقال الخليل بن أَحمد فى وصف القصر المذكور بالبصرة[5] :

زُرْ وادىَ القصر نعم القصرُ والوادى
لا بدَّ من زَورةٍ عَنْ غير ميعادِ[6]

ترقَى بها السُّفنُ والظُّلمان واقفةً
والضَّبَّ والنُّونَ والملاَّحَ والحادِى[7]

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الفرقان . (٢) فى النسختين : « الدنيا والبصرة » .

(٣) فى النسختين : « أعلى » ، تحريف . « وأعذى » بالذال من العذاة بفتح العين ، وهى الأرض الخصبة . وانظر البيان ٢ : ٩٣ — ٩٤ . وفى محاضرات الراغب ٢ : ٢٦٤ : « أعذب منكم برية » ، تحريف .

(٤) نظير هذا القول فى معجم البلدان فى رسم الكوفة ، منسوب إلى عبد الملك بن الأهتم السعدى بلفظ : « نحن والله يا أمير المؤمنين أوسع منهم برية ، وأعد فى السرية ، وأكثر منهم ذرية ، وأعظم منهم نفراً . يأتينا ماؤنا عفواً صفواً ، ولا يخرج من عندنا إلا سائق أو قائد » .

(٥) انظر نسبة الشعر فى حواشى الحيوان ٦ : ٩٨ . والقصر الذى يشير إليه هو قصر أوس بن ثعلبة بن زفر بن وديعة ، وكان ولى خراسان فى الدولة الأموية . وبالبصرة أيضاً قصر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله وسلم . وانظر معجم البلدان .

(٦) ب : « من غير ميعاد » .

(٧) الظلمان ، بالكسر والضم أيضاً : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام . ب « والظلمات » ، صوابه فى م وعيون الأخبار ١ : ٢١٧ حيث ورد بهذه الرواية . وفى الحيوان : « ترى به السفن كالظلمان واقفة » . وفى اليتيمة ١ : ٩٦ وثمار القلوب ٤١٨ : « ترقى به السفن والظلمان حاضرة » .

ومن أتى هذا القصرَ وأتى قصر أنَس[١] رأى أرضاً كالكافور[٢]، وتُربة ثريَّة، ورأى ضبًّا يُحتَرش، وغزالًا يُقتَنَص، وسمكاً يُصاد، ما بين صاحب شِصٍّ وصاحب شَبَكة، ويَسمع غناء ملّاحٍ على سُكّانه، وحُداءِ جَمّالٍ على بَعيره.

قالوا: وفى أعلى جَبّانَة البصرة موضعٌ يقال له الحَزيز[٣] يذكر الناس أنَّهمْ لم يروْا قطُّ هواءً أعدَلَ، ولا نسيمًا أرَقَّ، ولا ماءً أطيبَ منها فى ذلك الموضع.

وقال جعفر بن سليمان[٤]: «العراق عَيْن الدُّنيا، والبَصرة عَيْنُ العراق، والمِربد عَيْن البَصْرة، ودَارِى عَيْنُ المِربد».

وقال أبو الحسن وأبو عبيدة: «بُصِّرت البَصْرة سنة أربعَ عشرة، وكُوِّفت الكوفة سنة سبعَ عشرة»

١٦ — فصل منه

زعم أهلُ الكوفة أنَّ البصرة أسرعُ الأرضِ خَراباً، وأخبثُها تُراباً، وأبعدُها من السَّماء وأسرعُها غَرَقاً، ومَفيض مائها البحر، ثم يخرج ذلك إلى البحر الأعظم.

وكيف تَغْرَق[٥]، وهم لا يستطيعون أن يُوصِلوا ماءَ الفَيض[٦] إلى

---

(١) هو قصر أنس بن مالك، كما سبق فى الحواشى ص ١٣٨.
(٢) الكافور: ضرب من الطيب. ب: «كالكافورة»، صوابه فى م.
(٣) الحزيز، بزاءين معجمتين، كما فى معجم البلدان. وفى م: «الحزير»، تحريف.
(٤) العقد ٦: ٢٤٩.
(٥) ب: «يعرف»، صوابه فى م.
(٦) ب: «الغيض» بالغين المعجمة.

حِياضهم إلاَّ بعد أن يرتفع ذلك الماءُ فى الهواءِ ثلاثين ذراعاً ، فى كلِّ سقاية بعَيْنها ، لا لِحوضٍ بعينه[١] .

وهذه أَرضُ بغداد فى كلِّ زيادةِ ماءٍ ينبُع الماءُ فى أَجواف قصورهم الشَّارعة بعد إِحكام المسنَّيات[٢] التى لا يقوى عليها إلاَّ الملوك ، ثم يَهدِمون الدَّارَ التى على دِجلة فيكسُون[٣] بها تلك السِّكك ، ويتوقَّعون الغَرَق فى كلِّ ساعة .

قال : وهم يَعِيبون ماءَ البصرة، وماءُ البصرة رقيقٌ قد ذهب عنه الطِّين والرَّمل المَشُوب بماءِ بغدادَ والكوفة ، لطول مُقامه بالبَطِيحة ، وقد لانَ وصفا ورَقَّ .

وإنْ قلتم : إنَّ الماءَ الجارىَ أَمرأُ من الساكن، فكيف يكون ساكناً مع تلك الأَمواج العِظام والرِّياح العواصف ، والماءِ المنقلب من العُلْو[٤] إلى السُّفل ؟ ومع هذا إِنَّه إذا سار[٥] من مَخرجه إلى ناحية المَذَار[٦] ونهر أَبى الأَسَد[٧] وسائِر الأَنهار ، وإذا بَعُدَ من مدخله إلى البصرة من الشِّقِّ القصير ، جَرَى منقضًّا إلى الصُّخور والحجارةِ ، فراسخَ وفراسخ ، حتَّى ينتهىَ إلينا .

---

(١) ب : « لا بحوض » .

(٢) المسنيات : جمع مسناة ، وهو سد يبنى لحجز ماء السيل أو النهر ، به مفاتح للماء تفتح على قدر الحاجة . م : « المبنيات » .

(٣) م : « فيكنسون » ب : « فيكسنون » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب : « من العوالى » .

(٥) فى النسختين : « : « صار » .

(٦) المذار : بلدة فى ميسان بين واسط والبصرة ، فتحها عتبة بن غزوان فى أيام عمر بن الخطاب بعد البصرة . وفى النسختين : « الدار » ، صوابه ما أثبت .

(٧) ذكره ياقوت وقال : « أحد شعوب دجلة بين المذار ومطارة فى طريق البصرة ، يصب هناك فى دجلة العظمى » .

ويدلُّ على صلاح مائهم كثرة دُورهم . وطولُ أعمارهم ، وحُسْنُ عقولهم ، ورِفقُ أكُفِّهم . وحذقُهم لجميع الصناعات ، وتقدُّمُهم فى ذلك لجميع الناس .

ويُستَدلُّ على كرم طِينِهم ببياض كيزانهم[١] وعذوبةِ الماءِ البائت فى قِلالهم ، وفى لون آجُرِّهم ، كأنَّما سُبِكَ من مُحِّ بيض[٢] . وإذا رأيت بناءَهم وبياضَ الجصِّ الأبيض بين الآجُرّ الأصفَر لم تجد لذلك شبهاً أقربَ من الفِضَّة بين تضاعيفِ الذهب .

فإذا كان زمانَ غلَبةِ ماءِ البحر فإنَّ مُستَقاهم من العَذْب الزُّلال الصافى ، النَّمير فى الأبدان[٣] ، على أقلَّ من فرسخ ، وربَّما كان أقلَّ من مِيل .

ونَهر الكوفة الذى يسمُّونه إنَّما هو شُعبةٌ من أنهار الفرات ، وربَّما جَفَّ حتَّى لا يكون لهم مستقًى إلَّا على رأس فرسخ[٤] ، وأكثَرَ من ذلك ، حتَّى يَحفِروا الآبارَ فى بُطون نُهُرهم[٥] ، وحتَّى يضرَّ ذلك بخُضَرِهم وأشجارهم . فلينظُروا أيُّما أضَرُّ وَأيُّما أعْيَب .

وليس نَهرٌ من الأنهار التى تَصبُّ[٦] فى دجلة إلَّا هو أعظم وأكبر وأعرض من موضع الجسر[٧] من نَهر الكوفة ، وإنَّما جسره سبع سفائن ،

---

(١) ب : « بياض كيزانهم » ، صوابه فى ش .

(٢) مح البيض : مافى داخله من أصفر وأبيض . والمح أيضاً : صفرة البيض ، وبياضه هو الغرقئ . وفى النسختين : « مخ » بالمعجمة ، صوابه ما أثبت .

(٣) النمير : الزاكى الناجع فى الرى .

(٤) فى النسختين : « فرس » ، والوجه فيه ما أثبت .

(٥) النهر ، بضمتين : جمع نهر . وفى الكتاب العزيز : « إن المتقين فى جنات ونهر » فى قراءة زهير ، والأعمش ، وأبى نهيك ، وأبى مجلز اليمانى ، وهو كرهن ورهن . تفسير أبى حيان ٨ : ١٨٤ . وقراءة الجمهور : « ونَهر » بفتحتين .

(٦) فى النسختين : « يخصب » ، صوابه ما أثبت .

(٧) فى النسختين : « والجسر » باقحام الواو .

لا تمرُّ عليه دابَّةٌ لأَنها جُذوعٌ مقيَّدةٌ بِلَا طينٍ، وما يمشى عليه الماشى إلا بالجهد ؛ فما ظنُّك بالحوافر والخِفاف والأَظلاف ؟ !

وعامّةُ الكوفة خَرَابٌ يَباب[1] ، ومن بات فيها علم أَنّه فى قريةٍ من القرى ورُستاقٍ من الرَّساتيق ، بما يَسمَعُ من صِياح بناتِ آوَى ، وضُباحِ الثَّعالب ، وأَصوات السباع[2] . وإنّما الفرات دمما[3] إلى ما اتّصل به إلى بلاد الرَّقَّة ، وفوق ذلك .

فإمّا نهرهم فالنِّيل أكبَرُ منه ، وأكثر ماءً ، وأَدْوَمُ جريَةً[4] .

وقد تعلمون كثرة عددِ أَنهار البصرة ، وغلبةَ الماء، وتَطفُّح الأَنهار[5] .

وتبقى النَّخلةْ عشرين ومائةَ سنة وكأَنَّها قِدح[6] . وليس يُرَى من قُرْب القَرية التى يقال لها « النِّيل » إلى أَقصى أَنهار الكوفة نخلةٌ طالت شيئاً إلا وهى معوجَّة كالمِنجل . ثم لم نر غارسَ نخلٍ قطٌّ فى أَطراف الأَرض يرغب فى فسيل كوفى[7] ، لعلمه بِخُبْث مَغرِسه ، وسُوءِ نُشُوِّه ، وفَساد تُربته ، ولُؤم طبعه .

وليس للياَلِي شهرِ رمضان فى مسجدهم غَضَارةٌ ولا بَهَاءٌ ، وليس مَنَار مساجدهم[8] على صُوَر مَنارِ البَصْرة ، ولكن على صُوَر مَنار الملكَانية واليعقوبيَّة[9] .

---

(١) اليباب : إتباع للخراب بمعناه . وفى النسختين : « نباب » ، تحريف .
(٢) ب : « الثعالب » ، وهو تكرار ، والوجه ما أثبت من م .
(٣) كذا فى النسختين .
(٤) فى النسختين : « جرة » ، والوجه ما أثبت .
(٥) التطفح : مطاوع طفحه تطفيحاً : ملأه . ولم تذكر المعاجم هذا المطاوع .
(٦) القدح ، بالكسر : السهم قبل أن يراش وينصل . وانظر محاضرات الراغب ٢ : ٢٦٤ .
(٧) فى النسختين : « لوفى » ، صوابه ما أثبت .
(٨) ب : « مسجدهم » . والمنار : جمع منارة ، وهى المئذنة .
(٩) انظر ما مضى فى ٣ : ٣١٠ .

ورأينا بها مسجدًا خراباً تأْوِيه الكلابُ والسِّباع ، وهو يضاف إلى عليّ بن أبي طالب ، رضوانُ الله عليه .

ولو كان بالبصرة بيتٌ دخَلَه عليٌّ بن أبي طالب مارًّا لتمسَّحوا به وعَمَروه بأنفسهم وأموالهم .

وخبَّرنى من بات أنَّه لم يركواكبها زاهرةً قطٌّ ، وأنَّه لم يَرَها إلَّا ودونها هبْوة[1] ، وكأنَّ فى مائهم مِزاجَ دُهْن . وأسواقُهم تشهد على أهلها بالفَقْر . وهم أَشدُّ بغضاً لأَهل البصرة من أهل البَصْرة لهم ؛ وأَهل البصرة هم أَحسن جواراً ، وأَقلُّ بذخاً ، وأَقلُّ فخراً .

ثم العَجَب من أهل بغدادَ وميلِهِم معهم ، وعيبِهم إيَّانا فى استعمال السَّماد فى أرضنا ولنخلنا ، ونحن نراهم يُسمِّدون بُقُولَهم بالعَذِرة[2] اليابسة صِرفاً ، فإذا طلعَ وصار له ورقٌ ذَرُّوْا عليه من تلك العَذِرة اليابسة حتَّى يسكنَ فى خلال ذلك الورق .

ويريد أَحدُهم أَن يبنىَ داراً فيجىءُ إلى مَزْبلة[3] ، فيضرب منها لَبِناً ، فإن كانت داره مطمئِنَّةً ذاتَ قعرٍ حشا من تلك المَزْبلة التى لو وَجَدَها أَصحابُ السَّمادِ عندنا لبَاعُوها بالأَموال النفسية .

ثم يَسجُرون تَنانيرهم بالكُسَاحات التى فيها من كلِّ شىء ، وبالأَبعار والأَخثاء ، وكذلك مواقد الكِيران[4] .

---

(١) الهبوة : الغبرة . وفى النسختين : « هفوة » ، تحريف .

(٢) فى النسختين : « بعذرة » ، تحريف .

(٣) المزبلة ، بفتح الميم والباء ، وبفتحها مع ضم الباء : الموضع الذى يلقى فيه الزبل .

(٤) الكيران : جمع كور ، بالضم ، وهو مجمرة الحداد . م : « الكيزان » ، صوابه فى ب .

وتمتلئ ركايا[١] دُورهم عَذِرةً فلا يصيبون لها مكاناً. فيحفِرون لذلك في بيوتهم آباراً، حتّى ربما حَفَر أحدُهم في مجلسه، وفي أنبل موضع من داره. فليس ينبغي لمن كان كذلك أن يعيب البَصريِّين بالتّسميد.

١٧ – فصل منه

وليس في الأرض بلدةٌ أرفقُ بأهلها من بلدةٍ لا يعزُّ بها النَّقْد. وكلُّ مبيع بها يمكن.

فالشّامات وأشباهُها الدِّينار والدِّرهمُ بها عزيزان، والأشياءُ بها رخيصة لبعد المَنْقَل، وقلّة عدد من يَبْتاع. ففي ما[٢] يخرج من أرضهم أبداً فضلٌ عن حاجاتهم[٣].

والأهواز، وبَغداد، والعسكر، يكثرُ فيها الدَّراهم ويعزُّ فيها المبيع لكثرة عددِ الناس وعدد الدراهم.

وبالبصرة الأثمانُ ممكِنة والمُثمَّنات ممكنة، وكذلك الصِّناعات، وأُجورُ أصحاب الصناعات. وما ظنُّك ببلدةٍ يدخلها في البادى[٤] من أيَّام الصِّرام إلى بعد ذلك بأشهرٍ، مابين ألفَيْ سفينةِ تمرٍ أوْ أكثر في كلِّ يوم، لا يبيت فيها سفينةٌ واحدة، فإنْ باتت فإنّما صاحبُها هو الذى يُبَيِّتُها، لأنّه لو كان حطَّ[٥] في كلِّ ألف رطلٍ قيراطاً لانْتُسِفَت انتسافا[٦].

ولو أنَّ رجلاً ابتنى داراً يُتمِّمها ويكمِّلها ببغداد، أو بالكوفة،

(١) الركايا: جمع ركية، وهى البئر.
(٢) ب: «فيما». م: «ففيما».
(٣) م: «حاجتهم».
(٤) أي البادئ، وهو الأول.
(٥) أي وضع من الثمن وأرخصه.
(٦) القيراط بالعراق: نصف عشر الدينار. ب: «لا انتسفت»، صوابه في م.

أو بالأهواز . وفى موضعٍ من هذه المواضع : فبلغت نفقتُها مائة ألفِ درهم ، فإنّ البصرىّ إذا بَنَى مثلها بالبصرة لم يُنفق خمسينَ ألفاً ؛ لأَنَّ الدّارَ إنّما يتمُّ بناؤها بالطِّين واللَّبِن . وبالآجُرِّ والجصِّ[١] . والأجذاع والسَّاج والخشب . والحديد والصُّنّاع . وكُلّ هذا يُمكن بالبَصْرة على الشَّطرِ مما يُمكن فى غيرها . وهذا معروف .

ولم نر بلدةً قطُّ تكون أسعارها ممكنة[٢] مع كثرة الجَماجمِ بها إلّا البصرة : طعامُهم أَجْوَدُ الطَّعام . وسِعرُهم أرخص الأسعار ، وتَمرهم أكثَرُ التُّمور . ورَيْع دِبْسِهِم أكثر[٣] . وعلى طُول الزَّمان أصْبَر ، يَبْقَى تمرُهم الشُّهريز[٤] عشرين سنة ، ثم بعد ذلك يُخلَط بغيره فيجيءُ له الدِّبْس الكثير . والعَذْبُ الحلو . والخاثر القوىّ[٥] .

ومن يطمع من جميع أهل النَّخل أن يبيع فسيلةً بسبعين ديناراً . أو بَحْوَنة[٦] بمائة دينارٍ ، أَوْ جَرِيباً بألف دينار[٧] غير أهل البصرة ؟

١٨ — فصل منه

ولأهل البصرة المدُّ والجَزْر على حسابِ منازل القمر لا يغادران من ذلك شيئاً . يأْتيهم الماءُ حتّى يقف على أبوابهم ؛ فإن شاءُوا أَذِنُوا . وإن شاءُوا حَجَبوه .

---

(١) ب : « والآجر والجص » .

(٢) فى النسختين : «يكون أسعارها ممكن » ، والوجه ما أثبت .

(٣) الريع ، بالفتح : فضل كل شىء ، كريع العجين والدقيق والبزر ونحوها .

(٤) الشهريز بكسر الشين وضمها : ضرب من التمر ، ويقال أيضاً سهريز بالسين المهملة وبكسر السين وضمها . ب : « يبقا » م : « ببقاء » ، ووجهه ما أثبت .

(٥) الخاثر : الغليظ . ب : « والحاثر » تصحيف .

(٦) البحونة بفتح الباء والواو : ضرب من التمر .

(٧) الجريب : مساحة تربو على ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، يختلف ذلك باختلاف البلدان .

ومن العَجَب لقومٍ يعيبون البصرَة لقُرب البحر والبَطِيحة[١] ؛ ولو اجتهد أَعلَمُ النَّاس وأَنطَقُ النَّاسِ أَن يجمَع فى كتابٍ واحد منافعَ هذه البطيحة ، وهذه الأُجَمة ، لما قَدَر عليها .

قال زياد : قَصبةٌ خير من نَخْلة .

وبحقٍّ أَقول : لقد جَهَدت جَهْدى أَن أَجمَعَ منافعَ القصب ومَرافِقَه وأَجناسَه ، وجميعَ تصرُّفِه وما يجىء منه . فما قَدَرت عليه حتَّى قطعته وأَنا معترفٌ بالعجز ، مستسلمٌ له .

فأَمَّا بحرُنا هذا فقد طمَّ على كلِّ بحر وأَوفى عليه ؛ لأَنَّ كلَّ بحرٍ فى الأَرض لم يَجعلِ الله فيه من الخيرات شيئاً ، إلاَّ بحرَنا هذا ، الموصولَ ببحر الهند إلى مالا تذكر .

وأَنت تسمع بملوحة ماءِ البحر ، وتستسقطه وتُزْرِى عليه . والبحر هو الذى يَخلقُ الله تعالى منه الدُّرَّ الذى بيعت الواحدة منه بخمسين أَلفَ دينار؛ ويَخلقُ فى جوفه العَنْبر، وقد تَعرِفون قَدْرَ العنبر . فشىءٌ يولِّد هذين الجوهرينِ[٢] كيف يُحقَّر ؟

ولو أَنَّا أَخذْنا خصالَ هذه الأَجَمَةِ وما عظَّمنا من شأْنها ، فقذَفْنا بها فى زاوية من زوايا بحرِنا هذا لضَلَّتْ حتَّى لا نجد لها حِسًّا . وهُمَا لنا خالصانِ دونكم ، وليس يصل إليكم منهما شىءٌ إلَّا بسببِنا[٣] وتعدينا فضل غنا[٤] .

(١) البطيحة : أرض واسعة بين واسط البصرة ، جمعها بطائح ، سميت بذلك لأن المياه تبطحت فيها ، أى سالت واتسعت فى الأرض .

(٢) م : « الجوهرية » ، صوابه فى ب .

(٣) ب : « بسبنا » ، صوابه فى م .

(٤) كذا فى النسختين .

وقال بعض خطبائنا[١] : نحن أكرمُ بلاداً ، وأوسَع سواداً[٢] ، وأكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً ، وأكثر خَراجاً .

لأنَّ خراجَ العراق مائةُ ألفِ ألفٍ واثنا عَشَر ألفَ ألف ، وخراج البصرة من ذلك ستُّون ألفَ ألف ، وخراج الكوفة خمسون ألفَ ألف .

١٩ – فصل منه
فى ذكر الحيرة

ورأيت الحِيرة البيضاء وما جعلها[٣] الله بيضاء ، وما رأيت فيها داراً يُذكَر[٤] إلّا دار عَوْن النَّصرانىِّ العِبادانىِّ[٥] .

ورأيت التُّربة التى بينها وبين قَصَبة الكوفة ، ورأيت لون الأرضِ فإذا هو أكهب[٦] كثير الحَصَى ، خشِنُ المسّ .

والحِيرة أرضٌ باردةٌ فى الشِّتاءِ ، وفى الصَّيف يَنزِعون سُتورَ بيوتهم مخافة إحراق السَّمائم لها .

---

(١) هو أبو بكر الهذلى ، كما فى البيان ١ : ٣٥٧ / ٢ : ٩٤ . ونسب بعض هذا القول إلى خالد بن صفوان فى معجم البلدان (رسم البصرة) ومحاضرات الراغب ٢ : ٢٦٤ .

(٢) السواد : القرى والريف . وفى النسختين : « سوداً » .

(٣) فى النسختين : « وما جعله » .

(٤) فى النسختين : « يذكر » ، والدار مؤنثة .

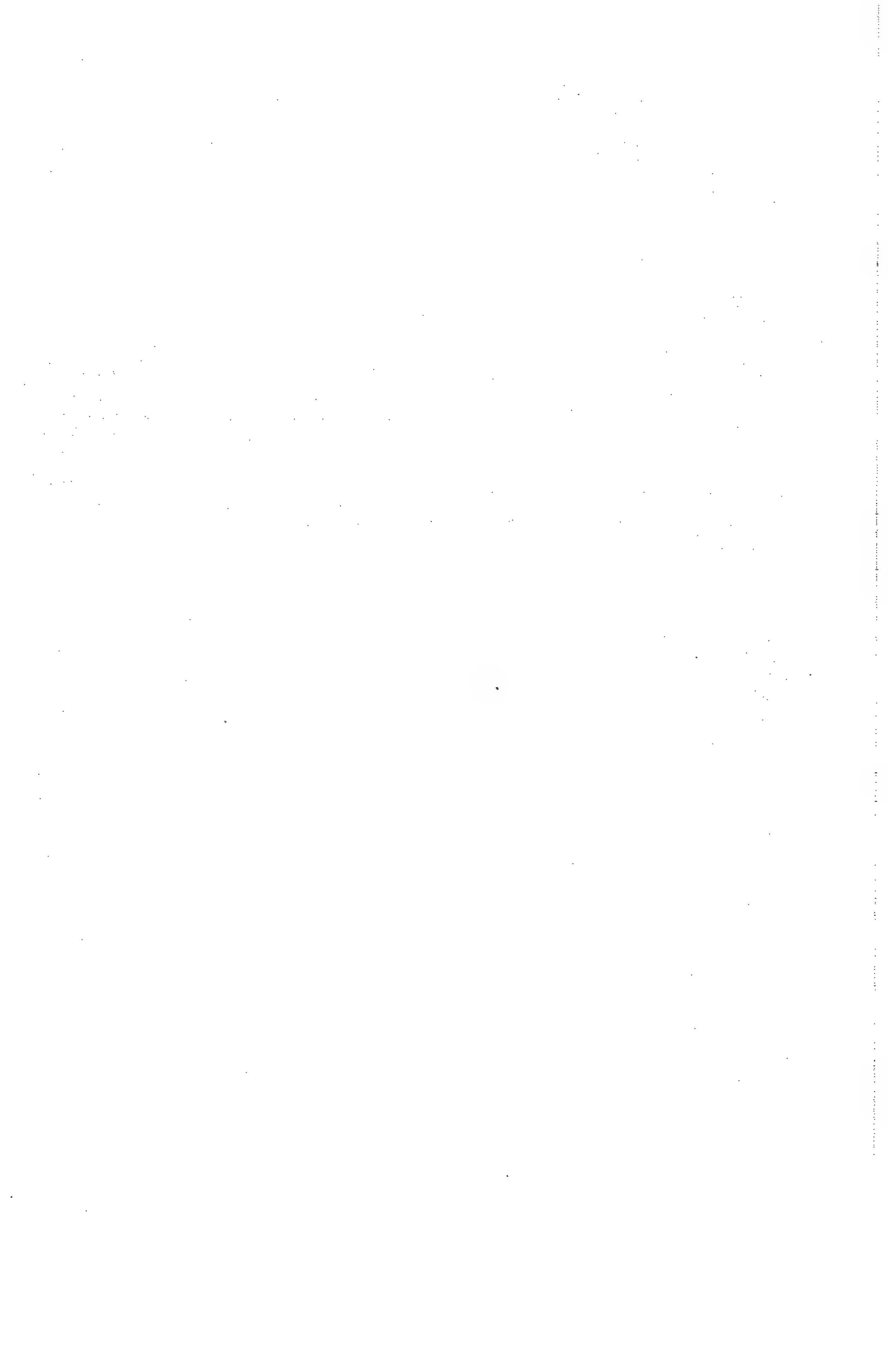
(٥) ذكره الجاحظ فى الحيوان ٤ : ٢٧ قال : « وكان طيمانو رئيس الجاثليق ، قد هم بتحريم كلام عون العبادى عند ما بلغه من اتخاذ السرارى » . والمعروف فى النسبة إلى « العباد » : عبادى .

(٦) الكهبة ، بالضم : غبرة مشربة سواداً .

١٨

من رسالة في

البلاغة والإيجاز



١ - فصل

من صدر رسالته فى البلاغة والإيجاز(١)

قال عمرو بن بحرٍ الجاحظ : درجَتِ الأَرضُ من العَرَب والعجم على إيثار الإيجاز ، وحَمْدِ الاختصار ، وذمِّ الإكثار والتَّطويل والتكرار ، وكلِّ ما فَضَلَ عن المقدار .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلَ الصَّمت ، دائم السَّكت(٢) يتكلَّم بجوامع الكلم ، لا فَضْلَ ولا تقصير ، وكان يُبغض الثَّرثارين المتشدِّقين(٣) .

وكان يقال : أَفصح الناس أَسهلهُم لفظاً ، وأَحسنهُم بديهة .

والبلاغةُ إصابة المعنى والقَصْدُ إلى الحجَّة مع الإيجاز(٤) ، ومعرفة الفَصْل من الوصل .

وقيل : العاقلُ من خَزَن لسانَه . ووزَن كلامَه ، وخافَ النَّدامة .

وحُسنُ البيان محمودٌ ، وحسن الصَّمتُ حُكْمٌ(٥) .

---

(١) هى مما سقط من نسخة هامش الكامل . وليس لها موضع غير نسختى المتحف البريطانى والتيمورية ، فاقتصرت المقابلة عليهما .

(٢) السكت : السكوت . ب : « السمت » ، ولا وجه له هنا .

(٣) المتشدقون : المتوسعون فى الكلام من غير احتياط واحتراز .

(٤) كلمة « الإيجاز » فقط ساقطة من م .

(٥) الحكم ، بالضم : الحكمة . وفى الحكم : « الصمت حكم وقليل فاعله » . الميدانى ١ : ٣٦٧ وجمهرة الأمثال ١ : ٥٩٦ والمستقصى ١ : ٣٢٨ مع نسبته فى الميدانى والمستقصى إلى لقمان الحكيم . وأورده العسكرى حديثاً من حديث ابن عمر ، وأورده كذلك السيوطى فى الجامع الصغير برقم ٥١٥٧ وذكر أنه حديث ضعيف . وأورده فى اللسان (حكم) بهيئة شطر من بيت .

وربَّما كان الإيجاز محموداً . والإكثار مذموماً . وربَّما رأيت الإكثار أحمد من الإيجاز . ولكلٍّ مذهبٌ ووجهٌ عند العاقل . ولكلِّ مكانٍ مقال[١] ، ولكلِّ كلامٍ جواب . مع أنَّ الإيجاز أسهل مَراما[٢] وأيسر مطلباً من الإطناب ، ومَنْ قَدَر على الكثير كان على القليل أقدر .

والتَّقليل للتخفيف ، والتَّطويل للتعريف ، والتَّكرار للتوكيد ، والإكثار للتشديد .

٢ — فصـــل منه

وأمَّا المذموم من المَقَال ، فما دعَا إلى المَلاَل ، وجاوز المقدار ، واشتمل على الإكثار ، وخرج من مَجْرى العادة .

وكلُّ شيءٍ أفرطَ فى طبعه ، وتجاوزَ مقدار وُسْعِه ، عاد إلى ضدِّ طباعه ، فتحوَّل البارِدُ حارًّا ، ويصير النافعُ ضاراً ، كالصَّندل البارد إن أُفرِطَ فى حَكِّه[٣] عاد حارًّا مؤذِيًا ، [و[٤]] كالثلج يُطفئ قليلُه الحرارةَ ، وكثيرُهُ يحرِّكها .

وكذلك القِردُ لمَّا فرط قُبحه ، وتناهَت سماجَته[٥] استُملِحَ واستُظْرِف .

وإلى هذا ذهَبَ مَن عَدَّ الإكثار عِيًّا ، والإيجاز بلاغة .

---

(١) المعروف « لكل مقام مقال » . ومنه قول الحطيئة فيما أنشده ابن برى فى اللسان (حنن) :

تحنَّن علـــىَّ هـــداك المليك فـــإن لكـــل مقام مقـــالا

وليس فى قصيدته التى على هذا الروى فى ديوانه ٣١ — ٣٤ .

(٢) المرام : المطلب والبغية . ب : « مرى » ، صوابه فى م .

(٣) ب : « فى حكمه » ، صوابه فى م .

(٤) ليست فى النسختين .

(٥) م : « سماحته » ، صوابه فى ب .

١٩

من كتابه في

تفضيل البطن على الظهر

١ ـ فصل

من صدر كتابه فى تفضيل البطن على الظهر[١]

عَصَمنا الله وإيَّاك من الشُّبهة . وأعاذَنا وإيَّاكَ من زَيْغِ الهوَى ، وفَضَلَّات المُنَى . ووهبَ لنا ولك تَأْديباً[٢] مؤدِّياً إلى الزِّيادة فى إحسانه[٣] ، وتوفيقاً مُوجباً لرحمته ورضوانه .

وقد كان كتابُكَ يابنَ أخى ـ وفَّقك الله ـ وَرَدَ علىَّ ، تَصِفُ فيه فضيلَةَ الظُّهور وصفاً يدلُّ على شَغَفك بها ، وحُبِّك إيَّاها ، وحنينِك إليها وإيثارِك لها ، وفهمتُه .

فلَمْ تَمْنَعْ ـ أعاذك الله من عدوِّك[٤] ـ من الإجابة عن كتابك فى وقتِ وُرودِه ، إلَّا عوارضُ أشغالٍ مانعةٍ ، وحوادثُ من التصرُّف والانتقال من مكان إلى مكان عائقة .

ولم آمَنْ أنْ لو تأخَّر الجوابُ عليك أكثَرَ ممَّا تأخَّر ، أن يَسبِق إلى قَلبِكَ أنِّى راض باختيارك[٥] ، ومُسَلِّم لمذهبك . ومُوافقٌ لك فيه ، مُساعِدٌ لك عليه ، ومنقادٌ مَعَكَ فيما اعتقدتَ مِنه . ومُجِدٌّ فى طلبه ، ومُحرِّضٌ عليه[٦] .

---

(١) هذا الكتاب أيضاً ما سقط من نسخة الكامل . فالمقابلة هنا على النسختين : المتحف ، والتيمورية .

(٢) ب : « بأدبنا » ، صوابه فى م .

(٣) فى النسختين : « إلى الزيادة المؤدية فى إحسانه » بإقحام كلمة « المؤدية » .

(٤) ب : « أعاذ » تحريف . وفى النسختين . « من عدمك » ، ووجهه ما أثبت .

(٥) ب : « فى أرضى » م : « أنى أرضى » . والوجه ما أثبت

(٦) فى النسختين : « ومحرص عليه » بالحاء المهملة .

فبادرتُ بكتابى هذا ، منبهًا لك من سِنَةِ رَقْدتك[(١)] ، وداعياً إلى رشدك . فإنَّك تعلم ، وإن كُنتَ لى فى مذهبى مخالفاً ، وفى اعتقادى مبايناً[(٢)] ـ أنَّ اجتماع المتباينين فيما يقعُ بصلاحهما أولى فى حكم العقل ، وطريق المعرفة [منه[(٣)]] فيما أبادهما ، وعاد بالضَّرر فى اختيارهما عليهما .

وأنا ، وإن كنتُ كشفتُ لك قِناعَ الخِلاف ، وأبديت[(٤)] مكنونَ الضَّمير بالمضادَّة[(٥)] ، وجاهدْتَنى بنُصرة الرَّأى والعقيدة[(٦)] فى حُبِّ الظُّهور ، وتلفيق الفضائل لها ، غَيْرُ مُستشعرٍ لليأْس[(٧)] من رَجْعتك ، ولا شاكٍّ فى لطائف حِكمتك ، وغَوامض فِطنتك .

وقد أعلمُ أنَّ معك ـ بحمدِ الله ـ بصيرةَ المعتبِرين ، وتمييز الموفَّقين وأنَّك إذا أنعمت[(٨)] فكراً وبحثاً ونظراً ، رَجَعْتَ إلى أصلٍ قوىٍّ الانقياد والموافقة[(٩)] ، ولم تَتورَّط[(١٠)] فى اللَّجاج فِعْلَ المُعْجَبين ، ولم يتداخلك[(١١)] غِرَّةُ المنتحِلين ؛ فإنَّا رأينا قوماً انتحلوا الحكمة وليسوا من أهلها ، بل هم أعلامُ الدَّعوى ، وخُلفاءُ الجهالة[(١٢)] ، وأتْباع الخَطَأ ، وشِيَع

---

(١) فى النسختين : « عن سنة رقدتك » .
(٢) فى النسختين : « متبايناً » .
(٣) تكملة يفتقر إليها الكلام .
(٤) أبديت : أظهرت . وفى النسختين : « أبدأت » ، تحريف .
(٥) المضادة : المخالفة . وفى النسختين : « بالمضارة » ، تحريف .
(٦) ب : « والعقد » م : « والعقدة » .
(٧) فى النسختين : « للناس » .
(٨) ب : « أمعنت » ، وأثبت ما فى م .
(٩) ب : « والمواثقة » بالثاء ، صوابه فى م
(١٠) فى النسختين : « ولم يتورط »
(١١) ب : « ولم يتدخلك » .
(١٢) م : « وخلفاء الجهالة » .

الضَّلالة ، وخَوَل النَّقْص [(١)] ، الذين قامت عليهم الحُجَّة بما نَحَلوه أنفسهم من اسمها ، وسُلِبوه من فهمِ عظيمِ قدرها [(٢)] ومعرفة جليلِ خطَرها ، ولم يَجْلُوا الرَّين عن قلوبهم والصَّدأ عن أسماعهم ، بالتنقير والبحثِ والتكشُّف [(٣)] ، ولم ينصِبوا فى عقولهم لأنفسِهم أصلاً يثلِون فى اعتقادهم عليه [(٤)] ، ويرجعون عند الحَيرة [(٥)] فى اختلاف آرائهم إليه . فَضَلُّوا ، وأَصبَحَ الجهلُ لهم إماماً ، والسُّفهاءُ لهم قادةً وأعلاما .

ونحن نسأَل الله بِحَوْلِهِ وطَوْلِهِ ومَنِّه ، أَلاَّ يجعلَكَ من أَهل هذه الصِّفَة ، وأن يُريَكَ الحقَّ حقًّا فتَتْبَعَه ، والباطل باطلاً فتجتنبَه ، وأن يَعُمَّنا ببركةِ هذا الدعاءِ ، وجماعةَ المسلمين . وأن يأْخذ [إلى [(٦)]] الخير بنواصينا ، ويجمع على الهُدى قُلوبَنا ، ويُؤْلِفَ فيه ذاتَ بَيْنِنا ، فإنَّك ما علمتُ — وأتقلَّدُ فى ذلك أَمانةَ القول — ممَّن أُحِبُّ موافقتَه ومُخالطتَه ، وأَن يكون فى فَضْلِه مقدَّماً ، وعن كلِّ عَضيهةٍ منزَّها .

وما أَعلم حالاً أَنا عليها فى الرَّغبة لك فيما أَرغب لنَفْسِى فيه ، والسُّرور بتكامل أَحوالك ، واستواء مذهبك ، وما أَزابِنُ [(٧)] به من إرشادك ونصيحتك ، وتسديدك وتوفيقك ، إلاَّ وصِدقُ الطَّويَّة منِّى فيها أَبلغُ من إسهابى فى فَضْل صفتها . والله تعالى المُعينُ والمؤيِّد والموفِّق ، والمبدع ، وَحدَهُ لا شريك له . والحمد لله ، كما هو أَهلُه ، وصلى الله على محمد وآله وسلم كثيراً .

---

(١) الخول ، أصله ما أعطى المرء من نعم وعبيد وإماء . والمراد هنا الأتباع .
(٢) ب : « فهيم عظيم قدرها » ، صوابه فى م . (٣) م : « والتكشيف » .
(٤) فى النسختين : « يبنون عليه فى اعتقادهم عليه » و « عليه » الأولى مقحمة » .
(٥) فى النسختين : « الخيرة » .
(٦) تكملة يفتقر الكلام إليها .
(٧) زابن : دافع . وفى ب : « أزبن » م : « أزين » .

يا أخى ـ أرشدكَ الله ـ إنّك أغرقت فى مدح الظَّهر من الجهةِ التى كان ينبغى لك أن[تذمّها ، وقدّمتها من الجهة التى ينبغى لك أن[١]] تؤخِّرها . وآثرتها وهى محقوقةٌ بأَنْ ترفضها .

وما رأينا هلاكَ الأُمم الخالية ، من قومِ لُوطٍ ، وثمودَ وأشياعِهم وأتباعهم ، وحلولِ الخَسْف والرَّجفةِ[٢] والآياتِ المَثُلات[٣] والعذابِ الأَليم والرِّيح العقيم[٤] ، والغِيَرِ والنَّكير ووجوبِ نار السَّعير ، إلاّ بما دَانُوا به من اختيار الظُّهور . قال الله تعالى ، فى قصَّة لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ من العَالَمِينَ . وتَذَرُونَ ماخَلَقَ لكم رَبُّكُمْ مِنْ أزواجِكُمْ بل أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ[٥] ﴾ .

فذمَّهم اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ كما ترى ، وبَلَغ بهم فى ذكر ما استعظم من عُتُوِّهم إلى غايةٍ لا تُدرَك صِفتُها[٦] ، ولا يُوقَف على حدِّها مع آيٍ كثيرة قد أنزلَها فيهم ، وقِصصٍ طويلة قد أنبأَ بها عنهم ، وروايات كثيرة أثَرَها[٧] فيمن كان من طبقتهم .

وسنأتى منها بما يقع به الكفاية[٨] دون استفراغ الجميع ، مما حَمَلته[٩] الرُّواة ، ونَقَله الصالحون .

---

(١) التكلة من م .

(٢) م : « الخسفة والرجفة » .

(٣) المثلات : جمع مثلة ، بضم الثاء ، وهى العقوبة والنكال . وفى الكتاب العزيز : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات » . الرعد ٦ . وفى النسختين : « المنولات » ، وصوابها ما أثبت .

(٤) الريح العقيم : التى لاتلقح شجراً ولا تنشىء سحاباً ولا تحمل مطراً ، إنما هى ريح إهلاك . وفى الكتاب العزيز : « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » . الذاريات ٤١ . وانظر ما سيأتى فى ص ١٨٠ .

(٥) الآيتان ١٦٥ ، ١٦٦ من الشعراء . (٦) م : « صفتهم » ، تحريف .

(٧) أثرها يأثرها : حكاها ورواها . وفى النسختين : « بأثرها » .

(٨) فى النسختين : « ما يقع به الكفاية » . (٩) م : « ماحملته » ، صوابه فى ب .

٢ – فصل منه

والحقُّ بيِّنٌ لمن التمسَه ، والمنهجُ واضحٌ لمن أراد أن يَسلُكَه . وليس في العُنودِ دَرَكٌ[١] ولا مع الاعترام فَلَج[٢] . والرُّجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ من التَّمادى فى الباطل ، وتَركُ الذَّنْب أيْسَرُ من التماس الحُجة ، كما كانَ غَضُّ الطَّرْف أهونَ من الحنينِ إلى الشَّهوة . وبالله تعالى التوفيق .

٣ – فصل منه

نبدأُ الآنَ بذكر ما خَصَّ الله به البُطون من الفضائِل ، لِيرجع راجعٌ ، ويُنيبَ منيبٌ مفكِّر ، وينتبه راقد[٣] ، ويُبصِر متحيِّر ، ويستغفر مذنب[٤] ، ويستقيل مخطئ[٥] ، ويَنزِع مُصِرٌّ ، ويستقيم عاند[٦] ، ويتأمَّلَ غُمرٌ ، ويَرشُد غَوِىّ ، ويَعلَم جاهلٌ ، ويزداد عالم .

قال الله عزّ وجل فيما وَصَفَ به النَّحْل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطونِهَا شَرابٌ مُختلِفٌ ألوانُهُ فيهِ شِفاءٌ للنَّاس[٧] ﴾ .

وبُعِث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى خير بُطونِ قريش .

ووجدنا الأَغلبَ فى صفةِ الرجل أن يقال إنَّه معروف بكذا مُذْ خرج من بَطْنِ أُمِّه . ولا يقال من ظهر أبيه .

---

(١) العنود : الميل عن الحق . والدرك ، بالتحريك : الإدراك واللحاق .
(٢) الاعترام : من العرام ، وهو الجهل والشدة والشراسة . وفى النسختين : « الإغرام » .
(٣) م : « ويثبته راقد » ، صوابه فى ب .
(٤) ب : « ويشغف مذنب » ، صوابه فى م .
(٥) الاستقالة : طلب الإقالة ، وهى العفو والصفح .
(٦) العاند : المائل عن الحق .
(٧) الآية ٦٩ من سورة النحل .

ويقال فى صفات النِّساء: « قُبٌّ البطون نواعم » . ويقال: خُمْصانة البَطْن ، ولا يقال : خُمْصانة الظَّهر .

ويقال : فلانٌ بَطَنَ بالأُمور ، ولا يقال : ظَهَر . ويقال : بِطانة الرَّجْل[1] وظِهارته ، فيُبدأُ بالبطانة .

وبطن القِرطاس خيرٌ من ظهره ، وبطن الصَّحيفة موضعُ النَّفْع منها لا ظهرها ، وبِبطنِ القَلَمِ يُكتَب لا بظهره ، وببطن السِّكِّين يُقطع لا بظهرها .

وخلق الله جلَّ وعزَّ آدمَ من طينٍ ، ونَسْله[2] من بَطن حَوَّاء .

ورأينا أكثر المنافع من الأَغذية فى البُطون لا فى الظُّهور ؛ فبطون البقر[3] أطيب من ظهورها ، وبطن الشَّاة كذلك .

ومن أَفضل[4] صفات علىٍّ رضى الله عنه أَنْ كان أَخمَصَ بطينا .

وأَسمَعُ من غنائهم :

بطنى على بطنِكِ ياجاريَه لا نَمَطاً نَبغِى ولا باريَه[5]

ولم يقل « ظهرى على ظهرك » ، فجعل مماسَّة البَطن غانياً عن الوِطاء ، كافياً من الغِطاء .

ولو لم يكن فى البطن من الفَضيلة إلَّا أَنَّ الوجهَ الحسنَ ، والمنظر[6]

---

(١) فى النسختين : « الرجل » بالجيم ، تحريف .

(٢) فى النسختين : « ورسله » ، والصواب ما أثبت .

(٣) فى النسختين : « البقرة » .

(٤) فى النسختين : « فضل » .

(٥) النمط : واحد الأنماط ، وهو ضرب من البسط . والبارية : مخفف البارية بتشديد الياء ، وهى الحصير المنسوج .

(٦) فى النسختين : « والمنطق » ، ووجهه ما أثبت .

الأَنيقَ من حيِّزه ، وفى الظهر من العَيْب ، إلَّا أَنَّ الدُّبُر فى جانبه ، لكان فيها أَوضحُ الأَدلة على كرم البَطْن ولُؤْم الظهر .

ولم نرهم وصَفُوا الرجل بالفُحولة والشَّجاعة إلَّا من تلقائِه ، وبالخُبث والأُبْنة إلَّا من ظَهْره .

وإذا وصفوا الشُّجاع قالوا : مَرَّ فلان قُدُماً ، وإذا وصفوا الجَبَانَ قالوا : وَلَّى مُدبِراً .

ولَشَتَّانَ بين الوَصفَين : بَين من يلقى الحربَ بوَجهه وبين من يلقاهُ بقفاه[(1)] ، وبين الناكح والمنكوح ، والراكب والمركوب ، والفاعل والمفعول ، والآتى والمأْتىِّ ، والأَسفلِ والأَعلى ، والزائِر والمَزُور ، والقاهر والمقهور .

ولمَّا رأَينا الكنوز العاديَّة[(2)] والذَّخائِر النفيسة ، والجواهرَ الثَّمينة مثلَ الدُّرِّ الأَصفرِ ، والياقوتِ الأَحمرِ ، والزُّمرُّد الأَخضر ، والمسكِ والعَنْبر والعِقْيانِ واللُّجينِ ، والزِّرنيخ والزِّئبق . والحديد والبُورَق[(3)] ، والنِّفط والقار ، وصُنوفِ الأَحجار ، وجميعَ منافع العالَم وأَدواتِهم وآلاتهم ، لحربِهم وسَلمهم ، وزَرْعهم وضَرْعهم ، ومنافعهم ومرافِقِهم ومصالحهم ، وسائر مايأْكلونه ويشربونه ، ويَلبَسونه ويَشمُّونه ، وينتفعون برائِحته وطعْمه ، ودائِعَ فى بطون الأَرض ، وإنَّما يُستَنْبَطُ منها استنباطاً ، ويُستخرَجُ منها استخراجاً ، وأَنَّ على ظهرها الهوامَّ القاتلة ، والسِّباعَ العاديَة التى فى أَصغرِها تَلَفُ النفوس ودواعى الفَنَاءِ وعوارضُ البلاءِ ،

---

(١) الحرب مؤنثة ، وقد تذكر كما هنا .

(٢) العادية : القديمة ، منسوبة إلى عاد .

(٣) البورق ، بضم الباء : النطرون . القاموس ، وتذكرة داود ، والمعتمد .

وأنَّه قل ما يمشى على ظهرها من دابّةٍ . إلّا وهو للمرءِ عدوٌّ ، وللموتِ رسولٌ ، وعلى الهلكةِ دليل – لم يمتنع [فى]عُقولنا ، وآرائنا ومعرفتنا[(١)] من الإقرار بتفضيل البَطْن على الظهر فى كلٍّ وقت . وعلى كلٍّ حال .

ومن فضيلة البَطن على الظَّهر أنَّ أحداً إن ابتُلِىَ فيه بداءٍ[(٢)] كان مستوراً ، وإنشاءَ أن يكتمه كَتَمَهُ عن أهله ، ومن لا ينطوى عنه شىءٌ من أمره ، وغابِرِ دهره .

ومن بليَّة الظَّهر أنّه إن كان دَاءٌ[(٣)] ظهَرَ وبان ، مثل الجَرَب والسِّلَع[(٤)] والخنازير وما أشبهها ، مما سَلِمَتْ منه البطون وجُعِلَ خاصًّا فى الظُّهور .

وفضَّل اللهُ تعالى البطونَ بأَن جعل إتيانَ النساءِ ، وطلبَ الولد ، والتماس الكثرة مباحاً من تِلقائها ، محرَّماً فى المَحَاشِّ[(٥)] من ورائها ، لأنَّه حرامٌ على الأُمَّة إتيانُ النساءِ فى أدبارهنَّ ، لما جاءَ فى الحديث عن الصادق صلى الله عليه وسلم : « لا تأْتُوا النِّساءَ فى مَحَاشِّهنَّ » .

وقد ترى بِطانةَ الثَّوب تقومُ بنفسها . ولا تَرى الظِّهارة تستغنى .

وجعل الله تعالى البَطنَ وِعاءً لخير خلقه محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، ثم جعلَ أَوَّلَ دلائلِ نبوّته أن أهبَطَ إليه مَلكاً حين أَيْفَع ، وهو يَدرُج[(٦)]

(١) فى النسختين : « لم يمتنع عقولنا وأرانا معرفتنا » . وقد أكملت النص وصححته بما ترى .
(٢) ب : « بداه إن » م : « بداء ان » ، و « إن » مقحمة ، والصواب ما أثبت .
(٣) فى النسختين : « إن كان ذا » .
(٤) السلع : جمع سلعة ، بالكسر ، وهى زيادة تحدث فى الجسد مثل الغدة . وفى ب : « والسبع » ، صوابه فى م .
(٥) المحاش : جمع محشة ، بفتح الميم وتشديد الشين ، وهى الدبر .
(٦) فى النسختين : « وهو مع تدرج » .

مع غِلمان الحيِّ في هوازن . وهو مسترضَعٌ[١] في بني سعد ، حين شَقَّ عن بطنه ، ثم استخرج قلبه فحُشِيَ نوراً ، ثم خُتِم بخاتَم النبوَّة . ولم يكن ذلك من قِبَل الظَّهر .

٤ ــ فصــل منه

ومِمَّا فَضَلت به البطونُ : أنَّ لحم السُّرَّة من الشاة أطيبُ اللحم ، ولحمُ السُّرَّة من السَّمك الموصوفُ ، وسُرَّة حمارِ الوحش شفاءٌ يُتداوَى بها ، ومن سُرَّة الظِّباءِ يُستخَرج المسك . وهذا كلُّه خاصٌّ للبطون ليس للظُّهور منه شيءٌ .

وبدأَ الله عزَّ وجل في ذكر الفَواحِش بما ظهر منها ، ولم يبدَأْه بما بَطَن فقال : ﴿ إنَّما حَرَّم رَبِّيَ الفَواحِشَ ماظَهَرَ مِنْها وما بَطَن[٢] ﴾ ، فجعله ابتداءً في الذم[٣] .

والظَّهر في أكثر أحواله سَمِجٌ ، والبطن في أكثر أحواله حَسَن . والظَّهر في كلِّ الأوقات وَحْشةٌ وَوحْش ، والبَطْن في كلِّ الأوقات سَكَن وأُنس .

ولم نَرهُم حين بالَغُوا في صفات النِّساءِ بدءُوا بذكرها إلَّا من جهة البَطن فقالوا : مُدْمَجة الخَصْر ، لذيذةُ العِناق ، طيِّبة النَّكهة ، حُلوة العينَين ، ساحرةُ الطَّرف ، كأنَّ سُرَّتها مُدهُن[٤] ، وكأنَّ فاها خاتَم ، وكأنَّ ثدييها حُقَّان ، وكأنَّ عنقها إبريقُ فِضَّة . وليس للظهور في شيءٍ من تلك الصِّفات حَظٌّ[٥] .

---

(١) ب : « مستربع » ، صوابه في م .

(٢) الآية ٣٣ من الأعراف .

(٣) ب : « ابتداء الذم » .

(٤) المدهن : قارورة الدهن .

(٥) في النسختين : « من ذلك الدهان » .

وأنَّى نَبلُغ فى صفة البطون ، وإنْ أسهبْنا ، وكم عسى أن نُحصى من معايب الظهور[1] وإن اجتهَدْنا وبالَغْنا . ألا ترى أنَّ حدَّ الزَّانى ثمانون جلدةً مالم يكن مُحصَناً ، وحدَّ اللُّوطىِّ أن يُحْرَقَ . وكلاهما فجورٌ ورَجَاسة ، وإثمٌ ونجاسة . إلَّا أنَّ أيْسَر المكروهين أحقُّ بأن يَميل إليه من ابتُلِى ، وخير الشَّرَّين أحسن فى الوصف من شَرِّ الشَّرَّين .

ولو أنَّا رأينا رجلاً فى سوقٍ من أسواق المسلمين يقبِّل امرأةً فسألناه عن ذلك، فقال : امرأتى . وسألوها فقالت: زوجى- لدرَأْنا عنهما الحدَّ، لأَنَّ هذا حُكم الإسلام . ولو رأيناهُ يقبِّل غلاماً لأَدَّبناه وحبسناه ؛ لأَنَّ الحكم فى هذا غير الحكم فى ذاك .

ألا ترى أنَّه ليس بمتنع فى العقول والمعرفة أن يُقبِّلَ الرجلُ فى حُبِّ ما ملكت يمينُه حتَّى يقبِّلها فى المَلاَ كما يقبِّلها فى الخَلَا ، يصدُق ذلك حديثُ ابنِ عُمر : « وَقَعَتْ فى يدى جاريةٌ يومَ جَلُولاءَ كأَنَّ عنقَها إبريقُ فِضَّة فما صَبَرتُ حتَّى قبَّلتها والنَّاسُ ينظرون » .

٥ — فصل منه

وقد رأيتُ منك أيُّها الرَّجلُ إفراطَكَ فى وصفِ فضيلة الظُّهور ، وفى محلِّ الرِّيبة وقَعْت ، لأَنَّا روَيْنا عن عمر أنَّه قال : « من أظهر لنا خيراً ظنَنَّا به خيراً ، ومن أظهر لنا شرًّا ظننا به شرًّا » .

وإنَّما يصف فَضْلَ الظَّهر من كان مُغرماً بحبِّ الظهور ، وإلى ركوبه صبًّا ، وبالنَّوم عليه مُستهتَراً ، وبالوَلوع بطالبه موكَّلا . ومَنْ كان للحلال

---

(١) ب : « أن نخص من معائب الظهور » ، تحريف .

مُبايِناً ، ولسبيله مُفارِقاً ، ولأَهله قالياً ، وللحرام معاوِداً ، وبحبله مستمسكا[١] وإلى قربه داعياً ، ولأَهله موالياً .

وقد اضطررتنا بتصييرك[٢] المفضولَ فاضلا ، والعامَّ خاصًّا ، والخسيسَ نفيساً ، والمحمودَ مذموماً ، والمعروفَ منكراً ، والمُؤخَّر مقدَّمًا والمقدَّم مؤخَّراً ، والحلالَ حراماً ، والحرامَ حلالا ، والبِدعة سُنَّةً ، والسُّنَّةَ بِدعةً ، والحَظْرَ إطلاقاً ، والإطلاقَ حَظْراً ، والحقيقةَ شُبْهةً والشُّبهةَ حَقيقة ، والشَّينَ زَيْناً والزَّين شَيناً ، والزَّجر أمراً والأَمر زَجْراً ، والوَهْم أَصلا والأَصل وهماً ، والعلمَ جهلاً والجهل فضلاً[٣] — إلى أَنْ أَدخَلْنا عليك الظَّنَّ ، وأَلحقناكَ التُّهمة ، ونَسَبْناك إلى غير أَصلك، ونَحَلْناكَ غيرَ عقيدتك ، وقَضَينا عليك بغير مذهبك . و« يداك أَوكَتَا ، وفاكَ نفخ[٤] » . فلا يبعد الله غيرك !

أَوجِدْنا أَيُّها الضالُّ المُضِلُّ ، المغلوب على رأْيه ، المسلوب فَهمه ، المُوَلِّى على تمييزه ، النَّاكِصُ على عقبه فى اختياره[٥] ، المفارق لأَصل عَقْده[٦] ، المُدْبر بعد الإقبال فى معرفته ، السَّاقط بعد الهَوَى فى وَرْطته ، المتخلِّى من فهمه[٧] ، الغَنِىّ عن إفهامه ، المُضيِّع لحكمته ، المنزوع

---

(١) مستمسكاً ، ساقطة من م .

(٢) ب : « بتعبيرك » ، صوابه فى م . وفى م أيضاً : « وقد اضطررنا » .

(٣) ب : « والجهل علماً » ، صوابه فى م .

(٤) م : « وفك نفخ » . والمعروف : « وفوك نفخ » . الفاخر ٤٨ والميدانى ٢ : ٣٢٥ وجمهرة العسكرى ٢ : ٤٣٠ . والوكاء : الخيط الذى يشد به رأس السقاء . وأصله أن رجلا أراد أن يعبر نهراً على سقاء ، فلم ينفخه ولم يوكه على ما ينبغى ، فلما توسط النهر انحل الوكاء فصاح : الغرق الغرق ! فقيل له هذا المثل ، أى إنك من قبل نفسك أتيت .

(٥) فى النسختين : « فى اختيار » ، ووجهه ما أثبت .

(٦) ب « الموافق لأصل عقده » ، صوابه فى م .

(٧) فى النسختين : « المتحلى » بالحاء المهملة ، تحريف .

عَقلِه ، المختَلَس لبُّه ، المستطارُ جَنَانه ، المعدوم بيانه ، فى الظُّهور بعد الفضائل التى أوجَدْناكَها فى البُطون ، إمّا قياساً ، وإمَّا اختياراً[١] ، وإمَّا ضرورة ، وإما اختباراً وإمَّا اكتساباً ، أو فى كتاب منْزَل ، أو سُنَّة مأْثورة ، أو عادةٍ محمودة ، أو صِلاحٍ على خير .

أم هل لك فى مقالتك من إمامٍ تـأْتَمُّ به ، أو أُستاذٍ تقتفى أثَرَه ، وتَهتَدِى بِهُداه ، وتسلك سَنَنَه .

٦ — فصــل منه

وقد حَضَّتْنِى[٢] عليك عند انتهائى إلى هذا الموضع رِقَّة ، وتداخلتنى لك رحمة ، ووجدت لك بقيَّةً فى نفسى ؛ لأنَّه إنَّما يُرحَم أهلُ البلاء .

والحمد لله الذى عافانا مما ابتلاكَ به ، وفضَّلنا على كثيرٍ من خلقه تفضِيلا .

فرأيت أن أختم بأَبْسَطِ الدُّعاءِ لك كتابى ، وأن أُحرِزَ به أجرِى وثَوابى ، ورجوت أن تُنِيبَ[٣] وترجع بعد الجِماح واللَّجاج ، فإنَّ للجواد استقلالاً بعد الكَبوة ، وللشُّجاع كَرَّةً بعد الكَشْفة[٤] ، وللحليم عطفةً بعد النَّبْوة .

وأنا أقول : جعلَنَا الله وإيَّاك ممن أبصَر رُشدَه ، وعَرفَ حَظَّه ، وآثَرَ الإنصاف واستعمله ، ورفض الهوى واطَّرحَه ؛ فإنَّ الله تعالى لم يَبْتَلِ بالهَوَى إلَّا من أضلَّه ، ولم يُبعِد إلَّا من استبعده .

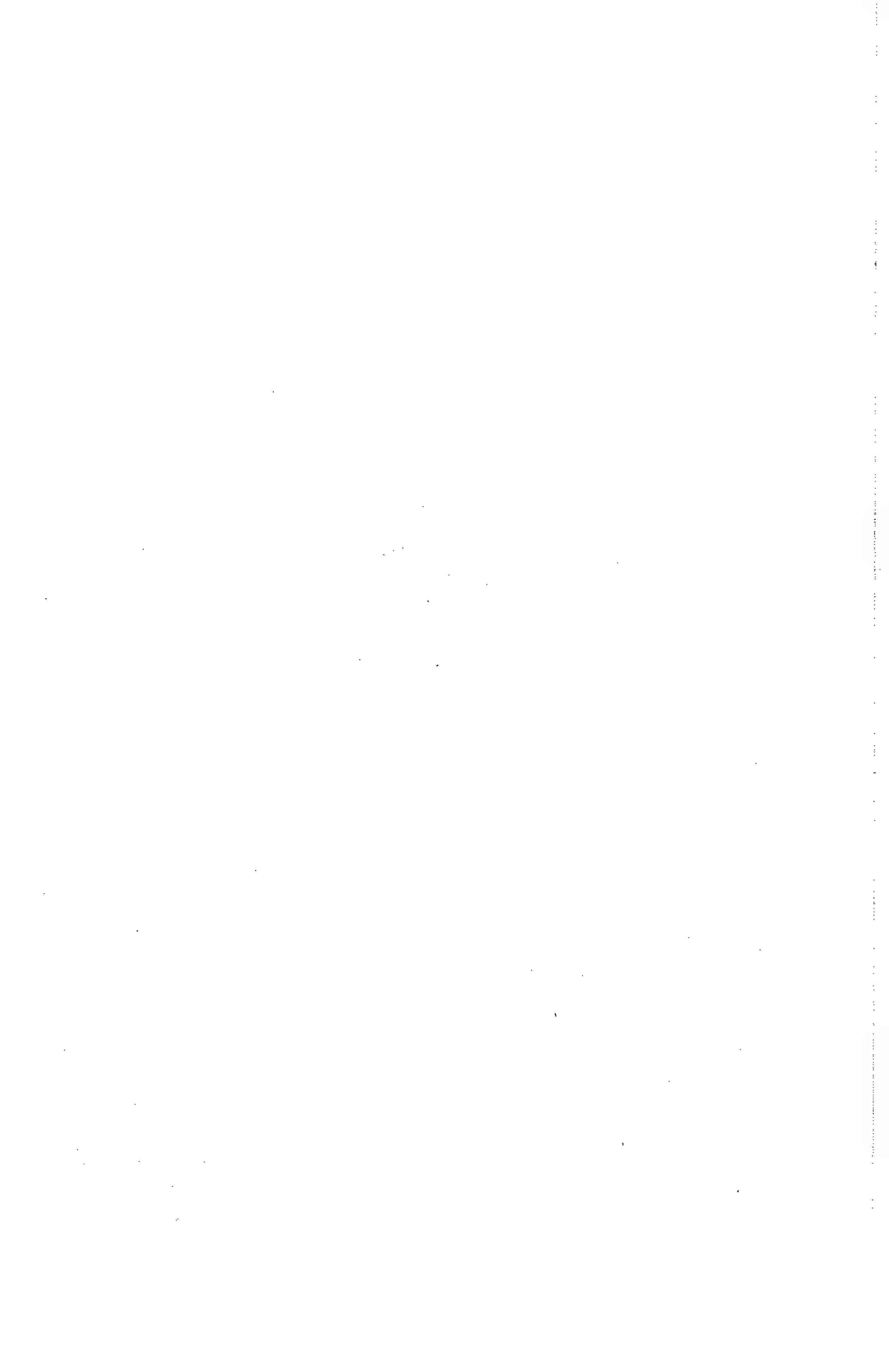
---

(١) فى النسختين : « أخباراً » .
(٢) م : « خصتنى » .
(٣) من الإنابة ، وهى التوبة والرجوع عن المعصية . ب : « تثبب » ، صوابه فى م .
(٤) الكشفة : الهزيمة . كشف القوم ، من باب فرح : انهزموا .

٢٠

من كتابه في

النبل والتنبل وذم الكبر



١ – فصل

من صدر كتابه فى النبل والتنبل وذم الكبر[١]

قد قرأتُ كتابَكَ وفهمتُه ، وتتبَّعت كلّ ما فيه واستقصيتُه ، فوجدتُ الذى ترجعُ إليه بعد التَّطويل ، وتَقِفُ عنده بعد التَّحصيل ، قد سلَفَ القولُ منّا فى عَيْبِه ، وشاع الخَبرُ عَنّا فى ذَمِّهِ[٢] ، وفى النَّصْب لأَهله ، والمُبايَنةِ لأَصحابه ، وفى التعجُّبِ منهم ، وإظهار التَّنى عنهم .

والجملةُ أَنَّ فرط العُجْب إذا قارن كثرةَ الجهل ، والتَّعرُّضَ للعيب إذا وافق قلَّةَ الاكتراث ، بِطَلَتِ المزاجر[٣] ، وماتت الخواطر . ومتى تفاقم الداءُ ، وتفاوت العلاج ، صار الوعيد لغواً مطَّرحاً ، والعقابُ حكماً مستعملا .

وقد أَصبح شيخُك ، وليس يملك من عقابهم إلاَّ التوقيف ، ولا من تأْديبهم إلَّا التعريف .

ولو مَلَكناهم مُلكَ السُّلطانِ ، وقهرناهم قَهْرَ الوُلاة ، لنهكناهم عقوبةً بالضَّرب[٤] ، ولقَمعناهم بالحصر[٥] .

---

(١) معظم هذا الكتاب ساقط من هامش الكامل ، إذ يبدأ النص فيه من أواخر الفصل الخامس ص١٧٥ ، بعد قوله : « وإنما عاند الله تعالى » . وجاء الكلام بعده متصلا مختلطاً بمنتصف الكتاب العاشر ، وهو « الرد على النصارى » . وانظر ص ٣٢٩ من الجزء الثالث من الرسائل . والتنبل : تكلف النبل وادعاؤه .

(٢) ب : « وشاع الخير » ، صوابه فى م .

(٣) ب : « بطلب المزاجر » ، صوابه فى م .

(٤) نهكه عقوبة : بالغ فيها ، ينهكه نهكاً .

(٥) الحصر : الحبس هنا . والحصير : المحبس . وفى التنزيل العزيز : « وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » .

والكِبر – أعزَّكَ الله تعالى – بابٌ لا يُعَدُّ احتمالُه حلماً[١] ، ولا الصَّبرُ على أهله حَزْماً ، ولا تركُ عِقابِهم عفواً ، ولا الفضلُ عليهم مَجْدًا ، ولا التَّغافُل عنهم كرماً ، ولا الإمساك عن ذمِّهم صَمتاً .

واعلمْ أنَّ حملَ الغنى[٢] أَشَدُّ من حمل الفَقْر ، واحتمالَ الفقر أهونُ من احتمال الذُّلّ . على أنَّ الرضا بالفقر قناعةٌ وعزّ ، واحتمالَ الذُّلِّ نَذالةٌ وسُخْف . ولئن كانوا قد أفرَطُوا فى لَوْم العشيرة ، والتكبُّر على ذوى الحُرْمة ، لقد أفرطتَ فى سوءِ الاختيار ، وفى طول مُقامِك على العار .

وأنت مع شِدّة عُجْبِك بنفسك ، ورضاك عن عقلك ، خالطْتَ من مَوتُه يُضحِكُ السِّنَّ ، وحياتُه تورث الحزنَ[٣] ، وتَشاغُلُكَ به من أعظم الغَبْن .

وشكوتَ تنبُّلَهم عليك ، واستصغارَهم لك ، وأنَّك أكثرُ منهم فى المحصول ، وفى حقائق المعقول[٤] . ولو كنتَ كما تقول لما أَقَمتَ على الذُّلّ ولَمَا تجرَّعتَ الصَّبرَ وأنتَ بمندوحةٍ منهم ، وبنجوةٍ عنهم . ولعارضتهم من الكبر بما يهُضُّهم[٥] ، ومن الامتعاض بما يَبْهَرهم .

وقلتَ : ولو كانوا من أهل النُّبل عند الموازنة ، أو كان معهم ما يَغْلَط الناسُ فيه عند المقايسة لعذَرتُهم واحتججتُ عنهم[٦] ، ولستَرتُ عَيْبَهم ، ولرقَعْتُ وَهْيَهم . ولكنَّ أمرهم مكشوفٌ ، وظاهرَهُم معروف .

---

(١) فى النسختين : « إلا حلما » .
(٢) م : « العنا » بالمهملة ، صوابه فى ب .
(٣) ب : « وحيرته يورث الحزن » ، صوابه فى م .
(٤) م : « العقول » .
(٥) الهض : الكسر والدق . وفى النسختين : « ينهضهم » ، وهو عكس ما يراد .
(٦) ب : « واحتجبت » ، والوجه ما أثبت من م .

وإن كان أمرُهم كما قلتَ ، وشأنُهم كما وصفتَ ، فذاك ألوَمُ لك ، وأثبَتُ للحجَّة عليك .

وسأؤخِّر عَذْلَك إلى الفراغ منهم ، وتوقيفَك بعد التَّنويه بهم .

أقول : وإن كان النُّبل بالتنبُّل ، واستحقاقُ العِظَم[1] بالتَّعظُّم وبقلَّة التَّدم والاعتذار ، وبالتَّهاون بالإقرار ، فكلُّ مَن كان أقلَّ حياءً ، وأتمَّ قِحَةً ، وأشدَّ تصلُّفاً ، وأضعفَ عُدّةً ، أَحقُّ بالنُّبل وأولى بالعُذْر.

وليس الذى يُوجب لك الرِّفعة أن تكون عند نفسك — دون أن يراكَ الناسُ - رفيعاً ، وتكون فى الحقيقة وضيعاً .

ومتى كنتَ من أهل النُّبل لم يضرَّك التبذُّل ، ومتى لم تكنْ من أهلِهِ لم ينفَعْك التنبُّل .

وليس النُّبْل كالرِّزق ، يكون مرزوقاً الحِرمانُ[2] أليقُ به ، ولا يكون نبيلاً السَّخافةُ أَشبه به[3] .

وكلُّ شيءٍ من أمر الدنيا قد يَحظَى به غيرُ أهلِه ، كما يحظَى به أهلُه .

وما ظنُّك بشيءٍ المروءَةُ خَصْلةٌ من خصاله ، وبُعْدُ الهمّة خَلّةٌ من خِلاله ، وبهاءُ المنظر سببٌ من أسبابه ، وجزالة اللفظ شُعبةٌ من شُعَبه ، والمقَامات الكريمةُ طريقٌ من طُرُقه .

---

(١) فى النسختين : « المعظم » .

(٢) فى النسختين : « مرزوقاً من الحرمان وأليق به » .

(٣) فى النسختين : « نبيلا من السخافة أشبه به » . يريد أن النبل ينبغى أن يكون كاملا ، وليس كالرزق قليله وكثيره سواء .

٢ — فصـــل منه

واعلم أنَّك متى لم تـأْخذ للنُّبل أَهْبتَه ، ولم تُقِم له أَداتَه ، وتـأْتِه من وجهه[١] ، وتقُمْ بحقه ، كنت مع العَناء مُبغَضاً ، ومع التكلُّف مُستصلَفاً . ومَن تَبغَّضَ فقد استهدف للشِّتام[٢] ، وتَصدَّى للملام .

فإن كان لا يَحفِل بالشَّتْم ، ولا يجزع من الذَّمِّ ، فعُدَّه ميِّتاً إن كان حيًّا ، وكلباً إن كان إنساناً .

وإن كان ممَّن يكترث ويجزع ، ويُحِسُّ ويَـأْلم ، فقد خَسِر الراحة والمحبَّة ، وربح النَّصَبَ والمذَمَّة .

وبعد ، فالنُّبلُ كلِفٌ بالمولِّي عنه ، شَنِفٌ للمُقْبِل عليه ، لازقٌ بمن رَفَضه ، شديدُ النِّفار ممَّن طَلَبه .

٣ — فصـــل منه

والسَّيِّدُ المطاعُ لم يسهُلْ عليه الكَظْم ، ولم يكن له كَنَفُ الحِلمِ ، إلَّا بعد طُولِ تَجَرُّعٍ للغَيظ ، ومُقاساةٍ للصَّبر . وقد كان مُعَنَّى القَلْبِ دَهرَه ، ومكدودَ النَّفسِ عُمْرَه ، والحربُ سجالٌ بينه وبين الحِلْم ، ودُوَلٌ بينه وبين الكَظْم . فلمَّا انقادَتْ له العَشيرةُ ، وسَمَحت له بالطَّاعة ، ووَثِق بظُهور القدرة خِلافَ المَعْجزَة[٣] سَهُل عليه الصَّبر ، وغَمر[٤]

---

(١) ب : « وتاية من وجهه » م : « وتأديته من وجهه » ، والصواب ما أثبت .

(٢) الشتام : مصدر شاتم ، كالمشاتمة . وفي النسختين : « للأشتام » ، تحريف .

(٣) أي بعد العجز . وفي الكتاب العزيز : « وإذن لا يلبثون خلافك إلا قليلا » الآية ٧٦ من سورة الإسراء . وقرأ عطاء بن أبي رباح : « بعدك إلا قليلا » . تفسير أبي حيان ٦ : ٦٦ . وانظر اللسان (خلف) ٤٣٤ .

(٤) في النسختين : « عمر » بالعين المهملة ، ولا وجه له .

بعلوه دواعىَ الجزَع ، بطلت المجاذبة[١] ، وذهبت المُسَاجلة .

والذى كان دعاهُ إلى تكلُّف الحلم فى بدءِ أمره وإلى احتمال المكروه فى أوَّل شأْنه ، الأَمَلُ فى الرِّياسة ، والطَّمعُ فى السيادة ، ثمَّ لم يتمّ له أمره ، ولم يستحكم له عَقْدُه إلَّا بعد ثلاثة أشياء : الاحتمال ، ثم الاعتياد ، ثم ظهور طاعة الرِّجال .

ولولا خوفُ جميع المظلومين من أن يُظَنَّ بهم العجزُ ، وألَّا يُوجَّه احتمالهم إلى الذُّلّ[٢] لَزاحَمَ السَّادةَ فى الحِلْم رجالٌ ليسوا فى أنفُسِهم بدونِهِم ، ولغَمَرَهم بَعْضُ مَن ليس معه من أسبابهم .

٤ — فصل منه

ولا يكون المرءُ نبيلاً حتى يكون نبيلَ الرَّأى ، نبيلَ اللَّفظ ، نبيلَ العقل ، نبيلَ الخلق ، نبيلَ المنظرِ ، بَعِيد المَذهب فى التنزُّه ، طاهرَ الثَّوب من الفُحْش ، إنْ وافَقَ ذلك عِرقاً صالحاً ، ومَجْداً تالداً .

فالخارجىُّ قد يتنبَّل بنفسه ، والنَّابتىُّ قد يَخرُج بطبعه . ولكلِّ عزٍّ أوّلٌ ، وأوَّلُ كلِّ قديمٍ حادث .

ومن حُقوق النُّبل أن تتواضَعَ لمن هو دُونَك ، وتُنصِفَ من هو مثلُك ، وتتنبَّل على من هو فَوقَك .

---

(١) فى النسختين : « وبطلت المجاذبة » والواو مقحمة ، وإنما الكلام جواب «لما» السابقة.

(٢) ب : « الظلم » ، صوابه فى م .

٥ ــ فصــل منه

وكان بعضُ الأَشراف فى زمان الأَحنف ، لا يَحتقر أحدًا[١] ، ولا يتحرَّك لزائر ، وكان يقول :

* تهلان ذو الهَضَبات ما يتحلحلُ[٢] *

فكان الأَحنف مايزداد إلَّا عُلوًّا ، وكان ذلك الرجل لايزداد إلَّا تَسفُّلًا .

وقد ذم الله تعالى المتكبِّرين ، ولعن المتجبِّرين ، وأجمعت الأُمَّةُ على عَيبهِ ، والبراءة منه ، وحتَّى سُمِّى المتكبِّر تائِهاً ، كالذى يَخْتَبِط فى التِّيهِ بلا أمارةٍ ، ويتعسَّف الأَرض بلا علامة .

ولعلَّ قائلاً أن يقول : لو كان اسم المتكبِّر قبيحاً ، ولو كان المتكبِّر مذموماً ، لَمَا وصفَ الله تعالى بهما نَفْسَه ، ولَمَا نوَّهَ بهما فى التنزيل حين قال : ﴿ الجَبَّارُ المتكبِّر[٣] ﴾ ، ثم قال : ﴿ له الأَسماءُ الحُسنَى[٤] ﴾.

قلنا لهم : إنَّ الإنسانَ المخلوقَ المسخَّرَ ، والضعيفَ الميَسَّرَ ، لا يليقُ[٥] به إلَّا التذلُّل ، ولا يجوزُ له إلَّا التَّواضع .

وكيف يَليق الكِبْرُ بمن إنْ جاعَ صُرِعَ ، وإنْ شبِعَ طغَى ، وما يشبه الكبرُ بمن يأْكل ويَشرب ، ويَبول ويَنْجُو . وكيف يستحقُّ الكِبْرَ ويَستوجب العَظمةَ من ينقُصه النَّصَب ، ويُفْسِده الراحة ؟ .

---

(١) م : « يتحقر » ، صوابه فى ب .

(٢) للفرزدق فى ديوانه ٧١٧ واللسان (حلل ١٨٤) . وصدره :

* فادفــع بكفك إن أردت بنــاءنا *

(٣) من الآية ٢٣ من الحشر .

(٤) من الآية ٢٤ من سورة الحشر وهى كذلك فىالآية ٨ من سورة طه . وفى النسختين : « وله » والواو مقحمة فى نص الآية . انظر تحقيق النصوص لكاتبه ص ٤٨ .

(٥) فى النسختين : « لا يلحق به » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

فإذا كان الكبر لا يليق بالمخلوق فإنَّما يليق بالخالق ؛ وإنَّما عاندَ اللهَ تعالى بالكِبرِ[(١)] لتعدِّيهِ طَوْرَه[(٢)] ، ولِجهله لقَدْره[(٣)] ، وانتحالِه مالايجوز إلَّا لربِّه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « العَظمة رِداءُ الله ، فمَنْ نازَعه رِداءَه قَصَمَه[(٤)] » .

٦ — فصــل منه

والنبيل لا يتنبَّل ، كما أنَّ الفصيحَ لا يتفصَّح ؛ لأَنَّ النَّبيل يكفيه نُبْله عن التنبُّل ، والفصيح تُغنيه فصاحتُه عن التفصُّح . ولم يتزيَّدْ أَحدٌ قطُّ إلَّا لنقصٍ يجده فى نفسه ، ولا تَطاوَلَ متطاولٌ إلَّا لوَهْنٍ قد أَحسَّ به [فى[(٥)]] قوَّته .

والكِبرُ من جميع النَّاس قبيحٌ ، ومن كلِّ العبادِ مَسخوطٌ[(٦)] ، إلَّا أَنَّه عند الناس من عُظَماءِ الأَعرابِ ، وأَشباهِ الأَعراب أَوجَدُ[(٧)] ، وهو لهم أَسرع ، لجفاهم وبُعْدهم من الجماعة ، ولقلَّة مخالطتهم لأَهل العفَّة والرِّعة[(٨)] ، والأَدبِ والصَّنْعَة[(٩)] .

---

(١) هنا ينتهى السقط الكبير فى نسخة هامش الكامل (ط) الذى أشرت إليه فى ص ٣٢٩ من ٣٢٩ من الجزء الثالث من الرسائل . وستبدأ المقابلة هنا على النسخ الثلاثة : المتحف البريطانى (ب) والنسخة التيمورية (م) ونسخة الكامل (ط) .

(٢) ب ، م : « ليعديه » ، صوابه فى ط .

(٣) ب ، م : « ويجهله لقدره » ، والصواب من ط .

(٤) ورد فى سنن ابن ماجه برقم ٤١٧٤ ، ٤١٧٥ حديثاً قدسياً أوله « يقول الله سبحانه : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، من نازعنى واحداً منهما ألقيته فى جهنم » ، من حديث أبى هريرة . ومن حديث ابن عباس بلفظ : « ألقيته فى النار » .

(٥) كلمة « فى » ساقطة من النسخ الثلاثة . وزدتها تكملة للقول .

(٦) فى ط : « والكبر من جميع الناس قبيح مسخوط » .

(٧) أوجد ، أى أكثر وجوداً . وفى جميع النسخ : « أجود »

(٨) الرعة بالراء المكسورة : الورع . وفى ب ، م : « الدعة » .

(٩) هذا ما فى ط . وفى ب ، م : « الضعة » .

٧ – فصــل منه

ولم نَرَ الكبر يَسُوغ عندهم ويُستحسَنُ إلَّا فى ثلاثة مواضع :

من ذلك أن يكون المتكبِّر صعباً بدوياً، وَذَا عُرْضيَّة وحشيًّا[١]، ولا يكون حضريًّا ولا مَدَرِيًّا ، فيحمل ذلك منه على جهة الصُّعوبة ومذهب الجاهليَّة ، وعلى العُنْجُهيَّةِ[٢] والأَعرابيَّة .

أو يكونَ ذلك منه على جهة الانتقام والمُعارضَة ، والمكافأة والمقابلة[٣] .

أو على أن لا يكون تكبُّره إلَّا على الملوك والجبابرة ، والفَراعنةِ وأشباه الفراعنة .

وصاحبُك هذا خارجٌ من هذه الخصال ، مُجانبٌ لهذه الخِلال . إن أصاب صديقاً تَعظَّمَ عليه[٤] ، وإن أتاه ضيفٌ تغافل عنه[٥] ، وإن أتاه ضعيفٌ منَّ عليه ، وإن صادف حليماً اعتمر به[٦] .

وينبغى أن يكون خضوعُه لمن فوقه[٧] على حَسب تكبُّره على مَنْ دونه .

ومن صفة اللَّئيم أَن يَظلم الضَّعيفَ ، ويَظلِمَ نفسَه للقوىّ ، ويَقتُل

---

(١) ب : « وإذا » ، صوابه فى م ، ط . والعرضية ، بضم العين : العجرفية والصعوبة ، وأن يركب رأسه من النخوة . اللسان (عرض ٤١) . والكلمة محرفة فى الأصول . فى ب : « عارضته » ، وفى م: « عرضنة » وفى ط : « غطرسة » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « ولا العنجهية » ، صوابه فى م . وفى ط : « وعلى الهمجية » .

(٣) ب : « المقالة » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « يعظم عليه » ، صوابه فى ط .

(٥) ب : « ضعيف » ، صوابه فى م ، ط . وفى ب ، م : « يخافض له » ، صوابه فى ط .

(٦) به ، ساقطة من ب . وفى ط : « اعتمل به » .

(٧) هذا ما فى ط . وفى ب ، م : « لمن رفعه » .

الصَّريع . ويُجهِزَ على الجريح . ويَطلُبَ الهاربَ ، ويَهرُبَ من الطَّالب ، ولا يَطلُبُ من الطَّوائل إلَّا مالا خِطَارَ فيه[١] ولا يتكبَّر إلَّا حيث لا يرجع مَضرَّته عليه[٢] ، ولا يَقْفُو التَّقيَّةَ ولا المروءة[٣] ، ولا يعمل على حقيقته[٤] .

ومن اختار أن يبغى تَبَدِّى[٥] ، ومن أراد أن يُسمَعُ قَولُه ساءَ خلقه ، إذْ كان لا يحفل ببُغْضِ النَّاسِ له ووَحْشةِ قُلوبِهم منه ، واحتيالِهم فى مُباعَدته ، وقلَّة ملابسته[٦] .

وليس يـأْمنُ اللَّئيمَ على إتيان جميعِ ما اشتمل عليه اسمُ اللُّؤم إلَّا حاسد .

فإذا[٧] رأيته يعقُّ أباه . ويَحسُد أخاه ، ويَظلِمُ الضَّعيفَ ، ويستخفُّ بالأَديب ، فلا تُبعِدْه من الخيانة ، إذْ كانت[٨] الخيانة لؤماً ؛ ولا من الكذب ، إذْ كان الكذب لؤماً ؛ ولا من النَّميمة ، إذْ كانت النَّميمة لؤماً . ولا تـأْمَنْه على الكُفْر فإنَّه ألأَمُ اللُّؤم ، وأَقبح الغَدْر[٩] .

ومَن رأيته منصرِفاً عن بعض اللُّؤم . وتاركاً لبعض القبيح ، فإيَّاكَ أنْ توجِّهَ ذلك منه على التجنُّبِ له . والرَّغبة عنه ، والإيثارِ لخلافه ،

(١) ط : « ما لا خطر فيه » .

(٢) ط : « معرته عليه » .

(٣) يقفو : يتبع . والتقية : التقوى ، وهى أيضاً المصانعة . ب ، م : « يقف البقية » ، صوابها فى ط .

(٤) ط : « حقيقة » .

(٥) ب : « يبق ييدى » م : « يبق يبدى » ، وأرى الوجه فيما أثبت . تبدى : سكن البادية . على أن هذه العبارة ساقطة من ط .

(٦) الملابسة : المخالطة . م ، ط : « مساعدته » .

(٧) ب : « إذا » بغير فاء .

(٨) ب : « إذا » هنا وفى الموضعين التاليين .

(٩) ب فقط : « العذر » ، تحريف .

ولكن على أنَّه لا يشتهيه أَوْ لا يَقدِرُ عليه(١) ، أو يخاف من مرارةِ العاقبة(٢) أمراً يعفِّى على حلاوة العاجل ؛ لأَنَّ اللُّؤمَ كلَّه أصلُ واحدٌ وإنْ تفرَّقت فروعُه ، وجنسٌ واحدٌ وإن اختلفَتْ صُوَرُه ، والفِعلُ محمولٌ على غلبته(٣) ، تابعٌ لسَمْتِه . والشَّكل ذاهبٌ عَلَى شكله ، منقطعٌ إلى أصله ، صائرٌ إليه وإنْ أَبطأَ عنه ، ونازعٌ إليه وإن حِيلَ دونه . وكذلك تَناسُب الكرمِ وحنينُ بعضِه لبعض(٤) .

ولم تَر العيونُ ، ولا سَمِعت الآذانُ ، ولا توهَّمتِ العقولُ عملاً اجتباهُ ذو عقلٍ ، أو اختارَه ذو علمٍ ، بأَوبأَ(٥) مَغبَّةً ، ولا أَنكدَ عاقبةً ، ولا أَوخمَ مرعًى ، ولا أَبعَدَ مَهوًى ، ولا أَضرَّ على دينٍ ، ولا أَفسَدَ لِعرضٍ ، ولا أَوجَبَ لسُخْط الله ، ولا أدعى إلى مَقْتِ النَّاس ، ولا أَبعَدَ من الفَلَاح ، ولا أَظهرَ نُفُورًا عن التَّوبة ، ولا أَقلَّ دَرَكاً عند الحقيقة ، ولا أَنقضَ للطَّبيعة(٦) ، ولا أَمنَعَ من العِلم ، ولا أَشدَّ خلافاً على الحِلم ، من التكبُّر فى غير موضعه ، والتنبُّل فى غير كُنْهِه .

وما ظنُّك بشيءٍ العُجْبُ شَقيقُه ، والبَذَخُ صديقُه ، والنَّفْجُ أَليفُه(٧) ، والصَّلَفُ عَقِيدُه(٨) .

والبَذَّاخ متزيِّد(٩) ، والنَّفَّاج كذَّابٌ ، والمتكبِّر ظالم ، والمُعجَبُ

(١) ب ، م : « أولا أولا يقدرعليه » . (٢) ب : « مراءاة العاقبة » ، تحريف .

(٣) ب ، م « غلبة » ، صوابه فى ط .

(٤) م : « ببعض » ، تحريف . وفى ط : « إلى بعض » .

(٥) مابعد هذه الكلمة إلى « على دين » التالية ، ساقطط من ط .

(٦) النقض : الإفساد والقلب ، وأصله ضد الإبرام . وفى جميع النسخ : « أنقص » بالصاد ، تحريف .

(٧) فى اللسان : « رجل نفاج : ذو نفج يقول مالا يفعل ، ويفتخر بما ليس له ولا فيه » .

(٨) العقيد : الصاحب ، كأنك تعاقده وتحالفه . وفى قول أبى خراش :

كم من عقيد وجار حل عندهم ومن مجار بعهد الله قـــد قتـــلوا

(٩) ب فقط : « متزايد » ، تحريف .

صغيرُ النَّفْس . وإذا اجتمعت هذه الخصالُ ، وانتَظَمت هذه الخصالُ فى قلبٍ طال خَرابُه ، واستَغْلَق بابُه .

وشرُّ العيوبِ ما كان مضمَّناً بعُيوب ، وشرُّ الذنوب ماكان عِلَّةً لذُنوب[١] .

والكِبْر أَوّلُ ذنبٍ كان فى السماوات والأَرض ، وأَعظمُ جُرْمٍ كان من الجنِّ والإنس ، وأَشهَرُ تعصُّب كان فى الثَّقَلَيْن ، وعنه لجَّ إبليسُ فى الطُّغْيان ، وعَتَا على ربِّ العالمين ، وخَطَّأَ ربَّه فى التَّدبير[٢] ، وتلقَّى قولَه بالرَّد . ومِنْ أَجلِهِ استَوْجَب السَّخْطة ، وأُخرِج من الجنَّة ، وقيل له : ﴿ ما يكونُ لك أَنْ تتكبَّرَ فيها[٣] ﴾ .

ولإفراطه فى التَّعظيم خرج إلى غاية القسوة ، ولشدَّة قَسوته اعتزم على الإصرار ، وتتايَعَ[٤] فى غاية الإفساد ، ودعا إلى كلِّ قبيح ، وزيَّن كل شَرّ[٥] ، وعن معصيته أُخرج آدمُ من الجنَّة ، وشُهِر فى كلِّ أُفق وأُمَّة ، ومن أَجله نصَبَ العداوةَ[٦] لذرِّيته ، وتفرَّغ[٧] من كل شيءٍ إلَّا من إهلاك نَسلِه[٨] ، فعادَى من لا يَرجُوه ولا يخافه ، ولا يضاهيه

(١) ب : « للذنوب » م : « بذنوب » ط : « الذنوب » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب فقط : « فى التبذير » تحريف . وهو قول إبليس : « أأسجد لمن خلقت طيناً » ، « خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

(٣) من الآية ١٣ من الأعراف : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها » .

(٤) التتايع ، بالياء التحتية المثناة : التساقط والتهافت . وفى الأصول : « تتابع » ، والوجه ما أثبت من لغة الجاحظ .

(٥) ب ، م : « شىء » ، صوابه فى ط .

(٦) فى الأصول : « نصبت العداوة » .

(٧) ب ، م : « وتفرع » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « أهلك نسله » ، صوابه فى ط .

فى نسب[١] ، ولا يُشاكله فى صناعة ، وعن ذلك[٢] قَتلَ النَّاسُ بعضُهم بعضاً ، وظلم القوىُّ الضَّعيفَ ، ومن أجله أهلَكَ اللهُ الأُمَمَ بالمَسْخ والرَّجْف ، وبالخَسْف وبالطُّوفان ، والرِّيح العقيم[٣] ، وأدخلهم النَّار ، وأَقْنَطَهم من الخروج .

والكِبْرُ هو الذى زَيَّن لإبليسَ ترك السُّجود ، ووَهَّمه شَرَف الأَنفة[٤] ، وصوَّر له عِزّ الانتقاض[٥] ، وحبَّبَ إليه المخالفَة ، وآنَسَه بالوَحْدة والوَحْشة ، وهوَّن عليه سُخْط الرَّبّ ، وسَهَّل عليه عقابَ الأَبَد ، ووَعَدَه الظَّفرَ ، ومَنَّاهُ السَّلامةَ ، ولقَّنه الاحتجاجَ بالباطل ، وزيَّن له قَوْلَ الزُّور ، وزهَّده فى جوار الملائكة[٦] ، وجَمَع له خِلال السُّوء ، ونظَم له خِلال الشَّرّ ؛ لأنَّه حَسَـدَ والحسدُ ظلمٌ ، وكذب والكذبُ ذلٌّ ، وخَدَعَ والخديعة لؤم . وحَلَفَ على الزور ، وذلك فجور . وخَطَّأَ ربَّه ، وتخطئةُ الله جهلٌ . وأخطأَ فى جَلِىِّ القياس[٧] وذلك غَىٌّ ، ولَجَّ واللَّجاج ضَعْف . وفرقٌ بينَ التكبُّر والتبدِّى[٨] . وجَمَعَ بين الرَّغبة عن صنيع الملائكة[٩] وبينَ الدُّخولِ فى أعمال السِّفْلة .

واحْتَجَّ بأَنَّ النار خَيْرٌ من الطِّين . ومنافع العالَمِ نتائج أربعةِ

(١) هذا الصواب من ط . وفى ب ، م : « ولا يضاره » . والمضاهاة : المشابهة .
(٢) ط : « ومن ذلك » .
(٣) انظر ما مضى فى ص ١٥٨ .
(٤) ط : « وأوهمه شر الألفة » ب ، م : « ووهمه سرف الألفة » ، والوجه فيهما ما أثبت . أى جعله يتوهم الشرف فى الأنفة والكبر .
(٥) عز ، ساقطة من ط . وهى فى م : « عن » ، تحريف . والانتقاض : المخالفة . وفى جميع الأصول : « الامتعاض » .
(٦) ب فقط : « الملكية » ، تحريف .
(٧) الجلى : الظاهر الواضح . م : « جليل القياس » .
(٨) ب : « والتبذل » م : « والتبد » ، وأثبت ما فى ط .
(٩) رسمت فى ب « المليكة » .

أَركان : نارٌ يابسة حارّة ، وماءٌ باردٌ سيَّال ، وأَرضٌ باردة يابسة ، وهَواءٌ حارٌّ رطب . ليس منها شيءٌ مع مُزَاوجتِه لخلافِهِ إلَّا وهو مُخْيٍ مُبْقٍ[١] . على أَنَّ النار نِقمةُ اللهِ من بين جميع الأَصناف ، وهى أَسرعُهن إتلافاً لما صار فيها . وأَمحقهُنَّ لما دنا منها .

هذا كلُّه ثمرةُ الكِبر ، ونتِاجُ النِّيةِ . والتكبُّرُ شَرٌّ من القَسوة ، كما أَنَّ القسوة شرُّ المعاصى . والتَّواضعُ خيرُ الرحمة[٢] ، كما أَنَّ الرَّحمة خيرُ الطَّاعات .

والكبر معنًى ينتظم به جِماعُ الشَّرّ ، والتَّواضع معنًى ينتظم به[٣] جِماعُ الخير ، والتَّواضع عَقِيبُ الكِبْرِ ، والرَّحمة عَقيبُ القَسْوةَ . فإذا كان للطَّاعة قدرٌ من الثَّواب فلتركها وعَقيبها ، ولما يُوازِنُها[٤] ويكايلُها ، مثلُ ذلك القدر من العِقاب . وموضع الطاعة من طبقات الرِّضا ، كموضع تَركها من طبقاتَ السُّخط[٥] إذْ[٦] كانت الطَّاعةُ واجبةً ، والتَّرك معصية .

والكِبْر من أَسباب القَسْوة . ولو كان الكبر لا يعترى إلَّا الشَّريفَ والجميل ، أَو الجواد ، أَو الوفىَّ أَو الصَّدوق ، كان أَهْوَنَ لأَمره ، وأَقلَّ لشَيْنه . وكان[٧] يعرض لأَهل الخير ، وكان لايَغْلَطُ فيه إلاَّ أَهلُ الفضل ،

---

(١) ب فقط : « مجىء » تحريف .

(٢) ب ، م : « خير من الرحمة » . والمراد خير أنواع الرحمة ، كما قيل : « خير البر عاجله » .

(٣) به ، ساقطة من م . وبدلها فى ط : « فيه » .

(٤) فى جميع الأصول : « ويوازيها » .

(٥) ب فقط : « وموضع الطاعة من طبقات السخط » . والتكملة من م ، ط .

(٦) ب : « إذا » ، تحريف .

(٧) هذا الصواب من ب . وفى م ، ط : « أو كان » .

ولكنَّا نجده فى السِّفلة ، كما نجدُه[١] فى العِلْية ، ونَجِدُه فى القبيح كما نجده فى الحَسن ، وفى الدَّميم[٢] كما نجدُه فى الجميل . وفى الدَّنىِّ الناقصِ ، كما نجده فى الوفىِّ الكامل ، وفى الجبان كما نجده فى الشُّجاع ، وفى الكَذُوبِ كما نجده فى الصَّدوق ، وفى العبد كما نجده فى الحُرّ ، وفى الذِّمِّىِّ ذى الجِزْيةِ والصَّغارِ والذِّلَّة ، كما نجدُه فى قابض جزيته والمسلَّطِ على إذلاله .

ولو كان فى الكبر خيرٌ لما كان فى دَهر الجاهليَّة أَظْهَرَ منه فى دَهر الإسلام ، ولما كان فى العَبْد أَفشَى منه فى الحُرّ[٣] ، ولما كان فى السِّنْد أَعمَّ منه فى الرُّوم والفُرس .

وليس الذى كان فيه آل ساسان[٤] وأنو شروان وجميعُ ولَدِ أَزدشير ابن بابَك كانَ[٥] من الكِبْر فى شىءٍ . تلك سياسةٌ للعوامِّ ، وتفخيمٌ لأَمر السُّلطان ، وتسديدٌ للمُلْك .

ولم يكن[٦] فى الخلفاءِ أَشدُّ نخوةً من الوليد بن عبد الملك، وكان أَجهلَهُم وأَلحنَهم[٧] . وما كان فى وُلاةِ العِراق أَعظمُ كِبْرًا من يُوسفَ ابنِ عمر ، وما كان[٨] أَشجعَهم ولا أَبصَرَهم ، ولا أَتمَّهم قَوَاماً ، ولا أَحسنَهُمْ كلاماً .

---

(١) ب : « كما أن نجده » .

(٢) الدميم ، من الدمامة ، وهى القبح والقصر . وفى جميع الأصول : « الذميم » بالذال المعجمة ، تحريف .

(٣) ب ، م : « المدر » ، صوابه فى ط .

(٤) فى الأصول : « كان فيه عن آل ساسان » . و « عن » مقحمة .

(٥) سقطت « كان » هذه من ط فقط .

(٦) ب ، م : « ولو لم يكن » و « لو » مقحمة ليست فى ط .

(٧) ب فقط : «وكان أجملهم » ، تحريف .

(٨) ب ، م : « ولا كان » ، والوجه ما أثبت من م .

ولم يَدَّعِ الرُّبوبيَّة ملكٌ قَطُّ[١] إلَّا فِرعونُ ، ولم يك مقدَّماً فى مُرَكَّبه[٢] ، ولا فى شَرَفِ حسَبِه ، ولا فى نُبْل منظره ، وكَمالِ خَلْقه ، ولا فى سَعَة سُلطانِه وشرف رعيَّته وكرم ناحيته . ولا كان فوقَ المُلوك الأَعاظم والجلَّة الأَكابر ، بل دونَ كثيرٍ منهم فى الحَسَبِ وشَرَفِ المُلْك[٣] وكرَم الرعيَّة ، ومَنَعَة السُّلطانِ ، والسَّطوةِ على المُلوك .

ولوْ كان الكبرُ فضيلةً وفى التِّيهِ[٤] مروءةٌ ، لما رغب عنه بنو هاشم ، ولكان عبدُ المطَّلبِ أَولىَ النَّاس منه بالغاية ، وأَحقَّهم بأَقصى النهاية .

ولو كان محمودَ العاجلِ وَمرجوَّ الآجِلِ[٥] ، وكان من أَسباب السِّيادة أَو من حُقوق الرِّياسة ، لبادَرَ إليه سيِّدُ بنى تميم ، وهو الأَحنف بنُ قيس ؛ ولشحَّ عليه سيِّدُ بكرِ بن وائل[٦] وهو ملكٌ ؛ ولاستولى عليه سيِّد الأَزدِ وهو المهلَّب .

ولقد ذكر أبو عمرِو بنُ العلاءِ جميعَ عُيوب السَّادة ، وما كان فيهم من الخِلال المذمومة ، حيث قال : « ما رأَينا شيئاً يمنع من السُّودُد إلاَّ وقد وجدناه فى سيِّد : وجدنا البخل يمنع[٧] من السُّودد . وكان

(١) ب ، م : « ولا يدع » ب : « ملكاً » ، والصواب فى الأولى من ط ، وفى الثانية من م ، ط .

(٢) فى اللسان : « والمركب أيضاً : الأصل والمنبت ، تقول فلان كريم المركب ، أى كريم أصل منصبه فى قومه » . ب ، ط : « موكبه » وفى م : « موكبه » بالواو أيضاً مع ضبطه بضم الميم وفتح الواو وتشديد الكاف المفتوحة ، وصوابها بالراء كما أثبت . وانظر ٢٠٣

(٣) م : « بل دون كثير منهم وشرف الملك » بهذا النقص الذى أكملته من ب ، ط .

(٤) فى ، ساقطة من ب ، م .

(٥) ب ، م : « أو مرجو الآجل » .

(٦) هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب ابن على بن بكر بن وائل ، الذى يضرب به المثل فيقال : « أعز من كليب وائل » ، قتله جساس ابن مرة الشيبانى ، فكان ذلك سبب الحرب بين بكر وتغلب أربعين عاماً .

(٧) كلمة « يمنع » ساقطة من ب .

أبو سفيان بن حرب بخيلا . والعِهار[(١)] يمنع من السُّودُد . وكان عامرُ بن الطفيل سيِّداً ، وكان عاهرًا . والظُّلمَ يمنع من السُّودُد ، وكان حُذيفة ابن بدر ظلوماً ، وكان سيد غطفان . والحُمْقَ يمنع من السُّودُدِ ، وكان عُتيبة بن حِصْن محمَّقاً[(٢)] ، وكان سيِّدا . والإملاقَ يمنع من السُّودُد ، وكان عُتبةُ بن ربيعة[(٣)] مُملِقاً . وقلَّةَ العدد تمنع من السُّودد وكان شِبْل بن معبدٍ سيِّداً ، ولم يكنْ من عشيرته بالبصرة رجلان . والحَدَاثة تمنع من السُّودُد ، وساد أبو جهلٍ وما طرَّ شاربُه[(٤)] ، ودخَلَ دار النَّدوة وما استوَتْ لحيته[(٥)] .

فذكَرَ الظُّلم ، والحُمقَ ، والبُخلَ ، والفَقر ، والعِهارَ ، وذكَر العُيوبَ ولم يذكر الكِبْر ؛ لأنَّ هذه الأخلاقَ وإن كانت داءً فإنَّ فى فضول أحلامهم وفى سائر أمورهم مايُداوَى به ذلك الدَّاءُ ، ويُعالَج به ذلك السَّقَم ؛ وليس الداء المُمْكِن كالدَّاءِ المُعْضِل ، وليس البابُ المُغْلَق كالمُستَبهِم ؛ والأخلاق التى لا يمكن معها السُّودُد[(٦)] ، مثلُ الكِبْر والكَذِب والسُّخف ، ومثلُ الجهلِ بالسِّياسة .

---

(١) العهار والمعاهرة : الفجور . وأصل المعاهرة الإتيان ليلا للفجور ، ثم غلب على الزنى مطلقاً .

(٢) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى . وكان اسمه حذيفة فلقب عيينة ، لأنه كان قد أصابته شجة فجحظت عيناه . شهد حنيناً والطائف وعاش إلى خلافة عثمان . الإصابة ٦١٤٦ . ب ، م : « عتيبة بن حصن » ، صوابه فى ط .

(٣) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . قتل يوم بدر كافراً ، هو وأخوه شيبة ابن ربيعة ، وهو والد هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان . جمهرة أنساب العرب ٧٦ – ٧٧ والسيرة ٥٠٧ جوتنجن . وفى ب : « عتيبة » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) يقال طرشاربه : طلع ونبت . ويقال أيضاً طر ، بالبناء للمجهول ، قال الأزهرى : والأول أفصح . ب : « ساربه » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) فى جميع الأصول : « واستوت لحيته » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ب : « التى لم يكن معها السودد » ، صوابه فى م ، ط .

وخرجَتْ خارجةٌ بخُراسانَ فقيل لقُتيبة بن مُسلم : لو وجَّهت إليهم وَكيع بنَ أبى سُودٍ لكفاهم[(١)] فقال : وكيعٌ رجلٌ عظيم الكِبْر ، فى أنفِه خُنزُوانة ، وفى رأسه نُعْرة ، وإنَّما أنفه فى أُسلوب[(٢)] ؛ ومن عَظُم كبرُه اشتدَّ عُجْبه[(٣)] ، ومن أعجِبَ برأيِهِ لم يشاوِر كَفِيًّا ، ولم يُؤامر نصيحاً ، ومن تبجَّح[(٤)] بالانفراد وفَخَرَ بالاستبداد كان من الظَّفر بعيدًا ، ومن الخِذْلان قريباً ، والخطاءُ[(٥)] مع الجماعة خيرٌ من الصواب مع الفِرْقة . وإن كانت الجماعةُ لا تخطئُ والفِرْقة لا تصيب .

ومن تكبَّر على عدوِّه حقَره ، وإذا حَقَره تهاونَ بأمره . ومَن تهاوَنَ بخَصْمِهِ ووَثِق بفَضْل قُوتِّه قلَّ احتراسه ، ومَنْ قلَّ احتراسُه كثُر عِثارهُ .

وما رأيتُ عظيمَ الكِبْر صاحبَ حربٍ إلاَّ كان منكوباً ومهزوماً ومخدوعاً . ولا يشعُر[(٦)] حتَّى يكونَ عدوُّه عندَه ، وخَصْمُه فيما يَغلِب عليه أسمَعُ من فرس ، وأبصَرُ من عُقَاب ، وأهدى من قطاة ، وأحذَرُ من عَقْعَق[(٧)] ، وأشدُّ إقداماً من الأسَد ، وأوْثَبُ من فَهْد ، وأحقَدُ من

---

(١) ب ، م : « كفاهم » .

(٢) يقال إن أنفه فى أسلوب ، إذا كان متكبراً . وأصل الأسلوب : الطريق . قال :
أنوفهم بالفخر فى أسلوب ... وشعر الأستاه بالجبوب
وفى ط : « وإنما أنف فى أسلوب » ، تحريف .

(٣) ب : « شيد عجبه » ، والصواب فى م ، ط .

(٤) ب ، م : « تنجح » ، صوابه فى ط . والتبجح : الفخر .

(٥) الخطاء : الخطأ ، وتكثر فى لغة الجاحظ . م ، ط « والخطأ » .

(٦) يشعر موضعها بياض فى ب ، م . وكلمة « ولا » ساقطة من ب فقط .

(٧) انظر الحيوان ١ : ٢/٢٢٠ : ١٧٤ / ٣ : ١٨ / ٥ : ٥٣٥ . والعقعق بفتح العينين ، وهو طائر ذو لونين أبيض وأسود طويل الذنب ، على قدر الحمامة وشكل الغراب . وانظر معجم المعلوف ١٥٥ ، ١٨٨ .

جَمَل ، وأَرْوَغُ من ثعلب ، وأَغْدَر من ذئب[١] ، وأسخى من لافِظة[٢] ، وأَشحُّ من صبيّ ، وأجمَع من ذَرَّة ، وأَحرصُ من كلب[٣] ، وأَصبَرُ من ضَبٍّ . فإنَّ النَّفس إنَّما تسمح[٤] بالعِناية على قدر الحاجة ،وتتحفَّظُ[٥] على قَدْرِ الخَوف ، وتَطلبُ على قَدر الطَّمَع ، وتَطمَع على قدر السَّبَب .

٨ – فصـــل منه

وأقول بعد هذا كلِّه : إنَّ النَّاسَ قد ظلموا أَهل الحِلم والعَزْم ، حين زَعمُوا أَنَّ الذى يُسهِّل عليهم الاحتمالَ معرفةُ الناس بقُدْرتهم على الانتقام ، فكيفَ والمذكورُ بالحِلم والمَشهورُ بالاحتمال يقيِّض له من السُّفهاءِ ، ويُؤْتى له من أَهل البَذَاءِ ما لا يقوم له صبر . ولا يَنهض به عَزْم . بل على قدر حلمه يُتعرَّض له[٦] ، وعلى قدر عزمه يُمتَحَن صبرُه[٧] ولأَنَّ الذى سَهَّل عليه الحلم[٨] . ومكَّنه من العَزْم ، معرفةُ الناس بقُدرتِهِ على الانتقام ، واقتدارُه[٩] على شفاءِ الغيظ ؛ فإنَّ منعَه لنفسه ، ومجاذبته لطبعه مع الغيظ الشَّديد، والقُدرةِ الظاهرة، أَشدُّ عليه فى المزاولة

---

(١) ب : « وأعذر » صوابه فى م ، ط .

(٢) اللافظة : الديك ، لأنه يعض على الحبة بطرفى منقاره ثم يحذف بها قدام الدجاجة ، والتاء فيه للمبالغة كراوية . وانظر الحيوان٢ : ١٤٨ حيث أجرى فيه بحثاً . ط : « لاقطة »؛ بالقاف ، تحريف . وفى م : « الأفظة » ، صوابها فى ب .

(٣) فى جميع الأصول : « أحرس » بالسين ، وإنما هى بالصاد ، كما فى الحيوان ١ : ٢٢٦ – ٢٢٧ . وفيه بحث .

(٤) ب ، م : « تسمع » ، صوابه فى ط .

(٥) ب : « ويتحفظ » تحريف . ورسمت فى م بتاء وياء فى أولها ، لتقرأ بالوجهين ، والصواب فى ط .

(٦) ب ، م : « بل على قدر حلمهم يتعرض لهم » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « وعلى قدر عزمهم يمتحن صبرهم » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « عليهم الحلم » ، صوابه فى ط .

(٩) ب : « واقتداوه » صوابه فى م ، ط .

وأبلَغُ فى المشقّة والمكابدة[١] ، من صبر الشّكل على أذى شِكْله ، واحتمال المظلوم عن مِثْله ، وإن خاف الطمس ، وتوقَّع العَيب .

٩ — فصـــل منه

ومن بعد هذا ، فمن شأنِ الأيَّام أن يُظلم المرءُ أكثَرَ محاسنِه ماكان تابعاً ، فإذا عاد متبوعاً عادت عليه من محاسن غيره بأضعافِ ما منعَتْه من محاسن نفسه ، حتَّى يضاف إليه مِن شوارِد الأفعال[٢] ، ومن شواذِّ المكارم إن كان سيِّداً ، ومن غريب الأمثال إن كان مِنطيقاً[٣] ، ومن خيار القصائد إنْ كان شاعرًا ، مما لا أماراتِ لها ، ولا سِماتِ عليها .

فكم من يدٍ بيضاءَ وصنيعةٍ غرَّاءَ[٤] ، ضلَّت فلم يَقُم بها ناشد، وخَفِيتْ فلم يُظهرها شاكر . والذى ضاع للتَّابع قبل أن يكون متبوعاً[٥] ، أكثر ممَّا حُفظ ، والذى نُسِيَ[٦] أكثر مما ذكر ، وما ظنُّك بشيءٍ بَقِيَّتُه[٧] تَهبُ السِّيادة ، ومشكورُهُ يهب الرياسة[٨] ، على قِلَّة الشُّكر ، وكَثْرة الكفر .

وقد يكون الرجل تامَّ النَّفس ناقصَ الأداة ، فلا يُستَبانُ فضلُه ، ولا يُعظَّم قَدْره ، كالمُفْرَج الذى لا عشيرة له[٩] ، والإتاويِّ الذى

---

(١) المكابدة : المقاساة والمعاناة . ب ، م : « المكايدة » ، صوابه فى ط .
(٢) ط : « حتى تضاف » . م ، ط : « ومن شوارد الأفعال » .
(٣) ب : « منطبعاً » م : « منطبقاً » ، صوابه فى ط .
(٤) ب : « وضيعة غراء » ، تحريف .
(٥) ب : « مترعاً » م : « مترعاً » ، صوابهما فى ط .
(٦) ط فقط : « كتم » .
(٧) ب ، م : « يقنيه » ، صوابه ما أثبت . وفى ط : « مذكورة » .
(٨) م : « ومشكورة تهب الرياسة » .
(٩) المفرج : الذى لامال له ولا عشيرة ، فإذا جنى جناية كانت جنايته على بيت المال .

لا قَوْم له[١] . وقد يعظِّمُ المُفْرَجُ الذى لا وَلاءَ له ولا عقْدُ جِوارٍ ، ولا عَهْدُ حِلف ، إذَا بَرعَ فى الفِقْه وبلغَ فى الزُّهد . بأكثَرَ من تعظيم السيِّد . كجهة تعظيم الدَّيَّان . كما أنَّ طاعةَ السُّلطان غيرُ طاعةِ السَّادةِ ، والسُّلطانُ إنَّما يَملك أبدانَ الناس ، ولهم الخيارُ فى عقولهم ، وكذلك الموالى والعَبيد.

وطاعةُ النَّاسِ للسيِّد ، وطاعةُ الديَّانِ طاعةُ محبّة ودينونة ، والقلوبُ أطوع لهما من الأبدان ، إلَّا أنْ يكون السلطان مَرضيًّا ، فإنْ كان كذلك فهو أعظم خطراً من السيِّد ، وأوجَهُ عند الله من ذلك الدَّيَّان .

وربَّما ساد الأُتاوىُّ لأنَّه عربىٌّ[٢] على حال . والمُفْرَج لا يَسودُ أبداً لأنَّه عجمىٌّ لا حِلْفَ له ، ولا عَقْدُ جوارٍ ، ولا وَلاءٌ معروف ، ولا نسبٌ ثابت . وليس التَّسويد إلَّا فى العرب ، والعجم لا تُطيع إلَّا للملوك .

والذى أحوجَ العربَ فى الجاهليَّة إلى تسويد الرِّجال وطاعة الأكابر ، بُعْدُ دُورِهم من الملوك والحُكَّام[٣] والقُضاة ، وأصحاب الأرباع[٤] ، والمَسالح والعُمَّال . فكان السيِّدُ ، فى منْعِهم من غيرهم ومَنعِ غيرهم منهم ، ووثوبِ بعضِهم على بعض ، فى كثير من معانى السُّلطان .

---

(١) الأتاوى : الغريب الذى هو فى غير وطنه . وهو بتثليث الهمزة ، كما فى القاموس.

(٢) فى جميع الأصول : « عزى » ، ووجهه ما أثبت .

(٣) ب : « والأحكام » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) هم الرؤساء فى الجاهلية ، كانوا إذا غزوا وغنموا أخذ الرئيس ربع الغنيمة ، فيقال عند ذلك : قد ربعهم ، وما يأخذه هو المرباع . قال عبد الله بن عنمة الضبى (**الأصمعيات** ٣٧) :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

٢١

من رسالة في

المودة والخلطة، إلى أبي الفرج

١ – فصــــل

من رسالته إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة(١)

أطال الله بقاءك ، وأعزَّكَ وأكرَمَك ، وأتَمَّ نعمته عليك .

زعم – أبقاك الله – كثيرٌ ممَّن يَقرِضُ الشِّعر ويَروِى مَعانِيَه ، ويتكلَّف الأَدب ويَجْتبيه(٢) ، أنَّه قد يُمدَح المرجُوُّ المأْمول ، والمغشيُّ المَزُور(٣) ، بأَن يكون مخدوعاً ، وعَمِيَ الطَّرف مُغَفَّلا(٤) ، وسليمَ الصَّدر للراغبين ، وحَسَنَ الظَّنِّ بالطالبين(٥) ، قليلَ الفِطنة لأَبواب الاعتذار ، عاجزاً عن التخلُّص إلى معاني الاعتلالِ(٦) ، قليل الحِذْق بردِّ الشُّفعاءِ ،

---

(١) هذه الرسالة غير رسالته إليه التي كتب بها إليه يذكر فيها من كانت كنيته « أبا عثمان » مطابقة لكنية الجاحظ . وسبق نشرها في الجزء الأول من الرسائل ٣٢١ – ٣٣٢ . وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجاح بن سلمة ، كما في جمع الجواهر للحصرى ١٢١ . وأبوه نجاح بن سلمة كان على ديوان التوقيع في خلافة المتوكل ، وقتله سنة ٢٤٥ ووجه إلى ابنيه : أبي الفرج هذا وأبي محمد ، فأخذ أبو الفرج ، وهرب أبو محمد ، كما ذكر الطبرى في حوادث تلك السنة .

وقد نشرها السندوبي في رسائل الجاحظ ٣٠٣ – ٣١٠ كما سبق نشرها في هامش الكامل . والمقابلة هنا على النسخ الثلاثة ب ، م ، ط .

(٢) يجتبيه : يختاره ويصطفيه . ب ، م : « ويكلف الأدب » ، صوابه في ط .

(٣) ط : « المرجو المأمون والملقى المزور » ، صوابه في ب ، م .

(٤) العمى ، على وزن حذر وفرح : الأعمى . يقال رجل عم وامرأة عمية . وفي قول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غـــــدٍ عمِ

(٥) ب ، م : « بالظالمين » ، صوابه ما أثبت .

(٦) الاعتلال : بيان العلة . وفي الأصول : « الاعتدال » ولا وجه له .

شديدَ الخوف من مَيَاسم الشُّعراء[١] ، حَصِراً[٢] عند الاحتجاج للمنع . سلسَ القِياد إذا نبَّهته للبَذْل[٣] ، واحْتجُّوا بقول الشاعر :

إيتِ الخليفةَ فاخدَعْهُ بمسألةٍ إنَّ الخليفةَ للسُّؤَّال ينخدعُ

فانتحالُ المأمول للغَفْلة التى تَعترِى الكرام ، وانخِداع[٤] الجوادِ لخُدَع الطالبين ومَخَاريق المُستمِيحين[٥] ، بابٌ من التكرُّم ، ومن استدعاء الرَّاغب ، والتعرُّضِ للمجتدى ، والتلطُّف لاستخراج الأَموال ، والاحتيال لحلِّ عُقَد الأَشحَّاء ، وتَهييج طبائع الكرام .

وأنا أزعُمُ ـ أبقاكَ اللهُ ـ أنَّ إقرار المسئول بما يَنْحَلُ من ذلك نوك[٦] ، وإضمارَه لُؤم ، حَتَّى تصحَّ القسمة[٧] ، ويعتدل الوَزْن .

وأنا أعوذُ بالله من تذكيرٍ يُناسب[٨] الاقتضاء ، ومن اقتضاءٍ

---

(١) فى جميع الأصول : « مباسم » ، صوابه ما أثبت . والمياسم : جمع ميسم . وهو المكواة أو الأداة التى توسم بها الدواب ، ويقال فى جمعها أيضاً مواسم . والمراد بالمياسم هنا آثار الهجاء اللاذع . قال المتلمس :

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرانين ميسما

يقول : أهجوهم هجاء يلزمهم لزوم الميسم فى الأنف .

(٢) الحصر : ضرب من العى فى المنطق . حصر حصراً مثل تعب تعباً . ب : « حضرا » م : « حضوا » ط : « حصور » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ب ، ط : « إذا انبهته نبهته للبذل » بالتكرار . صوابه فى م .

(٤) ب ، م : « والخداع » ط : « وخداع » ، صوابهما ما أثبت .

(٥) المراد بالمخاريق هنا الادعاءات الكاذبة . وقال التبريزى فى شرح المعلقات : « قيل المخاريق ما مثل بالشىء وليس به ، نحو ما يلعب به الصبيان » . وانظر حواشى الحيوان ٤ : ٣٧٨ .

(٦) النوك ، بضم النون وفتحها : الحمق . والنحلة ، بالكسر : العطية . ط : « ينجل » ، تحريف .

(٧) ط : « القيمة » .

(٨) ب ، م : « تذكر تناسب » ط : « تذكر يناسب » ، ووجههما ما أثبت .

يُضارع الإلحاح . ومن حِرْصٍ يعود إلى الحِرْمان . ومن رسالةٍ ظاهرها زُهد، وباطنُها رغبة . فإنَّ أسقطَ الكلامِ وأوغَدَه[١] ، وأبعَدَه من السَّعادة وأنكَدَه ، ما أظهرَ النَّزاهةَ وأضمرَ الحِرص ، وتجلَّى للعُيون بعينِ القَناعة ، واستشعَرَ[٢] ذلَّة الافتقار .

وأشنَعُ من ذلك ، وأقبح منه وأفحش ، أن يظُنَّ صاحبه أنَّ معناه خفيٌّ وهو ظاهر ، وتأويلَه بعيدُ الغَوْر وهو قريب القعر[٣] .

فنسأل الله تعالى السَّلامةَ فإنَّها أصلُ النِّعمة عليكم ، ونحمده على اتِّصال نعمتنا بنعمتكم ، وما ألهمنا اللهُ من وَصف محاسنكم .

والحمدُ لله الذى جعَلَ الحمد مُستفْتَحَ كتابِه ، وآخرَ دعوى أهل جَنَّته .

ولو أنَّ رجلاً اجتهد فى عبادة ربِّه ، واستفرغَ مَجْهودَه فى طاعةِ سيِّده ، ليهَبَ له الإخلاص فى الدُّعاءِ لمن أنعَمَ عليه ، وأحسنَ إليه ، لكان حريًّا بذلك أن يُدرِكَ أقصى غايةِ الكَرَمِ فى العاجل ، وأرفَعَ درجاتِ الكرامة فى الآجِل .

وعلى أنِّى لا أعرِف معنًى أجمَعَ لخصال الشُّكر ، ولا أدَلَّ على جِمَاع الفَضْل ، من سَخَاوة النَّفْس بأداءِ الواجب[٤] .

---

(١) أوغده ، من الوغادة ، وهى الذلة والضعف واللؤم . ب ، م : « أوعده » ، صوابه فى ط .

(٢) فى جميع الأصول : « واستبشع » ، والوجه ما أثبت . والشعار : ماولى جسد المرء من الثياب .

(٣) ب ، م : « الفقر » ، صوابه فى ط .

(٤) السخاوة : السخاء ، ومثلهما السخو والسخوة بضمتين فيهما مع تشديد الواو ، وكذلك السخا بالقصر .

ونحن وإن لم نكن أعطينا الإخلاص(١) جميعَ حقِّه ، فإنّ المرءَ مع من أَحَبَّ ، وله ما احتسَبَ .

ولا أعلم شيئاً أَزْيَدَ فى السَّيِّئة من استصغارها ، ولا أَحبَطَ للحسنة من العُجْب بها(٢) .

ومما يستديم الخطأَ لُبْثُ التَّقصير(٣) وإهمالُ النَّفْس ، وتركُ التوقُّف ، وقلَّةُ المحاسَبَة ، وبُعْدُ العَهد بالتثبُّت . ومَهْمَا رجعنا إليه من ضَعفٍ فى عَزْمٍ ، وهان علينا ما نَفْقِد من مناقل الحِلْم(٤) ، فإنَّا لا نجمع بين التَّقصير والإنكار(٥) .

ونعوذُ بالله أن نقصِّر فى ثناءٍ على مُحسنٍ ، أو دعاءٍ لمُنْعِم . ولئن اعتذَرْنا لأَنفسنا بصدق المَوَدَّة(٦) ـ وبجميل الذِّكر ، فلَمَا يُعَدُّ لكم(٧) ، مِنْ تحقُّق الآمال ، والنُّهوضِ بالأَثقالِ أكثر .

على أَنَّكم لم تُحمِّلونا إلاَّ الخِفَّ ، وقد حمَّلناكم الثِّقْل . ولم تسأَلونا الجزاءَ على إحسانكم ، وقد سأَلناكم الجزاءَ على ما سأَلناكم . ولم تكلِّفونا مايَجِبُ لكم ، وكلَّفناكم مالا يجب .

ومن إفراطِ الجَهْل أن نتذكَّرَ حقَّنا فى حُسْنِ الظَّنِّ ، ولا نتذكَّر

---

(١) فى الأصول : « الخلا ص » ، والوجه ما أثبت .
(٢) ب ، م : « لحسنة » وأثبت ما فى ط . وفى ب : « من العجب لها » ، تحريف .
(٣) لبث ، ساقطة من ط . وفى ب : « ومما يستميد » ، صوابه فى م ، ط .
(٤) المناقل : المراحل ، والطرق المختصرة .
(٥) ب فقط : « والاتكال » .
(٦) ب فقط : « لنفسنا » ، وفى ب ، م : « بمودة الصدق » .
(٧) ط : « فما يعد لكم » .

حقّكم في تصديق ذلك الظّن[1] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماعَظُمَتْ نعمةُ الله على أحدٍ إلّا عظُمَتْ عليه مُؤْنة النّاس[2] » .

وأنا أسأل الله الذى ألزمَكُم المُؤَن الثّقال، ووصل بكم آمالَ الرِّجال. وامتحنكُمْ بالصّبر على تجرُّع المُرار ، وكلّفكم مُفارقةَ المحبوب من الأموال، أن يُسَهِّلها عليكم ، ويُحَبِّبها إليكم. حتّى يكون شَغفُكم بالإحسان الداعيَ إليه ، وصَبابتكم بالمعروف الحاملَ عليه ، وحتّى يكون حبُّ التفضُّل ، والمحبّةُ لاعتقاد المِنَن الغايةَ التى تستدعى المدبِّر ، والنهايَةَ التى تَعذِرُ المقصِّر ، وحتى تُكرِهوا على الخير من أخطأ حظّه[3] ، وتفتحوا بابَ الطَّلبِ لمن قصّر به العَجْز .

ثم اعلمْ — أصلَحكَ الله — أنّ الذى وُجِدَ فى العبرة ، وجرت عليه التّجربة ، واتّسَق به النظم ، وقام عليه وَزْنُ الحكم ، واطّرد منه النَّسَق ، وأثبته الفَحْص[4] ، وشَهِدت له العقول . أنّ من أوّلِ أسباب الخُلطة ، والدّواعِى إلى المحبّة ، ما يُوجَدُ[5] على بَعْضِ النّاس من القَبُول عند أوّلِ وَهْلة ، وقِلّة انقباض النُّفوس مع أوّل لَحْظة[6] ، ثم اتّفاقَ الأسبابِ التى تقع بالموافَقَة عند أوّل المجالسة ، وتلاقِيَ النُّفوس بالمشاكلة عند أوّل الخُلطة .

والأدب أدبان : أدبُ خُلُقٍ ، وأدبُ رِواية ، ولا تَكمُل أُمورُ صاحب

---

(١) ط : « أن تتذكر حقنا فى تصديق ذلك الظن » ، وأثبت السقط من ب ، م .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج عن عائشة ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن معاذ . الجامع الصغير ٧٩٤٢ . وتمامه : « فمن لم يحتمل تلك المؤنة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال » .

(٣) ب فقط : « خطه » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « وثبته الفحص » .

(٥) ط : « مايوجه » ، صوابه فى ب ، م . وفى م بعده : « على بغض » ، تحريف .

(٦) ط : « الخلطة » .

الأَدبِ إلاَّ بهما ، ولا يجتمع له أَسبابُ التَّمام إلَّا من أَجلِهما ، ولا يُعَدُّ في الرُّؤساءِ ، ولا يُثنى به الخِنْصَر في الأُدباءِ ، حتَّى يكون عَقْلُه المتأَمِّرَ عليهما ، والسائسَ لَهُما[1] .

٢ — فصل منه

فإن تمَّت بعد ذلك أَسبابُ الملاقاةِ تمت المصافاة ، وحَنَّ الإلف إلى سَكَنه[2] . والشَّأْنُ قبل ذلك لِما يَسْبِقُ إلى القلب[3] ، ويخفُّ على النَّفْس ، ولذلك احترس الحازم المستعْدَى عليه[4] من السَّابق إلى قلب الحاكم عليه .

وكذلك[5] التمسُوا الرِّفق والتَّوفيق ، والإيجازَ وحسن الاختصار ، وانخفاضَ الصَّوت ، وأَن يُخرِج الظَّالمُ كلامَه مُخرَجَ لفظِ المظلوم .

نَعَمْ ، وحتَّى يتركَ اللَّحْنَ بحجَّته بَعْدُ[6] ، ويخلِّفَ الدَّاهيةُ كثيراً من أَدبه ، ويَغُضَّ من محاسن مَنطقهِ . التماساً لمواساة خَصْمه في ضعف الحِيلة ، والتشبُّه به في قلَّة الفطنة .

نَعَمْ ، وحتَّى يكتبَ كتابَ سِعايةٍ ومَحْلٍ وإغراقٍ وتحدٍّ[7] ، فيلحن في إعرابه . ويتسخَّفُ في أَلفاظه[8] ، ويتجنَّبَ القصد ، ويهربَ من

(١) الواو ساقطة من ب . وفي ط : « والسائس له » تحريف .
(٢) ط : « وحسن » تحريف . وفي ب ، م : « وحن الأليف » .
(٣) في الأصول : « مما يسبق القلب » ، ووجهه ما أثبت .
(٤) ب : « الجازم المستدعى عليه » ، صوابه في م ، ط .
(٥) ط : « ولذلك » .
(٦) سقطت كلمة « نعم » والواو بعدها من ط .
(٧) الكلمة ساقطة من ط . وهي في ب : « سحد » وفي م : « سحد » بدون واو قبلها ، ولعل الوجه ما أثبت .
(٨) ب فقط : « ويستخف في ألفاظه » .

اللَّفظ المُعْجبِ لِيُخفِيَ مكانَ خِذْقِه[١] ، ويَسْتُرَ موضعَ رِفْقه ، حتّى لا يحترسَ منه الخَصْم ، ولا يتحفَّظ منه صاحبُ الحكم ، بعد أن لا يَضُرَّ بعَين معناه ، ولا يقصِّر فى الإفصاح عن تفسير مغزاه[٢] ، وهذا هو الموضع الذى يكونُ العَىّ[٣] فيه أَبْيَنَ ، وذو الغَبَاوة أفطنَ ، والردىّ أجوَد ، والأَنْوَكُ أحزَم ، والمضيِّعُ أحكم ؛ إذْ كان غرضُه الذى إيَّاه يرمى ، وغايتُه التى إليها يُجرِى ، الانتفاعَ بالمعنى المتخَيَّر[٤] دون المباهاةِ باللَّفظ ، وإنَّما كانَ غايتُه إيصالَ المعنَى إلى القلب دون تَصيب السَّمعِ من اللَّفظِ المُونِق ، والمعنى المتخيَّر ؛ بل ربَّما لم يَرْضَ باللَّفظِ السَّليمِ حتّى يُسْقِمه ليقع العجزُ موقع القُوَّة ، ويُعرَضَ العِيُّ[٥] فى محلّ البلاغة . إذا كان حقُّ ذلك المكان اللَّفْظَ الدُّون[٦] ، والمعنَى الغُفْل .

هذا إذا كان صاحبُ القِصَّةِ ومؤلِّفُ لَفْظِ المَحْل والسِّعاية ؛ ممَّن يتصرَّفُ قلمُه ، ويعلِّل لسانَه ، ويلتزق[٧] فى مذاهبه ، ويكون فى سَعَةٍ وحِلٍّ لأَن يَحُطَّ نفسه[٨] إلى طبقَةِ الذُّلِّ وهو عزيز ، ومَحلِّ العِيِّ وهو بليغ ، ويتحوَّلَ فى هيئة المظلوم وهو ظالم ، ويمكنَه تصويرُ الباطل فى صورة الحَقِّ ، وسَتْرَ العُيوبِ بزُخْرُف القَول ؛ وإذا شاءَ طفا ، وإذا شاءَ رَسَب ، وإذا شاءَ أخرجَه غُفْلاً صحيحاً[٩] .

---

(١) ط : « حدته » ، تحريف .

(٢) المغزى : القصد . وفى ب ، م : « مغواه » ، تحريف .

(٣) العى : العيى ، والعى أكثر استعمالا ، وهو العاجز عن البيان . ب ، م : « الفيء » صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « المتحير » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « الحى » ، صوابه فى ط .

(٦) ط : « المدون » .

(٧) لعلها « ويتصرف » .

(٨) فى جميع الأصول : « ويكون فى وسعه وصل » ، والوجه ما أثبت ، وفى ب فقط « يحيط نفسه » ، تحريف .

(٩) غفلا ، أى مجرداً من الزخرف . وفى جميع الأصول : « عقلا » ، ولا وجه له .

وما أكثَرَ من لا يُحسِن إلاَّ الجيِّد[١] ، فإنْ طلبَ الرديَّ جاوَزَه[٢] . كما أنَّه ماأكثَرَ من لا يستطيع إلا الرديَّ ، فإن طلب الجيِّدَ قصَّرَ عَنه.

وليس كلُّ بليغ يكون بذلك الطِّباع[٣] ، ومُيسَّرَ الأَداةِ ، وموسَّعاً عليه فى تَصريف اللِّسان ، وممنوناً عليه[٤] فى تحويل القلم .

وما أكثَرَ من البصراءِ مَنْ يحكى العُمْيان[٥] ، ويُحَوِّل لسانَه إلى صورة لفظِ الفأْفاءِ بما لا يبلغُه الفأْفاءُ ولا يُحْسِنُه التَّمتام . وقد نجد من هو أَبسط لساناً وأَبلغُ قلماً ، لا يستطيع مجاوزَةَ ما يشركه ، والخروجَ مما قَصَّر عنه .

٣ — فصل منها

ولولا الحدودُ المحصَّلة والأَقسام المعدَّلة[٦] ، لكانت الأُمور سُدًى ، والتَّدابيرُ مُهمَلة ، ولكانت عَوْرة الحكيم بادية ، ولاختلطت السافلة بالعالية .

٤ — فصل منها

وأَنا أَقول بعد هذا كلِّه : لو لم أُضمِرْ لكم محبّةً قديمة ، ولم أَضْرَ بِكم[٧] بشفيعٍ من المشاكلة . ولا سببِ الأَديبِ إلى الأَديب[٨] ، ولم

(١) ب فقط : « إلى الجيد » .
(٢) ب ، م : « حاوره » .
(٣) الطباع : الطبع ، كما أنه أيضاً جمع طبع . ط : « بتلك الطباع » .
(٤) أى منعماً عليه . وفى الكتاب العزيز : « ولقد مننا عليك مرة أخرى » . طه ٣٧ .
(٥) ب : « وما أكثر من بصر » م : « من البصر » ، صوابهما فى ط . والبصراء : جمع بصير .
(٦) ط فقط : « المعتدلة » .
(٧) ضرى به ضرًا وضراوة : لهج ، واعتاده فلا يكاد يصبر عنه .
(٨) ب : « ولا سبب الأديب » فقط .

يكن على قبول . ولا علىّ حلاوةٌ عند المحصول . ولم أكنْ إلّا رجلًا من عُرْضِ المعارف، ومن جُمهور الأَتْباع ــ لَكانَ فى إحسانكم إلينا ، وإنعامكم علينا ، دليلٌ على أنا قد أخلصْنا المحبَّة . وأصفينا لكم المودَّة .

وإذا عرفتم . ذلك بالدليل النَّيِّر الذى أنتم سبَبُه ، والبُرهانِ الواضحِ الذى إليكم مرجعُه . لم يكن لنا عند الناس إلّا توقُّعُ ثمرةِ الحُبّ ، ونتيجةُ جميلِ الرَّأْى ، وانتظارُ ما عليه مُجازاةُ القلوب .

وبقدر الإنعام تَجُود النُّفوسُ بالمودَّة ، وبقدر المودَّة تنطلق الألْسُنُ بالمِدْحة .

وهذهِ الوسيلة أكثرُ الوسائلِ[1] وأقواها فى نفسى : أنّى لم أصِلْ سببى بمُحَرَّمٍ[2] غُمْرٍ ولا بمبخَّلٍ[3] غُفْلٍ[3] ، ولا بضيِّق العَطَنِ حديثِ الغِنَى ، ولا بزَمِرِ المُروَّة مُستنبَط الثَّرى[4] ؛ بل وصلتُه بحمَّالِ أثقال[5] ومُقارِعِ أبطال، وبمَنْ وُلِد فى اليُسْرِ ورَبِىَ فيه، وجَرَى[6] منه على عِرْقٍ ونزَع إليه .

٥ ــ فصـــل منها

ولا خيرَ فى سمينٍ لا يحتمل هُزَالَ أخيه ، وصحيحٍ لا يَجبُر كَسْر صاحِبه .

---

(١) ب ، م : « وسائل » .

(٢) المحرم : البدوى الذى لم يخالط الحضر . وبعير محرم : صعب . ب : « سببى بمجرم » صوابه فى م ، ط . وفى ط « وغمر » .

(٣) ط : « بمنحل » .

(٤) الثرى : الخير . أى ينال خيره بعد جهد واستخراج .

(٥) م : « لحمال أثقال » ط : « وصلته وصلة لحمال أثقال » : والوجه ما أثبت من ب .

(٦) ب ، م : « ويجرى منه » وأثبت ما فى ط .

٦ – فصل منها

وقد تنقسم المودَّة إلى ثلاثِ[1] منازل :

منها : مايكون على اهتزاز الأَريحيَّة وطبْعِ الحُرِّيَّة .

ومنها : مايكون على قَدر فرط وسائل الفاقة[2]

ومنها : ما يحسُنُ موقعُه[3] على قَدْر طباع الحِرص وجَشَع النَّفس.

فأَرفعها منازلَ حبٌّ المشغوف شكرَ النِّعمة . وهو الذى يدوم شكره، ويبقى على الأَيام وُدُّه. والثانى هو الذى إنَّما اشتدَّ حبُّه على قدرِ مَوضعِ المال من قَلْب الحريص الجشع ، واللَّئيم الطَّمِع . فهذا الذى لا يَشكر، وإنْ شَكَر لم يشكرْ إلَّا ليستزيد، ولم يَمدَحْ إلَّا ليستمدَّ . وعلى أَنَّه لا يأْتى الحمدَ إلَّا زَحْفًا ، ولا يفعلهُ إلَّا تكلُّفا .

وأَنا أَسأَل الله الذى قسم له[4] أَفضلَ الحظوظ فى الإنعام ، أَن يَقْسِمَ لنا أَفضلَ الحظُوظِ فى الشُّكر . وما غايةُ قولِنا هذا ومَدارُ أَمرنا إلاَّ على طاعةٍ تُوجِب الدُّعاء ، وحُرِّيَّةٍ تُوجِب الثَّناء . شاكرين كُنَّا أَو مُنعِمِين ، وراجين كنَّا أَو مرجُوِّين .

ومَن صرف[5] الله حاجَته إلى الكرام ، وعَدَلَ به عن اللِّئام فلا يَعُدَّنَّ نفسه فى الرَّاغبين ولا فى الطَّالبينَ المؤمِّلين ، لأَنَّ من لم يَجْرَع مَرارة المِطال ، ولم يمدَّ للرَّحيل التَّسويف ، ويَقْطَعْ عنقَه بطول الانتظار .

(١) ب ، م : « على ثلاثة » .
(٢) ب : « وشل » م : « وسل » ، صوابهما فى ط .
(٣) ب : « يحصل موقعه » .
(٤) له ، ساقطة من ب .
(٥) ب : « تصرف » صوابه فى م ، ط .

ويَحْمِلْ مكروهَ ذُلِّ السؤال . ويُحمَل على طمعٍ يحثُّه يأْس ، كان خارجاً من حدود المؤمِّلين .

ومَن استولى على طمَعه الثِّقةُ بالإنْجاز[1] ، وعلى طَلِبَتهِ اليقينُ بسُرعة الظَّفَر ، وعلى ظَفره الجزيلُ من الإفضال ، وعلى إفضاله العلمُ بقلَّة التثريب[2] ، وبالسَّلامة من التَّنْغيص[3] بالتماس الشكر ، وبالبكور وبالرَّواح[4] وبالخُضوع إذا دخَلَ ، والاستكانةِ إذا جلس . ثم مع ذلك لم يكن ما أُنعِمَ به عليه ثواباً لسالفِ يدٍ ، ولا تعويضاً من كدٍّ ، كانت النعمةُ[5] محضةً خالصة ، ومهذَّبَة صافية ، وهى نعمتكم التى ابتدأتمونا بها .

ولا تكون النِّعمة سابغةً ولا الأَيدى شاملةً[6] ، ولا السِّتر كثيفاً ذَيَّالًا ، وكثير العَرْض مُطْبِقاً ، ودون الفَقر حاجزاً ، وعلى الغِنى مُلتحِفاً ، حتَّى يخرُجَ من عندِكم ، ثمَّ يُحتَسَبَ[7] إلى شاكرٍ حُرّ .

٧ – فصل منها

وأَنتم قومٌ تقدَّمتم بابتناءِ المكارم فى حالِ المُهْلة ، وأخذتم لأَنفسكم فيها بالثِّقة على مقاديرِ ما مكَّنتم الأَواخِيّ[8] . ومددتُم الأَطناب ، وثبَّتُّم القواعد . ولذلك قال الأَوَّل[9] :

(١) فى جميع الأصول : « بالإيجاز » ، صوابه ما أثبت .
(٢) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب .
(٣) م، ط : « التنقيص » صوابه فى ب .
(٤) ط : « وبالغدو والرواح » .
(٥) فى جميع الأصول : « النعمة كانت » ، والوجه ما أثبت .
(٦) ب ، م : « ولا أيدى » ، صوابه فى ط .
(٧) ب ، م : « محتسب » .
(٨) الآخية والآخية بتشديد الياء وتخفيفها ، والأخية كفرحة أيضاً : طنب البيت .
(٩) هو أنس بن مدركة الخثعمى ، كما فى الحيوان ١ : ٨١ . وانظر سيبويه ١ : ١١٦ والمقتضب ٤ : ٤٣٥ والخزانة ١ : ٤٧٦ / ٢ : ٥٤٥ والهمع ١ : ١٩٧ .

عزَمْتُ على إقامة ذى صباحٍ … لأمرٍ ما يُسوَّدُ من يَسُودُ

وأبو الفرج – أعزَّه الله – فتَى العَسكَرَين[١] ، وأديبُ المِصرين[٢] جمعَ أَريحيَّةَ الشَّباب ، ونَجابةَ الكُهول ، ومحبَّةَ السَّادة ، وبَهاءَ القادة وأخلاقَ الأُدباء ، ورَشاقة عُقولِ الكُتَّاب ، والتَّغلغُلَ إلى دقائقِ الصَّواب ، والحلاوةَ فى الصُّدور ، والمهابةَ فى العُيون ، والتقدُّمَ فى الصِّناعة ، والسَّبْقَ عند المحاورة[٣] ، شقيقُ أَبيه وشِبْهُ جَدِّهِ ، حَذْوَ النَّعلِ بالنَّعل ، والقُذَّةَ بالقُذَّة . لم يتأخَّر عنهما إلَّا فيما لا يجوز أن يتقدَّمهما فيه ، ولم يقصِّر عن شأْوِهما إلَّا بقدرِ ماقصَّرا عن سِنْخِهما[٤] ، وهم وإنْ قصَّروا عن مدَى آبائهم ، وعن غايات أَوائِلهم ، فلم يقصِّروا عن جِلَّة الرُّؤساء ، وأهلِ السَّوابقِ من الكُبَراء ، ولستَ ترى تالِيَهُم إلَّا سابقاً ، ومُصَلِّيَهم إلَّا للغاية مُجاوِزًا . ليس فيهم سِكِّيتٌ ولا مبهورٌ ولا منقطِع ، قد نُقِّحتْ أَعراقُهم[٥] من الإقراف والُهجْنة ، ومن الشَّوب ولؤم العُجْمة[٦] .

ومتى عاينتَ أَبا الفرجِ وكمالَه ، ورأَيتَ ديباجتَه وجماله ، علمت أنَّه لم يكن فى ضرائِبهم وقديمِ نَجْلهم[٧] ، خارجىُّ النَّسب ، ولا مجهولُ

---

(١) الذى فى جنى الجنتين ٧٨ أن العسكرين عرفة ومنى . ولكن يبدو أن الجاحظ أراد بهما عسكر أبى جعفر ، وهى مدينته التى بناها ببغداد وهى باب البصرة فى الجانب الغربى . والآخر عسكر ولده المهدى ، وهى المعروفة بالرصافة فى الجانب الشرقى من بغداد .

(٢) المصران : الكوفة والبصرة ، كما فى جنى الجنتين ١٠٦ واللسان (مصر ٢٤) .

(٣) م فقط : « المجاورة » بالجيم .

(٤) السنخ ، بالكسر : الأصل . ط : « من سنحهما » تحريف . وهو يعنى أنهم عريقون فى الكرم وأصالته .

(٥) التنقيح : التهذيب والتخليص . ب فقط : « نفحت » . تحريف .

(٦) فى جميع الأصول : « العجلة » ، والوجه ما أثبت .

(٧) النجل : النسل . م : « بخلهم » ط : « نخلهم » ، صوابهما ما أثبت .

المركَّب[١] ، ولا بهيمٌ مُصْمَتٌ[٢] ، ولا كثيرُ الأَوضاح مُغْرَبٌ[٣] ، بل لا ترى إلَّا كلَّ أغرَّ محجَّل[٤] ، وكل ضَخْم المحزِم[٥] هيكل[٦] .

إنِّى لستُ أُخبِر عن الموتَى ولا أَستشهد الغيب[٧] ، ولا أَستدِلُّ بالمختلَفِ فيه ولا الغامض الذى تعظم[٨] المُؤْنةُ فى تعرُّفه ، والشَّاهد لقولى يَلُوح فى وجُوههم ، والبُرهان على دعوايَ ظاهرٌ فى شمائلهم[٩] ؛ والأَخبار مستفيضة ، والشُّهودُ متعاونة .

وأَنتَ حين تَرى عِتْقَ تلك الدِّيباجة ، ورَوْنقَ ذلك المنظر ، علمتَ أَنَّ التالد هو قِيَادُ[١٠] هذا الطَّارف .

أَمَّا أَنا فلم أَر لأَبى الفرج ـ أَدامَ الله كرامتَه ـ ذَامًّا ولا شانئاً[١١] ولا عائباً ولا هاجياً ، بل لم أَجد مادحاً قطُّ إلَّا ومَن سَمِعَ تسابَقَ[١٢] إلى

(١) انظر ما سبق فى ص ١٨٣ .

(٢) البهيم المصمت : الخالص السواد الذى لا شية فيه . ب فقط : « مسمط » ، تحريف .

(٣) المغرب ، بفتح الراء ، من الإغراب فى الخيل ؛ وهو اتساع الغرة حتى تجاوز العينين ، مع ابيضاض فى الأشفار .

(٤) الأغر من الخيل : الذى غرته أكبر من الدرهم قد وسطت جبهته ولم تصب واحدة من العينين . والمحجل : الذى يرتفع البياض فى قوائمه فى موضع القيد ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين . ب : « كل غر » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) المحزم : موضع الحزام من الفرس ، ويوصف بالضخامة ، ومنه قول عنترة فى معلقته :

وحشيّتى سرج عـلى عبل الشوى ... نهـد مراكله نبيل المحـزم

وأنشد ثعلب فى صفة رجل :

فقـــام وثاب نبيل محزمـــه ... لم يلق بوسا لحمـه ولادمـه

وفى جميع الأصول : « المخرج » ، صوابه ما أثبت .

(٦) الهيكل : الفرس الطويل الضخم .

(٧) تقرأ « الغيب » بفتحتين : اسم جميع للغائب ، وبضم الغين وتشديد الياء المفتوحة جمعاً له أيضاً . ط : « بالغيب » .

(٨) ب ، م : « يعظم » . (٩) ظاهر ، ساقطة من ط .

(١٠) ب : « أفياد » م : « أقياد » ، صوابهما فى ط .

(١١) الشانئ : المبغض . ب : « شاينا » وأثبت ما فى م ، ط .

(١٢) ط فقط : « سابق » .

تلك المعانى ، ولا رأيتُ واصفاً له قطُّ إلّا وكلٌّ من حضر يَهَشُّ له ويرتاحُ لقوله . قال الطِّرمّاح :

هل المجدُ إلّا السُّودُدُ العَوْدُ والنِّدى
ورَأْبُ الثَّأَى والصَّبْرُ عند المَواطِنِ[1]

ولكنَّ هل المجدُ إلّا كَرَمُ الأَرومةِ والحَسَب[2] ، وبُعْد الهمَّة ، وكثرة الأدَب ، والثَّباتُ على العهد إذا زلَّت الأقدام ، وتوكيد العَقْد إذا انحلَّت مَعَاقِدُ الكرام ، وإلّا التَّواضُع عند حدوث النِّعمة ، واحتمالُ كُلِّ العَثْرة[3] ، والنَّفاذ فى الكتابة ، والإشراف على الصِّناعة .

والكتابُ هو[4] القطب الذى عليه مدارُ علمِ ما فى العالَم وآدابِ الملوك ، وتلخيص الألفاظ ، والغَوْصِ على المعانى السِّداد[5] ، والتخلُّصِ إلى إظهار مافى الضَّمائر بأسهل القول ، والتمييزِ بين الحجَّة والشُّبهة وبين المُفرَد والمشتَرَك ، وبين المقصور والمبسوط ، وبين ما يحتمل التأْويل ممَّا لا يحتمله ، وبين السَّليم والمعتلّ .

فبارك الله لهم فيما أعطاهم ، ورزَقهم الشُّكرَ على ماخَوَّلهم ، وجعل ذلك موصولاً بالسَّلامة ، وبما خَطَّ لهم من السَّعادة ، إنَّه سميعٌ قريب ، فعّالٌ لما يريد .

---

(١) ب ، م : « والصد عند المواطن » تحريف ، كما ورد البيت محرفاً فى ط على هذه الصورة :

هل المجد إلا السودد المعود الندى ... ورب الجدى والصدر عند الواطن

وصواب عجزه ما أثبت من الديوان ٥١٦ . والرأب : الإصلاح . والثأى : الفساد والأمر العظيم يقع بين القوم . والمواطن هى مواطن الحرب ومواقفها .

(٢) الأرومة بفتح الهمزة وضمها : الأصل .

(٣) فى جميع الأصول : « وهى » ، والوجه ما أثبت .

(٤) السداد : جمع سديد ، كظريف وظراف وشديد وشداد . ط : « السديدة » .

٢٢

من كتابه في استحقاق الامامة

١ — فصـــل

من صدر كتابه فى استحقاق الإمامة(١)

بعون الله تعالى نقول ، وإليه نقصد ، وإيَّاه ندعو ، وعلى الله قَصْدُ السَّبيل .

اعلم أنَّ الشِّيعة رجلان : زيدىٌّ ، ورافضى ، وبقيتهم نَزْرٌ(٢) جاءَ لازماً لهم . وفى الإخبار عنهما غنًى عمن سواهما .

قالت علماءُ الزَّيدية : وجدنا الفَضْل فى الفِعلِ دونَ غيره ، ووجدنا الفِعل كلَّه على أربعة أقسام :

أوَّلها القِدَم فى الإسلام ، حيثُ لا رغبةَ ولا رهبةَ إلَّا من الله تعالى وإليه .

ثم الزُّهدُ فى الدُّنيا ، فإنَّ أزهدَ الناس فى الدُّنيا أرغبُهم فى الآخرة وآمنُهم على نَفيس المال، وعقائل النِّساء، وإراقة الدِّماء .

ثم الفقهُ الذى به يَعرِف النَّاسُ مصالح دُنْياهم ، ومَراشدَ دينِهم .

ثم المَشْىُ بالسَّيف كِفاحاً بالذَّبِّ عن الإسلام ، وتأْسيس الدين ، وقتلِ عَدُوِّه ، وإحياء وليِّه . فليس وراءَ بذْلِ المُهْجة واستفراغ القُوَّة غايةٌ يطلبها طالب ، ويَرتجيها راغب .

---

(١) ريشر ١٦٨ — ١٧٩ والسندوبى ٢٤١ — ٢٦٠ وجاءت فى هامش الكامل ٢ : ٢١٢ — ٢١٨ . وسيأتى له رسالة أخرى فى هذا الموضوع برقم ٢٨ وعنوانها الجوابات فى استحقاق الإمامة .

(٢) النزر : القليل اليسير . ب : « ندركا » م : « نذر كما » .

ولم نجد فعلاً خامساً فنذكرَه . فمتى رأينا هذه الخصالَ مجتمعةً فى رجلٍ دونَ النَّاسِ كلِّهم وجَبَ علينا تفضيلُهُ عليهم ، وتقديمه دونهم[١]

وذلك أنّا إذا سألنا العلماءَ والفقهاءَ ، وأصحابَ الأَخبار وحُمَّالَ الآثار ،عن أوّلِ الناسِ إسلامًا ، قالَ[٢] فريق منهم : عليّ . وقال فريقٌ منهم : أبو بكر . وقال آخرون : زيد بن حارثة . وقال قوم : خَبَّاب . ولم نجد كلَّ واحدٍ من هذه الفِرَق قاطعاً لعُذْر صاحِبه ، ولا ناقلاً له عن مذهبه ، وإن كانت الرواية فى تقدُّمِ عليٍّ أَكثَرَ ، واللَّفظُ به أظهر .

وكذلك إذا سألناهم عن الذابِّينَ عن الإسلام[٣] بمُهَجِهِم[٤] ، والماشِينَ إلى الأَقران بسيوفهم[٥] ، وجدناهم مختلفين . فمن قائلٍ يقول : عليّ ، ومن قائل يقول : الزُّبير . ومن قائلٍ يقول : ابن عَفْراءَ[٦] ، ومن قائلٍ يقول : أبو دُجانة ، ومن قائل يقول : محمد بن مَسلَمة ، ومن قائل يقول : طلحة ، ومن قائل يقول : البَرَاءُ بنُ مالك .

على أنَّ لعليٍّ – رضى الله عنه – مِنْ قَتْلِ الأَقْرَانِ والفُرسان والأَكْفاءِ ، ما ليس لهم ، فلا أقلَّ من أنْ يكونَ فى طبقتهم .

وإن نحنُ سألناهم عن الفقهاءِ قالوا :عليٌّ ، وعُمَرُ ، وابنُ مسعود ، وزيدُ ابن ثابت ، وأُبيُّ بن كعب . على أنَّ عليًّا كان أَفْقَهَهُم ، لأَنَّه كان يُسأَل

---

(١) ب فقط : « دونه » .
(٢) العبارة فى ط : « وذلك أنا سألنا . . . . فقال » ، والوجه ما أثبت من ب ، م .
(٣) ب ، م : « عن أدب الناس عن الإسلام » .
(٤) ب فقط : « بمهجتهم » .
(٥) ب ، م : « لسيوفهم » ، صوابه فى ط .
(٦) انظر لترجمته وتحقيق اسمه ما كتبت فى حواشى كتاب العثمانية ص ٤٥ .

ولا يَسأل ، ويُفتِي ولا يَستَفتِي ، ويُحتاج إليه ولا يَحتاجُ إليهم ، ولكن لا أقلَّ من أنْ نجعلَهَ فى طبقتهم وكأَحدهم .

وإن نحن سأَلناهم عن أهل الزَّهادة[1] وأَصحاب التقشُّف ، والمعروفين برَفْضِ الدُّنيا وخَلْعها والزُّهد فيها ، قالوا : علىٌّ ، وأَبو الدرداء ، ومُعاذٌ ، وأَبو ذَرٍّ ، وعمَّارٌ ، وبلالٌ ، وعثمانُ بن مظعون . على أَنَّ عليًّا أزهدُهُم ؛ لأَنَّه شاركهم فى خُشونة الملبَسِ وخشونة المأْكل ، والرِّضا باليسير ، والتبلُّغ بالحقير[2] وظَلْفِ النَّفس عن الفُضول[3] ، ومُخالفةِ الشهوات . وفارَقَهم بأَنْ مَلكَ بُيوتَ الأَموال ، ورقابَ العربِ والعجم ، فكان يَنضَح بيتَ المال فى كلِّ جمعة ، ويصلِّى فيه ركعتين . ورَقَّع سراويله بأَدَمٍ ، وقَطَع مافَضَل من كُمَّيْهِ عن أطراف أَصابعه بالشَّفْرة ، فى أُمورٍ كثيرة . مع أَنَّ زُهدَه هو أَفضلُ من زُهدِهم ؛ لأَنَّه أَعلمُ منهم . وعبادةُ العالم ليست كعبادة غيره ، كما أَنَّ زَلَّته ليست كزَلَّةِ غيرِه ، فلا أَقلَّ من أَنْ يُعَدَّ فى طبقتهم .

ولم نَجدهم ذكروا لأَبى بكرٍ ، وزيدٍ ، وخبَّاب ، مثلَ الذى ذكروا له من بَذْلِ النفس والعَناءِ[4] ، والذَّبِّ عن الإسلام بالسَّيف ، ولا ذَكرُوهُمْ فى طبقة الفقهاءِ وأهلِ القِدَم فى الإسلام . ولم نجدهم ذكروا لابنِ عَفْراءَ ، والزُّبير ، وأَبى دُجانة ، والبَراء بن مالك ، مثلَ الذى ذكروا له من التقدُّم فى الإسلام والزُّهدِ والفقه . ولا ذكروا أَبا بكرٍ ، وزيداً ،

---

(١) م : « الطهارة » ، تحريف .

(٢) تبلغ بالشىء تبلغاً : اكتفى به . ب فقط : « والتبليغ » ، تحريف .

(٣) ظلف نفسه عن الشىء : منعها عن هواها . م : « وخلف النفس » ط : « وخلاف النفس » ، والصواب فى ب .

(٤) ط : « والغناء » .

وخبّاباً، فى طبقة عمرو بن مسعود ، وأُبىِّ بنِ كعب ، كما ذكروا عليًّا فى طبقتهم . ولا ذكروا أبا بكر ، وزيداً ، وخباباً، فى طبقة مُعاذ ، وأبى الدَّرداء ، وأُبَىٍّ ، وعمَّارٍ ، وبلالٍ ، وعثمانَ بنِ مظعون ، كما ذكروا عليًّا فى طبقتهم .

فلمَّا رأيْنا هذه الأُمورَ مجتمعةً فيه ، ومتفرّقةً فى غيره من أصحابِ هذه المراتبِ ، وأهلِ هذه الطَّبقات ، الذين هم الغاياتُ ، علِمْنا أنَّه أفضل ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم وإن كان قد أخَذَ من كلِّ خيرٍ بنصيب ، فإنَّه لن يبلغَ مَبلغَ مَنْ قد اجتمعَ له الخيرُ وصنوفُه .

فهذا دليلُ هذه الطبقةِ من الزَّيدية على تفضيلِ عليٍّ — رضوان الله عليه — وتقديمهِ على غيره .

وزعموا أنَّ عليًّا كان أولاهم بالخِلافة ، إلَّا أنَّهم كانوا على غيره أقلَّ فساداً واضطراباً ، وأقلَّ طعناً وخلافاً . وذلك أنَّ العرب وقريشاً كانوا فى أمره[١] على طبقات :

فمن رجلٍ[٢] قد قتل عليٌّ أباه أو ابنَه[٣] ، أو أخاه أو ابنَ عمه ، أو حميمَه أو صفيَّه ، أو سيِّده أو فارسَه ، فهو بين مُضطغِنٍ قد أصَرَّ على حقده ، ينتظر الفُرصة ويترقَّب الدَّائرة ، قد كشَفَ قِناعَه[٤] ، وأبدى عداوته .

ومِن رجلٍ قد زَمَّلَ غيظَه ، وأكمَنَ ضِغْنَه ، يرى أنَّ سَتْرَهُما فى نفسِه .

(١) م : « فى غيره » ، تحريف .
(٢) م ، ط : « من رجل » .
(٣) ط : « قد دام » .
(٤) ب : « وقد كشف قناعه » بالواو .

ومداراةَ عدوِّه ، أبلغُ فى التَّدبير ، وأقرب من الظَّفر . فإنَّما يُجْزِيه أدنَى علَّةٍ تحدُث ، وأوَّلُ تأْويلٍ يَعرِض ، أو فتنة تَنجُم ؛ فهو يرصُد الفُرصة[(١)] ويترقَّب الفِتنة ، حتَّى يصولَ صولةَ الأَسَد ، ويَروغَ رَوَغان الثَّعلب ، فيشفىَ غليلَه ، ويُبْرِدَ ثائرَه[(٢)] .

وإذا كان العدُوّ كذلك كان غيرَ مأْمونٍ عليه سَرَفُ الغَضَب . وأَنْ يُموِّه له الشَّيطانُ الوثوبَ ، ويزيِّن له الطَّلب ؛ لأَنَّه قد عرف مأْتاه . وكيف يَخْتِلُه مِن طريقِ هواه . فإذا كان القلبُ كذلك اشتدَّ تحفُّظه ولم يَقْوَ احتراسه ، وكان بعَرَضٍ هَلَكة وعلى جناحِ تَغْرير[(٣)] ؛ لأَنَّه مُنْقسم الرَّأْى متفرِّق النفس . قد اعتَلَج على قلْبه غَيْظُ الثَّأْر على قُربِ عهده بأَخلاق الجاهليَّة ، وعادةِ العرب من الثَّأْر وتذكُّر الأَحقاد والأَمر القديم ، وشدَّة التصميم .

ومِن رجلٍ غمَّته حداثته[(٤)] ، وأَنِفَ أَن يَلِيَ عليه أَصغَرُ منه .

ومن رجلٍ عَرَفَ شِدَّته فى أَمرِه ، وقِلَّة اغتفاره فى دينه[(٥)] ، وخُشونَة مذهبه .

ومِن رجلٍ كره أَن يكون المُلْكُ والنُّبوَّةُ يثبتانِ[(٦)] فى نصابٍ واحد ، ويَنْبُتانِ فى مَغرِسٍ واحد ، لأَنَّ ذلك أَقطَعُ لأَطماع قريش أَن يَعود المُلكُ

(١) م ، ط : « الفرقة » .

(٢) م ، ط : « ناره » .

(٣) ب ، ط : « وكان يعرض هلكة على جناح على تغرير » ، صوابه فى م . والعرض : مايعرض للإنسان من أحداث الدهر .

(٤) فى جميع الأصول : «عمته» . وفى ب فقط : « بحداثته » ، ولعل الوجه ما أثبت .

(٥) ب ، م : « اعتقاده » ، ط : « اعتفاده » ، وإنما هو الاغتفار ، أى التسامح والتساهل . يقال غفر له ذنبه واغتفره أيضاً .

(٦) ب ، م : « يثبان » صوابه فى ط .

دُولةً فى قبائلها ، ومن قريشٍ خاصَّة فى بنى عبد مناف ، الأَقربَ فالأَقرب ، والأَدنى فالأَدنى ؛ لأَنَّ الرحم كلما كانت أمسَّ ، والجوارُ أقربَ ، والصِّناعةُ أشكَلَ ، كان الحسدُ أشدَّ ، والغيظُ أفرط . فكان أقربُ الأُمور إلى محبَّتهم إخراجَ الخلافة من ذلك المَعدِنَ ، ترفيهاً عن أنفسهم من ألم الغيظ ، وكَمَد الحَسَد .

٢ – فصـــل منها

وضربٌ من الناس همَج هامجٌ ، ورَعَاعٌ مُنتشِر [١] ، لا نِظامَ لهُمْ ، ولا اختيارَ عندهم ، وأعرابٌ أجلافٌ ، وأَشباهُ الأَعراب ، يَفترقون [٢] من حيث يجتمعون ، ويجتمعون من حيث يفترقون ؛ لا تُدفَع صولتهم إذا هاجوا ، ولا يُؤمن تهيُّجهم [٣] إذا سكنوا . إنْ أخصَبوا طَغَوْا فى البلاد [٤] وإن أجْدَبوا آثروا العِناد . هم [٥] موكَّلون ببُغضِ القادة ، وأهلِ الثَّراءِ والنَّعمة ، يتمنَّوْن له النكبة [٦] ، ويَشْمَتون بالعشيرةِ ، ويسُرُّون بالجَوْلة [٧] ، ويترقَّبون الدائرة .

فلمَّا كان الناس عند علىٍّ وأبى بكرٍ على الطبقات التى نَزَّلنا [٨] ، والمراتب التى رَتَّبْنَا ، أَشفَقَ علىٌّ أن يُظهِرَ إرادةَ القيامِ بأَمر النَّاسِ مخافَةَ أن يتكلَّم متكلِّمٌ أو يَشغَب شاغب [٩] ، فدعَاه النَّظرُ للدِّين إلى الكفِّ عن

(١) ب فقط : « منتثر » .
(٢) مابعده إلى « يفترقون » التالية ساقط من ط .
(٣) م فقط : « تهييجهم » .
(٤) ب : « بلغوا فى البلاد » .
(٥) ط : « وهم » .
(٦) ط : « الغلبة » .
(٧) ب فقط : « ويسيرون بالجولة » .
(٨) ط : « التى ذكرنا » .
(٩) الشغب ، بالفتح ، وبالتحريك أيضاً : تهييج الشر . ب فقط : « يشعب مشاغب » تحريف .

الإظهار[١] ، والتَّجافى عن الأَمر ، فاغتفر المجهولَ ضَنًّا بالدين ، وإيثاراً للآجلة على العاجلة .

فدلَّ ذلك على رجاحةِ حِلمه ، وقلة حِرصِه[٢] ، وسَعَة صدره ، وشدَّة زُهده ، وفَرْطِ سَماحتِه ، وأَصالةِ رأْيه .

وعَلِمَ أَنَّ هلكتهم لا تقوم بإزاءِ صَرْفِ مابين حالِه وحال أَبى بكرٍ فى مصلحتهم . وقد علم بعد ذلك أَنَّ مُسيلمة قد أَطبَقَ عليه أَهلُ اليمامة ومَنْ حولها من أَهل البادية ، وهم القوم الذين لا يُصطلى بنارهم[٣] ، ولا يُطمَع فى ضَعْفهم وقِلَّة عددهم ، فكان الصواب مارآه علىٌّ من الكَفِّ عن تحريك الهَرْج ، إذْ أَبْصَرَ[٤] أَسبابَ الفتن شارعةً ، وشواكِلَ الفساد بادية[٥] ، ولو هرَجَ القوم هَرْجةً[٦] وحدَثت بينهم فُرقةٌ ، كان حَرْبُ بوَارِهم[٧] أَغلبَ من الطَّمع فى سلامتهم .

وقد كان أَبوبكرٍ ، وعُمر ، وأَبو عبيدة ، وفُضلاءُ أَصحابه ، يعرفون

---

(١) ب فقط : « عن إظهار » .

(٢) وقلة حرصه ، ساقطة من ط .

(٣) يقال : فلان لا يصطلى بناره ، إذا كان شجاعاً لا يطاق . وانظر اللسان (صلا ٢٠١) . وجمهرة العسكرى ٢ : ٣٩٧ . وقد سقطت كلمة « لا » من جميع الأصول ؛ وهو خطأ . وجاء فى مقصورة ابن دريد :

لا يصطلى بناره عند الوغى ويصطلى بناره عند القرى

(٤) ب فقط : « إذا أبصر » ، تحريف .

(٥) الشواكل : جمع شاكله ، وهى الخاصرة . كناية عن شدة ظهور الفساد . م : « شكوى كل » ، ب ، م : « بانية » ، صوابهما فى ط .

(٦) ب ، م : « ولو هاج القوم هرجة » . والهرج : الاقتتال والاختلاط .

(٧) م ، ط : « حزب » ؛ صوابها فى ط . والبوار : الهلاك .

من تلك الآراء[(١)] شبيهاً بما يعرفه عليٌّ ، فعلِمُوا أَنَّ أَوَّلَ أَحكام الدِّين المبادرةُ إلى إقامة إمامِ المسلمين ، لئلا يكونُوا نَشَرًا[(٢)] ، ولئلا يجعلوا للمفسدين عِلَّةً وسبباً . فكان أَبو بكر أَصلَحَ النَّاسِ لها بعد عليٍّ ، فأَصابَ فى قيامِه ، والمسلمون فى إقامته ، وعَلِيٌّ فى تسويغه[(٣)] والرِّضا بولايتِهِ مُنعقدةً منه على الإسلام وأهله . فلمَّا قَمع الله تعالى أهل الرِّدَّة بسيفِ النِّقْمة ، وأَبادَ النِّفاقَ ، وقُتِل مسيلمةُ وأُسر طلحة ، ومات أَصحاب الأَوتار[(٤)] ، وفَنِيَتِ الضَّغائِن ، راحَ الحقُّ إلى أَهله ، وعاد الأَمرُ إلى صاحبه .

قالوا : وقد يكون الرَّجُل أَفضلَ الناس ويلى عليه مَن هُو دُونَه فى الفضل حتَّى يكلِّفه الله طاعتَه وتقديمَه : إمَّا للمصلحةِ والإشفاق من الفِتْنة كما ذكرنا وفسَّرنا ، وإمَّا للتَّغليظ فى المحنة وتشديد البلوى[(٥)] والكُلْفة ، كما قال الله تعالى للملائكة : ﴿ اَسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ[(٦)] ﴾. والملائكةُ أَفضلُ من آدم ، ولأَنَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل عِنْد الله[(٧)] من المقرَّبين قبل خَلْق آدمَ بدهرٍ طويل ، لما قَدَّمت من العبادة[(٨)] واحتملَتْ من ثِقَل الطاعة . وكما مَلَّك الله طالوتَ[(٩)] على

---

(١) فى جميع الأصول : « من ذلك الآراء » .

(٢) النشر ، بالتحريك : القوم المتفرقون لايجمعهم رئيس . ب فقط : « نشزا » .

(٣) م ، ط : « فى تسويفه » ، صوابهما فى ب .

(٤) الأوتار : جمع وتر ، بالكسر ، وهو الثأر . م ، ط : « الأوتاد » ، صوابه فى ب .

(٥) ب : « فى المحنة » م : « فى المحنة » ، صوابهما فى ط . وفى ب أيضاً : « ولتشديد البلوة » م : « ولتشديد البلوى » ، وأثبت ما فى ط .

(٦) من الآية ٣٤ فى سورة البقرة .

(٧) ب : « عبد الله » ، تحريف . وفى م : « عبيد الله » ، وأثبت ما فى ط .

(٨) ب فقط : « من عبادة » . (٩) ط : « طالوط » : تحريف .

بنى إسرائيل وفيهم يومئذ داود نبىُّ الله[١] صلى الله عليه وسلم ، وهو نبيُّهم الذى أخبر الله عنه فى القرآن بقوله تعالى[٢] : ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا[٣] ﴾ إلى آخر الآية .

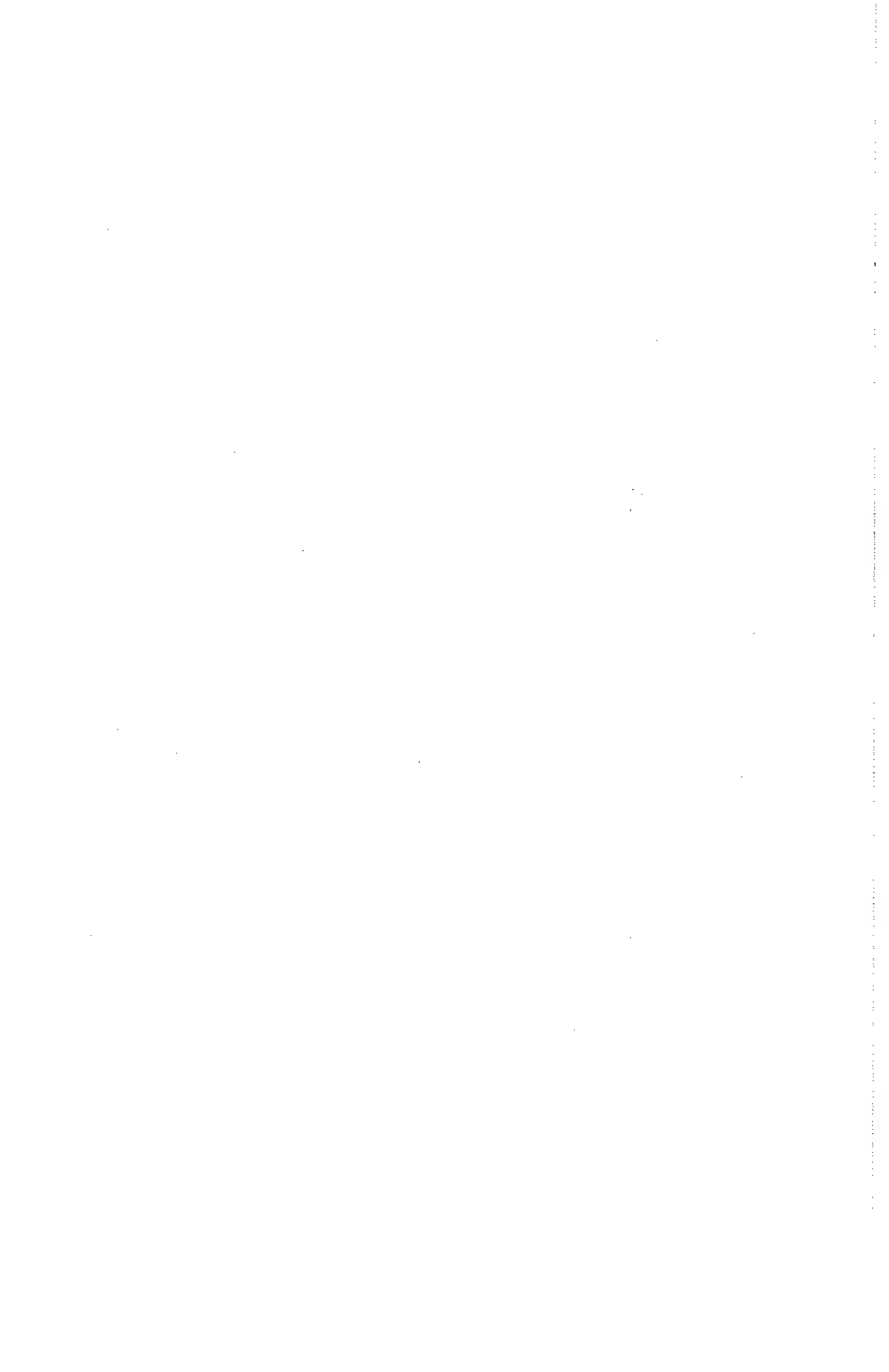
---

(١) م : « داود النبى » .
(٢) بقوله تعالى ، ساقطة من ب ، م .
(٣) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .

٢٣

من رسالة في

استنجاز الوعد



١ – فصـــل

من صدر رسالته فى استنجاز الوعد

قد شاع الخبر وسار المثل بقولهم : « اطلبوا الحاجاتِ من حِسانِ الوجوه » .

فإنْ كان الوجهُ إنَّما وقع على الوَجْه الذى فيه النَّاظر والسامع، والشَّامُّ والذَّائق ، إذا كان حسناً جميلا ، وعتيقاً بهيًّا ، فوجهُك الذى لا يُخيلُ على أحدٍ كمالُه[٢] ، لا يُخطِئُ حِوَالُه[٣] .

وإن كان ذكرُ الوجه إنَّما يقع على حسن وَجْه المَطْلب[٤] وجمالِه على جهة الرَّغبة ، وإن كان ذلك على طريق المثل ، وعلى سبيل اللفظ المشتقِّ من اللفظ ، والفرع المأْخوذ من الأَصل ، فوجْهُ المطلبِ إليك أَفضَلُ الوجوهِ وأَسناها ، وأَصونُها وأَرضاها . وهو المنهجُ الفسيح والمَتْجَر الرَّبيح ؛ وجمالُه ظاهرٌ ، ونفعُه حاضر ، وخيره غامر ، إلَّا أَنَّ الله تعالى قرنَه مع ذلك باليُمْن ، وسَهَّله باليُسْرِ ، وحبَّبه بالبِشْر الحَسَن ، ودعا إليه بلِينِ الخِطاب[٥] ، وأَظهَر فى أَسمائكم وأَسماءِ آبائكم وفى كناكم وكنى

---

(١) هى فى هامش الكامل ٢ : ٢٢٠ – ٢٢٧ وريشر ١٩٥ – ١٩٦ ومجموعة الساسى ١٧٣ – ١١٧ . فالمقابلة هنا على المخطوطتين ب، م وكذلك على نسخة هامش الكامل ورمزها (ط) ومجموعة الساسى ورمزها (مج) .

(٢) فى اللسان : « وأخال الشىء : اشتبه . يقال هذا الأمر لا يخيل على أحد ، أى لايشكل » وفى جميع الأصول : « يحيل » صوابه بالخاء المعجمة كما أثبت . وفى مج : « لايحيد عن »، وأراه تصرفاً من الناشر .

(٣) الحوال : مصدر حاول الشىء محاولة وحوالا : رامه وطلبه . قال رؤبة :

* حـــوال حـــد وانتجـــار المؤتجـــر *

وفى مج : « ولا يخفى جماله » .

(٤) مج : « الطلب » فى هذا الموضع وتاليه .

(٥) فى جميع النسخ : « الحجاب » ، صوابه ما أثبت . وانظر ص ٢٢٠ س ٣ .

إخوانكم ، من برهان الفأل الحسن ونفى الطيَرة السيِّئة ما جَمَع لكم به صنوفَ الأَمَل ، وصَرف[١] إليكم وجوه المَطَالب : فاجتمع فيكم تمام القَوَام وبراعةُ الجمال ، والبِشْر[٢] عند اللِّقاء ، ولينُ الخطاب والكنَفِ للخُلطاء[٣] ، وقلّةُ البَذَخ بالمرتبة الرَّفيعة ، والزِّيادةُ فى الإنصاف عند النعمة الحادثة . فجَعَل[٤] النَّاسُ وعدَكم من أكرم الوعد ، وعَقدكم من أوثَق العَقدْ ، وإطماعَكم[٥] من أصحِّ الإنجاز . وعَلِموا أنَّكم تُؤيسون[٦] فى مواضع اليأس ، وتُطمِعون فى مواضع الضَّمان ، وأنَّ الأُمور عندكم موزونةٌ معدَّلة ، والأَسبابَ مقدَّرةٌ محصَّلة .

هذا مع الصَّولة والتَّصميم فى موضع التَّصميم[٧] .

والتقيَّة أَحزم[٨] ، والصَّفح إذا كان الصفحُ أكرم ، والرَّحمة لمن استرحم ، والعقاب لمن صمَّم .

ثم المعرفةُ بَفَرْقِ[٩] مابينَ اعتزام الغُمْر واعتزام المستبصِر ، وفصْل[١٠] ما بين اعتزام الشجاع والبطل ، وبين إقدام الجاهل المتَهوِّر .

وقد علم الناس بما شاهدوه منكم ، وعاينوه من تدبير ، وعرفوه من

---

(١) هذا مافى مج . وفى سائر النسخ : « وضرب » .
(٢) م ، ط : « والبشرة » .
(٣) ب : « واللين والكنف للخلطا » ، م : « والكنف للخطا » ، وأثبت مافى ط ، مج .
(٤) ب : « يجعل » م : « يجعل » ط : « تجل » ، وأثبت مافى مج .
(٥) ب فقط : « وأطمعكم » ، تحريف .
(٦) ب فقط : « تؤايسون » ، تحريف .
(٧) ب : « والتعميم فى موضع التعميم » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « والثقة أحزم » .
(٩) ب ، م ، ط : « تفرق » ، وفى مج : « فرق » ، والوجه ما أثبت .
(١٠) ب ، م ، ط : « وفصل » ، والوجه ما أثبت من مج .

تصرُّف حالاتكم(١) ، أنِّى لم أتزيَّد لكم ، ولم أتكلَّفْ فيكم ما ليس عندكم . وخيرُ المديح ما وافقَ جمالَ الممدوح ، وأصدقُ الصِّفات ماشاكَلَ مذهب الموصوف ، وشَهِد له أهل العِيَانِ الظَّاهِر ، والخبر المتظاهر . ومتَى خالفَ هذه القضيَّة وجانبَ الحقيقةَ . ضارَّ المادحَ(٢) ولم ينفع الممدوح .

هذا إلى الثَّبات على العهد ، وإحكام العَقْد، مع(٣) الوفاء العجيب، والرَّأى المُصيب، وتمَامِ ذلك وكمالِه ، وسناء ذلك وبهائه(٤)، وكثرةِ(٥) الشُّهود لكم ، وإجماعِ النَّاس على ذلك فيكم .

ومن قَبِل لنفسه مديحاً لا يُعرف [به(٦)] كان كمادح نفسه . ومن أثاب الكذَّابين على كَذِبهم كان شريكَهم فى إثْمهم ، وشقيقَهم فى سُخفهم ، بل كان المحتقِبَ لِكبرِه(٧) . المحتملَ لِوزْره ، إذْ كان المثيبَ عليه(٨) والداعىَ إليه .

معاذَ الله أنْ نقول إلَّا مَعروفاً غير مجهول ، ونَصِفَ إلَّا صحيحاً

---

(١) ط فقط : « حالتكم » .
(٢) م فقط : « النافع » .
(٣) ب فقط : « على » .
(٤) ماعدا مج : « وبهاؤه » .
(٥) ماعدا مج : « كثرة » بدون واو .
(٦) التكلة من مج .
(٧) المحتقب : الحامل . وفى اللسان : « واحتقب فلان الإثم: جمعه واحتقبه من خلفه . قال امرؤ القيس :

فاليــوم أسق غير مستحقب إثمــاً من الله ولا واغـــل

ب : « المحتقد » م : « المحتقت » ط : « المحتفل » ، والصواب فى مج . و كبر الشىء : معظمه . وفى الكتاب العزيز : « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » . قال ثعلب : يعنى معظم الإفك . وقرأ حميد الأعرج وحده : « كبره » بضم الكاف .
(٨) م فقط : « الشيب عليه » ، تحريف .

غير مدخول ، أو نكون ممن يتودَّد بالمَلَق ، ويتقحَّم على أهل الأَقدارِ شَرَهًا إلى مال ، أو حِرصاً على تقريب . وأَبعدَ الله الْحِرصَ وأَخْزَى الشَّرَه والطَّمَع !

فإن شَكَّ شاكٌّ أَو توقَّفَ مرتابٌ فليعترض العامَّة ، وليتصفَّح ماعند الخاصَّة حتَّى يتبيَّن الصُّبح .

وقالوا فى تأْديب الوُلاةِ وتقديمِ تدبير الكُفاة : « إذا أبردتُم البَريدَ فاجعلُوه حَسَنَ الوجه ، حسنَ الاسم » . فكيف إذا قارن حُسنَ الوجهِ وحُسنَ الاسمِ كرمُ الضَّريبة[١] ، وشَرَفُ العرق .

وأَعيانُ الأَعراقِ الكريمةِ، والأَخلاقِ الشريفة[٢]، إذا استجمعت هذا الاستجماع ، واقترنت هذا الاقترانَ: كان أَتمَّ للنِّعمة ، وأَبْرَعَ للفضيلة[٣] وكانت الوسيلةُ إليها أَسهلَ ، والمأْخذُ نحوها أَقرب ، والأَسبابُ أَمْتَن .

فإذا[٤] انتظمَتْ فى هذا السِّلكِ ، وجَمَعَها هذا النَّظمُ ، كان الذى يُبْرِد البريدَ أَولى بها من البريد ، وكان مقوِّم البلاد أَحقَّ بها من حاشيتِهِ الكُفاة[٥] ، إذ التأْميلُ لا يجمع أَوجُهَ الصَّواب[٦] ، ولا يُحصِى[٧] مخارجَ الأَسباب، ولا يَظهر بُرهانُه ويَقْوَى سُلطانه ، حتَّى يصيبَ المَعدِن.

---

(١) الضريبة : السجية والطبيعة التى ضرب عليها المرء . ب : «وكره» . م ، ط : «وكرم» ، والصواب حذف الواو كما فى مج .

(٢) الشريفة ، ساقطة من مج .

(٣) فى اللسان : « برع فهو بارع : تم فى كل فضيلة وجمال ، وفاق أصحابه ، فى العلم وغيره » . وفى جميع الأصول : « وأبدع للفضيلة » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب فقط : « إذا » .

(٥) ماعدا مج : « من حاشية الكفاة » .

(٦) م : « وجاه الصواب » وفى سائر الأصول : « وجه الصواب » ، والوجه ما أثبت .

(٧) هذا مافى ط . وفى سائر الأصول : « ولا يخص » .

وان يكون موضعُ الرَّغبة مَعدِناً إلَّا بعد اشتماله على ترادُفِ خصالِ الشَّرَف وبعد أن يتوافَى إليه[١] معانى الكرمِ بالأَعراق الكريمة ، والعادات الحسنة ، على حادثٍ[٢] يشهد لمتقادم[٣] ، وطارف يدلُّ على تالد .

فإذا كان الأَمل يخبر بالحَسَب فالحسبُ ثاقب . والمجدُ راسخ . وإن كان الشَّأْن فى صناعة الكلام وفى القَدَم والرِّياسة . وفى خَلَفٍ يأْثِرُه عن سَلَف ، وآخَرَ يلقاه عن أَوَّل ، فلَكُم[٤] مالا يذهب عنه جاحدٌ، ولا يستطيع جحْدَهُ معاند .

٢ – فصـــل منها

وأسماؤكم وكُنَاكم بين فَرَجٍ ونُجْح . وبين سلامةَ وفَضْل . ووجوهكم وَفْقُ أَسمائِكم ، وأخلاقُكم وَفْقُ أَعراقكم . لم[٥] يضرب التفاوُتُ فيكم بنصيب .

وبعد هذا فإنِّى أَستغفر الله من تفريطى فى حقوقِكم . وأَستوهبه[٦] طول رَقْدتى عما فرضتُه لكم[٧] .

ولا ضَيْرَ إن كان هذا الذى قلنا على إخلاصٍ وصحَّةِ عهد ، وعلى صدق سيرةٍ وثبَاتِ عَقْد . ينبو السَّيفُ وهو حُسامٌ . ويكبو الطِّرفُ وهو جَوَاد ، وينْسَى الذَّكُورُ ، ويَغفُل الفَطِنُ[٨] .

(١) ب ، م : « يتواق » ، وأثبت ما فى ط ، مج .
(٢) ماعدا مج : « على حادث » .
(٣) المتقادم : القديم . وفى الأصول : « لقادم » ، ولا وجه له .
(٤) ما عدا مج : « قبلكم » ، والوجه ما أثبت . وفى مج : « كان قبلكم » .
(٥) م : « طم » ، ط : « فلكم » وأثبت ما فى ب ، مج .
(٦) ب فقط : « وأستوجبه » ، تحريف .
(٧) ماعدا ط : « ما فرضه لسكم » ، يطلب عفو الله عن تقصيره فى إظهار ما أوجب لهم فى نفسه من تمجيد .
(٨) ب ، م : « العطن » ، صوابه فى ط ، مج .

ونعوذُ بالله تعالى من العَمَى بعد البَصيرة[١] ، والحيرةِ بَعْدَ لزومِ الجادَّة .

كان أبو الفَضل ــ أعزَّه الله ــ على ما قد بلغَكَ من التبرُّع بالوعد[٢] وسُرعة الإنجاز وتَمام الضَّمان . وعلى الله تمامُ النِّعمة والعافية .

وكان ــ أيدَّهُ اللهُ ــ فى حاجتى ، كما وصف زَيدُ الخَيلِ نَفْسَه حين يقول :

وَمَوعِدتى حقٌّ كأَنْ قد فعلتُها متى ما أعِدْ شيئاً فإِنِّى لغارِم[٣]

وتقول العرب : « مَنْ أَشبه أَبَاهُ فما ظَلَمَ[٤] » ، تقول[٥] : لم يضع الشَّبَهَ إلَّا فى موضعه ، لأنَّه لا شاهدَ أَصدقُ على غَيْبِ نسبه وخفىِّ نَجْله من الشَّبَه القائمِ فيه[٦] ، الظَّاهر عليه .

وقد تقيَّلتَ ــ أبقاكَ اللهُ ــ شيخَكَ[٧] : خَلْقَه وخُلُقه ، وفِعلَه وعزْمه ، وعِزَّ الشَّهامة[٨] ، والنَّفْسِ التَّامَّة .

---

(١) م فقط : « البصرة » ، تحريف .

(٢) ط فقط : « من الوعد » .

(٣) ماعدا مج : « لعازم » . والغارم : من يلزمه أداء المال . وفى الكتاب العزيز : « والغارمين وفى سبيل الله » ، وهم الذين لزمهم الدين فى الحمالة ونحوها .

(٤) ب ، مج : « رأبه » ، وهى رواية جيدة يولع بها النحويون واللغويون ، لكن فى م ، ط والحيوان ١ : ٣٣٢ ونصوص جميع كتب الأمثال : « أباه » . وانظر الفاخر ١٠٣ والميدانى ٢ : ٢٢٨ والعسكرى ٢ : ٢٤٤ والمستقصى ٢ : ٢٥٣ . ويؤيد رواية « أباه » أيضاً ما أنشدوا فى معظم هذه المراجع من قول كعب بن زهير (ديوانه ٦٥) :

فقلت شبيهات بمـا قال عالم بهـن ومن يشبه أباه فما ظـلم

(٥) ب ، م : « نقول » ، صوابه فى ط ، مج .

(٦) فيه ، ساقطة من مج .

(٧) تقيل أباه ، أو شيخه : نزع إليه فى الشبه . والكلمة محرفة فى الأصول ففيها جميعاً : « شبحك » ، والوجه ما أثبت .

(٨) ب ، م : « وعن الشهامة » ، ط : « ومن الشهامة » ، صوابه فى مج .

ومرجعُ الأفعال إلى الطبائع ، ومدارُ الطبائع على جودة اليقين وقُوَّة المُنَّة ، وبهما تَتِمُّ العزيمةُ ، وتَنْفُذُ البصيرة .

هذا مع ما قَسَمَ الله لك من المحبَّة ومَنحك من المِقَة ، وسلَّمك عنه من المذمَّة .

واللهِ لو لم يكن فيكم من خصال الحريّة[1] وخِلال النُّفوس الأبيَّة إلَّا أنَّكم لا تَدِينون بالنِّفاق ، ولا تَعِدُونَ بالكذب[2] ولا تستعملون المُواربةَ فى موضع الاستقامة[3] ، وحيثُ تجب الثِّقة[4] .

ولا يكون حظُّ الأحرار بالمواعيد صِرْفا ، ولا تَتَّكلون[5] على ملاَلة الطالب[6] ، ولا عجْزِ الرَّاغب ، إذا استُنْفِدت أيَّامُه[7] ، وعَجَزَت نفقتُه ، وماتت أسبابُه ، بل تُعجِّلون[8] لهم الرَّاحة عند تعذُّر الأُمور إليكم بالإِيَاس[9] ، وتحقِّقون[10] أَطماعهم عند إمكان الأُمور لكم بالإِنجاح .

٣ — فصل منها

وإنَّك والله — أيُّها الكريمُ المأْمولُ ، والمستُعطَفُ المسئول — لا تزرع

(١) مج فقط : « الحرمة » ، تحريف .
(٢) ماعدا ط : « لاتعبدون » ، تحريف . والمراد لاتعدون مواعد كاذبة .
(٣) ب ، م : « الاستنامة » ط : « الاستنابة » ، وأثبت ما فى مج .
(٤) كذا بسقوط جواب : « لو لم يكن » ، أى لكفى ذاك .
(٥) ب : « يتكلمون » م : « يتكلون » وأثبت ما فى ط ، مج .
(٦) فى جميع الأصول : « ملامة الطالب » ، والوجه ما أثبت .
(٧) مج : « استنفذت » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « يعجلون » ، صوابه فى ط ، مج
(٩) الإياس : مصدر آيسه . وفى اللسان : « وكان فى الأصل الإيياس بوزن الإيعاس » . مج : « بالإيآس » .
(١٠) ب فقط : « وتحققون » . تحريف .

المحبَّة إلَّا وتحصدُ الشُّكر ، ولا تُكثِر الموَدَّات إلَّا إذا أكثر النَّاسُ الأَموال[١] ، ولا يشيع[٢] لك طِيبُ الأُحدوثة[٣] وجمال الحال فى العشيرة ، إلَّا لتجرُّع[٤] مُرارِ المكروه . ولن تنهض بأَعباءِ المكارم التى توجبها النِّعمة وتَفرِضُها المرتبة حتَّى تستشعر التفكُّر[٥] فى التَّخلُّص إلى إغنائهم[٦] ، والقيام بحسن ظَنِّهم ، وحتَّى ترحمَهم من طول الانتظار ، وترقَّ عليهم من مَوت الأَمل وإحياء القُنوط ، وحتى تتغلغل[٧] ذلك بالحِيَل اللَّطيفة ، والعناية الشَّديدة الشريفة ، وحتى تتوخَّى[٨] السَّاعات ، وتنتهزَ الفرصَ فى الحالات ، وتتخيَّر من الأَلفاظ أَرقَّها مَسلكاً ، وأَحسنَها قَبولاً ، وأَجودَها وُقوعاً .

---

(١) هذا ما فى ب . وفى م ، ط : « كثر الناس الأموال » وفى مج : « كثرت للناس الأموال » وكلها قراءات صالحة .
(٢) ماعدا ط : « ولا تشيع » .
(٣) ما عدا مج : « طلب الأحدوثة » .
(٤) ب فقط : « لتجرع » .
(٥) ب : « يستشعر تفكر » ، م : « يستشعر التفكر » ، صوابهما فى ط ، مج .
(٦) ب فقط : « أغنيائهم » ، تحريف .
(٧) ب ، م : « يتغلغل » ط : « تتفلفل » . وهذه الأخيرة تحريف مطبعى .
(٨) ب ، م : « يتوخى » ، تحريف .

٢٤

من رسالة في

تفضيل النطق على الصمت

١ – فصـــل

من صدر رسالته فى تفضيل النطق على الصمت[١]

أَمتعَ اللهُ بكَ وأَبقَى نِعمَه عِندك ، وجعلك ممَّن إذا عَرَف الحقَّ انقادَ له ، وإذا رأى الباطِلَ أنكَرَهُ وتَزحزحَ عنه .

قد قرأتُ كتابَك فيما وصَفتَ من فضيلةِ الصَّمت ، وشَرحْتَ من مناقبِ السُّكوت ، ولخَّصت من وضوح أسبابهما[٢] ، وأحمَدْتَ من منفعةِ عاقبتِهما[٣] وجَرَيت فى مجرى فنونِ الأَقاويل فيهما ، وذكرتَ أَنَّك وجدتَ الصَّمتَ أَفضلَ من الكلام فى مواطنَ كثيرة وإن كان صوابا[٤] ، وأَلفَيتَ السُّكوتَ أحمدَ من المنطقِ فى مواضعَ جَمَّةٍ ، وإن كان حقًّا .

وزعمت أَنَّ اللِّسانَ من مسالك الخَنَا[٥] ، الجالبِ على صاحبه البلَا[٦]

وقلت : إنَّ حفِظ اللسان أَمثَلْ من التورُّط فى الكلام .

وسمَّيْتَ الغبيَّ عاقلاً ، والصَّامِتَ حليماً . والساكت لبيباً . والمُطرِقَ مفكِّراً . وسمَّيت البليغَ مِكثاراً والخطِيبَ مهذاراً[٧] والفَصيح مَفْرِطاً ، والمِنْطيقَ مُطنِباً .

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٢٧ – ٢٣٨ وريشر ١٨٢ – ١٨٦ ومجموعة الساسى ١٤٨-١٥٤ وهى المرموز لهـــا بالرمز (مج) .

(٢) ب فقط : « أسبابه » .

(٣) أحمد الأمر : رضيه ووجده مستحقاً للحمد . ب : « وانقدت » تحريف . مج : « وحمدت » وأثبت ما فى م ، ط .

(٤) ب فقط : « كانا صواباً » .

(٥) الخنا : الفحش ، يقال خنا فى منطقه يخنو ، مقصور . ط فقط : « الخناء » ، تحريف .

(٦) م فقط : « البلا » .

(٧) هذا الصواب من مج فقط . وفى سائر النسخ : « مهداراً » بالدال المهملة . وهو بالذال المعجمة : الذى يكثر الكلام بالهذر ، وهو الكثير الردىء .

وقلت : إنَّك لم تَندم على الصَّمتِ قطُّ وإن كان منك عِيًّا ، وأنَّك ندِمت على الكلامِ مِراراً وإن كان [منك[١]] صواباً .

واحتجاجُك فى ذلك بقول كِسرى أنو شِرْوان ، واعتصامُك فيها بما سار من أقاويل الشُّعراءِ والمتَّسِقِ من كلام الأُدباء ، وإفراطِهم فى مذَمَّة الكلام ، وإطنابِهم فى محمدة السُّكوت .

وأتيتُ — حفظك الله — على جميعِ ماذكرتَ من ذلك ، ووصفْتَ ولخَّصت ، وشَرَحْتَ وأطنبت فيها وفَرَطْتَ بالفَهْم ، وتصفَّحتُها بالعلم ، وبحثتُ بالحزْم ، ووعَيْتُ بالعزْم ، فوجدتُها كلامَ امرئٍ قد أُعجِبَ برأْيه وارتَطَم فى هواه ، وظَنَّ أنَّه قد نسَج[٢] فيها كلاماً ، وألَّف ألفاظاً ونسَقَ[٣] له معانىَ على نحو مأْخذِه .

ومَقْصَدُه أن لا يُلفِى[٤] له ناقضاً[٥] فى دهرهِ بعد أن أبرَمها ، ولا يجدَ فيها مناوياً[٦] فى عصرِه بعد أن أحكَمَها . وأنَّ حُجَّتَه قد لزمت جميعَ الأَنام ، ودحَضَتْ حُجَّةَ قاطبةِ أهلِ الأَديان ، لِمَا شرح فيها من البُرهان ، وأوضَحَ بالبيان . وحتَّى كانَ القولُ من القائل نقضاً[٧] ، ورفعُ الوصف من الواصف تغلُّباً[٨] ، وكان فى موضعٍ لا ينازعُه فيه أحدٌ ، وقَلَّما يجد

---

(١) التكملة من مج .
(٢) فى جميع الأصول : « نسخ » ، والوجه ما أثبت .
(٣) مج فقط : « ونسخ » .
(٤) فى جميع الأصول : « يلق » بالقاف ، والوجه ما أثبت من ط .
(٥) م فقط : « ناقصاً » ، تحريف .
(٦) المناوئ : « المناهض والمعادى . ماعدا ط : « منادياً » تحريف .
(٧) ماعدا ط : « نقصاً » .
(٨) كذا . ولعلها : تفلتا » .

من يُخاصمه . ولا يلفى[١] أبداً منْ يناضله ،وصار فَلْجاً [بحجَّته[٢]] أوحديًّا فى لهجَته . إذ كان محلُّه محلَّ الوَحدة ، والأُنس بالخَلْوة ، وكان مثلُه فى ذلك [مَثلَ[٣]] من تخلَّص إلى الحاكم وَحْده فلجّ بحجَّته[٤] .

وإنِّى سأُوضِّح ذلك ببرهانٍ قاطع ، وبيانٍ ساطع ، وأَشرحُ فيه من الحُجج مايظهر ، ومن الحقِّ ما يَقْهَر ، بقدر ما أَتتْ عليه معرفتى ، وبلغَتْه قُوَّتى ،ومَلَكَتْهُ طاقتى ، بما لا يستطيع أَحدٌ ردَّه ، ولا يمكنه إنكارُهُ وجحدُه . ولا قوة إلَّا بالله ، وبه أَستعين[٥] . وعليه أَتوكَّل وإليهِ أُنِيب.

إنِّى[٦] وجدتُ فضيلةَ الكلام باهرةً ، ومَنْقَبة المنطِقِ ظاهرةً ، فى خلالٍ كثيرة ، وخصال معروفة .

منها : أَنَّك لا تؤدِّى شُكرَ الله ولا تقدر على إظهارِهِ إلَّا بالكلام .

ومنها : أَنَّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك[٧] والإبانةَ عن ماربك[٨] إلَّا باللِّسان . وهذان فى العاجل والآجِل مع أَشياءَ كثيرة لو يَنْحُوها الإنسانُ لوجدَها فى المعقول موجودة[٩] ، وفى المحصول معلومة[١٠] ً

(١) ب : « يلغى » ، مج : « يلتى » . صوابهما فى م ، ط .
(٢) بحجته ، ساقطة من ب . و الفلج ، بالفتح : الغالب بحجته الظافر على خصمه . وفى اللسان : « ورجل فالج فى حجته وفلج ، كما يقال بالغ وبلغ ، وثابت وثبت » .
(٣) التكملة من ط ، مج .
(٤) م : « فلج » ب ، ط : « فلج » ، صوابهما فى مج .
(٥) ماعدا مج : « نستعين » .
(٦) ماعدا م : « وإنى » .
(٧) م : « حاجتك » .
(٨) ماعدا مج : « مآربك » .
(٩) ب فقط : « موجوداً » .
(١٠) ب فقط : « معلوماً » .

وعند الحقائق مشتهرةً[١] ، وفى التّدبير ظاهرةً[٢] .

ولم أجِدْ للصَّمت فضلاً على الكلام ممَّا يحتمله القياس . لأنّك تصف الصمت [بالكلام ، ولا تصف الكلام به . ولو كان الصَّمت[٣]] أفضلَ والسُّكوت أمثَلَ لما عُرِفَ للآدميِّين فضلٌ على غيرهم . ولا فُرِقَ بينهم وبين شيءٍ من أنواع الحيوان وأخياف الخَلْق[٤] فى أصناف جواهرِها واختلافِ طبائعها ، وافتراق حالاتها وأَجناسِ أبدانها فى أعيانها وألوانها . بل لم يمكن أنْ يميَّز[٥] بينهم وبين الأَصنامِ المنصوبة والأَوثانِ المنحوتة ، وكان كلٌّ قائمٍ وقاعد[٦] ، ومتحرِّكٍ وساكن ، ومنصوب وثابتٍ ، فى شرعٍ سواءٍ[٧] ومنزلةٍ واحدة ، وقِسمةٍ مُشاكلة ؛ إذْ كانوا[٨] فى معنى الصَّمت بالجُثَّةِ[٩] واحداً ، وفى معنى الكلام بالمنطق متبايناً[١٠] . ولذلك صارت الأشياء مختلفةً فى المعانى ، مؤتلفة الأَشكال ، إذْ كانت[١١] فى أشكالِ خِلقتها متَّفقة بتركيب جواهرها[١٢] ، وتأْليف أجزائها ، وكمال أبدانها ، وفى معنى الكمال متباينةً عند مفهوم نَغَمَاتها ، ومنظومِ ألفاظها ، وبَيانِ مَعالِمِها وعَدْل شواهدها .

---

(١) ب : « مشتهراً » م : « مشهرة » ، والوجه ما أثبت من ط ، مج .

(٢) ب ، م : « ظاهراً » .

(٣) مابين المعقفين ساقط من ب ، كما سقطت كلمة « به » مما عدا ط .

(٤) الأخياف : الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال . م : « وأحياف » ، تحريف . وفى ط : « وأصناف » .

(٥) ماعدا ط : « بل لم يكن يميز » .

(٦) فى جميع الأصول : « وكان لكل قائم وقاعد » ، والوجه ما أثبت .

(٧) الشرع ، بالتحريك ، ويقال بالفتح أيضاً : السواء ، يقال هذا شرع سواء . وفى الحديث : « أنتم فيه شرع سواء » ، أى متساوون .

(٨) ب فقط : « إذا كانوا » .

(٩) ب فقط : « بالجثة » ، تحريف .

(١٠) أى شيئاً متبايناً .

(١١) فقط : « إذا كانت » .

(١٢) ماعدا ط : « أجوادها » .

مع أنّى لم أُنكر فضيلة الصَّمت . ولم أُهجِّن ذِكرَه إلّا أنَّ فضلَه خاصٌ دون عامّ ، وفضلَ الكلام خاصٌ وعام ، وأن الاثنين إذا اشتمل عليهما فَضْلٌ كان حظُّهما أكثر، ونصيبهُما [أوفر من الواحد . ولعلَّه أن يكون بكلمةٍ واحدةٍ نجاةُ[١]] خلقٍ ، وخلاصُ أُمَّة .

ومن أكثر ما يُذكَرُ للسَّاكت من الفضل ، ويُوصَف له من المَنقُبة أن يقال يسكُت ليتوقَّى به عن الإثم[٢] ، وذلك فضلٌ خاصٌ دون عامّ .

ومن أقلّ مايُحتكَم عليه أن يقال غبيٌّ أو جاهل[٣] ، فيكون فى ذلك لازمُ ذَنْبٍ على التوهُّم به ، فيجتمع مع وقوع اسم الجاهِل عليه ما ورَّط فيه صاحبَه من الوِزْر .

والذى ذُكِرَ من تفضيل الكلام ما يَنطِقُ به القُرآن ، وجاءت فيه الرِّوايات عن الثِّقات ، فى الأَحاديث المنقولات ، والأَقاصيص المرويَّات ، والسَّمَر والحِكايات ، وما تكلَّمت به الخطباءُ ونطقَتْ فيه البلغاءُ — أكثرُ من أن يُبلَغ آخرُها ، ويُدرك أوّلُها[٤] ، ولكنْ قد ذكرتُ من ذلك على قدْرِ الكِفاية ، ومن الله التوفيقُ والهِداية .

ولم نَرَ الصَّمتَ — أسعدك اللهُ — أحمَدَ فى موضع إلّا وكان الكلامُ فيه أحمد . لِتَسارُعِ النَّاسِ[٥] إلى تفضيل الكلام ، لظهورِ عِلَّتِهِ ، ووضوحِ جليَّته ، ومَغَبَّةِ نفعِه .

---

(١) مابين المقعفين ساقط من ب .
(٢) يقال ، ساقطة من ط . و فى ب فقط : « عن الاسم » ، تحريف .
(٣) ب ، م : « غنى » ، تحريف .
(٤) م فقط : « ويترك أولها » .
(٥) ب فقط : « لسارع الناس » ، تحريف .

وقد ذكر الله جَلَّ وعَزَّ[١] فى قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السلامُ حين كَسَّرَ الأصنام وجَعَلَها جُذاذًا ، فقال حكايةً عنهم : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيم . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا فاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ[٢] ﴾ . فكان كلامُه سبباً انجاته ، وعِلَّةً لخلاصِه ، وكان كلامُه عند ذلك أَحْمَدَ من صمتِ غيرِه فى مثلِ ذلك الموضع ، لأَنَّه عليه السلام لو سكت عند سؤالهم إيَّاه لم يكن سكوتُه إِلَّا على بَصَرٍ وعِلم ، وإِنَّما تكلَّم لأَنَّه رأى الكلامَ أَفضلَ ، وأَنَّ من تكلَّم فأَحسنَ قَدَرَ أَن يسكُت فيُحسِن ، وليس من سكت فأَحسَنَ قَدَرَ أَن يتكلَّم فيُحسِن .

واعلَمْ – حَفِظَك الله – أَنَّ الكلامَ سببٌ[٣] لإيجاب الفضل ، وهِدايةٌ إِلى معرفة أَهل الطَّوْل .

ولولا الكلامُ لم يكنْ يُعرَفُ الفاضلُ من المفضول ، فى معانٍ كثيرة ، لقول الله[٤] عَزَّ وجلّ ، فى بيانِ يُوسف عليه السلامُ وكلامِه عند عَزيزِ مصر ، لمَّا كلَّمه[٥] فقال : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ[٦] ﴾ . فلو لم يكن يوسُفُ عليه السلامُ أَظهرَ فضْلَه بالكلام ، والإفصاحِ بالبيانِ ، مع مَحاسِنه المُونِقةِ ، وأخلاقِه الطَّاهرة ، وطبائعه الشريفة ، لَمَا عرَفَ العزيزُ فَضْله ، ولا بلغَ تلك المنزلةَ لديه ، ولا حَلَّ ذلك المحلَّ منه[٧] ، ولا صار

(١) مج : « وقد ذكر الا جل وعز » . وانظر ما سيأتى .
(٢) الآيتان ٦٢ ، ٦٣ من سورة الأنبياء .
(٣) ب فقط : « لسبب » ، تحريف .
(٤) مج : « لقول الا » ، ويبدو أن هذا وسابقه محاولة طباعية لاختصار لفظ الجلالة ، وهو أمر بشع .
(٥) ، ب ، مج : « ما كلمه » تحريف ، م : « فلما كلمه قال » ، وأثبت ما فى ط .
(٦) الآية ٥٤ من سورة يوسف .
(٧) ب : « ولا جل » م : « ولأجل » صوابهما فى مج ، ط . وفى ب فقط : « ذلك المحمل » ، تحريف .

عنده بموضع الأمانة ، ولكانَ فى عِدادِ غيرِهِ[١] ومنزلةِ سِواهُ عند العزيز. ولكنَّ الله جعلَ كلامه سبباً لرفع منزلته ، وعُلوِّ مرتبته ، وعِلَّةً لمعرفة فضيلته ، ووسيلةً لتفضيل العزيز إيَّاه .

ولم أر للصَّمت فضيلةً فى معنًى ولا للسُّكوت مَنْقَبةً فى شىء إلاَّ وفضيلةُ الكلامِ فيها أكثرُ ، ونصيبُ المنطقِ عندها أوفر ، واللَّفظُ بها أشهر . وكفى بالكلام فضلاً ، وبالمنطق مَنقُبة ، أنْ جعَلَ اللهُ الكلامَ سبيلَ تهليله وتَحميده ، والدَّالَّ على معالم دينهِ وشرائع إيمانه ، والدَّليل إلى رضوانه[٢] . ولم يرضَ من أحدٍ من خلقه إيماناً إلَّا بالإقرار ، وجعل مسلكَه اللِّسان ، ومجراه فيه البيان ، وصيَّره المعبِّر عمَّا يُضمره[٣] والمُبين عمَّا يُخبِره[٤] ، والمنبئَ عن[٥] مالا يستطيع بيانَه إلَّا به[٦] . وهو تَرجُمانُ القَلبِ . والقلب وعاءٌ واعٍ[٧] .

ولم يُحمد الصَّمت من أحدٍ إلَّا توقِّيًا لعجزه عن إدراك الحقِّ والصَّواب فى إصابة المعنى . وإنَّما قاتل النبىُّ صلى الله عليه وسلم المشركين عند جهلهم الله تعالى وإنكارهم إياه ، ليُقرُّوا به ، فإذا فَعَلُوه حُقِنَتْ دماؤهم ، وحُرِّمت أموالُهم ، ورُعِيتْ ذِمَّتُهم . ولو أنَّهم سكتوا ضنًّا بدينهم لم يكن سبيلُهم إلَّا العطَب .

---

(١) مج : « فى عداو غيره » ، تحريف .

(٢) مج : « على رضوانه » ، تحريف .

(٣) ب : « وصيره المصير عنك ماتضمره » م : « وصيره المعبر عنك ما تضمره . صوابهما فى ط ، مج .

(٤) ب ، م ، مج : « والمبين عنك ما يخبره » ، صوابه فى ط .

(٥) ما عدا ط : « عنك » ، تحريف .

(٦) ماعدا مج : « مايستطيع » وفى مج : « مالا تستطيع » والوجه ماأثبت . وقد سقطت « إلا به » من ط .

(٧) مج : « دعاء وراع » .

فاعلم أنَّ الكلام من أسباب الخير لا من [أسباب] الشر[١] .

والكلامُ – أبقاكَ الله – سبيلُ التمييز بين الناس والبهائم ، وسببُ المعرفةِ لفضل الآدميِّين على سائر الحيوان[٢] ، قال[٣] الله عز وجلّ : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ[٤]﴾ . كرَّمَهم[٥] باللسان وجمَّلهم بالتدبُّر[٦] .

ولو لم يكن الكلامُ لما استوجب أحدٌ النِّعمة ، ولا أقام على أداء ما وجبَ عليه[٧] من الشُّكْرِ سبباً للزِّيادة ، وعلَّة لامتحان قلوبِ العباد . والشكرُ بالإظهار فى القول ، والإبانةِ باللِّسان . ولا يُعرفُ الشكرُ إلَّا بِهِما . والله تعالى يقول : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ[٨]﴾ ، فجعل الشُّكر علَّةً لوجوب الزِّيادة ، عند إظهاره بالقَوْلِ ، والحمدَ مفتاحاً للنِّعمة .

وقد جاء فى بعض الآثار : لو أنَّ رجلاً ذكَر الله تعالى وآخرَ يَسْمَعُ له كان المعدودُ للمستمِعِ من الأَجْرِ ، والمذكورُ له من الثَّواب واحداً[٩] وللمتكلِّمِ[١٠] به عشرةٌ أو أكثر .

فهل تُرى – أبقاك الله – أنَّه وجَبَ لصاحب العَشْرِ[١١] ذلك وفَضل

---

(١) ب ، م : « إلا من الشر » ، تحريف .
(٢) ب : « على سائر الحيوان » .
(٣) ب : « فقال » .
(٤) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .
(٥) ب فقط : « أكرمهم » .
(٦) فى جميع الأصول : « وحملهم بالتدبر » ، والوجه ما أثبت .
(٧) ماعدا ط : « عليهم » .
(٨) الآية ٧ من سورة إبراهيم .
(٩) ب ، م : « واحد » .
(١٠) ب فقط : « والمتكلم » .
(١١) مج : « العشرة » ، وكلا هذا جائز لأنه صفة لمعدود محذوف .

به على صاحبه إلَّا عند استعماله بالنُّطق به لسانَه[١] . ولم يلزم[٢] الصَّمت أحدٌ إلَّا على حسب وقوع الجهلِ عليه . فأَمَّا[٣] إذا كان الرَّجُل نبيها مميَّزاً ، عالماً مفوَّها فالصَّمتُ مُهجِّنٌ لعلمِه وساتِر لفضلِهِ[٤] . كالقدَّاحةِ لم يستبن نَفْعُها دون تزنيدها[٥] . ولذلك قيل : « من جهل عِلماً عادَاهُ » .

٢ — فصل منها

ولم أَجدِ الصَّامت مستعاناً به فى شئ من المعانى ، ولا مذكوراً فى المحافل .

ولم يُذكَر الخطباءُ ولا قَدَّمتْهمُ الوفودُ عند الخُلفاءِ إلَّا لِمَا عرفوه من فَضْلِ لسانِهم وفضيلةِ بيانهم . وإنَّ أَصحَّ ما يُوجد فى المعقول ، وأَوضحَ مايُعَدُّ فى المحصولِ للعربِ من الفَضْلِ فصاحتُها وحسنُ منطقِها ، بَعْدَ فضائِلها المذكورة ، وأَيَّامها المشهورة .

ولفضل الفصاحةِ وحُسْن البيانِ بعَثَ الله تعالى أَفضلَ أَنبيائِهِ وأَكرمَ رُسُلِهِ من العرب ، وجَعلَ لسانَه عربيًّا . وأَنزلَ عليه قُرآنه عربيًّا ، كما قال الله تعالى : ﴿ بلسانٍ عربىٍّ مُبِين[٦] ﴾ . فلم يُخَصَّ اللسانُ بالبيان ، ولم يُحمد بالبرهان إلاَّ عند وجود الفضل فى الكلامِ . وحسن العبارةِ عندَ المنطق ، وحلاوةِ اللَّفظ عند السَّمع .

واعلم أَنَّ الله تعالى لم يُرسِل رسولاً ولا بَعثَ نبيًّا إلَّا مَن كان فضلُه

---

(١) مج : « على لسانه » .
(٢) م فقط : « ولا يلزم » .
(٣) ط فقط : « أما » بلا فاء .
(٤) ب ، م : « فضله » .
(٥) المراد بالتزنيد استعمال الزندين ، والكلمة بهذا المعنى لم ترد فى المعاجم المتداولة .
(٦) الآية ١٩٥ من سورة الشعراء .

فى كلامه وبيانِه كفَضْله على المبعوث إليه ، فكان النبىُّ صلى الله عليه وسلم أفصح العربِ لساناً ، وأحسَنهم بياناً ، وأسهلَهم مخارج لِلكلام[١] وأكثَرَهم فوائد من المعانى ؛ لأنه كان من جماهير العَرَب ، مَولده فى بنى هاشم ، وأخوالُه من بنى زُهرة ، ورَضاعه فى بنى سعد بن بكر ، ومنشَؤُه فى قريش ، ومتزوَّجُه فى بنى أَسد بن عبد العزَّى ، ومهاجَرُهُ إلى بنى عمرو[٢] ، وهم الأَوسُ والخزرج من الأَنصار . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصحُ العربِ بَيْدَ أنِّى من قريش، ونشأْتُ فى بنى سَعدِ بن بكر[٣] » .

ولو لم يكن ممَّا عَدَدْنَا من هؤلاءِ الأَحياءِ إلَّا قريشٌ وحدها لكان فيها مستغنًى عن غيرها ، وكفايةٌ عن من سواها[٤] ، لأَنَّ قريشاً أفصح العرب لساناً وأَفضَلُها بياناً ، وأَحضرُها جواباً ، وأحسنها بديهة[٥] ، وأجمعها عند الكلام قَلْبا .

ثم للعرب أيضاً خصالٌ كثيرة ، ومشاهدُ كثيرة ، ممَّا يشاكل هذا البابَ ، ويُضارع هذا المِثال ، حذفْتُ ذِكرَها خوف التطويل فيها[٦] .

---

(١) ب ، م : « مخارج الكلام » .

(٢) هكذا وردت « مهاجرته » فى جميع الأصول ، وهى صحيحة ولغة الجاحظ تتطلب « مهاجره » . وعمرو هذا هو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد . والأوس والخزرج أبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو هذا ، الملقب بمزيقياء . جمهرة ابن حزم ٣٣٢ . ويقول أوس بن الصامت الأنصارى : (العينى ١ : ٣٩١ والخزانة ١ : ٢٢٩) :

أنا ابن مزيقيا عمرو وجدى   أبوه عامر ماء السماء

(٣) انظر لسان العرب (بيد) .

(٤) فى جميع الأصول : « وكفاية من سواها » .

(٥) م فقط : « بديهية » .

(٦) ما عدا ط : « وذكرت التطويل فيها » ، تحريف .

٣ – فصـــل منها

فهذه كُلها دلائِل[١] على دَحْضِ حُجَّتِك ونقضِ قضيَّتك . وإنَّما أرسلَ الله تعالى رُسلَه مبشِّرينَ ومنذرين الأُممَ ، وأَمرَهم بالإبلاغ ليُلزمهم الحجَّةَ بالكلامِ لا بالصَّمت . إذ لا يكون للرِّسالة بلاغٌ ولا للحجَّة لزُومٌ ولا لِلعلَّةِ ظهورٌ إلَّا بالنُّطق[٢] .

٤ – فصـــل منها

فى صفة من يقدر على الإبانة

وليس يَقْوَى على ذلك إلَّا امرؤٌ فى طبيعته فضلٌ عن احتمال نحيزته[٣] وفى قريحته زيادةٌ من القوَّة على صناعته . ويكون حَظُّه من الاقتدار فى المنطق فوقَ قِسطِهِ من التغلُّب فى الكلام ، حتَّى لا يضعَ اللفْظَ الحرَّ النبيل إلَّا على مثلِه من المعنى ، ولا اللفْظَ الشريفَ الفخمَ[٤] إلَّا على مثله من المعنى . نعم ، وحتَّى يُعطىَ اللَّفظَ حقَّه من البيان ، ويوفِّر على الحديث قِسطَه من الصَّواب ، ويُجزِلَ[٥] للكلام حظَّه من المعنى ، ويَضَعَ جميعَها مواضِعَها ، ويصفَها بصفتها ، ويوفِّر عليها حقوقَها من الإعراب والإفصاح .

---

(١) م : « دليلة » ط : « دليل » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٢) بعده فى مج : « والله أعـلم » . وبذلك ينتهى النص المذكور فى نسخة مجموعة الساسى .

(٣) نحيزة الرجل : طبيعته ، كالنحيتة أيضاً . ط فقط : « غيرته » .

(٤) ب : « المفخم » .

(٥) م : « ويجزك » ط : « ويحرك » ، صوابهما فى ب .

٥ – فصل منها

وبعدُ، فأىُّ شيءٍ أشهر مَنْقَبةً وأرفعُ درجةً وأكمل فضلاً، وأظهر نفعًا، وأعظم حرمةً، من شيءٍ لولا مكانُه لم يثبُتْ للهِ رُبوبيّةٌ[١] ولا للنبىّ حجة[٢]، ولم يُفصَل بين حُجَّة وشُبهة، وبين الدَّليل[٣] وما يَتجلَّى[٤] فى صورة الدَّليل.

ثم به يُعَرفُ فضلُ الجماعة من الفُرقة، والشُّبهة من البدعة، والشُّذوذ من الاستفاضة.

والكلام سببٌ[٥] لتعرُّفِ حقائقِ الأَديان، والقياسِ فى تثبيتِ الرُّبوبيَّة[٦] وتصديق الرسالة، والامتحان للتَّعديل والتجوير[٧] والاضطرار والاختيار[٨].

---

(١) ب: «لم يثبت الله يسوتبة» تحريف.
(٢) م: «للنبى حجة». وما بعده إلى «حجة» التالية ساقط من م.
(٣) «بين الدليل» ساقط من ب.
(٤) ب: «تتجلى».
(٥) ب: «والكلام لسبب».
(٦) م: «والقياس وإثبات الربوبية»
(٧) فى جميع الأصول: «والتحرير»، والوجه ما أثبت. والتجوير: نسبة الجور، أى الظلم إلى الله. وانظر ما سبق فى ٣٣، ٤٠.
(٨) ط: «للاضطرار والاختيار» صوابه فى ب، م.

٢٥

من كتابه في

صناعة الكلام

١ – فصل

من صدر كتابه فى صناعة الكلام(١)

ذكرتَ – حفظك الله تفضيلك(٢) صناعةَ الكلام ، والذى خصصتَ به مذهبَ النَّظَّام ، وشغفَك بالمبالغة فى النَّظر ، وصَبابتك(٣) بتهذيب النِّحَل ، مع أُنسِكَ بالجماعة ، ووحشتك من الفُرْقة . والذى تَمَّ عليه عزمُك من إدامة البحث والتنقير(٤) ومِن حمْل النَّفسِ على مكروهها من التفكير ، ومنَ الانتسابِ إليهم والتعرُّفِ بهم . والذى تهيَّأ لك من الاحتساب فى الأَجْر ، والرغبةِ فى صالح الذِّكْر ، والذى رأيتَ من النَّصْب للرَّافضة والمارِقة ، وطُولِ مفارقة المرجئة والنَّابتة ، ولكلٍّ من اعترض عليهم ، وانحرفَ عنهم ، والذى يُخَصُّ به الجَبْرِيّة ويُعَمُّ به المُشبِّهة .

فيأَيُّها المتكلِّمُ الجَمَاعىّ ، والمتفقِّهُ السُّنِّىّ ، والنَّظَّار المعتزلى ، الذى سَمت همَّتُه إلى صناعة الكلام مع إدبار الدنيا عنها ، واحتَمل مافى التعرُّض للعوامِّ من الثَّواب عليها ، ولم يُقْنِعه من الأَديانِ إلَّا الخالص الممتحَن(٥) ولا من النِّحَل إلَّا الإبريزُ المهذَّب ، ولا من التمييز إلَّا المحضُ المصفَّى . والذى رغِبَ بنفسِه عن تقليد الأَغمار والحُشْوة(٦) ، كما

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٣٨ – ٢٤٦ باسم « صناعة الكلام » وكذلك ريشر ١٥٩–١٦٣ . وانفردت نسخة المتحف البريطانى (ب) باسم « فضيلة صناعة الكلام » .

(٢) ب فقط : « تفضيل » .

(٣) فى جميع الأصول : « وصيانتك » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « والتنفير » ، صوابه فى ط .

(٥) الممتحن : المصفى المخلص ، من قولهم : محنت الفضة ، إذا صفيتها وخلصتها بالنار . ب فقط : « الممتحز » تحريف .

(٦) حشوة الناس ، بالضم : رذالتهم . م فقط : « والحشوية » ، وليست مرادة هنا ، وانظر الحشوية مامضى فى ٣ : ٢٨٨ .

رغِب عن ادِّعاء الإلهام والضرورة . ورغِب عن ظُلم القياس بقدر رغبته في شرفِ اليقين[١] :

إنَّ صناعةَ الكلامِ عِلقٌ نفيس . وجوهرٌ ثمين . وهو الكنز الذى لا يَفْنَى ولا يَبْلَى ، والصاحب الذى لا يُمَلُّ ولا يُغِلّ[٢] . وهو العِيارُ على كلِّ صناعة . والزِّمام على كلِّ عبارة . والقِسطاس الذى به يُستبان نُقصانُ كلِّ شيءٍ ورُجحانُه ، والرَّاوُوق الذى به يُعرف صفاءُ كلِّ شيء وكَدَرُه ، والذى كلُّ أَهلِ علمٍ عليه عيالٌ . وهو لكل تحصيلٍ آلةٌ ومثال .

أَلَا إنَّه ثَغْرٌ[٣] والثَّغر محروس ، وحِمًى والحمى ممنوع . والحَرَم[٤] مصونٌ ، ولن تصونَه[٥] إلَّا بابتذالِ نفسِك دُونَه . ولن تمنعَه[٦] إلَّا بأَن تجود بمهجتِك ومجهودك . ولن تَحرُسَه إلَّا بالمخاطرة فيه . والثَّوابُ على قدر المشقَّة ، والتوفيقُ على مقدارُ حُسنِ النِّيَّة .

وكيف لا يكونَ حَرَماً وبه عرفنا حُرْمَةَ الشَّهر الحرام والحلال المنزَّل ، والحرام المفصَّل ؟ !

وكيف لا يكون ثغراً وكلُّ الناسِ لأَهلِه عدوٌّ ، وكلُّ الأُممِ له مُطالبٌ .

---

(١) فى جميع الأصول : « شرب اليقين » ، والوجه ما أثبت .
(٢) يغل : يكون فى قلبه الغش والضغن . والإغلال أيضاً : السرقة والخيانة . وفى الأصول : « ولا يقل » ، ولا وجه له .
(٣) فى جميع الأصول : « الآية » ، ولعل وجهه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « والحزم » ، صوابه فى ط .
(٥) ب فقط : « ولا تصونه » .
(٦) ولن تمنعه ، ساقط من م .

وأحق الشيء[١] بالتعظيم، وأولاهُ بأن يُحتَمل فيه كلُّ عظيم ما كان مُسلِماً إلى معرفة الصَّغير والكبير، والحقير والخَطير، وأداةً لإظهار الغامض، وآلةً لتخليص الغاشية[٢]، وسبباً للإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يومَ الإطناب.

وبه يُستدَلُّ على صرف[٣] ما بين الشَّرَّين من النقصان. وعلى فَضْل[٤] ما بين الخيرين من الرُّجحان. والذى يصنع فى العُقول من العبارة وإعطاءِ الالة مِثلَ صنيعِ العقل فِى الرُّوح، ومثَل صنيع الرُّوح فى البدن.

وأىُّ شىءٍ أعظمُ من شىءٍ لولا مكانُه لم يثبت للرَّبِّ رُبوبيَّة، ولاالنبىِّ[٥] حجة، ولم يُفصَل بين حُجَّة وشُبهة، وبين الدَّليل وما يُتخيَّل فى صورة الدَّليل. وبه يُعرف الجماعةُ من الفُرْقة، والسُّنَّة من البِدعة، والشُّذوذ من الاستفاضة.

٢ — فصل منه

واعلم أنَّ لصناعة الكلام آفاتٍ كثيرة، وضروباً من المكروه عجيبة: منها ماهو ظاهرٌ للعيون والعقول، ومنها مايُدرَك بالعقول ولا يَظهر للعُيون، وبعضُها وإنْ لم يظهر للعُيون وكان مما يظهر للعقول فإنَّه لايظهر إلَّا لكلِّ عقلٍ سليم جيِّدِ التركيب، وذهنٍ صحيحٍ خالص الجوهر، ثُمَّ لا يُدرِكُه أيضاً إلَّا بعد إدمان الفِكر، وإلَّا بعد دراسة الكُتب، وإلَّا

(١) ب، م: «وأحق بالشىء»، صوابه فى ط.

(٢) الغاشية: ما يغشى. ط فقط: «الفاشية».

(٣) الصرف: الفضل: يقال: لهذا صرف على هذا، أى فضل. وفى جميع الأصول: «ضرب»، صوابه ما أثبت.

(٤) م، ط: «فصل» بالصاد المهملة، ولها وجهها.

(٥) ب، م فقط: «للنبى». وانظر ما مضى فى ٢٣٨.

بعد مناظرة الشكل الباهر ، والمعلِّم الصابر . فإن أراد المبالغةَ وبلوغَ أقصى النهاية ، فلا بُدَّ من شهوة قوية ، ومن تفضيلِهِ [على[١]] كلِّ صناعة ، مع اليقين بأنَّه متى اجتهد أَنْجح ، ومتى أدمن قرْعَ[٢] البابِ وَلَجَ .

فإذا أعطى العِلْمَ حقَّه [من الرَّغبة فيه ،أعطاه حقَّه][٣] من الثَّواب عليه .

٣ — فصل منه

ومن آفات صناعة الكلام أنْ يَرَى[٤] مَنْ أحسَن بعضَها أنَّه قد أحسَنَها كلَّها ، وكلُّ من خاصم فيها ظنَّ أنَّه فوقَ من خاصمه حتى يُرَى المبتدئُ أنَّه كالمنتهى[٥] ويُخيَّل إلى الغبيِّ أنَّه فوق الذكيّ . وأيضاً أنَّه يُعرِض عن أهله[٦] ويَنْصِب لأصحابه مَنْ لم ينظُرْ فى علمٍ قطُّ ، ولم يخُضْ فى أدبٍ منذ كان ، ولم يدر ما التمثيل ولا التحصيل ، ولا فرقُ ما بين الإهمال والتفكير[٧] .

وهذه الافاتُ لا تعترى الحُسَّاب ولا الكُتَّاب ، ولا أصحابَ النَّحو والعَروض ، ولا أصحاب الخَبَر وحُمَّال السِّيَر ، ولا حُفَّاظَ الآثارِ ولارُواةَ الأشعار ، ولا أصحابَ الفرائِض ، ولا الخُطباء ولا الشُّعراء ، ولا أصحابَ الأحكام ومن يُفْتى[٨] فى الحلال والحرام ، ولا أصحاب التأْويل ،

---

(١) تكملة يفتقر الكلام إليها .

(٢) ب ، م : « قراع » ، صوابه فى ط .

(٣) م : « فإذا أعطى العلم حقه من الثواب عليه » . فقط بسقوط سائر الكلام .

(٤) ب ، م : « يرى » مع سقوط « أن » قبلها . وإثباتها من ط .

(٥) ب ،م: « حتى ترى » إلى آخر الكلام . وفى م : « حتى ترى المنتهى» فقط. وأثبت ما فى ط .

(٦) ب ، م : « وأيضاً أنه يعرض على أهله » ، صوابه فى ط .

(٧) ط : « والتفكر » .

(٨) ب ، م : « يعنى » ، صوابه فى ط .

ولا الأَطباء ولا المنجِّمين ولا المُهندسين ، ولا لذى صناعةٍ ولا لذى تجارة ، ولا لذى عَيْلة(1) ولا لذى مسأَلة .

فهم لهذه البليَّةِ مَخصوصون ، وعليها مقصورون . فللصَّابر منهم من الأجر حَسْبُ ما خُصَّ به من الصَّبر . وهى الصِّناعةُ لا يكاد تظهر قوَّتها(2) ولا يُبلَغ أَقصاها إلَّا مع حضور الخَصْم .

ولا يكاد الخصْم يبْلغ محبَّته منها إلَّا برَفْع الصَّوت وحركة اليَد ، ولا يكاد اجتماعُهما يكون إلَّا فى المَحفِل العظيم والاحتشاد من الخصوم ، ولا تحتفل نفوسهما(3) ، ولا تجتمع قوَّتهما(4) ، ولا تَجُود القُوَّة بمكنونها وتُعطِي أَقصى ذخيرتها ، التى اَسْتَخْزَنَتْ(5) ليوم فقرها(6) وحاجتها ، إلَّا يومَ جمع وساعةَ حَفْل . وهذه الحال داعيةٌ إلى حبِّ الغَلَبة .

وليس شىءٌ أَدعَى إلى التغلُّب من حبِّ الغَلَبة . وطولُ رَفْعِ الصَّوت مع التغلُّب ، وإفسادُ التغلُّب(7) طباعَ المُفْسِد ، يوجبانِ فسادَ النِّيَّة ، ويمنعان من دَرْك الحقيقة . ومتى خرَجَا من حدِّ الاعتدال أَخْطآ جِهةَ القصد .

وعِلم الكلام بَعْدُ(8) ملقًّى من الظُّلم ، متاحٌ له الهَضْم . فهو أَبدًا محمول

---

(1) العيلة ، بالفتح : الفقر والحاجة . وفى الكتاب العزيز : « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » .

(2) م ، ط : « يظهر قوتها » .

(3) ب ، م : « ولا يحتفل نفوسهما » ، والوجه ما أثبت . وقد سقطت هذه العبارة من ط

(4) ب ، م : « ولا يجتمع » . وفى ط : « قوتها » وهذه محرفة .

(5) ب : « والذى استجريت » ، م : « والذى استجريت » ، صوابهما ما أثبت . وفى ط . « التى أعدتها » .

(6) ب فقط : « اليوم فقرها » . تحريف .

(7) ب ، م : « المتغلب » ، صوابها فى ط .

(8) ب فقط : « أبعد » ، تحريف .

عليه ومبخُوسٌ حَظُّه[١] وباب الظلم إليه مفتوح ، لا مانع له دونه . والعلمُ بما فيه من الضَّرر يخفى على أكثر العُقَلاء ، ويغْمُض على جمهور الأُدباء . وإذا كان ملقًّى من أكبر العقلاء ، ومخذولًا عند أكثر الأُدباء ، فما ظنُّك بمن كان عقله ضعيفاً ونظرُه قصيراً ؟ بل ماظنُّك بالظَّلوم الغادر ، والغُمْر الجاسر ؟ فهذا سبيلُ العوامِّ فيه ، وجهلُ عوامِّ الخواصِّ به ، وانحرافُهم عنه ، وميلُ الملوك عليه ، وعداوة بعضٍ لبعض فيه .

وصناعةُ الكلام كثيرةُ الدُّخَلاء والأَدعياء ، قليلةُ الخُلَّص والأَصفياء والنَّجابة فيها غريبة ، والشروط التى تَستحكم بها الصِّناعةُ بعيدةٌ سحيقة[٢] ، ولدعيِّ القومِ من العجز ماليس لصحيحِهم ، ولرديِّ الطِّباع فى صناعة الكلام من ادِّعاءِ المعرفة ماليس للمطبوع عليها منهم ، بل لا تكاد تجده إلَّا مغموراً بالحُشوة[٣] مقصوداً بمخاتل السَّفلة .

ومن مظالمِ صناعة الكلام عند أصحاب الصِّناعات أنَّ أصحاب الحساب والهندسةِ يَزْعُمون أنَّ سبيلَ الكلام سبيلُ اجتهادِ الرَّأْى ، وسبيلُ صواب الحَدْس ، وفى طريق التقريب والتَّمويه ، وأنَّه ليس العلمُ إلَّا ما كان طبيعيًّا واضطراريًّا لا تأْويلَ له ، ولا يحتمل معناه الوجوهَ المشترَكة ، ولا يتنازعُ أَلفاظَه الحدودُ المتشابهة . ويَزعُمون أنَّه ليس بين علمهم بالشَّىء الواحِد أنَّه شىءٌ واحد وأنَّه غير صاحبه فرق فى معنى الإتقان[٤] والاستبانة ، وثَلَج الصُّدور والحكم بغاية الثقة .

---

(١) المبخوس : المنقوص . ب فقط : « ومنجوس » .

(٢) السحيقة : البعيدة . وفى الكتاب : « أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » . وفى اللسان : « وإنه لبعيد سحيق » . وفى جميع الأصول : « سخيفة » ، والصواب ما أثبت .

(٣) ط : « بالحسدة » .

(٤) ط فقط : « الاتفاق » .

٤ — فصل منه[١]

فلو كان هذا المهندسُ الذى أبرم قضيَّته ، وهذا الحاسبُ الذى قد شَهَر حُكومَتَه ، نَظَرَ فى الكلام بعقل صحيح وقريحةٍ جيِّدةٍ ، وطبيعة مناسبة ، وعناية تامَّة ، وأعوانِ صِدق وقِلَّة شواغَل ، وشهوةٍ للعلم ، ويقينٍ بالإصابة ، لكان تهيُّبُ الحكمِ أَزْينَ به ، والتوقِّى أولى به . فكيف بمن لا يكونُ[٢] عرفَ من صناعة الكلام ما يعرفه المقتصدُ فيه ، والمتوسِّط له .

على أنَّا ما وجدنا مهندساً قط ولا رأَيْنا حاسباً يقول ذلك إلَّا وهو ممن لا يتوقَّى سَرفَ القَوْل ، ولا يُشفِق من لائمة المحصِّلين ، وقضيَّتُه قضيَّةُ من قد عرف الحقائق ، واستبانَ العواقب ، ووزن الأُمورَ كلَّها وعجمَ المعانىَ بأَسرها ، وعلم من أَين وثِق كلُّ واثق ، ومن أَينَ غُرَّ كلُّ مغرور .

وعلى أَنَّهم يُقِرُّون[٣] أَنَّ فى الحساب مالا يُعلم ، وأَنَّ فى الهندسة مالا يُدرَك ولا يُفْهَم . والمتكلِّمون لا يُقِرُّون بذلك العجز فى صناعتهم ، وبذلك النقص فى غرائزهم .

٥ — فصل منه

وأَقول : إنه لو لم يكن[٤] فى المتكلِّمين من الفَضْل إلَّا أَنَّهم قد رأَوا إدبارَ الدنيا عن علم الكلام ، وإقبالَهَا إلى الفُتيا والأَحكام ، وإجماعَ

---

(١) فصل منه ، ساقط من ب ثابت فى م ، ط .
(٢) ب ، م : « فكيف أن لا يكون » .
(٣) ط : « يقرمون » ، تحريف .
(٤) ب ، م : « إنه لم يكن » ، صوابه فى ط .

الرعيَّة والراعى على إغناءِ المفتى ، وعلم الفتوى فرعٌ ؛ وإطباقَهم[(١)] على حِرمان المتكلِّم ، وعلم الكلام أَصل . فلم يتركوا مع ذلك تكلُّفَهُ ، وشحَّتْ نفوسُهم عَن[(٢)] ذلك الحظِّ . مخافةَ إدخال الضَّيْمِ على علم الأَصل ، وإشفاقاً من أن لا تَسَعَ طبائِعُهم اجتماعَ الأَصل والفرع[(٣)] ، فكان الفقر والقِلَّةُ آثَر عندهم مع إحكام الأُصول ، من الغِنى والكَثْرةِ ، مع حفظ الفروع ، فتركوا أَن يكونوا قضاةً ، وتركوا[(٤)] القضاة وتعديلهم[(٥)] وتركوا أَن يكونوا حُكَّاماً وقَنِعُوا بأَن يُحكَم عليهم ، مع معرفتهم بأَنَّ آلتَهم أَتمُّ ، وآدابَهم أَكمل ، وأَلسنتَهم أَحدُّ ، ونظرَهم أَثقب ، وحِفظهم أَحضرُ ، وموضعَ حفظهم أَحصَن .

والمتكلِّم اسمٌ يشتمل على ما بين الأَزرقىِّ[(٦)] والغالى[(٧)] وعلى مادونهما من الخارجىِّ والرافضىِّ ، بل على جميع الشِّيعة وأَصْنافِ المعتزلة ، بل على جميع المرجئِة وأَهل المذاهب الشاذَّة .

---

(١) ب ، م : « وإطباقها » ، صوابه فى ط .

(٢) ط : « على » .

(٣) ب ، م : « لاجتماع الأصل والفرع » .

(٤) ب ، م : « وخيروا » .

(٥) « وتعديلهم » ساقط من م .

(٦) الأزرقى : واحد الأزارقة ، وهم أصحاب نافع بن الأزرق بن قيس الحنفى ، وكان من الخوارج ، قتل يوم دولاب سنة ٦٥ . وانظر الجزء الأول من الرسائل ص ٤٣ ، ٥١ . ب ، م : « الأزارق » ، صوابه فى ط .

(٧) الغالى : واحد الغلاة . وهو يعنى غلاة الشيعة .

٢٦

من رسالة في
مدح التجارة وذم عمل السلطان

١ - فصــل

من صدر رسالته فى مدح التجار وذم عمل السلطان[١]

أَدامَ اللهُ لكَ السَّلامَة ، وأَسعَدَك بالنِّعمة ، وختَمَ لك بالسَّعادة ، وجعلك من الفائزين .

فَهِمْتُ كتاب صاحِبك ، ووقفتُ منه على تعدٍّ فى القول ، وحَيْفٍ فى الحكم ؛ وسمعتُ قولَه . وهو على كلِّ حال جائرٌ ،[٢] وطريقُه طريقُهم ، وكتبُه تُشاكل كُتبَهم ، وألفاظُه تُطابِقُ أَلفاظَهم .

وكذلك حالُنا وحالُ صاحِبِ كتابك فيما يَسْخَطه من أمرنا ، أنِّى لا أعتذِرُ منه ، وأَستنكف من الانتساب إليه[٣] ، بل أَستحِي من الكتابة ، وأَستنكفُ بأَن أنسُب إليها من البلاغة أَنْ أُعْرفَ بها فى غير موضعها ، ومن السَّجع[٤] أَن يظهرَ منِّى ، ومن الصَّنعة[٥] أن تُعرف فى كتبي ، ومن العُجْبِ بكثيرِ مايكونُ منِّى .

وقديماً كرِهَ ذلك أَهلُ المروءة والأَنفة[٦] ، وأَهلُ الاختيارِ للصَّواب والصَّدِّ عن الخَطإِ ؛ حتَّى إنَّ معاويةَ مع تخلُّفه عن مراتب أَهل السَّابقة ، أَمْلَى كتاباً إلى رجلٍ فقال فيه : « هو أَهْوَنُ علَيَّ من ذَرَّة ، أَو كَلْبٍ من

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٤٦ – ٢٥١ وريشر ١٨٦–١٨٨ ومجموعة الساسى ١٥٥–١٦٠ وقد انفردت نسخة الكامل بعنوان « مدح التجارة » . وانظر ما سيأتى فى ٢٥٤ س ٩ .

(٢) ب : « حاجز » م : « حاجر » ، صوابهما فى ط .

(٣) ب : « وأسنكف بان من الانتساب إليه » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « من السطع » ط : « السطحى » ، والوجه ما أثبت .

(٥) ب ، م : « الضيعة » ط : « الضبعة » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ب ، م : « والأنف » .

كِلاب الحَرَّة » ثم قال : « امحُ : من كلاب الحَرَّة ، واكتبْ :من الكلاب».
كأنَّه كره اتِّصال الكلام والمزاوَجَة وما أَشبه السَّجْع ، وأُرِىَ أَنَّه ليس
فى موضعه .

٢ ــ فصــــل منه

وهذا الكلامُ لا يَزال ينجُم من حُشْوةِ[١] أتباعَ السُّلطان . فأَمَّا
عِلْيتُهم ومُصاصُهم[٢] ، وذوُو البصائر والتمييز منهم ، ومن فَتَقَتْه
الفِطْنة[٣] ، وأَرهفه[٤] التأْديب ،وأَرهقه طول الفكر[٥] وجَرَى فيه
الحَيَاءُ[٦] وأَحكمتْه التجارب ،فعَرَفَ العواقبَ وأَحكم التفصيل[٧] وتبَطَّنَ[٨]
غَوامضَ التحصيل ، فإنهم يعترفون بفضيلةِ التُّجّار ويتمنَّوْنَ حالَهم ،
ويحكُمونَ لهم بالسَّلامة فى الدِّين[٩] ، وطِيب الطُّعمة[١٠] ، ويعلمون
أَنَّهم أَودعُ النَّاس بَدَنًا وأَهنؤهم عَيشاً ، وآمَنُهم سِرْباً ، لأَنَّهم فى
أفنيتهم كالملوك[١١] على أَسِرَّتهم ، يرغب إليهم أَهلُ الحاجات ، وينزِع
إليهم مُلتمسو البياعات ، لا تَلحقُهم الذِّلَّةُ فى مكاسبهم ، ولا يستعبدهم
الضَّرَع لمعاملاتهم[١٢] .

(١) ط : « حشوية » .
(٢) المصاص ، بالضم : خالص كل شىء . ب : « فأما علتهم » ، تحريف ما فى م ، ط .
(٣) ب ، م : « فيقته الفطنة » ط : « فوقته الفطنة » ، والوجه ما أثبت .
(٤) أرهفه : أرقه إرقاقاً . ب ، م : « أرهقه » ، صوابه فى ط .
(٥) م ، ط : « وأرهفه » بالفاء ، والوجه ما أثبت من ب . وفى م ، ط : «التفكير»
(٦) ب : « الجتا » ، صوابه فى م ، ط .
(٧) ب : « التفضيل » بالضاد المعجمة .
(٨) تبطن الأمر : تعمق فيه . ب ، م : « وينطق» ، ط : « وتطق » ، والوجه ما أثبت.
(٩) ط : « بسلامة الدين » .
(١٠) الطعمة ، بالضم : وجه المكسب :
(١١) م ، ط : « وكالملوك » ، صوابه فى ب .
(١٢) الضرع ، بالتحريك : الخضوع والذلة والاستكانة . ب ، م : « « ولا تستعبدهم»
صوابه فى ط . وفى ب أيضاً : « لمعاملتهم » وأثبت ما فى م ، ط .

وليس هكذا مَنْ لابَسَ السُّلطان بِنَمْسِه ، وقارَبَه بخدمته ، فإنَّ أُولئك لِباسُهم الذِّلَّة ، وشِعارُهم المَلَق ، وقلوبُهم مِمَّن هم لهم خَوَلٌ مملوءةٌ ، قد لبسها الرُّعب ، وأَلِفَها الذُّلُّ ، وصحِبَها ترقُّبُ الاحتياج ؛ فهُمْ مع هذا فى تكديرٍ وتنغيص ، خوفاً من سَطْوة الرَّئيس وتنكيل الصاحب ، وتَغيير الدُّول ، واعتراض حُلول المِحَن . فإنْ هى حلَّتْ بهم ، وكثيراً ما تَحُلّ ، فناهِيكَ بهم مَرحُومين يرقُّ لهم الأَعداءُ فضلاً عن الأَولياء .

فكيف لا يُميَّزُ بين منْ هذا ثمرةُ اختياره[1] وغايةُ تحصيله ، وبَين من قد نال الرَّفاهية والدَّعَة[2] ، وسلِم من البَوائق ، مع كثرة الإثراء وقضاءِ اللَّذَّات ، من غير مِنَّةٍ لأَحد ، ولا مِنَّة يعتدُّ بها رئيس[3] ومن هو مِنْ نِعَمِ المُفْضلين خلىٌّ ، وبين من قد استرقَّه المعروف ، واستعبدَه الطَّمَع ، ولزِمَه ثِقَل الصَّنيعة ، وطوَّق عُنقَه الامتنان ، واستُرهِنَ بتحمُّل الشُّكر .

٣ ــ فصل منها[4]

وقد علِم المُسلمون أَنَّ خِيرَةَ الله تعالى من خَلْقه ، وصَفِيَّه من عِباده ، والمُؤتَمن على وَحْيِه ، من أَهلِ بيتِ التِّجارة ، وهى معوَّلُهم وعليها مُعتَمَدهم ، وهى صناعةُ سَلَفهم ، وسِيرةُ خَلَفهم .

ولقد بلغتْك بَسالتُهم ، ووُصِفَتْ لك جَلَادتُهم ، ونُعِتَتْ[5] لك

(١) سقطت « من » من ب .
(٢) فى جميع الأصول : « الوفا عنه » ، والصواب ما أثبت .
(٣) ب ، م : « يعتديها ليس » ط : « يعتدى بها » فقط . والوجه ما أثبت .
(٤) فصل منها ، ساقط من ب .
(٥) ب : « ونعيت » تحريف . ط : « ونعت » بتاء واحدة ، وأثبت ما فى م .

أحلامُهم ،وتقرِرُ[1] لك سخاؤُهم وضِيافتُهم ، وبَذْلُهم ومُواساتُهم . وبالتِّجارة كانوا يُعرَفون . ولذلك قالت كاهنة اليمن[2] « لله درُّ الدِّيارِ لقريشٍ التُّجَّار » .

وليسِ قَولهم[3] : قرشيٌّ لقولهم : هاشميٌّ ، وزُهْرى وتَيْمى ، لأنَّه لم يكن لهم أبٌ يسمَّى قُريشًا[4] فينتسبون إليه، ولكنَّه اسمٌ اشْتُقَّ لهم من التجارة والتَّقريش ، فهو أفخمُ أسمائهم وأشرف أنسابهم ، وهو الاسمُ الذى نَوَّه الله تعالى به فى كتابه ، وخَصَّهم به فى مُحكم وحيه وتنزيله ، فجعله قرآناً عربيًّا يُتلَى فى المساجِد ، ويُكتَب فى المصاحِف[5] ، ويُجهَر به فى الفرائِض ، وحُظْوة[6] على الحبيب والخالص .

ولهم سوقُ عُكاظ ، وفيهم يقول أبو ذؤيب :

إذا ضَربُوا القِبَابَ على عُكاظٍ   وقامَ البيعُ واجتمعَ الأُلوفُ[7]

وقد غبر[8] النبيُّ صلى الله عليه وسلم بُرهةً من دهره تاجراً ، وشَخَصَ فيه مسافراً ، وباع واشترى حاضراً ، والله أعلمُ حيثُ يجعل رِسالتَه .

ولم يَقْسِمِ الله مذهباً رضيًّا ، ولا خُلقًا زكيًّا[9] ولا عملاً مَرْضيًّا إلَّا وحظُّه منه أوفَر الحظوظ ، وقَسْمُه فيه أجزلُ الأَقسام .

---

(١) فى جميع الأصول : « وتقدر » ، والصواب ما أثبت .

(٢) من بنى سعد بن هذيم بن زيد بن ليث ، كما فى السيرة ٩٢ . وليث هذا هو ابن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة . جمهرة ابن حزم ٤٤٧ .

(٣) فى جميع الأصول : « فوقهم » : ووجهه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « قرشياً » ، صوابه فى م .

(٥) إشارة إلى سورة قريش .

(٦) ب ، م : « وحطوه » .

(٧) ديوان الهذليين ١ : ٩٨ برواية : « إذا بنى القباب على عكاظ » .

(٨) غبر : مكث . ب فقط : « عبر » ، تحريف .

(٩) ب فقط : « خلقياً » ، تحريف .

ولشهرة أمرهِ فى البَيع والشِّراء قال المشركون : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِى الأَسْوَاقِ[١] ﴾، فأَوحى الله إليه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فى الأَسواق[٢] ﴾ . فأُخبر أَنَّ الأَنبياءَ قبله كانت لهم صناعاتٌ وتجارات .

٤ – فصـــل منه

وإنَّ الذى دعا صاحبَك إلى ذمِّ التجارة توهمُه بقلَّة تحصيله ، انها تنقُص من العِلم والأَدب وتقْتطع دونهما[٣] وتمنع منهما[٤] . فأَىُّ صِنفٍ من العلم لم يبلغ التُّجَّار فيه غايةً ، أَو يأْخذوا منه بنصيب ، أَو يكونوا رؤساءَ أَهلِهِ وعِليَتَهُم ؟ !

هل كان فى التابعين أَعلمُ من سعيد بن المسيَّبِ أَو أَنْبَل ؟ وقد كان تاجراً[٥] يبيع ويشترى ، وهو الذى يقول : ماقَضَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وآله[٦] ولا أَبو بكر . ولا عُمرُ ، ولا عُثمانُ ، ولا علىٌّ – رضوان الله عليهم – قضاءً إِلَّا وقد علمتُه .

وكان أَعبَرَ النَّاس للرُّؤيا وأَعلمَهُمْ بأَنساب قريش . وهو مَن كان يُفْتى أَصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم متوافرون . وله بَعْدُ[٧] علمٌ بأَخبار الجاهليَّة والإسلام ، مع خشوعِهِ وشدَّة اجتهادِه وعبادته ،

---

(١) الآية ٧ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٣) ب ، م : « ويقتطع دونهما » ، تحريف .
(٤) ب ، م : « ويمنع منهما » .
(٥) م : « وكان تاجراً » .
(٦) وآله ، ساقطة من ب .
(٧) م : « بعض » ، تحريف .

وأمرِه بالمعروف، وجَلالته فى أعينِ الخُلفاء . وتقدُّمه على الجبَّارين .

ومحمَّد بن سيرين فى فقهه ووَرَعه وطَهارته .

ومُسلم بن يسارٍ[1] فى علمه وعبادته ، واشتغالِه بطاعة ربِّه .

وأيُّوبَ السَّختيانىّ[2] ، ويونُسَ بنِ عبيد[3] ، فى فضلهما وورعهما .

---

(١) مسلم بن يسار البصرى الأموى . روى عن أبيه وابن عباس وابن عمر ، وروى عنه ابنه عبد الله ، ومحمد بن سيرين ، وأيوب السختيانى وغيرهم . وكان مفتىّ أهل البصرة قبل الحسن . وكان إذا كان فى غير صلاة كأنه فى صلاة ، وإذا كان فى صلاة كأنه وقد لا يتحرك شىء منه . توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز سنة مائة ، أو إحدى ومائة . تهذيب التهذيب .

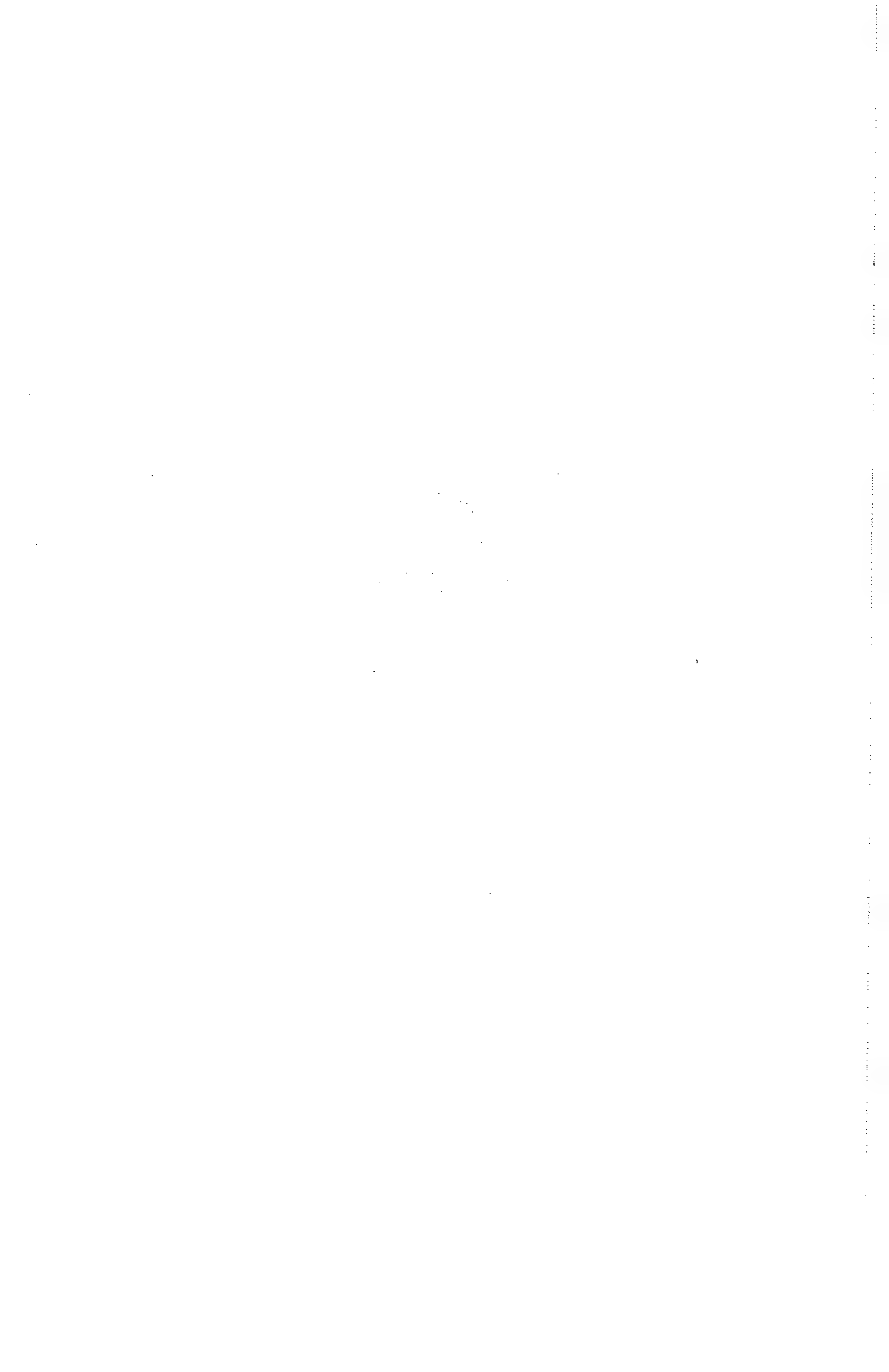
(٢) ب ، م : « السجستانى » . ط : « السخستيانى » ، والصواب ما أثبت . نسبته إلى عمل السختيان وبيعه ، والسختيان : جلود الضأن . انظر تقريب التهذيب ولب اللباب . وفى القاموس : «والسختيان ويفتح : جلد الماعز إذا دبغ . معرب» . وهو أيوب بن أبى تميمة كيسان ، أبو بكر البصرى ، روى عن عطاء وعكرمة وعمرو بن دينار ، وعنه : الأعمش من أقرانه ، وقتادة وهو من شيوخه ، والحمادان والسفيانان وغيرهم . ولد سنة ٦٦ وتوفى سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب . وصفة الصفوة ٣ : ٢١٢ .

(٣) فى الأصول : « يوسف بن عبيد » ، وإنما هو « يونس » كما فى تهذيب التهذيب ، وصفة الصفوة ٣ : ٢٢٢ . توفى سنة ١٣٩ . وانظر الحيوان ١ : ١٦٧ ، ٣٤٠ ، والبيان ١ : ٢٢٠ / ٢ : ٢٢٠ / ٣ : ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٧١ .

٢٧

من كتابه في

الشارب والمشروب



١ – فصـــل

من صدر كتابه فى الشارب والمشروب[١]

سألتَ – أكرمَ اللهُ وجْهَكَ ، وأدامَ رُشدك ، ولطاعته توفيقك ، حتّى تبلغ من مصالح دينك ودُنياك منازلَ ذوِى الألباب ، ودرجاتِ أهلِ الثّواب – أن أكتبَ لك صفاتِ الشّارب والمشروب وما فيهما من المَدْح والعيوب ، وأن أُميِّز لك بين الأنبذة والخَمْر ، وأن أَقِفَك على حدِّ السُّكر ، وأن أُعرِّفَك السَّببَ الذى يرغِّب فى شُرب الأنبذة وما فيها من اجتلاب المَنْفعة ، وما يُكرَه من نبيذ الأَوعية .

وقلت : وما فرقُ ما بين الجَرّ[٢] والسِّقاءِ ، والمزَفَّت والحَنْتَم والدُّبَّاءِ[٣] ، وما القولُ فى المُمْتَلّ[٤] والمكسوب ، وما فرق ما بين النَّقيع والدَّاذىِّ[٥] ، وما المطبوخُ والباذَق[٦] ، وما الغرْبىُّ والمروَّق[٧] ، وما الذى يَحِلُّ من الطَّبيخ ، وما القول فى شُرب الفضيخ ، وهل يُكره نبيذُ العَكَر[٨] ،

---

(١) الكامل ٢ : ٣٥١ – ٢٦٩ ، وريشر ١٦٣ – ١٦٨ ، والسندوبى ٢٧٦ – ٢٨٥ .
وهذا السجع الشائع فى صدر هذا الكتاب ، إنما هو حكاية لقول السائل . أما صميم كلام الجاحظ ورده على السائل فهو يبدأ فى ص ٢٧٣ .

(٢) الجر : جمع الجرة من الخزف ، وتجمع أيضاً على « جرار » . وفى ط : « الجرار » .

(٣) الحنتم : جرار خضر . والدباء ، كرمان : القرع .

(٤) الممتل ، أراد به المملول ، وهو المعالج بالملة ، وهى الرماد الحر . ويماثله « المسجور » الذى سيرد فى ٢٦٧ . وفى ط : « المحتل » تحريف .

(٥) الداذى : شىء له عنقود مستطيل ، وحبه على شكل حب الشعير ، يوضع منه مقدار رطل فى الفرق فتعبق رائحته ويجود إسكاره .

(٦) الباذق ، بفتح الذال وكسرها : الخمر الأحمر ، هو بالفارسية « باذه » ، وهو اسم الخمر بالفارسية .

(٧) الغربى : الفضيخ من النبيذ ، وهو عصير العنب ، أو شراب يتخذ من البسر المفضوح وحده دون أن تمسه النار ، وهو المشدوخ . والمروق : المصفى بالراووق ، وهو المصفاة .

(٨) العكر : دردى كل شىء ، من ماء أو نبيذ أو نحوهما .

وما القول فى عتيق السَّكَر ، وأنبِذة الجِرار[(١)] ، وما يعمل من السكَّر . ولِمَ كُرِه النَّقير والمقيَّر[(٢)] .

وسأَلتَ عن نبيذ العسل والعرطبات[(٣)] وعن رزين سُوق الأَهواز[(٤)] ، وعن نَبِيذ أَبي يُوسُف وجمهور[(٥)] ، والمعلَّق والمسْخُوم[(٦)] . والحلو والتُّرش شِيرين[(٧)] ونبيذ الكِشمِش[(٨)] والتِّين ، ولِمَ كُرِهَ الجلوسُ على البواطى والرَّياحين[(٩)] .

وقلت : وما نصيب الشَّيطان ، وما حاصل الإِنسان ؟

وسأَلتَ عمَّن شرب الأَنبذَةَ أَو كرِهَها من الأَوائل ، وما جرى بينهم فيها من الأَجوبة والمسائل ، وما كانوا عليه فيها من الآراءِ ، وتشبَّثوا فيها من الأَهواءِ[(١٠)] ، ولأَىِّ سببٍ تضادَّت فيها الآثار ، واختلفت فيها الأَخبار .

---

(١) ب ، م : « الجرر » ، صوابه فى ط .

(٢) النقير : أصل النخلة ينقر وسطه ثم ينبذ فيه التمر ويلقى عليه الماء فيصير نبيذاً مسكراً. والمقير : المطلى بالقار من حب أوزق .

(٣) ط : « القرطبات » .

(٤) سيأتى فى ٢٦٩ س ١٠ : « وماتقول فى رزين الأهواز » .

(٥) ط : « والجمهور » .

(٦) م : « المسخوم » بالخاء المعجمة .

(٧) فسره الجاحظ فى الحيوان ١ : ١٤٣ بأنه الحلو الحامض . وهو مركب من ترش بضم التاء بمعنى حامض . وشيرين بمعنى حلو . وانظر معجم استينجاس ٢٩٤ ، ٧٧٤ .

(٨) الكشمش : ضرب من العنب ، وهو كثير بالسراة ، كما فى اللسان . م : «المشمش» وهو ضرب من الفاكهة ، قال ابن دريد : لاأدرى ماصحته . وفى اللسان : « وأهل الكوفة يقولون المشمش — أى بفتح الميمين — وأهل البصرة : المشمش — يعنى بكسر الميمين ، يعنى الزردالو . وسترد فى ٢٧١ برسم واحد هو « الكشمش » .

(٩) البواطى : جمع باطية ، وهى إناء عظيم من الزجاج يملأ من الشراب ويوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون ، إذا وضع فيها القدح سبح به ورقصت من عظمها وكثرة مافيها من الشراب .

(١٠) ط : « وتثبتوا فيها » م : « من الأهواز » ، محرفتان .

وسألتَ أن أقصِدَ فى ذلك إلى الإيجاز والاختصار ، وحذف الإكثار

وقلت : وإذْ جعَلَ الله تعالى للعباد عن الخمر المندوحَةَ بالأشربةِ[١] الهنيَّة المدوحة ، فما تَقول فيما حَسُن من الأنبذة صَفاهُ[٢] ، وبَعُد مداهُ ، واشتدَّت قُواه ، وعتق حتّى جاد . وعاد بعد قِدَم الكون[٣] صافىَ اللَّون ، هل يَحِلُّ إليه الاجتماع ، وفيه الاكتراع ، إذْ كان يهضِمُ الطَّعام ويُوطِّئُ المنام . وهو فى لطائف الجسم سارٍ ، وفى خفيَّات العروق جارٍ ، ولا يضرُّ معه[٤] بُرغوثٌ ولا بعوض ولا جِرجِسٌ عَضوض[٥] .

وقلت : وكيف يَحلُّ لك تَرْكُ شُربه إذا كان لك موافقاً ، ولجسمك ملائِماً[٦] . ولِم لا قلت إنَّ تارك شُربِه كتاركِ العلاج من أدوإِ الأدواءِ[٧] وإنَّه كالمُعينِ على نفسه إذا ترك شربه أفحَشَ الدَّاء . وأنت تعلم أنَّك إذا شرِبتَه عَدَّلتَ به طبيعتَك ، وأصلحت به صُفَار جسمك[٨] ، وأظهرتَ به حُمرةَ لونك . فاستبدلت به من السَّقَم صِحّة ، ومن حُلول العَجْز قوَّة ، ومن الكَسَل نشاطاً ، وإلى اللَّذَّة انبساطاً ، ومن الغَمِّ فَرَجاً ، ومن الجمود تحرُّكاً[٩] ، ومن الوَحْشة أُنساً . وهو فى الخَلْوة خيرُ مسامرٍ ، وعند الحاجة خيرُ ناصر . يترك الضَّعيف وهو مثلُ أَسَدِ العرين[١٠] يُلانُ له ولا يلين .

---

(١) ب فقط : « بالأنبذة » .

(٢) أى صفاؤه . وفى ط : « وصفا » .

(٣) عبارة عن العتق وتقادم العهد ، وسيأتى مثل هذه العبارة فى ص ٢٦٨ .

(٤) م ، ط : « لايضر » بدون واو .

(٥) الجرجس : بعوض صفار . ط : « جرس » ، تحريف .

(٦) ب ، م : « ملاوماً » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « من الأدواء » وفى ط : « من أدواء الأدواء » ، والوجه ماأثبت . أى من أشد الأمراض .

(٨) الصفار ، بالضم : صفرة تعلو اللون والبشرة . وصاحبه مصفور .

(٩) ب : « من الخمور » بالخاء المعجمة .

(١٠) ط : « مثل الأسد فى العرين » .

وقلت : الجيِّد من الأَنبذة يُصفِّي الذِّهن ويقوِّى الرُّكن ، ويشدُّ القلبَ والظَّهر ، ويمنع الضَّيم والقَهر ، ويشحذ المَعِدة ، ويهيِّج للطعام الشَّهوَة ، ويقطع عن إكثار الماء ، الذى منه جُلُّ الأَدواء[١] ، ويَحدِرُ[٢] رُطوبة الرَّأْس ، ويهيِّج العُطاس ، ويشُدُّ البَضْعة ، ويزيد فى النُّطفة ، ويَنْفِى القرقرة والرِّياح ، ويبعث الْجودَ والسَّماح ، ويمنع الطِّحال من العِظَم ، والمعدةَ من التَّخَم ، ويَحدِر المِرَّة والبلغم ، ويلطِّف دمَ العروق ويُجريه ، ويُرقُّه[٣] ويصفِّيه ، ويبسط الآمالَ ، ويُنْعِم البال ، ويغشِّى[٤] الغِلاظَ فى الرِّئة ، ويصفِّى البَشَرة ويترك اللَّون كالعُصفُر ، ويَحْدِر أَذَى الرَّأْس فى المُنخُر ، ويموِّه الوَجْه[٥] ويسخِّن الكُلية ، ويَلذُّ النَّوم ويُحلِّل التَّخَم ، ويَذهب بالإِعياء ، ويغذو لطيفَ الغذاء ، ويطيِّب الأَنفاس ، ويطرُد الوَسواس ، ويُطرِب النَّفس ، ويُؤنِس من الوحْشَةِ ، ويسكِّن الرَّوعة ، ويُذهب الحِشْمة ، ويقذف فُضولَ الصُّلب بالإِنشاط للجِماع ، وفُضول المَعِدة بالهُرَاع[٦] ، ويشجِّع المرتاع ويُزْهى الذَّليل ، ويُكثِّر القليل ، ويزيد فى جَمَال الجميل ، ويسلِّى الحُزْن ويجمع الذِّهن ، وينفى الهمَّ[٧] ، ويَطرُد الغَمَّ ، ويكشف عن قناع الحَزْم ، ويولِّد فى الحليم الحلم ، ويكفى أَضغاث الحُلْم[٨] ، ويحثُّ على الصَّبر ، ويصحِّح من الفكر ، ويُرَجِّى القانط[٩] ، ويُرضِى الساخط ، ويُغْنِى عن الجليس ، ويقوم مقام الأَنيس

(١) ط : « الذى جل الأدواء منه » .

(٢) ب : « ويحد » م : « ويحذر » ، صوابهما فى ط . يحدرها : ينزلها ويذهب بها .

(٣) ط : « ويرققه » .

(٤) ب : « ويفشى » .

(٥) قال ابن برى : « يقال وجه مموه ، أى مزين بماء الشباب » .

(٦) أصل الهراع ، بالضم : شدة السوق ، وسرعة العدو . والمراد سرعة الانحدار .

(٧) ط : « ويذهب الهم » .

(٨) يكفيها : يمنعها . والأضغاث : الأخلاط الملتبسة .

(٩) القانط : اليائس . يرجيه ترجية : يبعث إليه الرجاء .

وحتّى إن عَزَّ لم يقْنَطْ[1] مِنه، وإنْ حَضَر لم يصبِرْ عنه ، يدفع النوازلَ العظيمة ، وينقّى الصَّدر من الخصومة ، ويزيد فى المَسَاغ ، وسُخونة الدماغ ، وينشِّط الباه[2] حتَّى لا يزيِّف شيئاً يراه ، وتقبله[3] جميعُ الطَّبائِع ،ويمتزج به صُنوفُ البدائع ،من اللَّذَّة والسُّرور ،والنَّضرة والحبُور[4] .

وحتَّى سمِّىَ شُربُه قصفاً[5] ،وسمى فقدُه خَسْفاً . وإنْ شُرِبَ منه الصِّرفُ بغير مزاج ، تحلَّل بغير علاج . ويَكفى الأَحزان والهُموم ، ويَدفَع الأَهواءَ والسُّموم ، ويفتح الذِّهن ، ويمنع الغبْن[6] ، ويلقِّن الجواب ، ولا يكيد منه العِتاب[7] ، به تمام اللذَّات ، وكمالُ المروءات . ليس لِشيءٍ كحلاوته فى النُّفوس ، وكسطوته فى الجِباه والرُّوس ، وكإنشاطه للحديث والجلوس ، يحمِّر الأَلوان ، ويُرطِّب الأَبدان ، ويَخلع عن الطَّرب الأَرسان .

وقلتَ : ومع كل ذلك فهو يُلجلجُ اللسان[8] ، ويُكثر الهذيان ، ويُظهر الفضول والأَخْلاط[9] ، ويُناوِب[10] الكَسلَ بعد النَّشاط. فأَمَّا إذا تبيَّن فى الرأْس المَيَلانُ ، واختلف عند المَشْيِ الرجلان ،وأَكثَرَ الإخفاق[11] ،والتنخُّع

(١) عز ، أى قل وندر . ب ، م : « لم يقبض منه » ، صوابه فى ط .
(٢) ب ، م : « للباه » .
(٣) ب ، م : « ويقبله » .
(٤) والحبور ، ساقطة من ب .
(٥) القصف : الإقامة فى الطعام والشراب واللهو . ب ، م « مصفاً » ط : « حصفاً » ، صوابهما ما أثبت .
(٦) ب ، م : « العين » ، صوابه فى ط .
(٧) لعلها « ولا يكثّر منه العتاب » .
(٨) هذا ما فى ط . وفى ب ، م : « وكل ذلك أن يتلجلج اللسان » .
(٩) فى جميع الأصول : « والاختلاط » .
(١٠) ب ، م : « ويتاوب » .
(١١) خفق القلب ، وأخفق ، واختفق ، كله اضطرب .

والبُصَاق، واشتملت عليه الغَفْلة، وجاءت الزَّلَّة بعد الزَّلَّة[١] ولا سواءٌ إنْ دَسَع بطعامه[٢]، أو سال على الصَّدر لُعابه، وصار فى حدِّ الْمُخْرَفين[٣]، لا يفهم ولا يُبِين، فتلك[٤] دَلالات النُّكر. وظهورُ علامات السُّكر. يُنْسِي الذكر،ويُورث الفكر،ويهتِك السِّترَ،ويُسقِط من الجدار، ويُهوِّر فى الآبار، ويُغْرِق فى الأنهار، ويَصرف عن المعروف[٥]، ويعرِّض للحتوف، ويحمل على الهَفْوة، ويؤكِّد الغفلة، ويُورث الصِّياح أو الصُّمات[٦]، ويصرع الفهم للسُّبات[٧]فلغير معنًى يضحك، ولغيرِ سببٍ يَمْحَك[٨]، ويَحيد عن الإنصاف، وينقلب على الساكت الكافّ[٩]. ثم يُظهر السَّرائر، ويُطلِع على مافى الضمائر، من مكنون الأحقاد، وخفيّ الاعتقاد.

وقد يقلّ على السُّكر المتاع، ويطول منه الأَرق[١٠] والصُّداع، ثم يُورث بالغَدَوات الخُمَار، ويختل[١١]سائر، النَّهار ويمنع من إقامة الصَّلوات، وفهم الأوقات، ويُعْقِب السّلّ، ويُعقِب فى القلوب الغِلّ، ويجفِّف النُّطفة، ويُورِث الرِّعشة، ويولِّد الصُّفار[١٢]، وضُروبَ العلل فى الإبصار، ويُعقِب

(١) بعد الزلة، ساقط من ط.
(٢) دسع بطعامه: قاءه.
(٣) المخرف: الذى أخرفه الهرم. ب فقط: «المحرفين» تحريف.
(٤) م: «قبلك» ط: «قبل»، صوابهما فى ب.
(٥) ط: «ويعوق عن المعروف».
(٦) فى جميع الأصول: «والصمات»، والوجه ما أثبت.
(٧) ب: «ويسرع الفهم للثبات».
(٨) المحك: المشارة والمنازعة فى الكلام.
(٩) فى جميع الأصول: «الكافى».
(١٠) ب، م: «الزق»، صوابه فى ط.
(١١) ب، م: «ويحتل».
(١٢) انظر ما سبق فى ص ٢٦٣.

الهزَال ، ويُجحف بالمال[١] ويجَفِّف الطبيعة[٢] ويقوِّى الفاسد من المِرَّةِ[٣] ويُذِيل النفس[٤] ، ويُفسِد مِزاج الحِسّ[٥] ، ويُحدث الفُتورَ فى القلب ، ويُبطئ عند الجِماع الصَّبّ ، حتَّى يحدثَ من أَجله الفَتْق ، الذى ليس له رَتْق ، ويحمل على المظالم ، وركوب المآثم ، وتضييع الحقوق حتَّى يقتل من غير علم ، ويكفر من غير فَهم .

٢ ـ فصــل منه

وقلتَ : ومِنَ الحُلْو فى المِعدِ[٦] التَّخَم ، وفى الأَبدان الوَخَم ، وللتُّرش شِيرين رياحٌ[٧] كمثل رِياح العَدَس ، وحُموضةٌ تولِّد فى الأَسنان الضَّرَس.

والسَّكَر فحسبك[٨] بفرط مرارته ، وكُسوفِ لونه ، وبشاعة مَذَاقه ، ولِفارِ الطَّبيعة عنه .

وأَنواع مايُعالَج من التُّمور والحبوب فشربُها الدَّاءُ العُضال .

وللمسجور[٩] ، والبتى[١٠] ، وأَشباهها كُدورةٌ تَرسُب فى المِعدة ، وتولِّد بين الجِلدتين الحِكَّة . وأَشباه هذا كثيرةٌ تركتُ ذِكرها ، لأَنِّى لم أَقْصِدْك بالمسأَلة أَبتغى منك تحليل مايَجلِبُ المَضرَّة .

---

(١) ب : « ويخفف بالمال » م : « ويحطف » ، صوابهما فى ط .
(٢) ب : « ويخفف الطبيعة » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) فى جميع الأصول : « المروة » ، والوجه ما أثبت .
(٤) ب : « وبذل النفس » ، صوابه فى م ، ط .
(٥) ط : « الحسن » .
(٦) المعد : جمع معدة . ط فقط : « المعدة » ، ووجهه فى ب ، م
(٧) سبق تفسير التّرش شيرين فى ٢٦٢ . وفى ط : « ويولد للكرش رياحاً » ، تحريف .
(٨) السكر ، بالتحريك : الخمر نفسها ، أو شراب يتخذ من التمر والكشوث والآس . ط : « حسبك » بدون فاء .
(٩) المسجور : يبدو أنه المعالج بالتنور . وانظر ماسبق من الكلام على « المتل » فى ٢٦١ .
(١٠) كذا وردت فى جميع النسخ .

ولكن ما تقول فيما يسُرُّك ولا يسُوءُك ، وما إذا شربْتَه تلَقَّتْه العروُق فاتحةً أفواهَها كأفواه الفِراخ[١] ، محسنةً للَّون مَلذَّةً للنَّفس ، يجثم[٢] على المعدة ، ويَرُود[٣] فى العروق ، ويَقصِد إلى القلب فيولِّد فيه اللَّذَّة ، وفى المَعِدة الهَضْم ، وهو غَسُولها ونَضُوحها[٤] ، ويُسرع إلى ذاعة الكبد ، ويَفيض بالعَجَل إلى الطِّحال ، وينتفخ منه العروق[٥] ، وتظهر حُمرتُه بين الجلدتين ، ويَزِيد فى اللَّون ، ويولِّد الشَّجاعةَ والسَّخاء ، ويُريح من اكتنان الضِّغن ، ويُعفِّى على تغيُّر النَّكهة ، ويَنفِى الذَّفَر[٦] ، ويُسرع إلى الجَبْهة ، ويُغنى عن الصِّلاء ، ويمنع القُرّ ؟!

وما تقول فى نبيذ الزَّبيب الحِمْصىِّ[٧] والعَسَل الماذِىّ[٨] إذا تورَّد لونُه ، وتقادَمَ كونُه[٩] ، ورأيتَ حُمرتَه فى صفرته تَلوح[١٠] . تَراه فى الكأْس لكأَنَّه[١١] بالشَّمس ملتحف ، شُعاعُه يَضْحَك فى الأَكفّ ؟

وما تقول فى عَصير الكَرْم إذا أَجَدْتَ طبخَه وأنعمتَ إنضاجَه ، وأَحسَنَ الدَّنُّ نِتاجَه ، فإذا فُضَّ فُضَّ عن غَضَارة[١٢] قد صار فى لَون

---

(١) فى جميع الأصول : « الفرخ » ، والوجه ما أثبت .

(٢) يجثم على المعدة : يثقل عليها . ب : « يحتم » م : « لجثم » صوابهما فى ط .

(٣) يرود : يذهب ويجىء . ط فقط : « يزود » ، تحريف .

(٤) النضوح من النضح ، وهو الرش بالماء . والنضوح : الوجور ، وهو الدواء يوجر فى أى موضع من الفم كان . ط فقط : « ونضوجها » ، تحريف .

(٥) ط : « وينفخ منه » فقط ، بسقوط كلمة « العروق » .

(٦) الذفر ، بالذال المعجمة : النتن ، وخص به الحيانى نتن الإبطين . ب فقط : « الزفر » ، تحريف .

(٧) نسبة إلى حمص ، إحدى مدن الشام . ط فقط : « الحمص » تحريف .

(٨) الماذى : العسل الأبيض . ط فقط : « المازى » تحريف .

(٩) انظر مثل هذا التعبير فيما سبق ص ٢٦٣ . والمراد به العتق .

(١٠) ب ، م : « يلوح » .

(١١) ط : « كأنه » .

(١٢) الغضارة : النعمة والطيب والخصب . ب : « فإذا أفضى فضى عن عضارة » ، والصواب فى م ، ط .

البِجادىّ[١] فى صفاء ياقوتةٍ تلمع فى الأكفّ لمعَ الدَّنانير ، ويضىءُ كالشِّهاب المتَّقد .

وما تقول فى نبيذ عَسَلِ مصر ، فإنَّه يؤدِّى إلى شاربه الصَّحيح من طَعْم الزَّعفران ، لا يُلبَس الْخُلْقان[٢] ولا يَجودُ إلاَّ فى جُدُد الدِّنان ، ولا يَستخدم الأَنجاس[٣] ولا يَأْلف الأَرجاس[٤] . وكذلك لا يزْكو[٥] على علاج الجُنُب والحائض[٦] ، ولا ينفُضُ[٧] على شيءٍ من الأَجسام لونَه حتَّى لو غُمِس فيه قطنٌ لخرجَ أَبيضَ يَقَقاً[٨] . وحسبك به فى رقَّة الهواءِ ، يكدِّره صافى الماء ، وهو مع ذلك كالهِزَبْر ذى الأَشبال ، المفترس للأَقران ، مَنْ عاقره عَقَره ، ومن صارعه صَرَعَه ؟!

وما تقول فى رزين الأَهواز[٩] من زبيب الداقياد[١٠] إذ يعود[١١] صُلباً من غير أَن يُسَلّ سُلافُه[١٢] ، أَو يُماط عنه ثُفْله[١٣] ، حتَّى يعود كلون

---

(١) البجادى : حجر يشبه الياقوت بعض الشبه ، وهو أحمر تشوبه صفرة خلوقية . وهو بالفارسية : « بيجاد » . انظر نخب الذخائر لابن الأكفانى ١٧ — ١٩ وأزهار الأفكار للتيفاشى ١٠٠ — ١٠٣ . وفى جميع الأصول : « البحارى » ، تحريف .

(٢) الخلقان ، بالضم : جمع خلق ، بالتحريك ، وهو البالى من الثياب . ط : « مالا يلبس الخلقان » .

(٣) فى جميع الأصول : « الأجناس » ، وأثبت مايلائم « الأرجاس » .

(٤) ب ، م : « ولا تألف » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « لاتزكوا » ، صوابه فى ط .

(٦) أى لايصلح إلا بمعالجة من كان على طهارة .

(٧) ينفض لونه عليه ، أى يعطيه اللون نفسه . وفى جميع الأصول : « ينقض » ، والوجه ما أثبت .

(٨) اليقق : الشديد البياض . وفى ب ، م : « يقفا » ، صوابه فى ط .

(٩) انظر ما سبق فى ص ٢٦٢ .

(١٠) يبدو أنه موضع ، أو ضرب من العنب .

(١١) ب : « يقول » م ، ط : « يقود » ، والوجه ما أثبت .

(١٢) السلاف والسلافة : أفضله وأخلصه . ط : « يسيل سلافة » .

(١٣) الإماطة : الإزالة . والثفل بالفاء : ما رسب من الكدر فى أسفل الشىء ، أو ماعلا منه فوق الصفو . ب ، م : « عن ثقله » ، صوابه فى ط .

العقيق، فى رائحة المِسك العتيق . أصلب الأنبذةِ عريكةً ، وأصلبُها صلابة ، وأشدُّها خشونة . ثمّ لا يستعين بعَسَلٍ ولا سُكَّر ولا دُوشاب[١] وما ظنُّك[٢] به وهو زبيبٌ نقيعٌ ، لا يشتدُّ ولا يَجُودُ إلّا بالضَّرب الوجيع ؟!

وما تقول فى الدُّوشاب البُستانىِّ ، سُلالةِ الرُّطَبِ الجَنِىِّ[٣] بالحُبِّ الرتيلىِّ[٤] ، إذا أُوجِعَ ضَرباً ، وأُطيل حَبْسا ، وأُعطَى صَفْوهُ ومَنَح رِفدَه[٥] ، وبَذَل ماعنده ، فإذا كُشِفَ عنه قِناعُ الطِّين ظهر فى لون الشُّقْر والكُمْت[٦] وسَطَع برائحة كالمِسكِ . وإذا هَجَم على المعدة لانت له الطَّبائع ، وسَلِسَت[٧] له الأمعاءُ ، وأَيِسَ الحُصْر[٨] ، وانقطع طمع القُولَنج[٩] ، وانقادت له

(١) الدوشاب : نبيذ العنب أو التمر ، كما فى معجم استينجاس ٥٤٤ . وفى شفاء الغليل ٨٧ أنه نبيذ التمر ، معرب . وأنشد لابن المعتز :

لا تخلط الدوشاب فى قدح بصفاء ماء طيب البرد

ولابن الرومى :

علىَّ أحمد من الدوشاب شربة نغصت على شبابى

قال : وفسر فى شرحه بالنبيذ الأسود . وقال السمعانى : إنه الدبس بالعربية .

(٢) ب ، م : « ولا ماظنك به » ، تحريف مافى ط .

(٣) الجنى : المجتنى مادام رطباً . وفى الكتاب العزيز : « تساقط عليك رطباً جنياً » . ب ، م : « الحنى » بالحاء المهملة ، تحريف مافى ط .

(٤) هذا مافى م ، ط . وفى ب : « الرتيلى » ، ولعله ضرب من الحباب والجرار التى يختزن فيها الشراب .

(٥) ب ، م : « صفوة » صوابه فى ط . ب فقط : « رفدة » ، صوابه فى م ، ط .

(٦) ب ، م : « من لون » ، صوابه فى ط . وفى ب : « والكميت » صوابه فى م ، ط . وهما جمع أشقر وكميت .

(٧) ب : « سلسلت » ، ط : « سليت » ، صوابهما فى م .

(٨) الحصر ، بالضم وبضمتين : احتباس البطن . كما أن الأسر ، بالضم وبالفتح : احتباس البول .

(٩) القولنج ، بضم القاف وفتح اللام وكسرها ، وقد تفتح القاف : مرض معوى مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح . ذكر فى القاموس ولم يذكر فى اللسان . وفى شفاء الغليل ١٥٤ : « قولنج ونقرس ذكرهما فى فقه اللغة ، وهما مما عربه المولدون » . وفى المعجم الوسيط : « وسببه التهاب القولون » . وذكر أن القولون بضم القاف واللام ، هو المعى الغليظ الضيق الذى يتصل بالمستقيم . وأنه دخيل فى العربية . ب ، م : « القلنج » ، صوابه فى ط .

اليُبوسة ، وأذعنت له بالطَّاعة ، وابتلَّ به الجِلْد القَحْل[١] ، وارتحل عنه البَاسور، وكفَى شاربَه الوخز[٢] . فإذا شُجَّ[٣] بماءٍ تَلَظَّى ورَمَى بشَرَرِه، هل يحلُّ أن يُشَعشَع إذا سكَن جاشُه[٤] ، وآبَ إليه حلمه[٥] .

وما تقول فى المعتَّق[٦] من أنبذة التَّمر ، فإنَّك تنظر إليه وكأنَّ النِّيران تلمَعُ من جَوْفه . قد ركدَ ركودَ الزُّلال[٧] حتَّى لكأنَّ شاربه يَكرع فى شهاب ، ولكأنه فِرِندٌ فى وجه سيف[٨] . وله صفيحةُ مرآةٍ مَجْلوَّةٍ[٩] تحكى الوُجوهَ فى الزُّجاجة ، حتَّى يَهِمَ فيها الجُلَّاس[١٠] ؟!

وما تقول فى نبيذ الجَزَر ، الذى منه تمتدُّ النُّطفة وتشتدُّ النُّقطة ، يجلب الأَحلام ، ويركُد فى مُخِّ العظام ؟!

وما تقول فى نبيذ الكِشْمِش[١١] الذى لونُه لون زُمُرُّدةٍ خضراء ، صافية ، محكَمِ الصَّلابة ، مُفْرِطِ الحرارة ، حديدِ السَّورة[١٢] ، سريع الإفاقة

(١) القحل : اليابس . ب فقط : « المقحل » ، تحريف .

(٢) أى وخز الباسور وألمه . ب ، م : « التوخر » ، صوابه فى ط .

(٣) شج بالماء : خلط . ومنه قول المسيب بن علس (فى المفضليات ٦١) :

ومها يرف كأنه إذ ذقته عانية شجت بماء يراع

وقول كعب بن زهير (فى ديوانه ٧) :

شجت بذى شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

وفى ب : « سنحى » ، وفى م ، ط : « سنح » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) والشعشعة كذلك : مزج الشراب بقليل من الماء .

(٥) آب : رجع . ب ، م : « واباليه » تحريف ما أثبت . وفى ط : « وأيل حلمه » ، تحريف كذلك .

(٦) ب ، م : « المفلق » ط : « المغلق » ، صوابهما ما أثبت .

(٧) ط فقط : « الذلال » .

(٨) الفرند : مايرى فى صفحة السيف من أثر تموج الضوء . ب ، م : « ولكأن فرنده فى وجه سيف » ، صوابه فى ط .

(٩) ب : « تجلو » ، صوابه فى م ، ط .

(١٠) يهم ، من الوهم . وفى جميع النسخ : « حتى يفهم فيها » .

(١١) الكشمش ، سبق تفسيره فى ص ٢٦٢ .

(١٢) سورة الشراب : شدته وحدته . ب فقط : « حديدة السورة » ، تحريف .

عظيم المُؤْنة ، قصير العمر[١] ، كثير العلل ، جَمّ البَدَوات[٢] تطمع الآفات فيه ، وتُسرع إليه ؟!

وما تقول فى نبيذ التِّين فإنَّك تعلم أنَّه مع حَرارتِه ليِّن العَريكة ، سَلِسُ الطَّبيعة ، عَذْبُ المذاق ، سريع الإطلاق ، مِرْهَمٌ للعُروق ، نضوحٌ للكبد[٣] فتَّاحٌ للسُّدَد ، غسَّالٌ للأمعاء ، هَيَّاجٌ للباه ، أَخَّاذٌ للثَّمَن ، جَلاَّب للمُؤَن ، مع كسوفِ لونٍ وقُبحِ منظر ؟!

وما تقول فى نبيذ السكَّر الذى ليس مقدارُ المنفعة به على قَدر المَؤُونة فيه ، هل يوجد فى المحصول لشربه معنًى معقول ؟!

وما تقول فى المروَّق والغَرْبِىّ[٤] والفَضيخ[٥] ؟ أَلَذُّ مَشْروباتٍ فى أزمانها وأنفع مأْخوذات فى إبَّانها[٦] . أَقلُّ شىءٍ مَؤونة ، وأَحسنُه معونة ، وأكثر شىءٍ قنوعاً ، وأَسرعُه بلوغاً ، ضموزات[٧] عَرُوفات[٨] للرجل أَلُوفات . ولها أَراييح على الشاهِسْفَرَم[٩] كأَذكى رائحةٍ تُشَمّ ، أَقلُّ المشروبات صُداعاً ، وأَشدُّهن خِداعا .

(١) ب ، م : « كثير قصير العمر » . وكلمة « كثير » مقحمة .

(٢) أى تغير الحالات ، وأصله للرجل ذى الآراء الكثيرة تعرض له فيختار بعضاً ويسقط بعضاً . ب ، م : « البدات » صوابه ما أثبت . وفى ط ، « الهبات » .

(٣) نضوح من النضح ، وهو الرش بالماء أو الطيب ، وتسكين العطش . م ، ط : « نضوج » تحريف . وانظر ماسبق فى ص ٢٦٨ .

(٤) سبق تفسيره فى ص ٢٦١ .

(٥) الفضيخ سبق القول فيه فى ص ٢٦١ . ب ، م : « والفصيح » صوابه فى ط .

(٦) ط : « ألذ المشروبات فى أزمانها وأنفع المأخوذات فى إبانها » .

(٧) الضموزات ، من الضموز ، وهى الحية المطرقة ، أو الشديدة . والضموز أيضاً : الساكت لايتكلم . وفى الأصول : « ضمورات » ولا وجه له .

(٨) العروف والعروفة : الصابر المحتمل . ب فقط : « عقورات » تحريف . وفى ب ، م : « لجعل » ، وأثبت مافى ط وفيها : « للرجل الوافى » . وفى ب ، م : « الوقات » والوجه ما أثبت .

(٩) الشاهسفرم : ضرب من الرياحين يقال له ريحان الملك . قال أبو حنيفة : هى فارسية دخلت فى كلام العرب . قال الأعشى :

وشاهسفرم والياسمين ونرجس ... يصبحنا فى كل دجن تغيما

ب : « الشات أسفرم » م ، ط : « الشاة سفرم » ، ووجهه وكتابته كما أثبت .

٣ ــ فصـــل منه

وكرهتُ أيضاً تقليدَ المختلف من الآثار فأكونَ كحاطبِ ليل ، دونَ التأمُّلِ والاعتبارِ بأَنَّ ظلام الشَّكِّ[١] لا يَجلُوه إلَّا مِفتاح اليقين .

٤ ــ فصـــل منه

قد فهمتُ ــ أسعدَكَ الله تعالى بطاعته ــ جميعَ ماذكرتَ من أنواع الأنبذة ، وبديع صفاتها ، والفَصْلِ بين جيِّدها ورديِّها ، ونافِعِها وضارِّها ، وما سأَلتَ من الوقوف على حدودها[٢] . ولا زلتَ مِن عدادِ مَن يَسأَل ويَبْحَث[٣] ، ولا زِلْنا في عِداد من يَشْرحُ ويُفْصح .

اعلمْ ــ أكرمَكَ الله ــ أَنَّك لو بحثتَ عن أحوالِ من يُؤْثِر شُربَ الخمور على الأَنبذة ، لم تجدْ إلَّا جاهلاً مخذولا ، أَو حَدَثاً مغروراً ، أَو خليعاً ماجناً ، أَو رَعَاعاً هَمَجاً ؛ ومَنْ إذا غدا بهيمةٌ ، وإذا راحَ نَعامةٌ ؛ ليس عنده من المعرفة أَكثرُ[٤] من انتحال القَوْل بالجماعة ؛ قد مُزِجَ له الصَّحيحُ بالمحال ، فهو[٥] مَدِينٌ بتقليد الرِّجال ، يُشعشِعُ الرَّاح[٦] ، ويحرِّم المباح ، فمتى عذَله عاذلٌ ووَعَظَهُ واعظ قال : الأَشربة كلُّها خمر ، فلا أَشربُ إلَّا أَجودَهَا .

---

(١) في جميع النسخ : « كلام الشك » ، صوابه ما أثبت .

(٢) ب ، م : « ما سألت » . وفي جميع النسخ : « على حُدود » .

(٣) م ، ط : « ولا يبحث » ، تحريف ما في ب .

(٤) ب ، م : « إذا كثر » ، صوابه في ط .

(٥) ب فقط : « وهو » .

(٦) م ، ط : « لشعشع الداح » ، صوابه في ب . والشعشعة : المزج بالماء القليل .

وقد أحببتُ ــ أيَّدك الله ــ التَّوثُّقَ من إصغاء فهمك ، وسُوْت ظَنَّا بالتغرير[١] فقدَّمتُ لك من التَّوطِئة مايسهِّل [لك[٢]] سبيلَ المعرفة . وذلك إلى مثلك من مثلى جزم[٣] سيَّما فيما خَفِيت معالمه ودرسَتْ مناهجه ، وكَثُرت شُبَهه ، واشتدَّ غُموضُه .

ولو لم يكن ذلك وكان قد اعتاصَ[٤] علىَّ البرهان فى إظهاره ، وَاحْتَجتُ[٥] فى الإبانة عنه إلى ذكر ضِدِّه ، ونَظيره وشَكْله ، لم أحتشِمْ من الاستعانة بكلِّ ذلك . فكيف والقدرةُ ــ بحمد الله ــ وافرة ، والحُجَّة واضحة .

قد يكون الشئُ من جِنْس الحرام[٦] فيُعالَج بضربٍ من العلاج حتَّى يتغيَّر بلونٍ يحدُث له ، ورائحةٍ وطعم ونحوِ ذلك ، فيتغيَّر لذلك اسمُه ، ويصير حلالاً بعد أن كان حراماً .

٥ ــ فصــل منه
فى تحليل النبيذ دون الخمر

فإن قال لنا قائلٌ : ماتدرونَ ، لعلَّ الأَنبذة قد دخلَتْ فى ذكر تحريم الخمر ، ولكن لمَّا كان الابتداء أُجرِىَ فى ذكر تحريم الخمر ، خرج التحريم عليها وحدَها فى ظاهرِ المخاطَبَة ، ودخل سائرُ الأَشربة فى التَّحريم بالقَصْد والإرادة .

قلنا : قد علمنا أنَّ ذلك على خلاف ماذكَر السَّائلُ ، لأَسبابٍ موجودةٍ ، وعِللٍ معروفة .

(١) فى جميع النسخ : « بالتقرير » ، والوجه ما أثبت .
(٢) التكملة من ط . (٣) م ، ط : « حرم » ، تحريف .
(٤) اعتاص : التوى فخفى وصعب . ب ، م : « اعتاص » ، صوابه فى ط .
(٥) فى جميع النسخ : « واحتجب » والوجه ما أثبت .
(٦) ب فقط : « من حبس الحرام » ، تحريف .

منها : أَنَّ الصَّحابةَ الذين شَهِدُوا نزولَ الفرائِض ، والتابعين مِنْ بعدِهم ، لم يختلفوا فى قاذف المحصَنين أَنَّ عليه الحدَّ ، واختلفوا فى الأَشربة التى تسكر[١] ، ليس لجهلِهِمْ أسماءَ الخُمور ومعانيها ، ولكنْ للأَخبار[٢] المرويَّة فى تحريم المُسْكر ، والواردةِ فى تحليلها .

ولو كانت الأَشربة كلُّها عند أهل اللُّغة فى القديم خَمرًا لَمَا احتاجُوا إلى أَهل الرِّوايات فى الخمر ، أَىُّ الأَجناسِ من الأَشربة هى ؟ كما لم يَخْرُجوا إلى طلب معرفة العَبيدِ من الإماءِ .

وهذا بابٌ يَطُول شرحُه إن استقصيتُ جميعَ مافيه من المسأَلة والجواب .

وما يُنكر مَنْ خالَفنا[٣] فى تحليل الأَنبذة مع إقراره أَنَّ الأَشربةَ المُسْكرةَ الكثيرةَ لم تزل معروفةً بأَسمائها وأَعيانها ، وأَجناسها وبُلدانها ، وأَنَّ الله تعالى قَصَدَ للخمرِ من بين جَميعِها فحرَّمها ، وتَرَكَ سائر الأَشربة طِلْقاً مع أَجناس سائر المباح .

والدَّليل على تجويز ذلك أَنَّ الله تعالى ماحَرَّمَ على الناس شيئاً من الأَشياءِ فى القديم والحديث إلَّا أَطلق لهم من جنسِه ، وأَباحَ من سِنخِه[٤] ونظيرِه وشِبْهه ، ما يَعْمَلُ مثلَ عملِهِ أَو قريباً منه ، ليُغْنيَهم بالحلالِ عن الحرام . أَعنى ماحُرِّم بالسَّمع دون المحرَّم بالعقل . قد حَرَّم من الدم المسفوحَ ، وأَباحَ غير المسفوح ، كجامِد دمِ الطِّحال والكبد وما أَشبههما[٥]

(١) ب : « يسكر » ، تحريف .
(٢) فى جميع الأصول : « ولكن الأخبار » .
(٣) ب : « من مخالفنا » ، تحريف .
(٤) السنخ ، بالكسر : الأصل . م ، ط : « سنحه » ، صوابه بالخاء المعجمة كما فى ب .
(٥) ب ، م : « وما أشبهها » ، صوابه فى ط .

وحَرَّم المَيْتَةَ وأباح الذَكِيَّة . وأباح أيضاً مَيْتة البحر وغيرِ البحر ، كالجرادِ وشبهه ، وحَرَّم الرِّبا وأباح البَيع ، وحَرَّم بيعَ ماليس عندك[١] وأباحَ السَّلَم[٢] ، وحَـرَّم الضَّيْمَ وأباح الصُّلح ، وحَرَّم السِّفاحَ وأباح النِّكاح . وحَرَّم الخِنزيرَ وأباحَ الجَدْىَ الرَّضيعَ ، والخَروف والحُوار[٣] .

والحلالُ فى كلِّ ذلك أعظمُ موقعاً من الحَرَام .

٦ — فصل منه

ولعلَّ قائلا يقول : وأَهلُ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وسُكَان حَرَمه ودارِ هِجرته ، أبصَرُ بالحلال والحرام ، والمُسْكِرِ والخمر ، وما أباحَ الرَّسولُ وما حظره[٤] ، وكيف لا يكون كذلك والدِّينُ ومعالمُه مِن عندِهم خرج إلى النَّاس ؛ والوحىُ عليهم نَزَل ، والنبى صلى الله عليه وسلم فيهم دُفِن . وهم المهاجرون السَّابقون ، والأَنصار المُؤْثِرُون على أنفسهم . وكلُّهم مُجمِعٌ على تحريم الأَنبذة المُسْكرة ، وأَنَّها كالخمر .

وخَلَفُهُم على مِنهاجِ سَلَفهم إلى هذه الغاية ، حتَّى إنَّهم جَلَدوا على الريح الخفىّ[٥] .

وكيف لا يفعلون ذلك ويَدِينون به وقد شَهِدوا منَ شَهِدَ النبىَّ صلى الله عليه وسلم قد حَرَّمها وذَمَّها ، وأَمَرَ بجلد شارِبها .

ثمَّ كذلك فعَلَ أَئِمَّةُ الهُدى من بعده . فهم إلى يوم ِ الناسِ[٦] على رأْيٍ واحد ، وأمرٍ متَّفق ، ينهَوْن عن شُربها ، ويَجلِدُون عليها .

---

(١) مابعده إلى « الضيم » ساقط من ط .

(٢) ب : « وأباح لك السلم » .

(٣) أى لما فيهن من طراوة اللحم عوضاً عن طراوة لحم الخنزير . والحوار بالضم : ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يفطم ويفصل .

(٤) ب ، م : « وحظره » بدون ما .

(٥) أى رائحة الشراب ، حينما يستنكه الشارب . وانظر ما سيأتى فى ٢٧٧ س ١٠ .

(٦) ط : « فهم إلى اليوم » .

وإنَّا نقول فى ذلك : إنَّ عِظَمَ حقِّ البلدة لا يُحِلُّ شيئاً ولا يحرِّمه ، وإنَّما يُعرَف الحلال والحرامُ بالكتاب الناطق[(١)] ، والسُّنَّة المجمَعِ عليها، والعقولِ الصَّحيحة ، والمقاييسِ المُصِيبة[(٢)] .

وبعد، فمن هذا المهاجرىُّ أو الأنصارىُّ ، الذى رَوَوْا عنه تحريم الأنبذة ثم لم يَرْوُوا عنه التحليل ؟ بل لو أنصَفَ القائلُ لعلم أنَّ الذين من أهل المدينة حَرَّموا الأنبذة ليسوا[(٣)] بأفضَلَ من الذين أَحَلُّوا النِّكاح فى أدبار النِّساء ، كما استحلَّ قومٌ من أهل مكَّة عاريَّة الفروج ، وحَرَّم بعضُهم ذبائحَ الزُّنوج ، لأنَّهم فيما زَعموا مُشَوَّهُو الخلق . ثم حكموا بالشَّاهد واليمين خلافاً لظاهر التنزيل[(٤)] . وأهلُ المدينة وإن كانوا جَلَدُوا على الرِّيح الخفىّ[(٥)] فقد جَلَدُوا على حَمْلِ الزِّقِّ الفارغ ؛ لأنَّهم زعموا أنَّه آلةُ الخمر[(٦)] ،حتَّى قال بعض[(٧)] مَنْ ينكر عليهم : فهلاَّ جَلدوا أنفُسَهم؟ لأنَّه ليس منهم إلَّا ومعه آلةُ الزِّنَى ! وكان يجب على هذا المثال أن يُحكَم بمثل ذلك على حامل السَّيف والسِّكِّين والسُّمِّ القاتل، فى نظائر ذلك؛ لأنَّ هذه كلَّها آلاتُ القتل .

وبعدُ ، فأهلُ المدينة لمَ يخرُجوا من طبائع الإنس إلى طبع الملائكة . ولو كان كلُّ ما يقولونه حقًّا وصواباً لجَلَدوا من كان فى دار معبد[(٨)] ،

(١) ب : « وإنما يعرفه الحلال والحرام الكتاب الناطق » .

(٢) ط : « المعينة » ، وأثبت ما فى ب . وقد سقطت هذه الكلمة من م .

(٣) ب : « ليس » صوابه فى م ، ط .

(٤) ب ، م : « على ظاهر التنزيل » ولها وجهها .

(٥) انظر ماسبق فى ص ٢٧٧ س ١٤ . (٦) أنه ، ساقطة من م ، ب .

(٧) ب ، م : « بعضهم » ، تحريف .

(٨) ب ، م : « لقد كان دار معبد » ، ط : « لجلدوا من كان دار فى معبد » ، والوجه ما أثبت . ومعبد هذا هو معبد بن وهب ، من قدماء المغنين ومشهوريهم . غنى فى أول دولة بنى أمية ، وأدرك دولة بنى العباس . وفيه يقول الشاعر :

أجاد طويس والسريجى بعده وما قصبات السبق إلا لمعبد

الأغانى ٢ : ١٨ — ٢٨ .

والغَرِيضِ [١] ، وابنِ سُرَيج [٢] ، ودَحْمانَ [٣] وابن مُحرِزٍ [٤] وعَلُّويه [٥]
وابن جامع [٦] ، ومُخارقٍ [٧] ، وشُرَيكٍ [٨] ، ووَكيعٍ [٩] ، وحَمّادٍ [١٠] ،

---

(١) اسمه عبد الملك ، وهو من مولدى البربر ، ومن أشهر المغنين وكان يضرب بالعود وينقر بالدف ويوقع بالقضيب ، وكان جميلا وضيئاً يصنع نفسه ويترفها . أخذ عن ابن سريج . وسمى الغريض لأنه كان طرى الوجه نضراً غض الشباب . توفى نحو سنة ٩٥ . الأغانى ٢ : ١٢٤-١٢٩

(٢) هو عبيد الله بن سريج ، وكان من أحسن الناس غناء ، وكان يغنى مرتجلا ويوقع بقضيب ، وغنى فى زمن عثمان ، ومات معمراً فى خلافة هشام بن عبد الملك وله خمس وثمانون سنة . الأغانى ١ : ٩٤ — ١٢٥ . وفى جميع الأصول : « ابن شريح » ، صوابه ، ما أثبت .

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو . ودحمان بالفتح لقب لقب به ، مشتق من الدحم وهو الدفع كما فى اللسان . وكان مع شهرته بالغناء رجلا صالحاً كثير الصلاة معدل الشهادة مدمناً للحج ، وكان يقول : ما رأيت باطلا أشبه بحق من الغناء . وكان من غلمان معبد ، وأعطاه المهدى فى ليلة واحدة خمسين ألف دينار . الأغانى ٥ : ١٣٣ — ١٣٧ .

(٤) هو مسلم بن محرز ، ويكنى أبا الخطاب . وكان أبوه من سدنة الكعبة وأصله من الفرس ، وكان كثير الترحال فى طلب الغناء بين مكة والمدينة وبلاد الفرس والشام حتى ألف ألحانه من مختار أنغام هذه الأمم جميعاً . وكان يقال له « صناج العرب » . الأغانى ١ : ١٤٥-١٤٧ .

(٥) هو على بن عبد الله بن يوسف ، الملقب بعلويه ، كان مغنياً حاذقاً مع خفة روح وطيب مجالسة ، وملاحة نوادر . وكان إبراهيم الموصلى علمه وخرجه وعنى به جداً ، وغنى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكل ، ومات بعد إسحاق الموصلى بمدية يسيرة . الأغانى ١٠ : ١١٥ — ١١٢٥ .

(٦) هو إسماعيل بن جامع بن إسماعيل ، وكان حسن السمت كثير الصلاة ، قد أخذ السجود جبهته ، يلبس لباس الفقهاء . غنى للرشيد ، ونال منه عشرة آلاف دينار فى بيتين غناهما ، وله وقائع مع أبى يوسف . الأغانى ١٠ : ٦٥ — ٧٨ .

(٧) هو مخارق بن يحيى بن ناوس الجزار ، مولى الرشيد ، وكان وهو صبى ينادى على ما يبيعه أبوه من اللحم ، اشتراه إبراهيم الموصلى وأهداه للفضل بن يحيى ، فأخذه الرشيد منه ثم أعتقه . وكان من أحذق الناس بالغناء ، وأدرك الواثق . الأغانى ٢١ : ١٤٣ — ١٥٩ .

(٨) هو شريك بن عبد الله بن أبى شريك النخعى ، أبو عبد الله الكوفى القاضى ، أخذ عن أبى إسحاق السبيعى ، وعبد الملك بن عمير ، وسماك بن حرب ، والأعمش ، وغيرهم . وعنه : ابن مهدى ، ووكيع ، وهشيم ، وغيرهم . ولد سنة ٩٠ وتوفى ١٧٧ . تهذيب التهذيب .

(٩) وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسى ، أبوسفيان الكوفى . روى عن أبيه وإسماعيل ابن أبى خالد ، والأعمش ، وخالد بن دينار وغيرهم . وعنه : سفيان الثورى ، وعبد الرحمن بن مهدى ، ومحمد بن سلام ، وغيرهم . ولد سنة ١٢٨ وتوفى سنة ١٩٦ . تهذيب التهذيب .

(١٠) حماد بن سلمة بن دينار البصرى . روى عن ثابت البنانى ، وقتادة ، وعبد الملك بن عمير وغيرهم . وعنه : ابن جريج ، والثورى ، وشعبة وغيرهم . توفى سنة ١٦٧ .

وإبراهيمَ[١] وجماعةِ التابعين ، والسَّلَف والمتقدِّمين ؛ لأنَّ هؤلاء فيما زعموا كانوا يَشربون الأَنبذةَ التى هى عندهم خمر[٢] ؛ وأولئك كانوا يعالجون الأَغانىَ التى هى حِلٌّ طِلْقٌ، على نَقْر العيدان والطَّنابير ، والنَّايات والصَّنج والزِّنْجِ[٣] ، والمعازف التى ليست محرَّمةً ولا منهيًّا عن شىءٍ منها .

ولو كان ما خالفونا فيه من تحليل الأَنبذة وتحريمها ، كالاختلاف فى الأَغانى[٤] وصفاتها وأوزانها ، واختلاف مخارجها ، ووجوه مصارفها ومَجاريها ، وما يُدْمج ويوصَل منها ، وما لِلحنجرةِ والحَنَك والنَّفَسِ واللَّهوات وتحتَ اللِّسان من نَغمها[٥] . وأَىّ الدَّساتين أطرَب[٦] ، وأىٌّ أصوَب ، وما يُحفَزُ بالهَمْز[٧] أو يحرَّك بالضَّمِّ ؛ وكالقَول بأَنَّ الهَزَج[٨] بالبِنصَر أطيب ، أو بالوسطى[٩] ؟ والسَّريع على الزِّير ألذُّ[١٠] ، أَوْ على المَثْنَى[١١] ؟ وَالمُصَعَّد[١٢] فى لينٍ أطرَبُ أَم المُحْدَرُ فى الشِّدَّة ؟ لسَهُلَ ذلك ولَسَلَّمنا عِلمَه لمَنْ يَدَّعيه ، ولم نُجاذِب من يدَّعى دوننا معرفته[١٣] .

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعى ، المترجم فى ٢ : ١٩٣ .

(٢) ب ، م : « التى عندهم خمر » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٣) الزنج من ملاهى أهل خراسان ، كان غناؤهم به ، وعليه سبعة أوتار ، وإيقاعه يشبه إيقاع الصنج . معجم الموسيقى العربية ٣٥ . وانظر معجم استينجاس ٦٢٤ . وفى الأصول : « الزيج » تحريف .

(٤) فى جميع الأصول : « فى الأوانى » ، صوابه ما أثبت .

(٥) ب ، م : « من نعمها » ، صوابه فى ط .

(٦) انظر للدساتين معجم الموسيقى العربية ٣٢ ففيه تفصيل واسع . ويراد به رباطات الأوتار ونحوها .

(٧) الحفز : التحريك . ب : « يحرف » م ، ط : « يحقر » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) الهزج : كل صوت فيه ترنم خفيف مطرب . ب ، م : « وكالقول فى الهرج » ، صوابه فى ط .

(٩) ط فقط : « وبالوسطى » .

(١٠) الزير ، بالكسر : من أوتار العود ، وهو أحد الأوتار الدقيقة .

(١١) المثنى : الوتر الذى يلى الزير . وهو بفتح الميم والنون المخففة مع القصر .

(١٢) ب فقط : « أو المصعد » .

(١٣) ب ، م : « معرفة » ، صوابه فى ط .

٧ – فصــل منه

ولِهجِ[١] أصحابُ الحديث بحكمٍ[٢] لم أسمعْ بمثله فى تزييف الرِّجال، وتصحيح الأَخبار . وإنما أكثروا فى ذلك ، لتعلمَ حَيْدَهم عن التَّفْتيش ، ومَيْلَهم عن التنقير[٣] ، وانحرافَهُم عن الإنصاف .

٨ – فصــل منه

والذى دعانى إلى وضعِ جميعِ هذه الأَشربةِ والوقوفِ على أجناسها وبُلدانها ، مخافةُ أَنْ يَقعَ هذا الكتابُ عند بعضِ مَن عساهُ لا يَعرفُ جَميعَها، ولم يَسمَعْ بذكرها ، فيتوهَّم أَنِّى[٤] فى ذكر أَجناسها المستشنَعة[٥] وأنواعها المُبتَدَعة ، كالهاذى[٦] برُقْـية العَقْرب ، وإن كان قصــدى لذكرِها فى صَدرِ الكِتابِ لأَقفَ على حَلالها وحرامها ، وكيف اختلفت الأُمَّة فيها ، وما سَببُ اعتراضِ الشَّكِّ واستكمانِ الشُّبهة ؛ ولأَن أَحْتَجَّ للمباح[٧] وأُعطيَهُ حقَّه ، وأَكشِفَ أَيضاً عن المحظور فأَقسِمَ له قِسطَه ، فأَكونَ قد سلكتُ بالحرام سَبيلَه ، وبالحلال منهجَه ، اقتداءً منى بقول الله عزَّ وجلّ : ﴿يـأَيُّها الذين آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ[٨]﴾ .

وقد كتبتُ لك – أَكرمَكَ الله – فى هذا الكتاب مافيه الجزايةُ[٩]

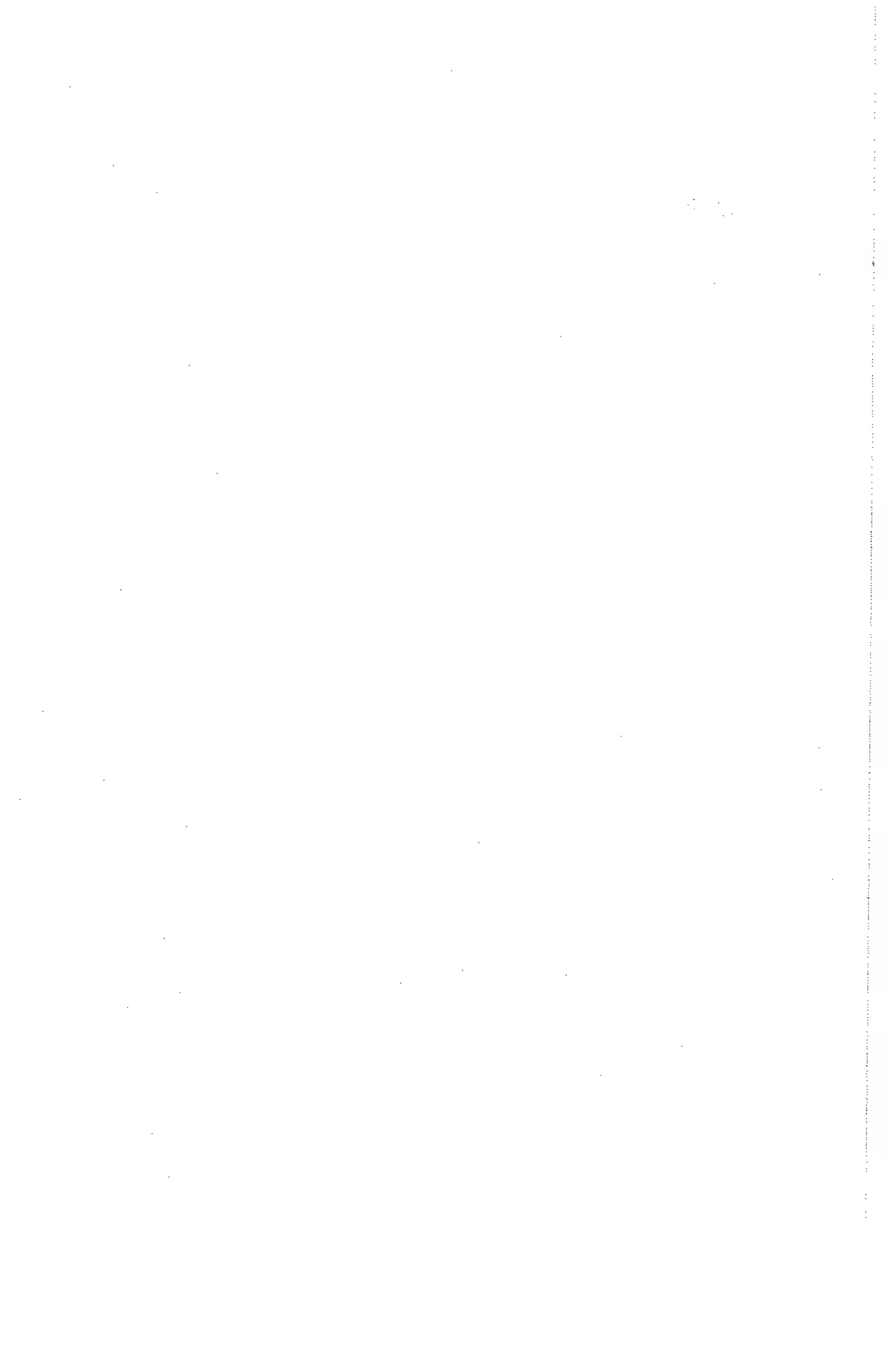
---

(١) م فقط : « ولهمج » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « حكم » ، صوابه فى ط .
(٣) التنقير : البحث والتفتيش . م فقط : « التنفير » ، تحريف .
(٤) ب فقط : « أن » تحريف .
(٥) ب : « المستشفة » ، صوابها فى م ، ط .
(٦) الهاذى ، من الهذيان . ب ، م : « كالهازى » من الهزؤ ، وهذه محرفة صوابها فى ط .
(٧) ب : « ولا أحتج للمباح » ، تحريف .
(٨) من الآية ٨٧ من المائدة .
(٩) كذا وردت الجزاية هنا ، بمعنى الإجزاء ، ولم أجد لها سنداً . وفى ب : « مافيه الكفاية والجزاية » .

والكِفاية ، ولو بسطتُ القولَ لوجدتَه متَّسعاً ، ولأَتاكَ منه الدَّهْم [١] .
وربَّما [كان [٢]] الإقلال فى إيجازٍ أجدَى من إكثارٍ يُخاف عليه
الملل [٣] . فخلطت لك جِداًّ بهزل [٤] ، وقرنْتُ لك حُجّةً بمُلْحة ، ليخِفَّ
مَؤُونة الكتاب على القارئ ،وليزيد ذلك فى نشاط المستمِع ، فجعلت
الهزلَ بَعْدَ الجِدِّ جَماماً [٥] ، والمُلْحة بعد الحُجَّة مُستراحاً .

---

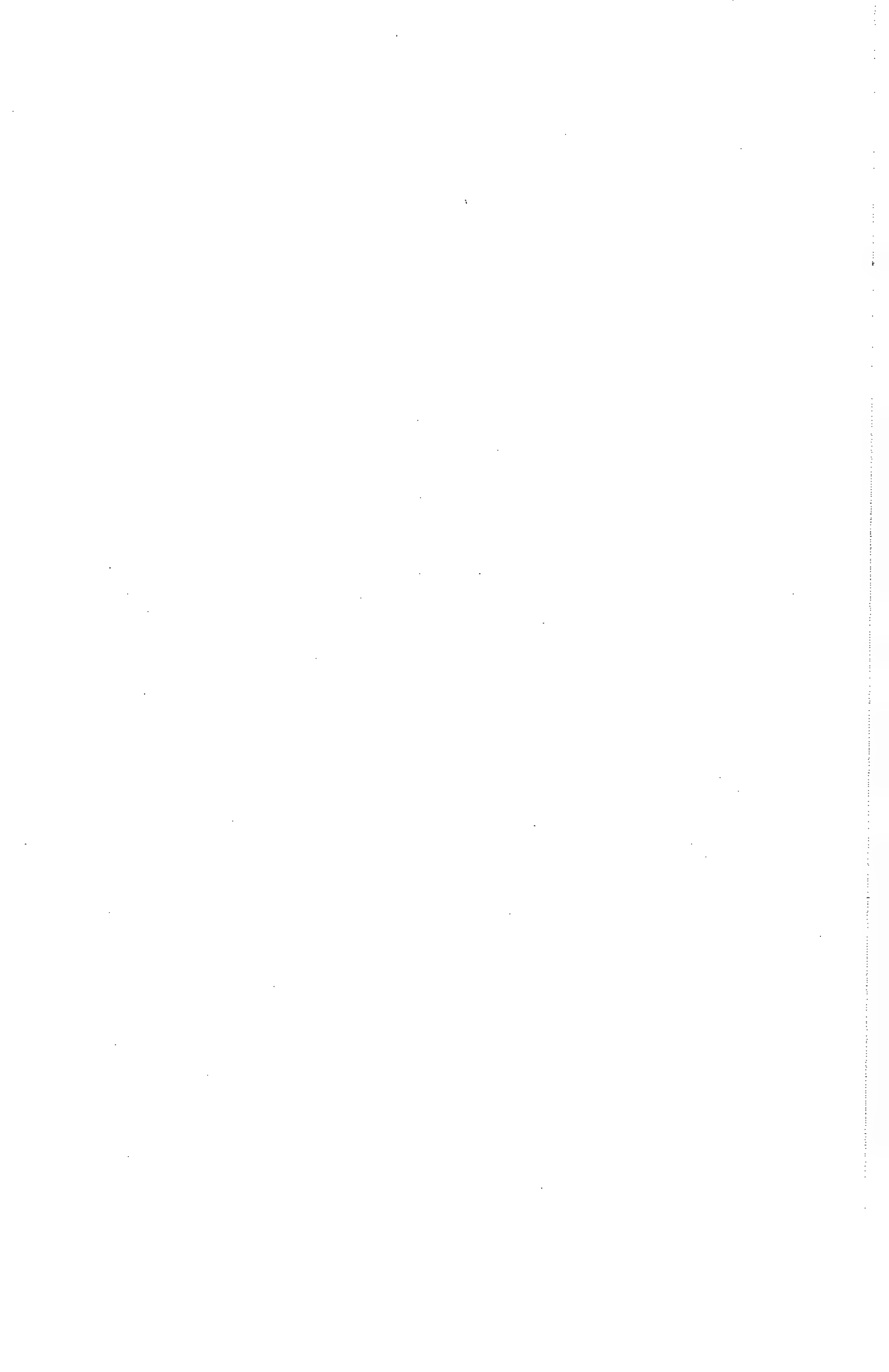
(١) الدهم : الكثير . يقال جيش دهم أى كثير . وجاءهم دهم من الناس ، أى كثير .
(٢) التكملة من ط .
(٣) المألوف : « يخاف منه الملل » . لكن هكذا وردت فى الأصول .
(٢) ب : « جد الهزل » .
(٥) الجمام ، كسحاب : الراحة .



٢٨

من كتابه في

الجوابات واستحقاق الإمامة



١ ــ فصــل (١)

من صدر كتابه فى الجوابات فى الإمامة
يحكى فيه قول من يجيز أكثر من إمام واحد

زعم قومٌ أنّ الإمامة[٢] لا تجب لرجلٍ واحدٍ بعينهِ، من رهطٍ واحد بعينه ، ولا لواحدٍ من عُرْض الناس[٣] ، وإن كان أكثرَهم فضلاً ، وأعظَمَهم عن المسلمين غَناءً[٤] ، بعد أن يكون فرداً فى الإمامة لا ثانِيَ له . وأنَّ النَّاسَ إن ترَكوا أن يُقيموا إماماً واحداً جاز لهم ذلك ، ولم يكونوا بتركه ضالِّينَ ولا عاصِينَ ولا كافرين ؛ فإن أقاموه كان ذلك رأياً رأَوْه ، وغير مضيَّق عليهم تركُه .

ولهم أن يقيموا اثنين ، وجائزٌ لهم[٥] أن يقيموا أكثرَ من ذلك ، ولا بَأْس أن يكونوا عَجَماً[٦] وموالىَ ، ولكن لابدَّ من حاكمٍ ، واحداً[٧] كان أو أكثر على حال . ولا يجوز أن يكون الرجلُ حاكماً على نفسه وقائماً عليها بالحدود .

ولم يقلْ أحدٌ ألبتَّةَ أنَّ مِن الحُكْم والحاكم بدًّا ، ولكنَّهم اختلفوا فى جهاتهم ومعانيهم .

وقالوا : وأيَّ ذلك كان ، إقامةَ الواحد والاثنين أو أكثر من ذلك ،

---

(١) الكامل ٢ : ٢٧٩ — ٢٩٠ وهذه الرسالة غير رسالة « استحقاق الإمامة » التى سبقت برقم (٢٢) .

(٢) ب : « الأمة » ، تحريف .

(٣) من عرض الناس ، بالضم ، أى من أوساطهم ومعظمهم .

(٤) ب : « غنى » ، تحريف .

(٥) فى جميع الأصول : « عنهم » .

(٦) ب ، م : « أن يكون أعجما » ، تحريف .

(٧) ب : « واحد » .

فعلى النَّاس الكفُّ عن محارمهم ، وترك التبَاغى[١] فيما بينهم ، والتَّخاذل عند الحادثة تَنُوبهم ، من عدوٍّ[٢] يَدهَمُهم من غيرهم . أو خاربٍ يُخِيف سُبُلهم[٣] من أهل دعوتهم .

وعليهم فيما شَجَر بينهم إعطاءُ النَّصَفة من أنفسهم بالغاً ما بلغ ، فى عُسْرِ الأمر ويُسْرِه . وعلى كلِّ رجلٍ فى داره وبَيتِه وقبيلته ، وناحيته ومِصره ، إذا كان مأْموناً ذا صلاحٍ وعلم ، إذا ثَبَتَت عنده على أخيه وصاحبه وجاره ، وحاشيتِه مِن خَدَمِه ، حَدٌّ أو حكمٌ جناهُ جانٍ عليهم[٤] أو على نفسه[٥] أو ظلمٍ ركبَه من غيره ، إقامةُ ذلك الحكم والحدّ عليه ، إذا أمكنه مستحقُّه ؛ إلَّا أن يكون فوقه كافٍ قد أجزَى عَنْه .

وعلى المجترِح للذَّنْب المُوجبِ على نفسه الحدَّ ، والمستحقّ له ، إمضاءُ الحكم فى بَدَنِه وماله ، والإمكانُ من نفسه ، وأن لا يُعَازَّ بقُوَّة[٦] ، ولا يَرُوغَ بحيلة ، ولا يَسخَطَ حكم التنزيل فيما نَزَل به ، وفيما هو بسبيله[٧] من مالٍ[٨] أو غيره . وإنَّما يجب ذلك إذا كان على الفريقين من القَيِّم ، والجانى يمكنه ما كلَّفه اللهُ من ذلك . فإنْ أَبى القيِّم إقامَةَ الحقِّ والحدِّ على الجانى بعد استيجابه ، والإمكانِ من نفسه لإقامة الحدِّ عليه ، فقد عَصَى

---

(١) التباغى : تفاعل من البغى ، وهو الظلم والعدوان والعدول عن الحق . ب ، م : « وترك التناغى » ط : « وترك الأصل والتناجى » ، صوابهما ما أثبت . وسيأتى فى ص٢٨٨ : « يزدادون فساداً وتباغياً » .

(٢) ب ، م : « من عدم » ، صوابه فى ط .

(٣) الخارب : اللص ، أو سارق الإبل خاصة . ب : « سلبهم » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) ب ، م : « جازعليهم » ، صوابه فى ط .

(٥) فى جميع الأصول : « عليهم على نفسه » ، والوجه ما أثبت .

(٦) المعازة : المغالبة والمشادة .

(٧) فى جميع الأصول : « لسبيله » .

(٨) ب ، م : « من ماله » .

الله تعالى ولم يُؤتِ فى ذلك الأمرِ نفسَه . لأنَّ الله تعالى قد بيَّنه له ، وأوجَبَه عليه ، وقرَّره حين أوضح له الحُجَّة وقرَّب الدلالة ، وطوَّقه المعرفةَ ، ومكَّنه من الفعل .

وقد بَسطْنا العُذرَ لذوى العَجْز فى صدر الكلام .

وإنْ أُتِىَ الجانى المستحقُّ للحكم والحدِّ ، الإمكانَ من نفسِه ومالِه ، وما هو بِسبيله ، فقد عَصَى الله فى ذلك ، كما عصاه فى رُكوبه ماأوجَبَ عليه الحدَّ ، ولم يُؤتَ من ربِّه لما ذكرنا من إيضاح الحجَّة وإثبات القُدْرة .

٢ — فصل منه

وقد علمنا [١] أنَّ من شأْن النَّاسِ الهربَ إذا خافُوا نزولَ المكروه ، والامتناعَ من إمضاءِ الحدود بعدَ وُجوبها عليهم ، ما وَجَدُوا السَّبيلَ إلى ذلك . وهذا سببُ إسقاط الأَحكام والتَّفاسد .

وقد أُمِرْنا أن نتركَ أسبابَ الفساد ما استطعنا ، وبالنَّظَر للرعيَّة ما أَمكنَنَا ، فوجب علينا عند الذى قلنا ، أنَّا لو لم نُقِمْ إماماً [٢] واحداً كان الناسُ على ماوصَفْنا من التسرُّع إلى الشىء إذا طَمِعوا ، والهربِ إذا خافوا . وهذا أمرٌ قد جرَتْ به عامَّةُ المعرفة ، وفُتِحت عندنا فيه التَّجربة .

قلنا عند ذلك إنَّ الإمامة لا تجب على الناس من طريق الظُّنون وإشفاق النفوس [٣] .

---

(١) ب فقط : « وقد علم » .
(٢) ب ، م : « أن نقيم إماماً » ، صوابه فى ط .
(٣) ب ، م : « إشفاق النفوس » بسقوط الواو .

وقد رأَيْنا أَعظمَ منها خطراً ، وقدراً ونَفْعاً، فى كلِّ جهةٍ على خلاف ذلك ، وهو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، بعثَه الله إلى أُمَّة وقد علم أَنَّهم يَزْدادون مع كفرهم المتقدِّم[١] مِنْ قِبَل ذلك الرَّسولِ كُفْراً ، بجحدهم له ، وإخراجهم إِيَّاه ، وقصدهم قَتْلَه[٢] ، ثم لا يكون ذلك مانعاً له من الإرسال إليهم والاحتجاج به عليهم ، لمكان علمِهِ أَنَّهم يزدادون فسادًا وتَباغياً[٣] ؛ إِذْ كان[٤] قدَّم لهم ما به ينالون مصالحَ دينهم ودُنياهم . وإنَّما على الحكيم أَن يأْتِىَ الأَمر الحكيم ، عرفَ ذلك عارفٌ أَم جهِلَهُ جاهل .

وعلى الجوادِ ذى الرَّحمة فى جُوده ورحمته ، أَن يفعل ما هو أَفضَلُ فى الجود ، وأَبلغُ فى الإحسان ، وأَلطف فى الإنعام من إيضاح الحُجَّة[٥] وتسهيل الطُّرق ، والإبلاغ فى الموعظة ، مع ضمان الوَعْد بالغاية من الثَّواب والدَّوام واللَّذَّة ، والتَّوعُّدِ بغاية العقاب فى الدَّوام والمكروهِ إلى عبادِه الذين كلَّفهم طاعتَه ، وأَهل الفاقة إلى عائدته[٦] ونَظرِه وإحسانه .

فإِنْ قَبِل ذلك قابلٌ[٧] فقد أَصاب حظَّه ، وإن أَبَى ذلك فنفسَه ظَلَمَ[٨] ، وقد صنع الله به ماهو أَصلح وإن لم يستطع العبد نَفْسُه .

---

(١) ب ، م : « مع كفرهم المنقذ » ط : « يزدادون من كفرهم » فقط . والوجه فيهما ما أثبت .

(٢) فى جميع الأصول : « قبله » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ط : « وبغياً » ، وانظر ما سبق فى ص ٢٨٦ .

(٤) ب ، م : « إذا كان » ، صوابه فى ط .

(٥) فى جميع الأصول : « ومن إيضاح الحجة » ، والوجه حذف الواو .

(٦) العائدة : المعروف والمنفعة .

(٧) ب : « قيل ذلك قايل » ، صوابه فى م ، ط .

(٨) ب : « وإن أباه ذلك فنفسه ظالم » م : « وإن أبى ذلك فنفسه ظالم » ط : « وإن أبى ذلك فلنفسه ظلم » . والصواب ما أثبت .

قالوا : فإذا كان الله تبارك وتعالى عالماً بأنَّ القومَ يَزْدادونَ فسادًا عند إرسالِ الرُّسل ، وكان غيرَ صارفٍ لهم عن الإرسال إليهم ، إذْ كان قد عَدَّل خَلْقَهم[١] ، ومكَّنهم من مصلحتهم . فما بالُ الظَّنِّ والحِسبان بأنَّ النَّاس يتفاسَدُونَ ويتنازعون ، إذا لم يُقيموا إماماً واحداً يُوجب فرضاً لم ينطق به كتاب ولم يؤكِّده خبر[٢] . وقد رأينا العلم بأنَّ الناس يتفاسدون بما لا يَرِد به فرض[٣] .

٣ – فصـــل منه

وقالوا : قد رأينا أهلَ الصَّلاح والقَدْر ، عند انتشار أمرِ السُّلطان ، وغَلبة السِّفلة والدُّعَّار ، وهَيْج العوامِّ[٤] ، يقوم منهم العَددُ اليسير فى الناحية والقبيلة ، والدَّرب والمَحِلة فيفُلُّ لهم حَدَّ المستطيل[٥] ، ويقمع شُذَّاذَ الدُّعّار[٦] ، حتَّى يَسْرحَ الضَّعيف ويأْمنَ الخائف ، وينتشر التاجر ، ويُكْبِرَ جانبَهم الدَّاعر[٧] .

وإنَّما صلاحُ النَّاس بقدر تعاوُنِهم وتَخاذُلِهم . مع أنَّ الناس لو تركهم المتسلِّطُونَ عليهم[٨] ، وأُلجئوا إلى أنفُسهم حتَّى يتحقَّق عندهم أن لا كافِيَ إلَّا بطْشُهم وحيَلهم ، وحتَّى تكون الحاجة إلى الذَّبِّ[٩]

---

(١) ب : « خلقه » .
(٢) م : « ولا يؤكده خبر » .
(٣) فى جميع الأصول : « يتفاسدون ولا يرد به فرض » .
(٤) ط : « ويصبح العوام » ، تحريف .
(٥) الفل : الكسر والثلم . ب : « فيغل » م : « فيقل » ط : « فيقيم » ، صوابه ما أثبت . وفى ب ، م : « بهم » ، صواب هذه من ط . والاستطالة : الاعتداء .
(٦) ب : « الذعار » تحريف . وفى ط : « شذوذ الدعار » .
(٧) ب ، م : « ويكرم جانبهم » . وفى ب : « الذاعر » تحريف .
(٨) ب ، م . « المتسلطنون عليهم » .
(٩) ب ، م : « الذابة » ، تحريف .

والحراسة ، والعلم بالمكيدة. هي[١] التي تحملهم على منع أنفسهم ؛ ولذهبت عادةُ الكفاية . وضعف الاتكال . ولتعوَّدوا اليقظة. ولدربوا بالحراسة ، واستثاروا دفينَ الرَّأْي ؛ لأنَّ الحاجة تَفتُقُ الحيلة[٢] وتبعث على الرويّة[٣] ، وكان بالحَرَى أن يصلح أمرُ الجميع؛لأنَّ طمع الرَّاعي إذا عاد بأْساً[٤] صَرَفَه في البَغْي[٥] . وكان في ذلك منبهةٌ للنائم ومشحذةٌ لليقظان ، وضـــراوةٌ للمُواكل[٦] ، ومَزْجرةٌ للبُغاة ، حتَّى يَنْبُتَ عليه الصَّغير[٧] ، ويتمحَّل معه الكبير .

٤ ــ فصـــل منه

وزعم قومٌ أنَّ الإمامة لا تجب إلَّا بأحدِ وجوهٍ ثلاثة :

إمَّا عقلٌ يدلُّ على سببها ، أو خبرٌ لا يكذِّب مثلهُ ، أو أنَّه لا يَحتمِل شيئاً من التأْويل إلَّا وجهاً واحداً .

قالوا : فوجدنا الأخبارَ مختلفة ، والمختلِفُ منها متدافع[٨] ، وليس في المتدافِعِ والمتكافئ بيانٌ ولا فَصْل .

فمن ذلك قولُ الأنصار ،وهم شَطْرُ النَّاسِ وأكثرهم ، مع أمانتهم على دين الله تعالى ، وعِلمِهم بالكتاب والسُّنَّة ، حيثُ قالت[٩] عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم : « منا أميرٌ ومنكم أمير » .

---

(١) ب ، م : « وهي » ، والواو مقحمة .
(٢) ب ، م : « تفيق الحيلة » محرف .
(٣) م فقط : « الرؤية » ، تحريف .
(٤) ب : « يائساً » . م : « بأساً » وأثبت ما في ط .
(٥) ب ، م : « في سوى البغي » .
(٦) ب ، م : « المواكل » .
(٧) ب : « يتثبت » ، ط : « تثبت عليه الصغيرة » ، والصواب ما أثبت من م .
(٨) ط : « والمختلف متدافع » ب ، م : « والمختلف منه متدافع » ، والوجه ما أثبت .
(٩) ط : « حيث قالوا » .

فلو كان قد سَبَقَ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك أمرٌ ما كان أَحدٌ أَعلمَ به منهم ، ولا أَخلَقَ للإقرارِ والعملِ بما يلزم . والصَّبرِ عليه[١] منهم . بعد الذى ظَهَر من احتمالهم فى جَنْب الله تعالى ، والجهادِ فى سبيله ، والنُّصرةِ لنبيِّه صلى الله عليه وسلم [مع الإيواءِ والإيثار ، بعد المواساة ، ومحاربة القريب والبعيد ، والعرب قاطبة وقريشٍ خاصَّة . ثم الذى نطق القرآنُ به من تزكيتهم وتفضيلهم ، بحبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم لهم[٢]] ، وثقته بهم[٣] وثنائه عليهم[٤] ، وهو يقول : « أَمَا والله ما عَلِمتُكم إلَّا لَتَقِلُّون عند الطَّمَعِ وتَكثُرون عند الفَزَع » ، فى أمورٍ كثيرة .

ثم لم يكن قولُهم : « منَّا أَميرٌ ومنكم أَمير » مِن سفيهٍ من سفهائهم ضَوَى إليه[٥] أَمثالُه منهم ، فإنَّ لكلِّ قوم حَسَدةً وجُهَّالا ، وأَحداثاً وسَرَعانا[٦] ، مِن حدَثٍ تبعثه الغَرارة والأَشَر[٧] ، ورجلٍ يحبُّ الجاه والفتنة ، أَو مغفَّلٍ مخدوع[٨] ، أَوغِرٍ ذى حَمِيّة[٩] يؤْثر حَسبَه ونسبَه على دين الله تعالى وطاعةِ نبيهِ صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ب فقط : « عليهم » ، تحريف .

(٢) التكملة من م ، ط .

(٣) فى جميع الأصول : « ولقيه بهم » ، والوجه ما أثبت .

(٤) فى جميع الأصول : « وثباته عليهم » ، صوابه ما أثبت .

(٥) ضوى إليه : انضم ولجأ . وفى اللسان : « يقال ضوى الرجل إلينا أشد المضوية ، أى أوى إلينا » . وفى جميع الأصول : « ضرى إليه » . والوجه ما أثبت .

(٦) السرعان : الأوائل الأخفاء يسرعون إلى الأمر .

(٧) الأشر : المرح والنشاط ب ، م : « والأشد » تحريف ما أثبت . وفى ط : « ولا شذ رجل يحب الجاه والفتنة » ، ولا وجه له .

(٨) ط : « مجدوع » م : « مجذوع » ، صوابهما ما أثبت من ب .

(٩) ب : « أو عزى » م : « أو غرى » ، صوابهما فى ط . وفى ط : « ذوحمية » صوابه فى ب ، م .

ولا كان ذلك القولُ ، إنْ كان من عِليتهم ، فى الواحد الشاذِّ القليل ، بل كان فى ذَوِى أَحلامهم والقَدَم مِنْهم [(١)] .

ثم كان المرشَّحُ والمأْمولُ عندهم سعدُ بنُ عبادة ، سيِّدًا مُطاعاً ، ذا سابقةٍ وفَضْل ، وحِلم ونَجْدةٍ ، وجاهٍ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستغاثةٍ به [(٢)] فى الحوادث والمهِمِّ من أَمره .

ثم كان فى الدَّهم [(٣)] من الأَنصار ، والوجوهِ والجمهورِ من الأَوس والخزرج . فكيف يكون سبَقَ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم فى هذا أَمرٌ يقطع عُذْرًا [(٤)] ويوجب رضاً ، وهؤلاء الأُمناءُ على الدِّين ، والقُوَّام عليه ، قد قاموا هذا المقامَ ، وقالوا هذا المقال .

قالوا : فإن قال قائِل : فإنَّ القوم كانوا على طبقاتٍ ، من ذاكرٍ متعمِّد ، وناسٍ قد كان سَقَطَ عن ذِكرِه وحفظه ، ومن رجلٍ كان غائباً عن ذلك القولِ والتَّأْكيد الذى كان من النبى صلى الله عليه وسلم وآله ، فى إقامة إمامٍ يقدَّم فى أَيَّام وَفاتِهِ وشَكَاتِه [(٥)] ، ومن رجلٍ قَدَمٍ فى الإسلام لم يكن من حُمَّال العلم ، فأَذكَرَهُم أَبو بكرٍ وعُمرُ فذكَروا ، ووعَظَاهم فاتَّعظوا . فقد كان فيهم النَّاشىءُ الفاضلُ الذى يزجُره الذِّكر ، ويَنزِع إذا بُصِّر ، والمعتمدُ الذى لم يُبلغْ من لجاجه وتتايُعه [(٦)] ، ورُكوب

---

(١) ب : « فيهم » .

(٢) ب : « واشتغاثة به » م : « واستغاثته به » ط : « واستعانته به » ، والوجه ماأثبت .

(٣) أى كان هذا القول فى الدهم . والدهم ، بالفتح : العدد الكثير ، كالدهماء . ب فقط : « فى الوهم » ، تحريف .

(٤) فى جميع النسخ : « عدداً » ، والصواب ما أثبت

(٥) الشكاة ، بفتح الشين : المرض . ب ، م : « وسكانه » ، صوابه ما أثبت . والكلمة ساقطة من ط . وفى ب ، م : « إقامة الإمام »

(٦) التتايع : التهافت فى الشر واللجاج . وفى جميع الأصول : « وتتابعه » بالباء الموحدة ، صوابه بالياء التحتية المثناة .

رَدْعه[١] مايُؤْثَر معه التصميم[٢] على حُسْنِ الرُّجوعِ عند الموعظة الحسَنة ، والتخويف بفساد العاجِل[٣] . في كثيرٍ ممن لم يكن له في الإسلام القَدْر النَّبيه ، إمَّا للغَفْلة ، وإمَّا للإبطاء عنه ، وإمَّا للخمول في قومه مع إسلامه وصِحَّة عَقْدِه . فداوَاهُمْ أبو بكرٍ وعُمرُ[٤] يومَ السَّقيفة حين قالا[٥] : « نحن الأئمَّة وأنتم الوزراء » . وحيث رَوَوْا لهم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأَئمَّة من قريش » . فلما استُرجِعوا رَجَعُوا .

قلنا : الدَّليل على أنَّ القوم لم يروا في كلام أبي بكرٍ وعمر حُجَّةً عليهم ، وأنَّ انصرافَهُم عمَّا اجتمعوا له لم يكن لأنَّهم رأَوْا أنَّ ذلك القولَ من أبي بكر وعمر وأبي عُبيدة بنِ الجَرَّاح حُجَّةٌ ، غَضَبُ رئيسِهم وخُرُوجُه من بين أظهرهم مراغَماً ، في رجالٍ من رَهْطِهِ، مع تركِهِ بيعةَ أبي بكر رضوان الله عليه ، وتشنِيعهِ[٦] عليهم بالشَّام .

وقد قال قَيسُ بنُ سعدِ بن عُبادة ، وهو يذكر خِذلانَ الأَنصارِ لسَعدِ بن عُبادة : واستبدادَ الرَّهط من قريشٍ عليهم ، بالأَمر :

وخَبَّرتمونا أنَّما الأَمــرُ فيــكمُ ... خِلافَ رسول الله يوم التَّشاجُرِ[٧]

وأنَّ وَزاراتِ الخــلافةِ دونــكم ... كما جاءَكم ذو العرشِ دونَ العشائرِ

فهــلَّا وزيراً واحــداً تجتَبُونه ... بغير ودادٍ منكمُ وأواصرِ[٨]

---

(١) ركب ردعه : لم يردعه شيء فيمنعه عن وجهه .

(٢) ب : « التصمم » ، صوابه في م ، ط .

(٣) ب : « لفساد العاجل » ، صوابه في م ، ط .

(٤) ب ، م : « وأبو بكر وعمر » . ، والوجه حذف الواو قبل أبي بكر كما في ط .

(٥) ط : « قالوا » ، وهو أمر جائز في العربية .

(٦) ب ، م : « وتشييعه » ط : « وتشيعه » ، صوابهما ما أبعث .

(٧) ب : « الرسول الله » ، تحريف .

(٨) اجتباه : اختاره واصطفاه . ب ، م : « تجتنبو به » صوابه في ط .

سَقَى اللهُ سعدًا يومَ ذاكَ ولاسَقَى   عَراجلةً هابت صُدورَ المنابرِ (١)

وقال رجلٌ من الأنصار ، ودعاهُ علىٌّ رضوان الله عليه إلى عَونِه ونُصرتِه ، إمَّا يوم الجَمَل ، أو يومَ صِفِّين :

مالى أُقاتل عن قومٍ إذا قَدَرُوا   عُدْنا عدُوًّا وكنَّا قبلُ أنصارا

ويلٌ لها أُمّةً لو أنَّ قائدها   يَتلُو الكتاب ويَخْشَى النَّاروالعارا

أَمَّا قُريشٌ فلم نسمَعْ بمثلِهمُ   غَدراً وأَعجَبَ فى الإسلام آثارا

إلَّا تكنْ عصبةً خَالُوا نبيَّهمُ   بالعُرف عُرفاً وبالإنكار إنكارا (٢)

أَبا عُمارة والثَّاوِى ببَلقَعةٍ   فى يومِ مُؤْتَةَ لاينفكُّ طَيَّارا (٣)

أَبا عُمارة (٤) : حمزة بن عبد المطَّلب رضوان الله عليه ، وقد كان يكنى أَبا يَعْلَى ، والثَّاوى فى يوم مُؤْتة : جعفر بن أَبى طالب (٥) .

وقال رجلٌ من الأَنصار من ولد أَبى زيدٍ القارئ (٦) ، وذكر أَمرَ الأَنصار وأَمرَ قريش :

---

(١) العراجلة : جمع عرجلة ، وهم جماعة الرجالة يمشون على أقدامهم . وأنشد أبو عبيدة :

راحوا يماشون القلوص عشية   عراجلة من بين حاف وناعل

وفى جميع النسخ : « عواجله » بالواو ، صوابه ما أثبت . والمنابر : جمع منبر ، على أنهم ليسوا بخطباء . م : « الثوابر » ط : « النوابر » ، صوابهما فى ب .

(٢) خالوا ، من الخول بالتحريك ، وهم حشم الرجل وأتباعه . والخائل : الذى يخول على أهله وعياله ، أى يرعى عليهم . وفى ب : « حالوا وبينهم » م ، ط : « حالوا بينهم » ، والوجه ما أثبت .

(٣) جاء فى الحيوان ٣ : ٢٣٣ : « ونحن نؤمن بأن جعفراً الطيار ، ابن أبى طالب ، له جناحان يطير بهما فى الجنان ، جعلا له عوضاً من يديه اللتين قطعتا على لواء المسلمين فى يوم مؤتة » .

(٤) ب فقط : « أبو عمارة » .

(٥) كان يوم مؤتة فى الثامنة من الهجرة بين المسلمين والروم . وكان قد حمل لواء المسلمين فيه زيد بن حارثة فقتل ، فحمله جعفر بيمينه فقطعت ، ثم بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه فقتل وخر شهيداً ، فحمل اللواء بعده عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً . وانظر الإصابة ١١٦٢ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٦٨ — ٦٩ وكتب السيرة .

(٦) أى من إخوته وابناء أبيه ثابت بن الضحاك ، وزيد هذ هو زيد بن ثابت بن الضحاك .

دعاها إلى استبدادها وحُقودها   تذكُّرُ قتلى فى القَليبِ تكبكبُوا

هُنالك قتْلى لا تُؤَدَّى دِياتُهم   وليس لباكيها سِوى الصَّبرِ مَذهبُ

فإن تَغضب الأبناءُ من قبْل من مَضَى

فو الله ماجئنا قبيحاً فَتعتبوا [(١)]

٥ — فصـــل منه

قد حكينا قولَ من خالَفَنا فى وجوب الإمامة وتعظيم الخلافة ، وفسَّرنا وجوهَ اختلافهم. واستقصَينا جميعَ حُججهم ، إذْ كان على عذرٍ لمَّا غاب عنه خَصْمُه [(٢)] ، وقد تكفَّل بالإخبار عنه فى ترك الحِيطة له ، والقيامِ بحجته . كما أنَّه لا عُذر له فى التَّقصير عن إفناد [(٣)] من يخالفه [(٤)] ، وكشْفِ خَطاءِ من يضادُّه [(٤)] عند ما قرأَ كتابَه [(٥)] ، وتَفهَّمَ حجته . لأنَّ أقلَّ ما يُزيل عُذرَه ، ويُزيح عِلَّته ، أنْ يكون قولُ خَصمِهِ قد استهدف لعَقْله ، وأَصْحَر للسانه [(٦)] ، وقد مكَّنه من نفسه ، وسلَّطه

=الأنصارى ، كاتب النبى صلى الله عليه وسلم وأمينه على الوحى ، وأحد الذين جمعوا القرآن على عهده ، وهو الذى كتب المصحف لأبى بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار . توفى سنة ٤٥ . وفيه يقول حسان بن ثابت :

فمن للقوافى بعد حسان وابنه   ومن للمعانى بعد زيد بن ثابت

طبقات القراء ١ : ٢٩٦ والإصابة ٢٨٧٤ . وفى الحيوان ١ : ٣٣٦ : « كانوا يكرهون أن يقال قراءة عبد الله ، وقراءة سالم ، وقراءة أبى ، وقراءة زيد » .

(١) ب فقط : « قتل من مضى » .

(٢) م : « إذا كان » . وفى جميع الأصول : « لمن غاب عنه خصمه » .

(٣) الإفناد : تخطئة الرأى ، ومثله التفنيد . وفى الأصول : « إفساد ما يخالفه » .

(٤) ط : « وكشف خطأ » . والخطاء : الخطأ . وفى ب ، م : « من يضاره » ، صوابه فى ط .

(٥) فى الأصول : « عند من قرأ كتابه » .

(٦) أصحر به : انكشف وظهر ، من قولهم : أصحر ، إذا خرج إلى الصحراء . وفى الأصول : « وأضجر للسانه » ، لكن فى ط : « وأضجر لسانه » .

على إظهار عَورته . فإذا استراحَ شغب المنازع [(١)] ، ومداراة المستمع لم يبق إلَّا أن يَقْوَى على خلافِه أو يَعجز عنه .

ومن شكر المعرفة بمغاوى الناس [(٢)] ومَراشدهم ، ومضارِّهم ومنافعهم : أَنْ يحتمل ثِقَل مؤُنتهم وتعريفهم ، وأن يتوخَّى إرشادهم ، وإنْ جَهلوا فَضْلَ مَن يُسدِى إليهِمْ .

ولن يُصانَ العِلمُ بمثل بَذْله ، ولن تُستَبْقَى النَّعمةُ فيه بمثل نَشْرِه .

وأعلم أنَّ قراءةَ الكتب أَبلغُ فى إرشادهم من تَلَاقيهم ، إذْ كان [(٣)] مع التَّلاقى يقوى التصنُّع ، ويكثر التَّظالم ، وتُفرط النُّصرة [(٤)] ، وتنبعث الحميَّة . وعند المزاحَمةَ تشتدُّ الغَلَبةُ — وشهوةُ المباهاة ، والاستحياءُ من الرُّجوع ، والأَنَفة [(٥)] من الخضوع . وعن جميع ذلك تحدُثُ الضَّغائن [(٦)] ، ويظهر التَّباين ، وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفةِ ، وبهذه الحالة ، امتنعَتْ من المعرفة وعَمِيتْ عن الدَّلالة .

وليست فى الكتب عِلَّةٌ تمنع مِن درْك البُغية ، وإصابةالحجَّة ؛ لأَنَّ المتوحِّد بقراءتها ، والمتفرِّدَ بفهم مَعانيها، لايُباهِى نفسَه ولا يُغالِب عَقْله ولا يُعازُّ خَصمه [(٧)] .

والكتاب قد يَفضُل ويرجُح على واضِعه بأُمور :

---

(١) ب فقط : « من شغف المنازع » تحريف .

(٢) ب : « بمعائب الناس » م ، ط : « بمعاريب الناس » .والوجه ما أثبت من الحيوان ١ : ٨٤ . والمراشد تقابلها « المغاوى » . وانظر للكلام على « معائب » ماورد فى تفسير أبى حيان ٤ : ٢٧١ عند الكلام على « معائش » .

(٣) فى الأصول : « إذا كان »

(٤) ب ، م : « ويفرط النصرة » .

(٥) ب ، م : « والألفة » ، صوابه فى ط والحيوان ١ : ٨٤ .

(٦) ب : « يحدث الضغائن » .

(٧) المعازة : المغالبة . وفى الحيوان ١ : ٨٥ : « ولا يغالب عقله » .

منها : أنَّ الكتاب يُقرأُ بكلِّ مكانٍ وفى كلِّ زمان ، على تَفاوُتِ الأعصار ، وبُعْدِ ما بين الأَمصار . وذلك أمرٌ يستحيل فى الواضع[(١)] ولا يُطمَع فيه من المُنازِع[(٢)] . وقد يذهب العالِمُ وتبقى كتبُه[(٣)] ، ويفنى ويبقى أثرُه[(٤)] .

ولولا ما رسمَتْ لنا الأوائلُ فى كتبها ، وخلَّفت من عجيب حِكَمها ودوَّنت من أنواع سِيَرها[(٥)] حتَّى شاهدنا بها ماغاب عَنَّا ، وفتحنا بها المُستغلِقَ علينـا[(٦)] ، فجمعنا إلى قليلنا كثِيرَهم[(٧)] ، وأدركنا ما لم نكن نُدركُه إلَّا بهم، لقد خَسَّ حَظُّنَا فى الحكمة، وانقطع سبيلُنا إلى المعرفة .

ولو أُلجِئْنا إلى قدر قُوَّتنا ومبلغ خواطرِنا ، ومنتهى تجاربنا ، بمـا أدركَتْهُ حواسُّنا ، وشاهدَتْهُ نفوسُنا ، لقد قلَّتِ المعرفةُ وقَصُرت الهِمَّة وضَعُفت المُنَّة ، فاعتقم الرأىُ ومات الخاطر ، وتبلَّد العقـل[(٨)] ، واستبَدَّ بنا سوءُ العادة .

وأكثَرُ مِن كتبهم نفعاً ، وأحسن مِمَّا تكلَّفوا موقعاً[(٩)] ، كُتُبُ الله تعالى ، التى فيها الهُدَى والرَّحمة ، والإخبار عن كلِّ عبرة ، وتعريفُ كلِّ سيِّئةٍ وحَسَنة .

---

(١) فى الحيوان ١ : ٥٨ : « فى واضع الكتاب » .
(٢) ط : « التنازع » تحريف . وفى الحيوان : « والمنازع فى المسألة والجواب » .
(٣) ب ، م : « ويبقى كتبه » وأثبت مافى ط . والذى فى الحيوان : « وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه » .
(٤) فى الحيوان : « ويذهب العقل ويبقى أثره » .
(٥) ب فقط : « سرها » ، صوابه فى م ، ط والحيوان .
(٦) الحيوان : « كل مستغلق علينا » .
(٧) ب فقط : « أكثرهم » ، تحريف .
(٨) فى جميع الأصول : « العاقل » ، وأثبت مافى الحيوان ١ : ٨٦ .
(٩) فى الحيوان : « وأحسن موقعاً » فقط .

فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بَعْدَنا سبيلَ مَنْ قبلنا فينا . مع أنَّا قد وجدنا في العِبرة[١] أكثَرَ ممَّا وجدوا ، كما أنَّ مَنْ بعدنا يجدُ من العِبرة أكثر ممَّا وجدنا .

فما ينتظر الفقيهُ بفقهه والمحتجُّ لدينه ، والذَّابُّ عن مذهبه ، ومُواسِي النَّاسِ في معرفته ، وقد أمكن القولُ وأطرَقَ السَّامع . ونجا من التقيَّة[٢] ، وهبَّت ريحُ العلماءِ .

٦ — فصــل منه

واعلمْ أنَّ قصدَ العبدِ بنعمِ الله تعالى إلى مخالفته ، غير مخرجٍ إنعامَ الله تعـالى عليه ، ولا يحوِّل إحسانه إليه[٣] إلى غير معناه وحقيقته ، ولم يكن[٤] إحسانُ الله في إعطائه الأَداةَ وتبيينَ الحجَّة لينقلبا إفساداً وإساءة ؛ لأنَّ المُعانَ على الطَّاعة عَصَى بالمعونة ، وأفسدَ بالإنعام ، وأساءَ بالإحسان .

وفرقٌ بينَ المُنعِمِ والمنْعَمِ عليه ؛ لأنَّ المنعَم عليه يجب أن يكون شكوراً ، ولِحقِّ النِّعمة راعِياً[٥] ، والمُنعِم منفردٌ بحُسْن الإنعام ، وشريكٌ في جميل الشكر . ولأنَّ المنعِم أيضاً هو الذى حبَّب الشُّكرَ إلى فاعله ، بالذى قدَّم إليه من إحسانه ، وتولَّى من يساره[٦] ، ولذلك جعلوا النِّعمة لِقاحاً ، والشُّكر وِلاداً[٧] . وإنَّما مَثَل إعطاءِ الآلة والتكليف لفعل

---

(١) في الحيوان : « من العبرة » .

(٢) التقية : الحذر والخوف . والذى في الحيوان : « وخوى نجم التقية » .

(٣) ب فقط : « عليه » .

(٤) ب : « ولن يكون » ، صوابه في م ، ط .

(٥) ب : « وبحق النعمة » صوابه في م ، ط . وفي ب ، م « راغباً » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٦) م ، ط : : « من ساره » ، ولا وجه له واليسار : الغنى

(٧) الولاد والولادة والإلادة كلها مصدر للفعل ولد .

الخير[١] مَثَلُ رجلٍ تَصدَّق على فقيرٍ ليستر عَورتَه ، ويُقِيم من أَوَدِ صُلبه ، وليَصْرِف فى منافعه . ولا يكونَ إنفاقُ الفقير ذلك الشيء فى الفسادِ والخلافِ والفَواحش ، لينقلب[٢] إحسانُ المتصدِّق إساءة . وإنَّما هذا بصواب الرَّأْى الذى لاينقلب صواباً وإن أنجح صاحبُه[٣] .

وقد يُؤْتَى[٤] الرَّجل من حَزْمه ولايكون مذموماً ، ويَحْظَى[٥] بالإضاعة ولا يكون محموداً .

٧ — فصــل منه

ولم يكن اللهُ تعالى ليضَعَ العدلَ مِيزاناً بين خلقه ، وعِياراً على عباده ، فى نَظَر عقولهم فى ظاهِرِ ما فَرَض عليهم ، وييسِّرَ[٦] خلافَه ، ويستخفَّ بضدِّه ، ويعلم أن قضاءه فيهم غير الذى فَطَرهم على استحسانه ، وتحبَّب إليهم به ، فى ظاهرِ دينه ، والذى استوجب به عَلَيّ الشُّكْرِ على جميع خلقه .

٨ — فصــل منه

وإنْ لم يكن العبد على ماوصفنا[٧] من الاستطاعة والقُدرة ، والحال التى هى أدعَى[٨] إلى المصلحة ، ماكان متروكاً على طباعه ودَواعِى شهواته ، دونَ تعديلِ طَبْعه وتسويةِ تركيبه .

ولذلك أَسبابٌ نحن ذاكروها ، وجاعِلُوها حجّةً فى إقامة الإمامة ،

---

(١) فى جميع الأصول : « لفعل الخير » ، وإنما يقال كلفه بالأمر وكلفه إياه .
(٢) ب ، م : « لتنقلب » صوابه فى ط .
(٣) ب : « وإنما أنجح صاحبه » .
(٤) ب ، م : « يوق » ، صوابه فى ط .
(٥) يحظى ، من الحظوة . وفى ب ، م : « يخطى » ، صوابه فى ط .
(٦) ما عدا ط : « ويسر » .
(٧) ب : « وصفنا به » و « به » مقحمة
(٨) ب ، م . « ادعا » ط : « ادعاه » ، والوجه ما أثبت .

وأنَّ عليها مدارَ المصلحة ، وأنَّ طبع البَشَر يمتنع من الإخبار إلَّا على مانحنُ ذاكروه ، فنقول :

إنَّا لما رأينا طبائعَ الناس وشَهواتِهم ، من شأْنها التقلُّبُ إلى هَلَكتهم وفسادِ دينهم ، وذَهَاب دُنْياهم ، وإن كانت العامَّة أسرعَ إلى ذلك من الخاصَّة ، فكلٌّ لاتنفك[1] طبائعُهم من حَمْلِهم على مايُرْدِيهم[2] ، مالم يُرَدُّوا بالقَمْع الشَّديد فى العاجل ، من القصاص العادل ، ثم التَّنكيلِ فى العقوبة على شرِّ الجِنايَة[3] ، وإسقاط القَدْر ، وإزالة العدالة ، مع الأَسماءِ القبيحة ، والأَلقاب الهجينة ، ثم بالإخافة الشَّديدة والحَبْس الطويل ، والتغريب عن الوطن[4] ، ثم الوعيد بنار الأَبَد ، مع فَوْتِ الجنَّة .

وإنَّما وضع الله تعالى هذه الخصالَ لتكون لقوَّة العَقْل مادَّة ، ولتعديل الطَّبائع مَعُونة ؛ لأَنَّ العبد إذا فَضَلَتْ قُوَى طبائعِه وشهواتِه على قُوَى عقلِه ورأْيِه ، أُلفِيَ[5] بصيراً بالرُّشد غيرَ قادرٍ عليه ، فإذا احتوشَتْه المخاوفُ كانت موادَّ لزواجر عقلِه ، وأَوامِرِ رأْيه . فإذا لم يكن فى حوادث الطَّبائع ودَواعِي الشَّهوات وحُبِّ العاجل فضـــلٌ على زواجرِ العقل وأَوامرِه[6] أُلفِيَ العبدُ ممتنعاً من الغَيِّ قادراً عليه ؛ لأنَّ الغضب والحَسَد والبُخلَ والجُبْن ، والغَيرة ، وحُبَّ الشَّهواتِ والنِّساء ، والمكاثرةَ[7] ،

---

(١) ب ، م : « لاينفك » .
(٢) الإرداء : الإهلاك . وفى م فقط : « يؤديهم » ، تحريف .
(٣) فى الأصول : « الخيانة » ، والوجه ما أثبت .
(٤) م : « والغريب عن الوطن » ، تحريف .
(٥) ب : « ألق » ط : « ألغى » ، صوابه فى م .
(٦) ب : « عن على زواجر العقل » ، و« عن » مقحمة وفى م « وأوامر العى » . تحريف .
(٧) ط : « والمكاشرة » . والمكاشرة : المباسطة

والعُجْب والخُيَلاءَ وأنواعَ هذه إذا قَوِيتْ دواعيها لأَهلها ، واشتدَّت جَواذِبُها لصاحبها ، ثم لم يَعلَمْ أنْ فوقه ناقماً عليه ، وأنَّ له منتقماً لنفسه من نَفْسه ، أو مقْتضِياً منه لغيره ، كان مَيلُه وذَهابه مع جواذب الطَّبيعةِ ودواعي الشَّهوةِ طِباعاً لا يمتنع معه ، وواجباً لا يستطيع غيره .

أوَمَا[1] رأيتَه كيف يَخْرَق في ماله[2] ، ويُسرِع فيما أثَّلَتْ له رجالُه ، وشيَّدت له أوائله[3] ، من غير أن يرى لِلعَوض وجهاً ، وللخَلَف سبباً في عاجل دينِه ، ولا آجِلِ دُنْياه ، حتَّى يكون وَالِي المسلمينَ هو الذى يَحجُرُ عليه ؛ ليكون مضَضُ الحَجْر وذُلُّ الحَظْر ، وغِلظةُ الجَفوةِ. واللَّقبُ القبيح ، وتسليط الأَشكال ، مادّةً للذى معه من مَعرفتهِ وبقيَّةِ عقله .

٩ ـ فصــل منه

وقد يكون الرَّجلُ معروفاً بالنَّزَق[4] مذكوراً بالطَّيش مُستهاماً بإظهار الصَّولة حتَّى يتحامَى كلامَه الصَّديقُ ، ويُداريهِ الجليس ، ويَترُكَ مُجارَاتَهُ[5] الكَريم ، للذى يعرفون من شذَاتِه[6] ، وبَوَادرِ حِدَّته[7] وشدَّةَ تسعُّره والتهابه ، وكثرةِ فَلتاتِه . ثم لايلبث أن يَحضُر الوالى الصَّليبُ والرجلُ المنيع ، فيُلفَى ذليلًا خاضعاً ، أو حليماً وقوراً ، أو أديباً رفيقاً ، أو صبوراً مُحتسِباً .

---

(١) ب فقط : « أوأما » ، تحريف .

(٢) الخرق ، بالتحريك : نقيض الرفق . ب : « يحزق » ، تحريف .

(٣) في الأصول : « وشدت له أوائله » .

(٤) النزق : الطيش والخفة . ب : « بالنزف » م : « بالنرق » ، صوابهما في ط .

(٥) في الأصول : « مجازاته » بالزاى .

(٦) الشذاة : الشر والأذى . ب : « شداته » م : « شدانه » ، صوابهما ما أثبت . وفي ط : « شدته » .

(٧) ب ، م : « ونوادر حده » ، صوابه في ط .

وقد نجده يَجْهَل على خصمه ، ويَستطيلُ على منازِعه ، ويهُمّ بتناوله والغدرِ به[١] ، فإذا عرَفَ له حُماةً تكفيه ، وجُهّالًا تحميه ، وجاهاً يمنعُه ، ومالًا يَصُول به ، طامَنَ له مِن شخصه ، وألَانَ له من جانبه ، وسكّنَ من حركته ، وأطفَأ نارَ غضبه .

أو ما علمت أنَّ الخوف يطرد السُّكر ، ويُميت الشَّهوة ، ويُطفئُ الغَضَب ، ويحطُّ الكِبْر ، ويذكِّر بالعاقبة ، ويُساعِدُ العقل ، ويُعاون الرَّأى ، ويُنبِتُ الحيلة[٢] ويبعث على الرويَّةِ ؛ حتَّى يعتدل به تركيب من كان مغلوباً على عقله ، ممنوعاً من رأيه ، بُسكْر الشَّباب وسكر الغَنَاءِ[٣] وإهمال الأمر ، وثقة العزّ ، وبَأْوِ القدرة[٤] .

١٠ ــ فصل منه

وإنَّما أطنَبْتُ[٥] لك فى تفسيرِ هذه الأحوالِ التى عليها الوجــودُ والعبرةُ ، لتعلمَ أنَّ الناس لو تُرِكوا وشهواتِهِم ، وخُلُّوا وأهواءَهم[٦] وليس معهم من عقولهم إلا حِصَّة الغرِيزه[٧] ونصيبُ التركيب . ثم أُخْلُوا من المرشِدِين والمؤدِّبين ، والمعترضين بينَ النفوس وأهوائها ، وبين الطَّبائع وغَلَبَتِها ، من الأنبياءِ وخلفائها ، لم يكن فى قُوَى عُقولِهم ما يُداوُون به أدواءَهم ، ويَجْبُرون[٨] به من أهوائهم ، ويقوَون به لمحاربَة طبائِعهم[٩] ، ويعرفون به جميع مصالحهم .

(١) ب ، م : « بتناوله بالأمر به » ، صوابه فى ط .
(٢) ب ، م : « ويسبب الحيلة » .
(٣) الغناء ، كسحاب : مقابل الفقر ، وهو الغنى ، تكسر الغين فيقصر وتفتح فيمد . ب ، م : « الغنا » ط : « الفناء » صوابهما ما أثبت .
(٤) البأو : الكبر والفخر .
(٥) ب ، م : « أطنبت » ، ووجهه فى ط .
(٦) فى الأصول : « تركوا شهواتهم وخلوا أهواءهم » ، والوجه ما أثبت .
(٧) ب فقط : « العزيز » ، صوابه فى م ، ط .
(٨) الجبر : الإصلاح . وفى الأصول : « ويخبرون » .
(٩) ب فقط : « ويقولون به لمحاربته طبائعهم » ، تحريف .

وأيُّ داءٍ هو أردَى من طبيعةٍ تُردِى ، وشَهوةٍ تُطْغِى ؟! ومن كان لايَعُدُّ الداءَ إلّا ما كان مُؤْلِماً فى وقته ، ضارباً على صاحبه فى سوادِ ليله[(١)] وبياضِ نهاره ، فقد جهلَ معنى الداء . وجاهلُ الدَّاء جاهلٌ بالدواء .

١١ – فصـــل منه

ولكنَّا نقولُ: لايجوز أن يَلِيَ أمرَ المسلمين على ظاهر الرَّأْى والحزم والحَيْطة أكثَرُ من واحد ، لأنَّ الحُكَّامَ والسَّادةَ إذا تقاربَتْ أقدارُهم وتساوت عِنَايَتُهم[(٢)] قويَتْ دواعيهم إلى طلب الاستعلاء ، واشتدَّت منافَسَتُهُمْ فى الغلبة .

وهكذا جرَّبَ النَّاسُ من أنفسهم فى جيرانهم الأدْنَيْنَ فى الأَصهار وبنِى الأعمام ، والمتقاربين فى الصِّناعات ، كالكلام ، والنجوم ، والطِّبِّ والفُتْيا ، والشِّعر ، ، والنحو والعَروض ، والتِّجارة ، والصِّباغة ،والفلاحة أنَّهم إذاتدانَوْا فى الأَقدار ، وتَقَاربوا فى الطَّبقات ، قوِيَتْ دواعيهم إلى طَلَب الغَلَبةِ ، واشتَّدت جَوَانبُهم فى حبِّ المباينة ، والاستيلاء على الرِّياسة .

ومتى كانت الدَّواعى أقوى كانت النَّفس إلى الفساد أَمْيَلَ ، والعزمُ أضعف ، وموضع الرويَّة[(٣)] أشغل ، والشَّيطانُ فيهم أطمع ؛ وكان الخوفُ عليهم أشدَّ ، وكانوا بموافَقَة المفسِدِ أحْرَى ، وإليه أقرب .

وإذا كان ذلك كذلك فأَصلح الأُمورِ للحُكَّام والقَادة ، إذا كانت[(٤)] النفوسُ ودواعيها ومَجرى أفعالها على ما وصفنا ، أن تُرفَعَ عَنهم أسبابُ التَّحاسُدِ والتَّغالب ، والمباهاةِ والمنافسةِ .

---

(١) ب فقط : « فى سواء ليله » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « عيناتهم » ، صوابه فى ط .
(٣) ب ، م : « الرؤية » ، صوابها فى ط .
(٤) ب فقط : « وإذا كانت » ، تحريف .

وإنَّ[١] ذلك أدعَى إلى صَلاحِ ذاتِ البَيْن ، وأَمْنِ البَيْضة ، وحِفْظ الأطراف .

وإذا كان اللهُ تَبارَكَ وتعالى ، قدْ كلَّف النَّاسَ النظَر لأنفُسِهم[٢] ، واستيفاء النِّعمة عيهم ، وترك الخِطار[٣] بالهَلَكة والتَّغرير بالأُمَّة ، وليس عليهم مِمَّا يمكنهم[٤] أكثرُ من الحَيْطة والتَّباعد من التَّغرير . ولاحالَ أدعَى إلى ذلك أكثرُ مِمَّا وصفْنا ، لأنَّه أشبهُ الوجوهِ بتمام المَصلحة ، والتَّمتُّع بالأَمن والنِّعمة .

١٢ — فصل منه

فلمَّا كان ذلك كذلك علمنا أنَّه إذا كان القائمُ بأُمور المسلمين بائِنَ الأَمْرِ ، متُفَرِّدًا بالغاية من الفَضْل ، كانت دواعِي النَّاس إلى مسابقته ومُجاراتِه أقلَّ .

ولم يكن اللهُ لِيَطبَعَ[٥] الدُّنيا وأهلَها على هذه الطبيعة ، ويركِّبها وأهلَها[٦] هذا التركيب ، حتَّى تكون إقامةُ الواحدِ من النَّاسِ أَصلحَ لهم ، إلَّا وذلك الواحدُ موجودٌ عند إرادتِهم له ، وقصْدِهم إليه ؛ لأنَّ الله لايُلْزِمُ النَّاسَ فى ظاهر الرَّأى والحِيطة إقامةَ المعدوم ، وتشييد المجهول[٧] ؛ لأنَّ على النَّاس التسليم ، وعلى الله تعالى قَصْدُ السَّبيل .

---

(١) ب ، م : « إن » بسقوط الواو .
(٢) ب فقط : « إلى أنفسهم » ، تحريف .
(٣) الخطار : المخاطرة . ط فقط : « الخطر » ، ولا وجه له .
(٤) ب ، م : « وليس عليهم أكثر مما يمكنهم » ، و « أكثر » هنا مقحمة .
(٥) ب ، م : « ولو لم يكن » . و « لو » مقحمة . وفى م ، ط : « ليطيع » تحريف ، صوابه فى ب .
(٦) ط : « ويركبها أهلها » ، صوابه فى ب ، م .
(٧) ب ، م : « وتشريد المجهول » ، صوابه فى ط .

وهل رأيتم مَلِكين أوسيِّدين فى جاهليَّةٍ أو إسْلامٍ ، من العرب جميعاً أو من العَجَم ، لايتحيَّفُ أحدُهما مِن سلطانِ صاحبِهِ ولا يَنْهَك أطرافَه ، ولا يُساجلُه الحروبَ ؛ إذْ كلُّ واحدٍ منهما يَطمع فى حَدِّ صاحبِه وطَرَفِه ، لتقارُب الحال ، واستواءِ القَرِيِّ [١] . كما جاءت الأخبار عن ملوك الطَّوائف كيف كانت الحروب راكدةً وأمرهم مَرِيجٌ [٢] ، والنَّاس نَهْبٌ ، ليس ثغْرٌ إلَّا معطَّل ، ولا طَرَف إلَّا مُنكشِفٌ ، والنَّاسُ فيما بينَهم مشغولون بأنفسهم [٣] ، ملوكُهم من عَزَّ بَزَّ ، مع إنفاق المال [٤] ، وشُغْل البال ، وشدة الخِطار [٥] بالجميع ، والتَّغرير بالكلِّ .

١٣ — فصل منه

فإن قالوا : فما صفة أفضلهم ؟

قلنا : أن يكون أقوى طبائعه عَقْلَه ، ثم يصل قَوَّةَ عقله بشدَّة الفحصِ وكثرةِ السَّماع ، ثمّ يصلَ شدَّة فحصِه وكثرةَ سماعه بحُسْن العادة . فإذا جَمَعَ إلى قوة عقله [٦] علماً ، وإلى علمه حَزْماً ، وإلى حزمه عزماً ، فذلك الذى لا بَعْدَه .

وقد يكون الرَّجلُ دونَه فى أُمورٍ وهو يستحقُّ مرتبةَ الإمامة ، ومنزلةَ الخِلافة ، غير أنَّه على حالٍ لا بدَّ من أن يكون أفضلَ أهلِ دَهرِه . لأنَّ من التعظيم لمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يُقامَ فيه إلَّا أشبهُ

(١) القرى ، كغنى : مجرى الماء فى الروض . ب : « واستوى القرى » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) ب : « وأمر مريج » . والمريج : المختلط . وفى الكتاب العزيز : « فهم فى أمر مريج » .
(٣) أى هذا نهجهم وسبيلهم . أى من غلب سلب . وهذا المثل لعبيد بن الأبرص ، أو جابر بن رألان . وانظر الضبى ٥٣ والفاخر ٨٩ والعسكرى ٢ : ٢٨٨ واللسان (بزز) .
(٤) ط فقط : « اتفاق المال » .
(٥) ط فقط : « الخطر » .
(٦) ب ، م : « إلى عقله » باسقاط « قوة » .

النَّاسِ به في كلِّ عصر . ومن الاستهانةِ به أن يُقامَ فيه من لا يُشبِهه وليس في طريقته .

وإنَّما يُشبِه الإمامُ الرسولَ بأَن يكون لا أَحَدَ آخَذُ (١) بسيرته منه. فأَمّا أن يُقارِبَه أو يُدانِيَه فهذا مالا يجوز، ولا يَسَع تمنِّيه، والدُّعاءُ به.

١٤ — فصل منه

وإذا كان قولُ المهاجرينَ والأَنصارِ والذين جَرَى بينهم التَّنافُس والمُشَاحَّةُ على ماوصفْنا في يوم السَّقيفة، ثم صنيعُ أَبي بكر وقولهُ لطلحة في عمر ؛ وصنيعُ عمر في وَضْع الشُّورى وتوعُّدِهم له بالقتل إنْ هم لم يُقيموا رجلًا قبل انقضاء المدّة ، ونُجوم الفِتنة ؛ ثم صنيعُ عثمان وقولُه وصبرُه حتَّى قُتِلَ دونها ولم يُخْلَعها ؛ وأَقوال طلحة (٢) والزُّبيرِ وعائشةَ وعليٍّ رحمة الله عليهم وعليها ، ليست بحجّةٍ على ماقُلْنا — فليست في الأَرضِ دَلالةٌ ولا حجّةٌ قاطعة (٣).

وفي هذا البابِ الذي وصفْنا ، ونزَّلنا (٤) من حالاتهم وبيَّنَّا ، دليلٌ على أَنَّهم كانوا يرون أَنَّ إقامة الإمام فريضةٌ واجبة ، وأَنَّ الشَّركةَ عنها منفيّة ، وأَنَّ الإمامة تجمع صلاحَ الدِّين وإيثارَ خيرِ الآخرةِ والأُولى .

---

(١) ب: « الآخذ آخذ » م: « لاأخذ آخذ » ط: « بأن يكون آخذا »، والصواب ما أثبت .

(٢) ب ، م : « وقال طلحة » ، صوابه في ط .

(٣) ب ، م : « ونولنا » ، وفي ط : « وبينا » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) ب ، م : « ظاهرا » ، صوابه بالمهملة كما في ط .

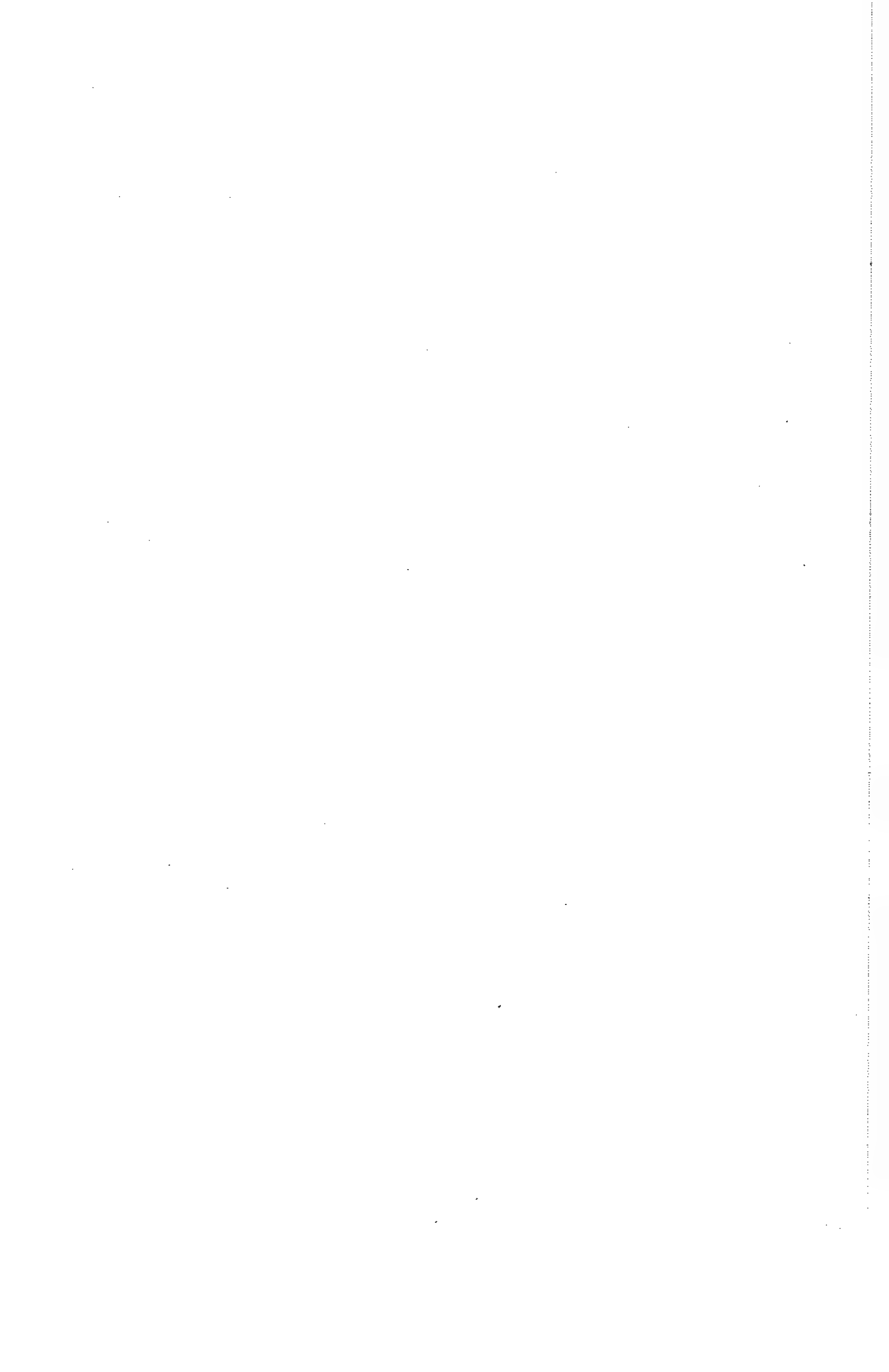
١٥ – فصل منه

وأيُّ مذهبٍ هو أشنَعُ ، وأيُّ قولٍ هو أفحش ، من قول من قال : لابُدَّ للشاهد من أن يكون طاهراً عدلا مأْموناً ، ولا بأْسَ [1] أن يكون القاضى جائِراً ، نَطِفاً فاجراً [2] ، وهذا لا يشبه حُكْمَ الحكيم ، وصِفَةَ الحليم ، ونظَرَ المرشِد ، وترتيبَ العالِم .

---

(١) فى الأصول : « ولا يأمن » .

(٢) النطف : الذى ينطف بالفجور ، أى يرمى به ويقذف ، اى من أهل الريبة . ب ، م : « نطقاً » ط : « نطعاً » صوابه بالفاء كما أثبت .



٢٩

من كتابه في

مقالة الزيدية والرافضة

١ — فصل

من صدر كتابه فى مقالة الزيدية والرافضة(١)

اعلمْ – يرحمُنا اللهُ وإيَّاك – أنَّ شيعةَ علىٍّ رضى الله عنه زَيدىٌّ ورافضىٌّ ، وبقيتهم بَدَدٌ لانظامَ لهم ، وفى الإخبار عنهما غناء (٢) عمن سواهما (٣) .

قالت علماءُ الزَّيدية : وجدنا الفَضْل فى الفعل دون غيره ، ووجدنا الفعل كلَّه فى أَربعة أَقسَام :

أَوَّلها : القِدَم فى الإسلام حين لا رغْبَةَ ولا رهبةَ إلاَّ من الله تعالى وإليه.

ثم الزُّهدُ فى الدُّنيا ؛ فإنَّ أَزهدَ الناس فى الدُّنيا (٤) أَرغبُهم فى الآخرة ، وآمنُهمْ على نفائس (٥) الأَموالِ ، وعقائل النِّساء ، وإراقة الدِّماء .

ثم الفقهُ الذى به يَعرِفُ النَّاسُ مصالحَ دُنْياهم ، ومَراشدَ دينهم .

ثم المَشْىُ بالسَّيفِ كِفاحاً فى الذَّبِّ عن الإسلام وتأْسيسِ الدِّين ؛ وقَتْلُ عدوِّه وإحياءُ وليِّه ؛ فليس فوقَ بذلِ المُهْجة واستغراق القُوَّة غايةٌ يطلبها طالب ، أَوْ يرتجيها راغب (٧) .

ولم نجد قولًا خامساً فنذكُرَه .

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٩١ – ٣٠١

(٢) الغناء ، بالفتح : الكفاية . ب : « غنا » م : « غنى » وأثبت ما فى ط .

(٣) ط : « عن سواهما » .

(٤) ط فقط : « فى الناس » .

(٥) ب فقط : « نفس الأموال » .

(٦) الكفاح : المواجهة والمضاربة فى الحرب تلقاء الوجوه .

(٧) ب فقط : « ويرتجيها راغب » .

فلمَّا رأينا هذه الخِصال مجتمعةً فى رجلٍ دون النَّاسِ كلِّهم وجَبَ علَينا تفضيلُه عليهم، وتقديمه دُونَهم.

وذاكَ أنَّا سألنا العلماءَ والفقهاءَ، وأصحابَ الأخبار، وحُمَّالَ الآثار، عن أوَّلِ النَّاسِ إسلاماً، فقال فريقٌ منهم: علىٌّ، وقال قومٌ: زيد بن حارثة، وقال قومٌ: خَبَّاب. ولم نَجِدْ قولَ كلِّ واحد منهم من هذه الفرقِ قاطعاً لعُذْر صاحبه، ولا ناقلًا عن مذهبه، وإن كانت الرواية فى تقديم علىٍّ أشهر، واللَّفظُ به أكثر[1]

وكذلك إذا سألْناهم عن الذَّابِّين عن الإسلام بمَهَجِهم[2]. والماشِينَ إلى الأقران بسُيوفهم، وجَدْناهم مختلفِين:

فمن قائل يقول: علىٌّ رضى الله عنه، ومن قائلٍ يقول: الزُّبير، ومن قائل يقول: ابن عَفْراءَ[3]، ومن قائلٍ يقول: مُحمَّد بن مَسْلَمة، ومن قائلٍ يقول: طلحة، ومن قائلٍ يقول: البَرَاءُ بنُ مالك[4].

على أنَّ لعلىٍّ مِن قتلِ الأقرانِ والفُرْسان ماليس لهم، فلا أقلَّ من أن يكون علىٌّ فى طبقتهم.

وإنْ سألناهم عن الفُقهاءِ والعلماءِ، رأيناهم يعُدُّون عليًّا كان أفقهَهُمْ[5]، وعُمرَ، وعبدَ الله بنَ مسعودٍ، وزيدَ بنَ ثابتٍ، وأُبَىَّ بنَ كعب.

(١) ب فقط: «واللفظ أكثر».
(٢) ب فقط: «بمجتهم»، تحريف.
(٣) انظر حواشى صفحة ٢٠٨.
(٤) البراء بن مالك: صحابى جليل، وهو أخو أنس بن مالك الأنصارى. وهو قاتل مرزبان الزارة، يوم تستر. انظر الإصبة ٦١٧.
(٥) ط: «يعدون عليا أفقههم».

على أنَّ عليًّا كان أفقَهَهم [١]، لأنَّه كان يُسأَل ولا يَسأَل، ويُفتِى ولا يستفتِى، ويُحتاجُ إليه ولا يَحتاج إليهم. ولكن لا أقلَّ من أن نجعلَه فى طبقتهم وكأحدهم.

وإنْ سألناهم عن أهل الزَّهادة وأصحاب التقشُّف، والمعروفين برَفْض الدُّنيا وخَلْعِها، والزُّهْدِ فيها، قالوا: علىٌّ، وأبو الدَّرداء، ومُعاذُ ابنُ جبَل، وأبو ذرٍّ، وعَمَّارٌ، وبلالٌ، وعثمانُ بنُ مظعون.

على أنَّ عليًّا أزهدُهُم؛ لأنَّه شاركهم فى خُشونة الملبس وخشونة المأْكَل، والرِّضا باليسير، والتبلُّغ بالحقير [٢]، وظَلْفِ النَّفس [٣]، ومُخالَفَة الشَّهوات. وفارقَهم بأَنْ مَلكَ بُيوتَ الأموال ورِقابَ العَرب والعَجم، فكان ينضَحُ بيتَ المال فى كلِّ جُمُعةٍ ويصلِّى فيه ركعتين. ورَقَّع سراويلَه بالقِدِّ [٤]، وقطَعَ ما فَضَل من رُدْنِهِ [٥] عن أطراف أصابعه بالشَّفْرة. فى أُمور كثيرة. مع أنَّ زُهْدَه أفضلُ من زُهْدهم؛ لأنَّه أعلَمُ منهم. وعِبادةُ العالِم ليست كعبادةِ غيره، كما أنَّ زلَّتَه ليست كزَلَّة غيره. فلا أقلَّ من أن نَعُدَّه فى طبقتهم.

ولا نجدُهم ذكَروا لأبى الدَّرداءِ، وأبى ذرٍّ، وبلال، مثلَ الذى ذكروا له فى باب الغَنَاءِ [٦] والذَّبِّ، وبذْلِ النفس. ولم نجدْهم ذكروا للزُّبير، وابن عفراءَ [٧] وأبى دُجانة، والبَراء بنِ مالك، مثلَ الذى ذكروا له

(١) ب: «أفقه منهم».
(٢) ط: «والتبليغ» تحريف. والتبلغ بالشىء: الاكتفاء به.
(٣) ظلف النفس: منعها وكفها. ط: «وصلف النفس»، تحريف.
(٤) ط: «ورقع سراويله» فقط. وفى ب، م: «بأبقر» صوابه ما أثبت. والقد، بالكسر: السير يقد من الجلد، أى يقطع.
(٥) الردن، بالضم: الكم. ب: «من دونه» ط: «من ردائه» والوجه ما أثبت من م.
(٦) ب، م: «الغبا»، والوجه ما أثبت من ط. وانظر ما سبق فى ص ٣١١.
(٧) ب فقط: «وابن عمر». وانظر ما سبق فى حواشى ص ٢٠٨.

من التقدُّم فى الإسلام ، والزُّهد ، والفقه . ولم نجدهم ذكروا لأَبى بكرٍ وزيدٍ، وخَبَّابٍ ، مثلَ الذى ذكروا له من بَذْل النفس والغَنَاء، والذَّبِّ بالسَّيف (١) ، ولا ذكروهم فى طبقةِ الفُقهاءِ والزُّهَّاد .

فلمَّا رأينا هذه الأُمورَ مجتمعةً فيه ، متفرِّقة فى غيره من أصحاب هذه المراتبِ وهذه الطبقات ، علمنا أنَّه أفضلُهم ، وإنْ كان كلُّ رجل منهم قد أخذ من كلِّ خيرٍ بنصيب (٢) فإنَّه لن يبلغَ ذلك مبلغَ من قد اجتمع له جميعُ الخَيرِ وصُنوفه .

٢ — فصـــل منه

وضربٌ آخرُ من الناس هَمَجٌ هامجٌ (٣)، ورَعَاعٌ منتشرٌ ، لانظامَ لهم ، ولا اختيار عندهم ، أعرابٌ أجلاف ، وأشباه الأَعراب . يفترقون [حيث يفترقون ، ويجتمعون حيثُ يجتمعون(٤)] ؛ لاتُدفع صَولتُهم إذا هاجوا ، ولا يُؤمَن هَيَجانُهم (٥) إذا سكَنُوا . إنْ أخصَبُوا طَغَوْا فى البلاد ، وإنْ أجدَبوا آثَرُوا العِناد .

ثم هم موكَّلون بُبغض القادةِ ، وأهلِ الثَّراءِ(٦) والنَّعمة ، يتمنَّون النَّكبة ، ويَشْمتُون بالعَثْرةِ ، ويُسرُّون بالجَوْلة ، ويترقَّبون الدائِرة .

وهُمْ كما وُصِفوا الطَّغامُ والسِّفلة .

---

(١) ب ، م : « والدب بالسيف » ، وإنما هو « الذب » كما فى ط . : الدفاع .

(٢) كل ، ساقطة من م .

(٣) الهمج ، بالتحريك : رذال الناس . وأصل الهمج ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الإبل والغنم والحمير وأعينها . والهامج : الذى ترك بعضه يموج فى بعض ، أو هو على المبالغة ، كما يقال ليل لائل .

(٤) التكملة من م ، ط .

(٤) م : « ~~تهيجهم~~ » .

(٥) ط : « وأهل الثرى » ، وهى صحيحة . وفى اللسان : « ثرى الرجل يثرى ثرى وثراء ، ممدود ، وهو ثرى ، إذا كثر ماله » .

(٦) ب : « وهم كلما وصفوا » ، صوابه فى م ، ط .

وقال علىٌّ رضى الله عنه فى دعائه : « نعُوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يُمْلكُوا ، وإذا افترقوا لم يُعرَفوا » . فهؤلاء هؤلاء .

وضربٌ آخرُ قد فَقِهوا فى الدِّين ، وعَرَفوا سببَ الإمامة ، وأقنعهم الحقُّ وانقادُوا له بطاعة الرُّبوبيَّة وطاعةِ المحبَّة ، وعرفوا المِحْنة[١] وعرفوا المَعْدِن ، ولكنَّهم قليلٌ فى كثير ، ومختارُ كلِّ زمان[٢] . وإن كثرُوا فهم أقلُّ عدداً وإن كانوا أكثر فِقْهاً .

فلما كان النَّاس عند علىٍّ وأبى بكر وعُمرَ ، وأبى عبيدة ، وأهلِ السَّابقة المهاجِرينَ والأنصار ، على الطَّبقات التى نزَّلنا ، والمنازل التى رتَّبنا ، وبالمدينة مُنافِقون يَعَضُّون عليهم الأناملَ من الغَيظ ، وفيها بِطانةٌ لا يألُونَهُم خَبالًا[٣] ، لا يَخفَى عليهم موضعُ الشَّدَّة وانتهازِ الفرصة ، وهم فى ذلك على بقيَّة[٤] ، ووَافق[٥] ذلك ارتدادُ مَنْ حولَ المدينةِ من العرب ، وتوعُّدهم بذلك[٦] فى شَكاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وصحَّ به الخبر .

ثم الذى كان من اجتماع الأنصار حيث انحازُوا من المهاجرين وصاروا أحزاباً وقالوا : « منَّا أميرٌ ومنكم أمير » ، فأشفقَ علىٌّ أن يُظهِرَ إرادةَ القيام بأمر النَّاسِ ، مخافةَ أن يتكلَّم متكلِّم أو يشغبَ شاغب ممن وصفنا حالَه ، وبيَّنَّا طريقتَه ، فيحدُثَ بينهم فُرقةٌ ، والقلوبُ على

---

(١) فى الأصول : « المحبة » .

(٢) ب ، م : « ويختار كل زمان » ، والوجه ما أثبت . على أن هذه العبارة ساقطة من ط .

(٣) أى لا يقصرون فى إفساد أمرهم .

(٤) ط فقط : « على تقية » .

(٥) ب ، م : « وافق » بسقوط الواو .

(٦) ب : « فى ذلك » .

ماوصفْنا ، والمنافقون على ماذكَرْنا ، وأهلُ الرِّدَّة على ما أخبرنا ، ومذهبُ الأنصارِ على ما حكَينا .

فدعاه النَّظرُ للدِّين إلى الكفِّ عن الإظهار والتَّجافى عن الأُمور ، وعلِمَ أنّ فَضْل ما بينه وبين أبى بكر فى صلاحهم لوكانوا أقاموه[1] ، لايُعادل التَّغريرَ بالدِّين ، ولايَفِى بالخِطار بالأنفس[2] ؛ لأَنَّ فى الهَيْج البائِقةَ[3] ، وفى فساد الدِّين فسادَ العاجلةِ والآجلة . فاغتَفَر الخُمولَ ضَنًّا بالدِّين ، وآثَرَ الآجلةَ على العاجلةَ ، فدلَّ ذلك على رَجاجة حِلمِهِ ، وقلَّة حِرصِه ، وسَعَةِ صَدْرِه ، وشدَّةِ زُهده ، وفرطِ سماحتِه[4] وأصالة رأيه .

ومتى سَخَتْ نفسُ امرئٍ عن هذا الخَطْب الجليل ، والأمرالجزيل ، نَزَل من الله تعالى بغاية منازل الدِّين .

وإنَّما كانت غايتهم فى أمرهم أَربَحَ الحالينِ لهم ، وأعونَ على المقصود[5] إذ علِمَ أنَّ هَلَكتهم لا تقوم بإزاء صَرْفِ مابين حالِه وحال أبى بكر فى مصلحتهم .

---

(١) ب : « لوكانوا أقاموا » م : « لوكان أقاموه » ، وأثبت الوجه من ط .
(٢) ط : « بالخطر بالأنفس » .
(٣) البائقة : الداهية ، يقال باقتهم تبوقهم بوقا : أصابتهم ، ومثله فقرتهم الفاقرة . ب : « لأن الهيج البائعة » ط : « لأن فى الهيج البائقة » ، وأثبت ما فى م .
(٤) ب ، م : « سماحه » . والسماح والسماحة بمعنى ، هو المساهلة ، وهو الجود والسخاء .
(٥) ب ، م : « وأعوذ المقصور عليهم » صوابه فى ط .
(٦) ب ، م : « واعلم » ، صوابه من ط .

٣ — فصل منه

وإنَّما ذكرتُ لك مذهَبَ من لا يجعل القرابة والحَسَبَ سبباً إلى الإمامة ، دونَ مَنْ يجعل القرابة سبباً من أسبابها وعِلَلِهَا[١] ، لأنِّى قد حكيته (فى كتاب الرَّافضة) ، وكان ثَمَّ أوقَعَ ، وبهم أَلْيَق ؛ وكرهتُ المُعادَ من الكلام والتَّكرارَ ؛ لأنَّ ذلك يُغْنى عن ذكره فى هذا الكتاب ، وهو مَسْلكٌ واحدٌ ، وسبيل واحد .

وإنَّما قصدتُ إلى هذا المذهبِ دونَ مذهب سائر الزيديَّة فى دلائلهم وحُججهم[٢] ، لأنَّه أحسَنُ شيءٍ رأيتُه لهم. وإنَّما أحكى لك من كلِّ نحلةٍ قَوْلَ حُذَّاقهم وذَوِى أحلامِهم ، لأنَّ فيه دلالةً على غيره ، وغِنًى عمَّا سواه.

وقالوا : وقد يكون الرجلُ أفضَلَ النَّاسِ ويلى عليهِ[٣] مَنْ هو دونه فى الفَضْل ، حتَّى يكلِّفه الله طاعتَه وتقديمَه ؛ إمَّا للمصلحة ، وإمَّا للإشفاق من الفِتنة[٤] ، كما ذكرنا وفسَّرنا ، وإمَّا للتغليظ فى المِحْنة وتَشديد البَلْوى والكُلفة[٥] ، كما قال تعالى للملائكة : ﴿ اسجدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبليسَ أبَى[٦] ﴾ . والملائكةُ أفضل من آدم ، فقد كلَّفهم الله أغلَظَ المِحَن وأشدَّ البَلْوى ، إذْ ليس فى الخضوع أشدُّ من السُّجود على السَّاجدِ له . والملائكة أفضَلُ من آدمَ ، لأنَّ جبريل وميكائيلَ وإسرافيل عندالله تعالى من المقرَّبين قَبْلَ خَلْقِ آدمَ بدهرٍ طويل ، لِمَا قدَّمَتْ من العبادة[٧] ، واحتملَتْ من ثِقَلِ الطَّاعة .

(١) ب فقط : « وعالمها » ، تحريف .
(٢) ط فقط : « ولأنهم » ، تحريف .
(٣) ب : « ويلى غيره » .
(٤) ب ، م : « وإما إشفاق من الفتنة » ، صوابه فى ط .
(٥) أى التكليف . وهذه الكلمة ساقطة من م .
(٦) من الآية ٣٤ من البقرة و ١١٦ من طه .
(٧) ب ، م : « المعابدة » . ووجهه فى ط .

وكما مَلَّكَ اللهُ طالوتَ على بنى إسرائيل وفيهم يومئذٍ داودُ النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو نبيُّهم الذى أخبر عنه[١] فى القرآن : ﴿ وقال لهم نبيُّهم إنَّ اللهَ قد بعَثَ لكُمْ طالوتَ مَلِكاً[٢] ﴾.

ثم صنيعُ النبى صلى الله عليه وسلم حين وَلَّى زيد بن حارثةَ على جعفرٍ الطيَّارِ يوم مُؤْتة ، وولَّى أُسامة على كُبَراءِ المهاجرين وفيهم أَبو بكرٍ وعُمر ، وسَعِيدُ بنُ زيد بن عمْرٍو بن نُفَيل[٣] ، وسعدُ بنُ أَبى وَقَّاص ، ورجالٌ ذَوُو أَخطارٍ[٤] وأَقدار ، من البَدريِّينَ والمهاجِرِينَ ، والسَّابقين الأَوَّلين .

٤ — فصل منه

ولو تُرِكَ النَّاسُ وقُوى عقولِهم وجِماحَ طبائعهم ، وغلبَة شهواتهم ، وكثرةَ جَهلهم ، وشدَّةَ نِزَاعهم إلى مايُردِيهم ويُطغيهم ، حتَّى يكونوا هُمُ الذين يحتجرون[٥] من كلِّ ما أَفسدَهُمْ بقدر قواهم ، وحتَّى يقفوا على حَدِّ الضَّارِّ والنَّافع ، ويعرفوا فصْلَ[٦] مابين الدَّاءِ والدواءِ ، والأَغذيةِ والسُّموم ، كان قد كلَّفهم شَطَطَا ، وأَسلَمهم إلى عدوِّهم ، وشَغَلهم عن

---

(١) ب ، م : « عنهم » ، صوابه فى ط .

(٢) الآية ٢٤٧ من البقرة .

(٣) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى العدوى ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو زوج أخت عمر بن الخطاب ، أسلم عمر فى بيته . انظر الإصابة ٣٢٥٤ وجمهرة ابن حزم ١٥١ وفى الأصول : « سعد بن عمرو بن نفيل » . وليس فى الصحابة من يدعى بهذا الاسم . وانظر العثمانية ١٤٦ وكذلك ٦٥ ، ١٧٥ ، ٢٤٨ .

(٤) ط : « وذوو أخطار » فقط ، بإسقاط : « ورجال » .

(٥) الاحتجار : الامتناع . والحجر : المنع .

(٦) الفصل : الفرق . وفى جميع الأصول : « فضل » بالمعجمة . وفى ب : « ويعرف » ، وهذه محرفة .

طاعته التى هى أجدى الأمورِ عليهم[١] وأنفعُها لهم ، ومن أجلها عَدَّلَ التركيبَ وسَوَّى البِنْية ، وأخرجهم من حَدِّ الطُّفولة والجَهلِ إلى البُلوغ والاعتدال والصحَّة ، وتمامِ الأداةِ والآلة . ولذلك قال عزَّ ذكره : ﴿ ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا ليَعْبدونِ[٢] ﴾ .

ولو أنَّ النَّاسَ تركهم الله تعالى والتَّجربةَ ، وخَلَّاهم وسَبْر الأُمور[٣] وامتحانَ السُّموم ، واختبارَ الأغذية[٤] ، وهم على ماذَكَرْنا من ضعف الحيلة[٥] وقلَّةِ المعرفة[٦] وغَلَبةِ الشَّهوة، وتسلُّط الطبيعة[٧] ، مع كثرة الحاجةِ، والجهل بالعاقبة، لأثَّرت عليهم السُّموم[٨] ، ولأفناهم الخطأُ[٩] ولأَجْهَزَ عليهم[١٠] ، الخَبْط ، ولتوَلَّدت الأدواءُ وترادفت الأسقام ، حتى تصِير مَنايَا قاتلة ، وحُتوفاً مُتْلفة ، إذْ لم يكن عندهم إلَّا أخذُها، والجهلُ بحُدودها[١١] ومنتهى ما يجوز منها والزِّيادةِ فيها ، وقلَّةُ الاحتراس من توليدها .

فلمَّا كان ذلك كذلك علمْنا أنَّ الله تعالى حيثُ خلق العالَمَ وسُكَّانه لم يَخلقْهم إلَّا لصلاحهم ، ولا يجوز صَلاحُهم إلَّا بتبقيتهم[١٢]

---

(١) الأجدى : الأنفع . ب ، م : « احدى » بالحاء المهملة ، تحريف مافى ط .

(٢) الآية ٥٦ من الذاريات .

(٣) السبر ، بالباء : الاختيار والامتحان . وفى الأصول : « وسير الأمور » تحريف .

(٤) ب فقط : « واختيار الأغذية » .

(٥) ب ، م : « فى ضعف الحيلة » .

(٦) ب : « وقوة المعرفة » ، صوابه فى م ، ط .

(٧) فى الأصول : « وتسليط الطبيعة »

(٨) ب ، م : « لأثر عليهم السموم » .

(٩) ط : « الخطر » .

(١٠) أجهز عليهم إجهازاً : قضى عليهم . وفى ب : « ولأجهر عليهم » بالراءالمهملة ، تحريف مافى م ، ط .

(١١) ب ، م : « لحدوبها » ط : « بحدوثها » ، والوجه ما أثبت .

(١٢) ب فقط : « بتبقيهم » .

ولولا الأَمرُ والنَّهيُ ما كان للتبْقيَةِ[١] وتعديل الفِطرة معنًى .

ولما أَنْ كان لا بُدَّ للعبادِ من أَن يكونوا مأْمورين منهيِّين ، بين عدوٍّ عاصٍ[٢] ومطيع ولِيّ ، عِلْمنا أَنَّ النَّاس لا يستطيعون مُدافعةَ طبائعهم ، ومخالفةَ أَهوائهم ، إِلَّا بالزَّجر الشديد ، والتوعُّدِ بالعقاب الأَلِيمِ فى الآجِل ، بعد التنكيل فى العاجل ، إِذْ كان لا بدَّ من أَن يكونوا[٣] منهيِّين[٤] بالتنكيل معجَّلاً ، والجزاءِ الأَكبر مؤجَّلا ، وكان شأْنهم إِيثارَ الأَدنى وتسويفَ الأَقصَى .

وإِذا كانت[٥] عقولُ الناس لا تبلغ جميعَ مصالحهم فى دُنْياهم فهم عن مصالح دينهم أَعجَز ، إِذْ كان عِلم الدين مُستنبطاً من عِلم الدُّنيا .

وإِذا كان العلمُ مباشرةً أَو سبباً للمباشرة[٦] وعلمُ الدنيا غامضٌ ، فلا يُتَخلَّص[٧] إِلى معرفته إِلَّا بالطبيعة الفائقة ، والعناية الشَّديدة ، مع تلقين الأَئمَّة . ولأَنَّ الناس لو كانوا يبلغون بأَنفسهم غايةَ مصالحهم فى دينهم ودُنْياهم كان إِرسالُ الرُّسلِ قليلَ النَّفْع ، يسيرَ الفَضْل .

وإِذا كان الناس مع منفعتهم بالعاجل وحُبِّهم للبقاء ، ورغبتهم فى النَّماءِ ، وحاجتهم إِلى الكفاية ، ومعرفتهم بما فيها[٨] من السَّلامة لا يبلغون لأَنفسهم معرفةَ ذلك وإِصلاحَه ، وعلْمُ ذلك جليلٌ ظاهرٌ سببُه

---

(١) ب فقط : « للتبعية » .
(٢) ب ، م : « عدو وعاص » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٣) فى جميع الأصول : « من أن يكون » .
(٤) ب ، م : « منهيين بالعمل » ، صوابه فى ط .
(٥) ب فقط : « وإذ كانت » .
(٦) ب ، م : « بالمباشرة » .
(٧) ب ، م : « لايتخلص » بسقوط الفاء .
(٨) ب ، م : « بما فيه » .

بعضُه ببعض، كدَرْك الحواسِّ وملاقته(١)، فهم عن التعديل والتجوير(٢) وتفصيل التَّأْويل(٣)، والكلام فى مجىء الأَخبار وأُصولِ الأَديان، أَعْجَزُ، وأَجْدَرُ(٤) أَلَّا يبلغوا منه الغاية، ولا يدركوا منه الحاجة(٥)؛ لأَنَّ علم الدنيا أَمران: إمَّاشىءٌ يلى الحواسَّ، وإمَّا شىءٌ يلى عِلمَ الحواسِّ، وليس كذلك الدِّين.

فلمَّا كان ذلك كذلك علمْنا أَنَّه لا بدَّ للنَّاسِ من إمامٍ يعرِّفهم جميعَ مصالحهم.

ووجدنا الأَئمة ثلاثة(٦): رسول، ونبىٌّ، وإمام.

فالرَّسول نبىٌّ إمام، والنبىُّ نبىٌّ إمام، والإمامُ ليس برسولٍ ولا نبىّ.

وإنَّما اختلفت أَسماؤُهم ومراتبهم لاختلاف النواميس(٧) والطَّبائِع، وعلى قَدْر ارتفاعِ بعضهم عن درجةِ بعض، فى العَزْم والتَّركيب، وتغيُّر الزَّمانِ بتغيُّر الفَرْض(٨) وتبدُّل الشريعة.

فأَفضَلُ النَّاس الرَّسولُ، ثم النبىُّ، ثم الإمام.

فالرَّسول هو الذى يشرِّع الشَّريعةَ ويبتدئ المِلَّة، ويُقيم النَّاسَ على جُمَلِ مَرَاشدهم، إذْ كانت طبائعهُم لا تحتمل فى ابتداءِ الأَمر

(١) ب، م: «لاقتها».
(٢) فى جميع الأصول: «والتحرير» صوابه ما أثبت. وانظر ما سبق فى ص ٣٣، ٤٠.
(٣) ب، م: «وبفضل» ط: «وتفضل»، والوجه ما أثبت.
(٤) ب، م: «واحذر» صوابه فى ط.
(٥) ب، م: «ولا كوا منه الحاجة» صواب هذه ما أثبت. وفى ط: «ولاكنه الحاجة». والكنه: الحقيقة.
(٦) ب فقط: «ثلاث»، تحريف.
(٧) ب: «النوعان» م: «التومان»، وأثبت ما فى ط.
(٨) ط: «الغرض».

أَكثَرَ من الجُمَل . ولولا أنَّ فى طاقة الناس قَبولَ التَّلقين وفهمَ الإرشاد ، لكانوا هملًا ، وَلَتُرِكوا نَشَرًا جَشَراً[1] . ولسقَطَ عنهم الأمرُ والنَّهى . ولكنَّهم قد يفضِّلون بينَ الأُمورِ إذا أُوردت عليهم ، وكُفُوا مَئونة التَّجربة ، وعِلاجَ الاستنباط . ولن يبلغُوا بذلك القَدْرِ قدرَ المستغنِى بنفسه ، المستبدِّ برأيه ، المكتفِى بفطنتهِ عن إرشـاد الرُّسُل ، وتلقين الأَئمَّة .

وإنَّما جاز أَن يكون الرَّسولُ مرَّةً عربيًّا ومرَّةً عجميًّا ، وليس له بيتٌ يُخْطِره[2] ولا شرفٌ يَشْهَرُ موضِعَه ؛ لأَنَّه حين كان مبتدىءَ المِلَّة ومُخرِجَ الشَّريعة ، كان ذلك أَشهرَ من شرَف الحَسب المذكور ، وأَنْبَهَ من البيت المقدَّم . ولأَنَّه يحتاج من الأَعلام والآيات والأَعاجيب ، إلى القاهر المعقول[3] والواضح الذى لا يُخِيلُ أَن يَشتهر[4] مثلُه فى الآفاق ، ويستفيض فى الأَطراف[5] حتَّى يصدعَ عقل الغبىّ ، ويفتُقَ طبعَ العاقل[6] ، وينقضَ عَزْمَ المعـاند[7] ، ويَنْتبِهَ مَنْ أَطالَ الرقـدة[8] وتَخضع الرِّقاب[9] وتضرع الخُدود[10] حتَّى يتواضع له كلُّ شرف ، ويَبْخَعَ

---

(١) ب : «نشراً وحشراً» ط : « نشرا حشرا » م : « نشرا أو حشرا » ، والوجه ماأثبت . والجشر ، بفتح الجيم وأو بفتحها مع فتح الشين ، يقال بنوفلان جشر إذا كانوا يبيتون مكانهم لايأوون بيوتهم ولا يرجعون إلى أهليهم .

(٢) أخطره إخطاراً : جعله ذاخطر وقدر . وفى م ، ط : « يحظره » ، تحريف ماأثبت من ب .

(٣) ب : « القاهر للعقول » .

(٤) ب ، م : « الذى يشتهر » .

(٥) فى الأطراف ، ساقطة من م .

(٦) ط : « ويضىء طبع العاقل » ب ، م : « ويفيق طبع العاقل » ، والوجه ما أثبت .

(٧) ط : « المعاند الآصل ».

(٨) ب ، م : « من طول الرقدة » .

(٩) ب ، م : « ويخضع الرقاب » .

(١٠) ب ، م : « ويضرع ». وفى جميع الأصول : « الحدود » صوابه بالخاء المعجمة .

له كلُّ أنف[1] ، فلا يحتاج حالهُ معه إلى حالٍ، ولا مع قَدْرِه إلى حَسَب .

وعلى قَدْرِ جهلِ الأُمَّة وغَباءِ عقولها، وسوءُ رِعَتها[2]، وخُبث عادتها ، وغِلَظ مِحنتها، وشدَّة حيرتها ، تكون الآياتُ. كَفَلْقِ البحر ، والمَشْيِ على الماءِ ، وإحياءِ الموتى ، وقَصْر الشَّمس عن مجراها[3] . لأَنَّ النبيَّ الذى ليس برسولٍ ولا مبتدئٍ مِلَّةٍ، ولا منشئٍ شريعة، إنَّما هو للتأْكيد والبِشارة، كبِشارة النبيِّ بالرسول الكائن على غابر الأَيَّام[4]، وطُولِ الدهر .

وتوكيد المبشِّر يحتاج من الأَعلام إلى دونِ ما يحتاج إليه المبتدئُ لأَصل المِلَّة ، والمُظْهِرُ لفَرْض الشريعة[5] ، الناقلُ للنَّاس عَنِ الضَّلالِ القديمِ ، والعادةِ السَّيِّئةِ ، والجهلِ الراسخ . فلذلك الْتَقَى بشُهرة أَعلامه ، وشرف آياته[6] ، وذكر شرائعه ، مِن شهرة بَيْتِهِ وشَرَفِ حسبه ، لأَنَّه لا ذِكرَ إلَّا وهو خاملٌ عند ذِكره . ولا شَرَفَ إلَّا وهو وضيعٌ عند شرفه.

* * *

انتهاءُ الفصول التى اختارها عُبيدَ الله بن حسان من كتب أَبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . رحمه الله تعـــالى . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة المبارك الثَّامن عشر من شهر صَفَرٍ الخير ، من شهور سنة أَربع وتسعين ومائتين بعد الأَلف من الهجرة النبويَّة ، على صاحبها أَفضلُ الصَّلاة وأَتمُّ التحية ، على يد كاتبها الفقير عبد الله المنصوريّ ، اللهمَّ اغفِرْ له ولوالديه آمينَ ، آمينَ ، آمين .

---

(١) يبخع : يذل ويطيع . ب ، م : « ويبخل » وجهه ما أثبت . وفى ط : « ويرغم » .

(٢) الرعة ، كعدة : الورع والتحرج . و « سوء رعتها » ساقط من ط .

(٣) إشارة إلى قصة يوشع أو يشوع عليه السلام ؛ وهو يحارب أعداءه حيث « وقفت الشمس فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل » . سفر يشوع ١٠ : ١٢ – ١٣

(٤) الغابر من الأضداد ، يقال للماضى من الزمان وللباقى .

(٥) ب : « وشرف حسبه آياته » وكلمة « حسبه » مقحمة هنا . وما بعد كلمة .

(٦) هذا هو ختام نسخة المتحف البريطانى .

وإليك نص ختام النسخة التيمورية :

انتهاء الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله .

وكان الفراغ من نسخ هـذه النسخة فى يوم الجمعة المبارك الموافق لثلاث خلت من شهر ذى القعدة سنة ١٣١٥ خمسة عشر (كذا) وثلاثمائة بعد الألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد تم نسخها بيد العبد الحقير ، المعترف بالعجز والتقصير ، عبد أهل السنة والجماعة ، الخاضع لله بالدعاء والطاعة ، الراجي لطف ربه الغنى محمد بن عبد الله بن إبراهيم الزمرانى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين بمنه وكرمه . والصلاة والسلام على خير خلقه ، والحمد لله وحده .

تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه . آمين .

وقد نقلت هـذه النسخة المباركة من نسخة تاريخها فى أوائل شهر رجب لأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة كاتبها أبي القاسم (كذا) عبيد الله بن على رحمه الله .

* * *

وهذا نص ختام المطبوعة على هامش الكامل :

انتهت الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

* * *

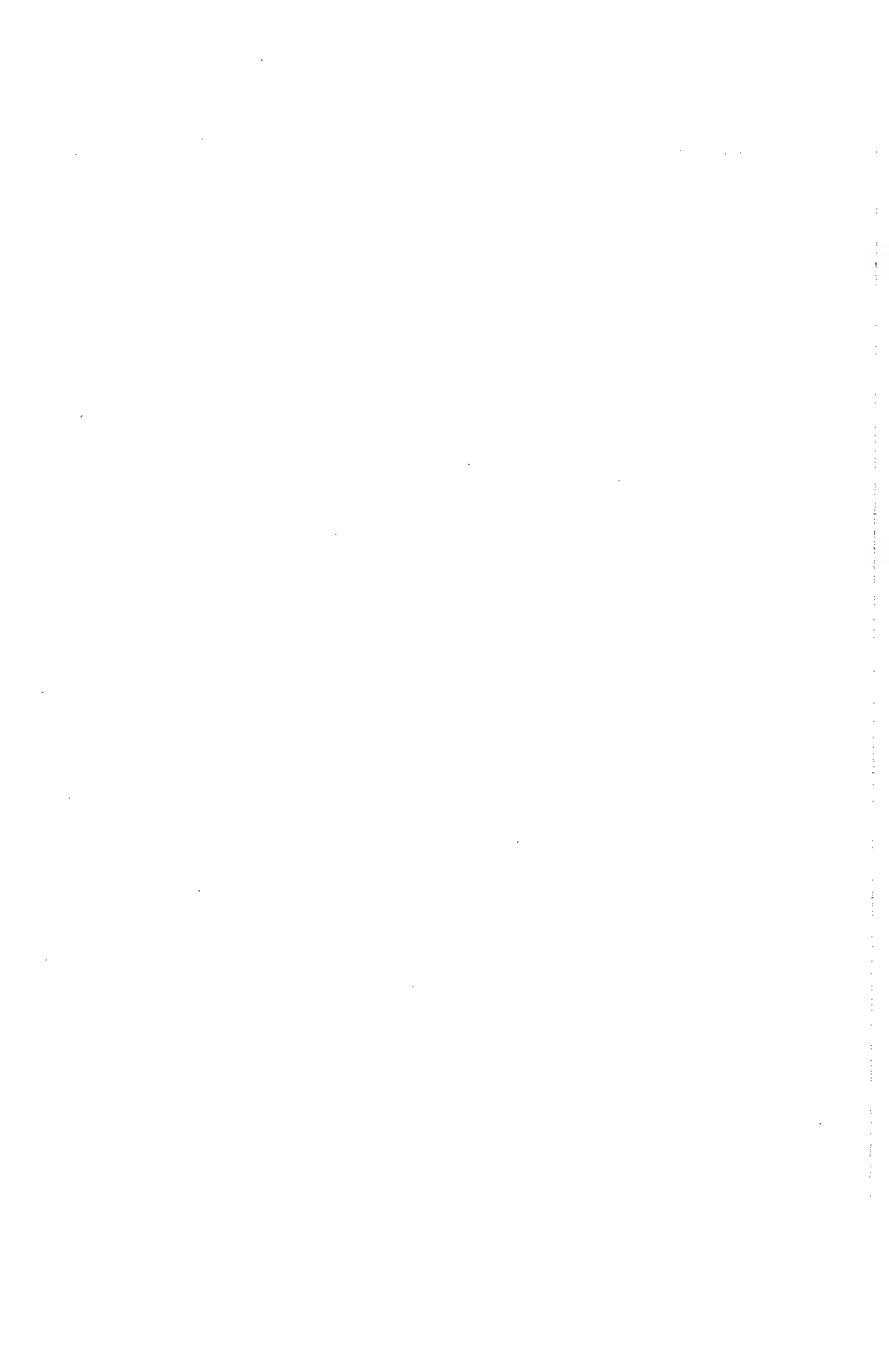
أتممت تحقيق هذه النسخة وتحريرها صبيحة الجمعة فى السادس من رجب سنة ١٣٩٩ .

ولله الحمد على ما أنعم ، وهو ولى التوفيق .

عبد السلام محمد هارون

الفهارس الفنية

للقسمين : الأول والثانى
من الفصول المختارة



الفهرس الأول

١ — فهرس القرآن الكريم

الفهرس الثانى

٢ – فهرس الحديث

الفهرس الثالث

٣ - فهرس النصوص المأثورة

أقوال غير منسوبة

الفهرس الرابع

٤ — فهرس الأمثال

الفهرس الخامس

٥ — فهرس الأشعار

الفهرس السادس

٦ — فهرس اللغة[1]

أ

(*) ما وضع من الأرقام بين قوسين فهو من تفسير الجاحظ ، وما وضع من الألفاظ بين قوسين فهو مما لم يرد فى المعاجم المتداولة .

ج

خ

د

ف

ك

ن

كلمات غير عربية

الفهرس السابع

٧ — فهرس مسائل العربية

الفهرس الثامن

٨ — فهرس الأعلام (*)

أ

(*) ما وضع من الأرقام بين قوسين فهو موضع الترجمة .

ب

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

....

ع

م

ن

هـ

و

ى

الفهرس التاسع

٩ — فهرس القبائل والطوائف ونحوها

أ



ب

ت

ث

ف

ق

ك

الفهرس العاشر

١٠ — فهرس البلدان والمواضع ونحوها

أ

ب

الفهرس الحادى عشر

١١ — فهرس الكتب (*)

(*) ما قرن بنجم فهو من تأليف الجاحظ .

الفهرس الثانى عشر

١٢ — فهرس الفهارس

مراجع الشرح والتحقيق

الآثار الباقية ، للبيروني . ليبسك ١٨٧٨ م
إتحاف فضلاء البشر ، للدمياطي . حنفي ١٣٥٩ .
الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل . المشهدالحسيني ١٣٨٧
أدب الكاتب ، لابن قتيبة ، تحقيق محمد محيي الدين . السعادة ١٣٨٢
أدب الكتاب ، للصولي ، تحقيق محمد بهجة الأثري . السلفية ١٣٤١
أزهار الأفكار ، للتيفاشي ، تحقيق محمد حسن يوسف . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧ م .
أساس البلاغة ، للزمخشري . دار الكتب المصرية ١٣٤١
الاشتقاق ، لابن دريد ، تحقيق عبد السلام هارون . السنة ١٣٧٨ .
الإصابة ، لابن حجر . السعادة ١٣٢٣ .
إصلاح المنطق ، لابن السكيت ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٩٧٠ م
الأصمعيات ، شرح وتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٩٦٧ م
الأغاني ، لأبي الفرج الأصبهاني . التقدم ١٣٢٣
الألف المختارة من صحيح البخاري ، لعبد السلام هارون . المعارف ١٩٦٥ م
الألفاظ الفارسية المعربة ، لأدي شير . بيروت ١٩٠٨ م
أمالي الزجاجي ، تحقيق عبد السلام هارون . المدني ١٣٨٢
أمالي القالي . دار الكتب ١٣٤٤
أمالي المرتضى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . عيسى الحلبي ١٣٧٣
الأمثال ، للضبي . الجوائب ١٣٠٠
إنجيل مرقس ، من العهد الجديد .
إنجيل يوحنا ، من العهد الجديد .
الأنساب ، للسمعاني . ليدن ١٩١٢ م .
البرهان ، ، للزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل . عيسى الحلبي ١٣٧٧
البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . الخانجي ١٣٨٨
تاريخ ابن الأثير = الكامل
تاريخ الإسلام ، للذهبي . القدسي ١٣٦٧
تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي . الساعدة ١٣٤٩
تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل . دار المعارف ١٩٦٩ م
تأويل مختلف الحديث ، لابن قتيبة . كردستان ١٣٢٦ م
تحقيق النصوص ونشرها . تأليف عبد السلام هارون . الخانجي ١٣٩٧
تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب . تأليف عبد السلام هارون . الهيئة المصرية العامة ١٣٩٩
تذكرة أولي الألباب ، لداود الأنطاكي . الشرفية ١٣١٧
تقريب التهذيب ، لابن حجر . لكنو بالهند ١٣٢٠
التمثيل والمحاضرة ، للثعالبي . تحقيق عبد الفتاح الحلو . عيسى الحلبي ١٣٨١
التنبيه والإشراف ، للمسعودي . الصاوي ١٣٥٧

تهذيب التهذيب ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٢٧
ثلاث رسائل للجاحظ ، تحقيق فان فلوتن . ليدن ١٩٠٣ م
ثمار القلوب ، للثعالبي . الظاهر ١٣٢٦ .
الجامع الصغير ، للسيوطي . حجازى ١٣٥٢ .
جمع الجواهر ، للحصرى ، تحقيق محمد على البجاوى . عيسى الحلبى ١٣٧٢ .
جمهرة الأمثال ، للعسكرى ، تحقيق محمد أبو الفضل وقطامش . المؤسسة العربية ١٣٨٤
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ، تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف ١٣٩١
جمهرة اللغة ، لابن دريد . حيدر أباد ١٣٥١
جنى الجنتين ، للمحبى . الترقى بدمشق ١٣٤٨
جوامع السيرة ، لابن حزم ، تحقيق إحسان عباس ، وناصر الأسد . المعارف ١٩٥٦ م
حاشية الصبان على الأشمونى . عيسى الحلبى ١٣٦٦
الحماسة البصرية ، لعلى بن أبي الفرج البصرى . تحقيق مختار الدين أحمد ، حيدر أباد ١٣٨٣
حياة الحيوان ، للدميرى . صبيح بالقاهرة .
الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . الحلبى ١٣٨٩
خزانة الأدب ، للبغدادى . بولاق ١٢٩٩
دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) . الاعتماد من سنة ١٣٥٢
الدرة الفاخرة ، لحمزة بن الحسن الأصفهانى ، تحقيق عبد المجيد قطامش . المعارف ١٩٦٦ م
دلائل الإعجاز ، للجرجانى . المنار ١٣٣١
الديارات ، للشابشتى ، تحقيق كوركيس عواد . بغداد ١٣٧٣
ديوان أمية بن أبي الصلت . بيروت ١٣٥٢
» البحترى . هندية ١٣٢٩
» جران العود . دار الكتب ١٣٥٠
» جرير ، الصاوى ١٣٥٣
» الحطيئة . التقدم . ١٣٢٣
» الحماسة ، لابن الشجرى . حيدر أباد ١٣٤٥
» زهير بن أبي سلمى . دار الكتب ١٣٦٣
» الفرزدق . الصاوى ١٣٥٤
» كعب بن زهير . دار الكتب ١٣٦٨
» المعانى ، للعسكرى . القدسى ١٣٥٢
» أبي نواس . العمومية ١٨٩٨ م
رسالة بولس إلى أهل رومية (من أسفار العهد الجديد)
رسائل الجاحظ ، لحسن السندوبى . التجارية ١٣٥٢
زهر الآداب ، للحصرى ، تحقيق على البجاوى . الحلبى ١٩٥٣ م
سفر أرمياء ، إشعياء ، التثنية ، التكوين ، الخروج ، صموئيل الثانى ، العدد ، اللاويين ، هوشع (من أسفار العهد القديم) ..
سمط اللآلى ، للبكرى ، تحقيق عبد العزيز الميمنى . لجنة التأليف ١٣٥٤
السنن الكبرى ، للبيهقى . حيدر أباد ١٣٥٥

السيرة ، لابن هشام . جوتنجن ١٨٥٩ م
شرح ديوان الحماسة ، للتبريزي ، تحقيق محمد محيي الدين . حجازى ١٣٥٨
شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقى ، تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٢
شرح شواهد شروح الألفية ، للعينى (بهامش خزانة الأدب)
شرح صحيح البخارى ، للقسطلانى . بولاق ١٣٠٥
شرح المعلقات للتبريزى ، تحقيق محمد محيي الدين . المدنى ١٣٨٢
شرح المعلقات للزوزنى . السعادة ١٣٤٠
شروح سقط الزند ، تأليف لجنة أبي العلاء . دار الكتب ١٣٦٨
الشعراء لابن قتيبة ، تحقيق أحمد شاكر . المعارف ١٩٦٦
الصاحبى ، لابن فارس ، تحقيق محب الدين الخطيب . المؤيد ١٣٢٨
صحيح البخارى . بولاق ١٣١٣
صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباق . الحلبى ١٣٧٥
صفة الصفوة ، لابن الجوزى . حيدر أباد ١٣٥٦
طبقات القراء ، لابن الجزرى ، بعناية برجستراسر . الخانجى ١٣٥٢
العثمانية ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . دار الكتاب العربى ١٣٧٤
عجائب المخلوقات ، للقزوينى . المعاهد بالقاهرة .
العقد الفريد ، لابن عبد ربه . لجنة التأليف ١٣٧٠
عيون الأخبار ، لابن قتيبة . دار الكتب ١٩٤٣
الفاخر ، للمفضل بن سلمة ، تحقيق عبد العليم الطحاوى . عيسى الحلبى ١٣٨٠
فتح البارى ، شرح صحيح البخارى ، لابن حجر . بولاق ١٣٠١
الفرق بين الفرق ، للبغدادى . المعارف ١٣٢٨
فرق الشيعة ، النوبختى . الدولة بالقسطنطينية ١٩٣١ م
الفصل فى الملل والنحل ، للشهرستانى . الأدبية ١٣١٧
الفهرست ، لابن النديم . الرحمانية بالقاهرة ١٣٤٨
فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبى ، تحقيق محمد محيى الدين . السعادة ١٩٥١ م
قاموس الأعلام ، للزركلى . العربية ١٣٤٥
القاموس المحيط ، للفيروزبادى . الحسينية ١٣٣٢
قلائد العقيان ، للفتح بن خاقان . بولاق ١٢٨٣
الكامل ، لابن الأثير . دار صادر ودار بيروت ١٣٨٧
الكامل ، للمبرد ، تحقيق وليم رايت . ليبسك وكبردج ١٨٩٢ م .
كتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٧
الكنايات ، للجرجانى . السعادة ١٣٢٦ .
لسان العرب ، لابن منظور . بولاق ١٣٠٧
لسان الميزان ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٣٠
المبانى ، لمجهول ، تحقيق آرثر جفرى . الخانجى ١٣٩٢
مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون . المعارف ١٣٦٩

مجمع الأمثال ، للميدانى . البهية ١٣٤٢
مجموعة رسائل ، للجاحظ ، نشرة الساسى : التقدم ١٣٢٤
محاضرات الأدباء ، للراغب الأصفهانى . الشرفية ١٣٢٦
المحبر ، لابن حبيب ، تحقيق إيلزة ليختن . حيدر آباد ١٣٦١
المخصص ، لابن سيده . بولاق ١٣١٨
مروج الذهب ، للمسعودى . السعادة ١٣٦٧
المزامير (من أسفار العهد القديم)
المزهر ، للسيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل وعلى البجاوى . عيسى الحلبى ١٣٦١
المستقصى فى الأمثال ، للزمخشرى . بيروت ١٩٧٧ م
مسند أحمد بن حنبل ، تحقيق أحمد محمد شاكر . دار المعارف ١٣٧٥
المعارف ، لابن قتيبة . الاسلامية ١٣٥٣
معاهد التنصيص ، للعباسى . البهية ١٣١٦
المعتمد فى الأدوية المفردة ، لابن رسولا الغسانى . الميمنية ١٣٢٧
معجم الأدباء ، لياقوت . دار المأمون ١٣٢٣
معجم البلدان ، لياقوت . السعادة ١٣٢٣
معجم الحيوان ، للمعلوف . المقتطف ١٩٣٢ م
معجم الشعراء ، للمرزبانى . القدسى ١٣٥٤
معجم العلوم الطبية والطبيعية ، لمحمد شرف . الأميرية ١٩٢٩ م
المعجم الفارسى الإنجليزى ، لاستينجاس . لندن ١٩٣٠ م
المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية . دار المعارف ١٣٩٣
المعمرين ، للسجستانى ، السعادة ١٣٢٣
مغنى اللبيب ، لابن هشام ، تحقيق محمد محيى الدين . صبيح ١٣٧٨
مفاتيح العلوم ، للخوارزمى. محمد منير ١٣٤٢
المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٣٨٣
المبانى = مقدمتان فى علوم القرآن .
مقدمتان فى علوم القرآن ، تحقيق آرثر جفرى . الخانجى ١٣٩٢
الملل والنحل ، للشهرستانى . الأدبية ١٣١٧
المواقف ، للعضد . العلوم ١٣٥٧
النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى . دار الكتب ١٣٤٨
نخب الذخائر ، لابن الأكفانى ، تحقيق الأب أنستاس مارى . العصرية ١٩٢٩م
النزهة المبهجة ، لداود الأنطاكى ، بهامش التذكرة
النقائض بين جرير والفرزدق ، تحقيق بيفان . ليدن ١٩٠٥م
نكت الهميان ، للصفدى . القاهرة ١٩١٠
نهاية الأرب ، للنويرى . دار الكتب ١٣٤٢
همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، للسيوطى . السعادة ١٣٢٧
الهوامل والشوامل ، تحقيق السيد صقر . التأليف ١٣٧٠
وفيات الأعيان ، لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠
يتيمة الدهر ، للثعالبى . دمشق ١٣٠٣

استدراك وتذييل

القسم الأول

ص	س	
٦٦	١٣	ينقل رقم (٧) المشير للحاشية إلى نهاية البيت .
١٠١	١٤ح	يضاف إلى نهاية الحاشية (ص ٩٥) .
١٩٢	٦	يلغى رقم (٥) من هذا السطر ويوضع موضع (٦) فى س ٨ وتسلسل الأرقام بعد ذلك ليكون آخرها رقم (٧) . وكذلك تعدل أرقام الجواشى بعد حذف رقم (٤) وتسلسل الأرقام طبقاً لما فى الصلب

القسم الثانى

ص	س	
٣٠٥	٧	ينقل رقم (٣) ليوضع فوق كلمة « يز » فى نفس السطر .



صواب أخطاء الطبع

القسم الأول

٧ ١٧ ح يعقدون الخرز
٣٢ ٣ يعلِّمهم الكتابَ
٣٦ ٨ ح والتعيير هنا
٦٩ ١ لنعُدَّ خصالاً
٩٩ ٥ ولقيس بن زُهير
١٠٠ ١٢ والتمييل بين
١٠٧ ٧ اعجبْ
١٢٥ ٩ والهذِّ
١٢٦ ٧ وأَجترَ
١٨١ ٣ ح قحطبة
١٨٢ ١ ح أبو عيينة
٢٠٥ ٣ ح ما مضى فى ص ١٩٩
٢٤٥ ١٣ ح وانظر لغاتها
٣٠٠ ٢ والجبْريّة
٣٠٤ ١ عيسى بن مريم
٣٠٥ ١١ لم نجعل
٣٣٠ ٦ ح وأثبت ملكته
٣٣٤ ٢ و (يد الله مغلولة)
٣٤٣ ٩ الإباء
٣٤٧ ٢ كلَّ يهوديٌّ

القسم الثانى

٧ ٥ ح بالراء المهملة
٢٠ ٢ خبّاباً وزيدًا
٣٨ ٣ ذلك المستنبَطِ
١١٠ ١٢ أَقنعَ
١١٨ ١٠ ح ب : «والباد»
١٢٠ ٤ إتاوةً قطُّ
١٣٠ ١٤ وسوءُ الاستمراء
١٥٥ ٤ ومَضَلَّاتِ المُنَى
١٨٤ ٤ عُيَينة بنُ حِصن
٢١٤ ٦ وأُسِرَ طُلَيحة
٢٦٣ ٥ ح بعوض صفار
٣٠١ ١٣ ويُداريه
٣١٩ ٣ ح الاختبار والامتحان

فهرس الكتب والرسائل



رقم الإيداع ٤٩٨٤/١٩٧٩

المطبعـة العربيـة الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

القـــاهرة — تليفـــون : ٨٢٦٢٨٠